

مَجْمَعُ فَنَائِي

شيخ الإسلام أحمد بن نعيمه

طيب الله ثراه

جمع وترتيب الفقير إلى الله

بهر الدين بن محمد بن قاسم بن علي بن أبي شيبه

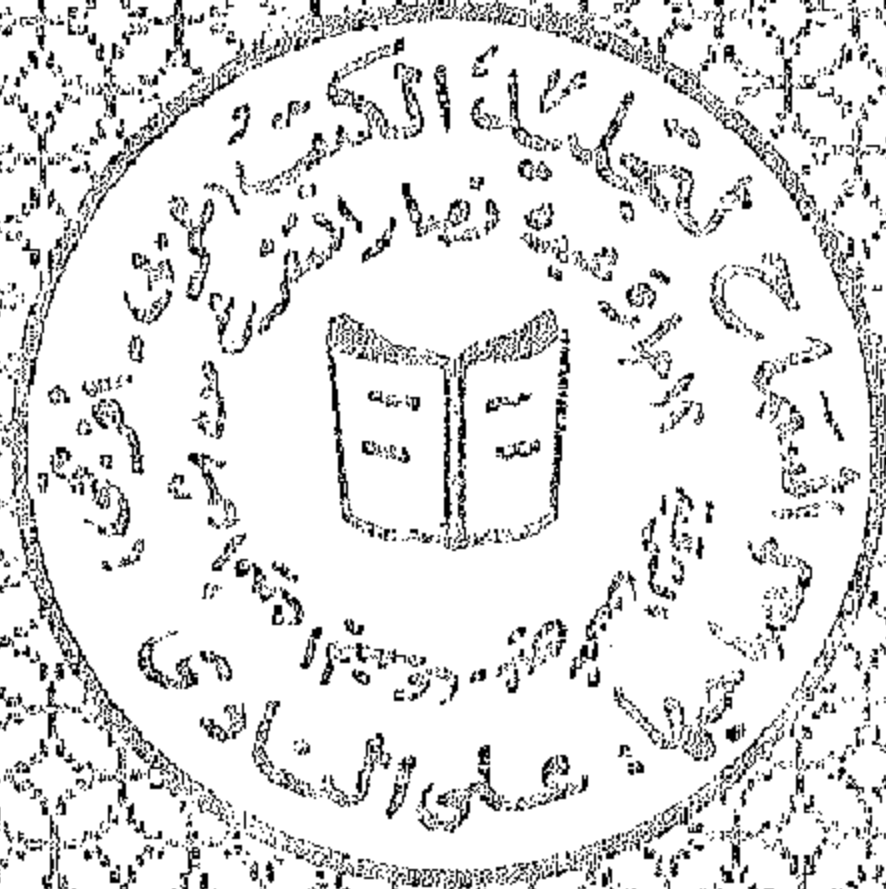
رحم الله همه

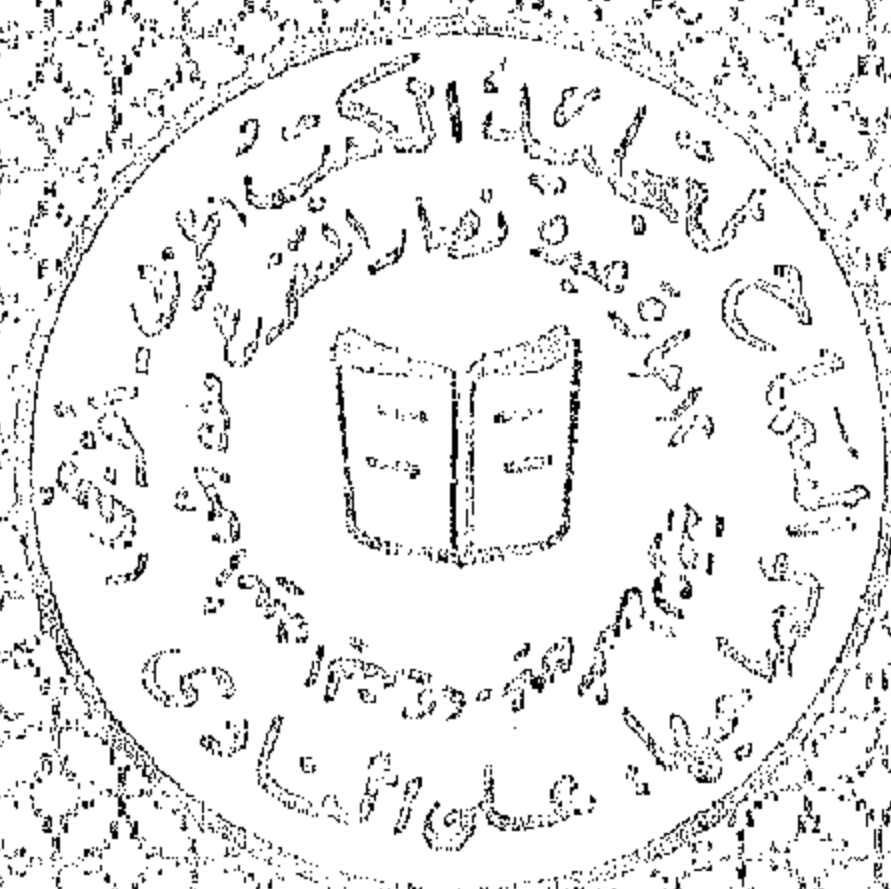
وساعده ابنه محمد وفقه الله

المجلد الخامس

مَجْمَعُ فَنَائِي







مجموع فتاوى
شيخ الاسلام احمد بن تيمية

قدس الله روحه

جمع وترتيب الفقير إلى الله

عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي

Biblioteca Orientale

وساعده ابنه محمد وفقرهما الله

المجلد الثاني عشر

کتاب
القرآن
کلام اللہ حقیقتہ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

قال السببخ الامام ابو العباس

احمد بن تيمية رضى الله عنه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور
أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي
له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً
عبده ورسوله : أرسله بالهدى ودين الحق (ليظهره على الدين كله
وكفى بالله شهيداً) صلى الله عليه وسلم تسليماً .

قاعدة في القرآن وكلام الله

فان الأمة اضطربت في هذا اضطراباً عظيماً ، وتفرقوا واختلفوا بالظنون والأهواء بعد مضي القرون الثلاثة ، لما حدثت فيهم الجهمية المشتقة من الصابئة ، وقد قال الله تعالى : (وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) ، وقال تعالى : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم اليينات بغياً بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه)

والاختلاف « نوعان » : اختلاف في تنزيهه واختلاف في تأويله .

والمختلفون الذين ذمهم الله هم المختلفون في الحق ، بأن ينكر هؤلاء الحق الذي مع هؤلاء ، أو بالعكس . فان الواجب الايمان بجميع الحق المنزل . فاما من آمن بذلك وكفر به غيره فهذا اختلاف يندم فيه أحد الصنفين . كما قال تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) إلى قوله :

(ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) والاختلاف في تنزيهه أعظم ، وهو الذي قصدنا هنا ، فنقول :

« الاختلاف في تنزيهه » هو بين المؤمنين والكافرين ، فان المؤمنين يؤمنون بما أنزل . والكافرون كفروا بالكتاب وبما ارسل الله به رساله فسوف يعلمون . فالمؤمنون بجنس الكتاب والرسل من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين يؤمنون بذلك ، والكافرون بجنس الكتاب والرسل من المشركين والمجوس والصابئين يكفرون بذلك .

وذلك ان الله ارسل الرسل إلى الناس لتبلغهم كلام الله الذي أنزله إليهم ، فمن آمن بالرسل آمن بما بلغوه عن الله ، ومن كذب بالرسل كذب بذلك . فالإيمان بكلام الله داخل في الإيمان برسالة الله إلى عباده ، والكفر بذلك هو الكفر بهذا ، فتدبر هذا الأصل ، فانه فرقان هذا الاشتباه ؛ ولهذا كان من يكفر بالرسل : تارة يكفر بأن الله له كلام أنزله على بشر - كما أنه قد يكفر برب العالمين : مثل فرعون وقومه ، قال الله تعالى : (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ان انذر الناس) الآية . وقال تعالى عن نوح وهود : (أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) وقال (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) إلى آخر الكلام

فان في هذه الآيات تقرير قواعد ، وقال عن الوحيد : (إن هذا إلا قول البشر) .

ولهذا كان أصل « الايمان » الايمان بما أنزله . قال تعالى : (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) إلى قوله : (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) وفي وسط السورة : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم) الآية . وفي آخرها : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) الآيتين . وفي السورة التي تليها : (الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وانزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس ، وانزل الفرقان) . وذكر في أثناء السورة الايمان بما أنزل ، وكذلك في آخرها : (ربنا اتنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان ان آمنوا بربكم فآمنا) إلى قوله : (وإن من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم) الآية .

ولهذا عظم تقرير هذا الاصل في القرآن . فتارة يفتح به السورة إما اخباراً كقوله : (ذلك الكتاب) وقوله . (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) وقوله : (الر : كتاب احكت آياته) الآية . وكذلك ال « طس » وال « حم » . فعامة ال « الم » وال « الر » ، وال « طس » : وال « حم » كذلك .

وإما ثناء بآزاله كقوله : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً) (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده) الآية .

وأما في اثناء السور فكثير جداً ، وثنى قصة موسى مع فرعون :
لأنها في طرفي نقيض في الحق والباطل ، فان فرعون في غاية الكفر والباطل حيث كفر بالربوبية وبالرسالة ، وموسى في غاية الحق والايان من جهة ان الله كلمه تكليماً لم يجعل الله بينه وبينه واسطة من خلقه ، فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكلم ، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت ، وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار ، فان الكفار أكثرهم لا يمجّدون وجود الله ولم يكن ابضاً للرسول من التكليم ما لموسى : فصارت قصة موسى وفرعون اعظم القصص واعظمها اعتباراً لأهل الايمان ولأهل الكفر ؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقص على امته عامة ليله عن بني اسرائيل ، وكان يتأسى بموسى في أمور كثيرة ، ولما بشر بقتل ابي جهل يوم بدر قال هذا فرعون هذه الأمة ، وكان فرعون وقومه من الصابئة المشركين الكفار ؛ ولهذا كان يعبد الهة من دون الله ، كما اخبر الله عنه بقوله : (ويدرك وأهتك) وان كان عالماً بما جاء به موسى مستيقناً له ، لكنه كان جاحداً مشوراً ، كما اخبر الله بذلك في قوله : (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) الآية . وقال تعالى :

(ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) إلى قوله : (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) الآية .

والكفار بالرسول من قوم نوح وعاد ، وتمود وقوم لوط ، وشعيب وقوم ابراهيم ، وموسى ومشركي العرب ، والهند والروم والبربر ، والترك واليونان والكشديانيين ، وسائر الأمم المتقدمين والمستأخرين يتبعون ظنونهم واهواءهم ، ويعرضون عن ذكر الله ، الذي آتاهم من عنده ، كما قال لهم لما اهبط آدم من الجنة (فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) وفي موضع آخر : (فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا) الآية . وفي أخرى (إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي) .

ثم انهم مع انهم ما نزل الله بما هم عليه من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الانفس : يزعمون أن لهم العقل والرأي والقياس العقلي والأمثال المضروبة ، ويسمون أنفسهم الحكماء والفلاسفة ، ويدعون الجدل والكلام ، والقوة والسلطان والمال ، ويصفون اتباع المرسلين بأنهم سفهاء ، واراذل وضلال ، ويسخرون منهم ، قال الله تعالى :

(فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون) وقال : (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) وقال تعالى : (ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) إلى قوله (وما ارسلوا عليهم حافظين) وقال تعالى عن قوم نوح : (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟) وقالوا : (ما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) وقال : (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا) وقال : (كلما مر عليه ملاً من قومه سخروا منه) بل هم يصفون الأنبياء بالجنون والسفه والضلال وغير ذلك ، كما قالوا عن نوح : (مجنون ، وازدجر) وقالوا : (انا لئراك في ضلال مبين) ولهود : (انا لئراك في سفاهة) .

فصل

و « الايمان بالرسل » يجب أن يكون جامعاً عاماً ، مؤتلفاً لا تفريق فيه : ولا تبعض ولا اختلاف ؛ بأن يؤمن بجميع الرسل وبجميع ما أنزل اليهم . فمن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض ، أو آمن ببعض ما أنزل الله وكفر ببعض فهو كافر ، وهذا حال من بدل وكفر من اليهود والنصارى والصابئين ؛ فان

هؤلاء في أصلهم قد يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحاً :
فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . كما قال تعالى : (ان الذين
آمنوا والذين هادوا والنجاري والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر
وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)
ونحوه في المائدة .

ومنهم من فرق فآمن ببعض وكفر ببعض ، كما قال تعالى عن
اليهود : (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ، قالوا : نؤمن بما أنزل
علينا ويكفرون بما وراءه) الآيات وقال تعالى : (ان الذين يكفرون
بالله ورسله ، يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن
ببعض ونكفر ببعض ، يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، أولئك
هم الكافرون حقاً) الآية . وقال تعالى : (قولوا آمنا بالله ، وما أنزل
إلينا ، وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل) الآيتين وقال عن المؤمنين
(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته
وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله) وقال : (شرع لكم
من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به ابراهيم
وموسى وعيسى ؛ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

وذم الذين تفرقوا واختلفوا في الكتب ، وهم الذين يؤمنون ببعض
دون بعض ، فيكون مع هؤلاء بعض ومع هؤلاء بعض ، كقوله :

(وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفي شقاق بعيد) وقوله : (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم اليينات بغياً بينهم) وقوله : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم اليينة) وقال تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء) .

فصل

التفريق والتبعض قد يكون فى القدر تارة ، وقد يكون فى الوصف : إما فى الكم وإما فى الكيف . كما قد يكون فى التزويل تارة ، وفى التأويل أخرى ؛ فان الموجود له حقيقة موصوفة . وله مقدار محدود . فما أنزل الله على رساله قد يقع التفريق والتبعض فى قدره ، وقد يقع فى وصفه .

فالأول مثل قول اليهود : تؤمن بما أنزل على موسى دون ما أنزل على عيسى ومحمد . وهكذا النصارى فى إيمانهم بالمسيح دون محمد . فمن آمن ببعض الرسل والكتب دون بعض فقد دخل فى هذا ؛ فانه لم يؤمن بجميع المنزل . وكذلك من كان من المنتسبين إلى هذه الأمة يؤمن

ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض ؛ فان البدع مشتقة من الكفر .

واما « الوصف » فمثل اختلاف اليهود والنصارى في المسيح : هؤلاء قالوا إنه عبد مخلوق ؛ لكن جحدوا نبوته وقدحوا في نسبه ، وهؤلاء أقروا بنبوته ورسالته ؛ ولكن قالوا هو الله ، فاختلف الطائفتان في وصفه وصفته ، كل طائفة بحق وبباطل .

ومثل « الصابئة الفلاسفة » الذين يصفون إنزال الله على رسله بوصف ، بعضه حق وبعضه باطل ؛ مثل أن يقولوا : ان الرسل يجب طاعتهم ، ويجوز أن يسمى ما أتوا به كلام الله ؛ لكنه إنما أنزل على قلوبهم من الروح الذي هو العقل الفعال في السماء الدنيا لا من عند الله ، وهكذا ما ينزل على قلوب غيرهم هو أيضاً كذلك ، وليس بكلام الله في الحقيقة ، وإنما هذا في الحقيقة كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وانه سمى كلام الله مجازاً . فهؤلاء أيضاً مبعضين مفرقين ؛ حيث صدقوا ببعض صفات ما أنزل الله وبعض صفات رسله دون بعض ، وربما كان ما كفروا به من الصفات أكثر مما آمنوا به ، كما ان ما كفر به اليهود من الكتاب أكثر وأعظم مما آمنوا به ؛ لكن هؤلاء اكفر من اليهود من وجه ، وان كان اليهود اكفر منهم من وجه آخر .

فان من كان من هؤلاء يهودياً أو نصرانياً فهو كافر من الجهتين ،
ومن كان منهم لا يوجب اتباع خاتم الرسل بل يجوز التدين باليهودية
والنصرانية فهو أيضاً كافر من الجهتين . فقد يكون أحدهم أ كافر من
اليهود والنصارى الكافرين بمحمد والقرآن . وقد يكون اليهود والنصارى
أ كافر ممن آمن منهم بأكثر صفات ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه
وسلم ؛ لكنهم في الأصل أ كافر من جنس اليهود والنصارى ؛ فان
أولئك مقرون في الأصل بكمال الرسالة والنبوة ، وهؤلاء ليسوا مقربين
بكمال الرسالة والنبوة . كما أن من كان قديماً مؤمناً من اليهود والنصارى
صالحاً فهو أفضل ممن كان منهم مؤمناً صالحاً ، وكذلك من كان من
المنتسبين إلى الاسلام مؤمناً ببعض صفات القرآن ، وكلام الله وتنزيله
على رساله ، وصفات رساله دون بعض ، فنسبته إلى هؤلاء كنسبة من
آمن ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض إلى اليهود والنصارى .

ومن هنا تتبين الضلالات المبتدعة في هذه الأمة ، حيث هي من
الايمان ببعض ما جاء به الرسول دون بعض ، وإما ببعض صفات
التكليم والرسالة والنبوة دون بعض ، وكلاهما إما في التنزيل وإما
في التأويل .

فصل

والسبب الذي أوقع هؤلاء في الكفر ببعض ما أنزله هو من جنس ما أوقع الأولين في الكفر بجميع ما أنزل الله في كثير من المواضع ، فان من تأمل وجد شبه اليهود والنصارى ومن تبعهم من الصابئين في الكفر بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم هي من جنس شبه المشركين والمجوس ، ومن معهم من الصابئين في الكفر بجنس الكتاب ، وبما أنزل الله على رسله في كثير من المواضع ؛ فانهم يعترضون على آياته ، وعلى الكتاب الذي أنزل معه ، وعلى الشريعة التي بعث بها وعلى سيرته بنحو مما اعترض به على سائر الرسل : مثل موسى وعيسى ، كما قال الله تعالى في جميعهم : (ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد ، كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) إلى قوله : (كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب : الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتام ، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا) وفي الآية الأخرى : (ان في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله) إلى قوله : (ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ؟ ! الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون) .

هذا مع أن السلطان الذي أيد الله به رسوله من أنواع الحجج المعجزات ، وأنواع القدر الباهرات ، أعظم مما أيد به غيره ، ونبوته هي التي طبق نورها مشارق الأرض ومغاربها ، وبه ثبتت نبوات من تقدمه ، وتبين الحق من الباطل ، والا فلولا رسالته لكان الناس في ظلمات بعضها فوق بعض ، وأمر مريب ، يؤفك عنه من أفك : الكتايبون منهم والأميون ؛ ولهذا لما كان ما يقال له إلا ما قد قيل للرسول من قبله : أمره الله سبحانه باستشهاد أهل الكتاب على مثل ما جاء به .

وهذا من بعض حكمة إقرارهم بالجزية ، كقوله تعالى : (فان كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) وقوله : (كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب) وقوله : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم ، فاستلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، بالبينات والزبر ، وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) وفي الآية الأخرى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاستلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام) الآية . ومثل قوله : (قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله) .

وجماع شبه هؤلاء الكفار : أنهم قاسوا الرسول على من فرق الله بينه وبينه ، وكفروا بفضل الله الذي اختص به رسوله ، فأتوا من

جهة القياس الفاسد . ولا بد في القياس من قدر مشترك بين المشبه والمشبه به : مثل جنس الوحي والتنزيل : فان الشياطين ينزلون على أوليائهم ويوحون إليهم . كقوله : (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) وقال سبحانه : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفك ائيم . يلقون السمع وأكثهم كاذبون) .

وقال تعالى : في الـ « طس » وقد افتح كلامهن بقصة موسى وتكليم الله إياه . وإرساله الى فرعون ، فانها أعظم القصص كما قدمناه ، فقال في سورة الشعراء المحتوية على قصص المرسلين واحداً بعد واحد ، وهي « سبع » : قصة موسى وإبراهيم . ونوح وهود ، وصالح ولوط وشعيب . ثم قال عن القرآن : (وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين) إلى قوله : (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) فذكر الفرق بينه وبين من تنزل عليه الشياطين من الكهان والمتنبئين ونحوهم ، وبين الشعراء : لأن الكاهن قد يخبر بغيب بكلام مسجوع ، والشاعر أيضاً يأتي بكلام منظوم يحرك به النفوس . فان قرين الشيطان مادته من الشيطان ، ويعين الشيطان بكذبه وفجوره . والشاعر مادته من نفسه ، وربما أعانه الشيطان .

فأخبر أن الشياطين إنما تنزل على من يناسبها وهو : الكاذب في قوله : الفاجر في عمله ؛ بخلاف الصادق البر . وان الشعراء إنما يحركون

النفوس إلى أهوائها فيتبعهم الغاؤون ، وهم الذين يتبعون الأهواء ،
وشهوات الغي ، فنفي كلا منها باقتفاء لازمه ، وبين ما يجتمع فيه
شياطين الأنس والجن .

فصل

إذا تبين هذا الأصل ظهر به اشتقاق البدع من الكفر ، فنقول :
كما أن الذين اتى الله عليهم من الذين هادوا والنصارى كانوا مسلمين
مؤمنين ، لم يبدلوا ما أنزل الله ، ولا كفروا بشيء مما أنزل الله ، وكان
اليهود والنصارى صاروا كفاراً من جهة تبديلهم لما أنزل الله ، ومن جهة
كفرهم بما أنزل على محمد ، فكذلك الصابئة صاروا كفاراً من جهة
تبديلهم لما أنزل الله ، ومن جهة كفرهم بما أنزل الله على محمد ، وإن
كانوا منافقين كما قد ينافق اليهودي والنصراني . وهؤلاء هم المستأخرون
من اليهود والنصارى والصابئين .

وذلك أن متأخري الصابئين لم يؤمنوا أن الله كلاماً أو يتكلم ،
ويقول ، أو أنه ينزل من عنده كلاماً وذكرأ على أحد من البشر ، أو
انه يكلم أحداً من البشر ؛ بل عندهم لا يوصف الله بصفة ثبوتية
لا يقولون : إن له علماً ، ولا محبة ولا رحمة ، وينكرون أن يكون

الله اتخذ ابراهيم خليلاً ؛ أو كلم موسى تكليماً ، وإنما يوصف عندهم بالسلب والنفي ، مثل قولهم ليس بجسم . ولا جوهر ، ولا عرض ، ولا داخل العالم ولا خارجه ، أو بإضافة . مثل كونه مبدءاً للعالم أو [العلة] الأولى ، أو بصفة مركبة من السلب والاضافة : مثل كونه عاقلاً ومعقولاً وعقلاً .

وعندهم أن الله لا يخص موسى بالتكليم دون غيره ، ولا يخص محمداً برسالة دون غيره ، فانهم لا يثبتون له علماً مفصلاً للمعلومات فضلاً عن إرادة تفصيلية : بل يثبتون — إذا أثبتوا — له علماً جلياً كلياً ، وغاية جملة كلية ، ومن أثبت النبوة منهم قال : إنها فيض تفيض على نفس النبي من جنس ما يفيض على سائر النفوس : لكن استعداد النبي صلى الله عليه وسلم اكمل ، بحيث يعلم ما لا يعلمه غيره ، ويسمع ما لا يسمع غيره ، ويبصر ما لا يبصر غيره ، وتقدر نفسه على ما لا تقدر عليه نفس غيره .

والكلام الذي تقوله الأنبياء هو كلامهم وقولهم ، وهؤلاء الذين يقولون عن القرآن (ان هذا الا قول البشر) فان « الوحيد » الذي هو الوليد بن المغيرة كان من جنسهم ؛ كان من المشركين الذين هم صابئون ايضاً ، فان الصابئين كأهل الكتاب تارة يجعلهم الله قسماً من المشركين ، وتارة يجعلهم الله قسماً لهم ، كما قال تعالى : (لم يكن الذين

كفروا من اهل الكتاب والمشركين منفكين) (إن الذين كفروا من
أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم) .

وكذلك لما ذكر الملل الست في الحج فقال : (ان الذين آمنوا
والذين هادوا) الآية وقال تعالى (اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من
دون الله) الآية وهذا بعد قوله : (وقالت اليهود عزير بن الله ،
وقالت النصارى المسيح بن الله) إلى قوله : (ولو كره الكافرون)
وقال : (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم) فاذا
كان اليهود والنصارى قد يكونون مشركين فالصابئون أولى ، وذلك
بعد تبديلهم ، فحيث وصفوا بالشرك فبعد التبديل ، وحيث جعلوا غير
مشركين فلأن أصل دينهم الصحيح ليس فيه شرك ، فالشرك مبتدع
عندهم ؛ فينبغي التفتن لهذه المعاني .

وكان الوحيد من ذوي الرأي والقياس والتدبير من العرب ، وهو
معدود من حكمائهم وفلاسفتهم .

ولهذا اخبر الله عنه بمثل حال المتفلسفة في قوله : (انه فكر وقدر
فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ،
ثم ادبر واستكبر ، فقال : إن هذا الا سحر يؤثر ، إن هذا إلا
قول البشر)

ثم إن هؤلاء فيما تقوله الأنبياء حيارى متهوكون ؛ فانه بهرهم نور النبوة ، ولم تقع على أصولهم الفاسدة ، فصاروا على « انحاء » : منهم من لا يؤمن بكثير مما تقوله الأنبياء والمرسلون ؛ بل يعرض عنه أو يشك فيه أو يكذب به ، ومنهم من يقول : يجوز الكذب لمصلحة راجحة ، والأنبياء فعلوا ذلك ، ومنهم من يقول : يجوز هذا لصالح العامة دون الخاصة ، وأمثلهم من يقول : بل هذه تخيلات وأمثلة مضروبة لتقريب الحقائق إلى قلوب العامة ، وهذه طريقة الفارابى وابن سينا ؛ لكن ابن سينا أقرب إلى الايمان من بعض الوجوه ، وان لم يكن مؤمناً .

فمن ادركته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وبهرته براهينها وانوارها ورأى ما فيها من أصناف العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة — حتى قال ابن سينا : اتفق فلاسفة العالم على انه لم يطرق العالم ناموس أفضل من هذا الناموس — فلا بد ان يتأول نصوص الكتاب والسنة على عادة اخوانه في تحريف الكلم عن مواضعه ، فيحرفون ما اخبرت به الرسل عن كلام الله ؛ تحريفاً بصيرون به كفاراً ببعض تأويل الكتاب فى بعض صفات تنزيهه .

فلما رأوا أن الرسل سمت هذا الكلام كلام الله ، واخبرت أنه نزلت به ملائكة الله ، مثل الروح الأمين جبريل ، أطلقت هذه

العبارة في الظاهر ، وكفرت بمعناها في الباطن ، وردوها إلى أصلهم أصل الصابئين ، وصاروا منافقين في المسلمين وفي غيرهم من أهل الملل .

فيقولون : هذا القرآن كلام الله ، وهذا الذي جاءت به الرسل كلام الله ، ولكن المعنى انه فاض على نفس النبي صلى الله عليه وسلم من العقل الفعال ، وربما قالوا ان العقل هو جبريل ، الذي ليس على الغيب بضنين أي بخيل ؛ لأنه فياض . ويقولون ان الله كلم موسى من سماء عقله ، وان اهل الرياضة والصفاء يصلون إلى ان يسمعوا ما سمعه موسى كما سمعه موسى .

وقد ضل بكلامه كثير من المشهورين مثل « ابي حامد الغزالي » ذكر هذا المعنى في بعض كتبه ، وصنفوا « رسائل اخوان الصفا » وغيرها ، وجمعوا فيها على زعمهم بين مقالات الصابئة المتأخرين التي هي الفلسفة المبتدعة وبين ما جاءت به الرسل عن الله ، فأتوا بما زعموا انه معقول ولا دليل على كثير منه ، وربما ذكروا أنه منقول . وفيه من الكذب والتحريف أمر عظيم ، وانما يضلون به كثيراً بما فيه من الأمور الطبيعية والرياضية ، التي لا تعلق لها بأمر النبوت والرسالة لا بنبي ولا بآيات ، ولكن ينتفع بها في مصالح الدنيا : كالصناعات من الحراثة والحياكة ، والبناء والخياطة ونحو ذلك .

فاذا عرف ان حقيقة قول هؤلاء المشركية الصابئة ، ان القرآن قول البشر كغيره ، لكنه أفضل من غيره ، كما أن بعض البشر أفضل من بعض ، وانه فاض على نفس النبي صلى الله عليه وسلم من المحل الأعلى كما تفيض سائر العلوم والمعارف على نفوس أهلها ، فاعلم ان هذا القول كثر في كثير من المتأخرين المظهرين للإسلام ، وهم منافقون وزنادقة ، وان ادعوا كمال المعارف من المتفلسفة والمتكلمة ، والمتصوفة والمتفقيين ، حتى يقول احدهم — كالتمساني — كلامنا يوصل إلى الله والقرآن يوصل إلى الجنة . وقد يقول بعضهم — كابن عربي — إن الولي يأخذ من حيث ما يأخذ الملك الذي يوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم . ويقول كثير منهم ان القرآن للعامة وكلامنا للخاصة .

فهؤلاء جعلوا القرآن عظيم . وضربوا له الأمثال : مثل ما فعل المشركون قبلهم ، كما فعلوا بالنبي صلى الله عليه وسلم . فان هؤلاء منهم من يفضل الولي الكامل والفيلسوف الكامل على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من يفضل بعض الأولياء على زعمه ، أو بعض الفلاسفة : — مثل نفسه أو شيخه أو متبوعه — على النبي صلى الله عليه وسلم . وربما قالوا هو أفضل من وجهه والنبي أفضل من وجهه ، فلهم من الاتحاد والافتراء في رسل الله نظير ما لهم من الاتحاد والافتراء في رسالات الله ، فيقيسون الكلام الذي بلغته الرسل عن الله بكلامهم . ويقىسون رسل الله بأنفسهم . وقد بين الله حال هؤلاء في مثل قوله : (وما قدرُوا

الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء (إلى ان قال :
(ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً : أو قال أوحى إلي ولم يوح
إليه شيء ، ومن قال : سأُنزل مثل ما أنزل الله) فذكر الله أنزال الكتابين :
الذين لم ينزل من عند الله كتاب اهتدى منها - التوراة والقرآن - كما جمع
بينهما في قوله : (وقالوا سحران تظاهرا ، وقالوا : انا بكل كافرون . قل
فأتوا بكتاب من عند الله هو اهتدى منها اتبعه ان كنتم صادقين)

وكذلك الجن لما استمعت القرآن (قالوا : يا قومنا ! إنا سمعنا
كتاباً أنزل من بعد موسى) الآية . وقال تعالى : (قل أرأيتم ان
كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله
فآمن) ولهذا قال النجاشي لما سمع القرآن : ان هذا والذي جاء به
موسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ثم ذكر تعالى حال الكذاب والمتبوء . فقال : (ومن أظلم ممن
افترى على الله كذباً ، أو قال : أوحى إلي ولم يوح إليه شيء ، ومن
قال سأُنزل مثل ما أنزل الله) فجمع في هذا بين من أضاف ما يفتره
إلى الله ، وبين من يزعم أنه يوحى إليه ولا يعين من أوحاه ، فان الذي
يدعى الوحي لا يخرج عن هذين القسمين .

ويدخل في « القسم الثاني » من يُرى عينيه في المنام ما لا تريا ،

ومن يقول : القى في قلبي والهمت ونحو ذلك إذا كان كاذباً .

ويدخل في « القسم الأول » من يقول : قال الله لي أو أمرني الله أو وافقني أو قال لي ونحو ذلك ؛ بـخيالات أو الهامات يجدها في نفسه ولا يعلم أنها من عند الله ، بل قد يعلم أنها من الشيطان . مثل مسيئة الكذاب ونحوه . ثم قال تعالى : (ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله) فهذه حال من زعم أن البشر يمكنهم أن يأتوا بمثل كلام الله . أو أن هذا الكلام كلام البشر بفضيلة وقوة من صاحبه ، فإذا اجتهد المرء أمكن أن يأتي بمثله . وهذا يعم من قال أنه يمكن معارضة القرآن : كابن أبي سرح في حال رده : وطائفة متفرقين من الناس ، ويعم المتفلسفة الصابئة المنافقين والكافرين ؛ ممن يزعم أن رسالة الأنبياء كلام فاض عليهم قد يفيض على غيرهم مثله ، فيكون قد أنزل مثل ما أنزل الله في دعوى الرسل ؛ لأن القائل سأُنزل مثل ما أنزل الله قد يقوله غير معتقد أن الله أنزل شيئاً ؛ وقد يقوله معتقداً أن الله أنزل شيئاً .

فصل

ولهذا كان أول من اظهر انكار التكليم والمخالة « الجعد بن درهم » في أوائل المائة الثانية ، وأمر علماء الاسلام — كالحسن البصري وغيره —

بقتله ؛ فصحي به خالد بن عبد الله القسري امير العراق بواسطه . سن
أيها الناس ! ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فاني مضح بالجعد بن درهم ،
فانه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ؛
تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم نزل فذبجه . وأخذ ذلك عنه
« الجهم بن صفوان » فأنكر أن يكون الله يتكلم ، ثم نافق المسلمين
فأقر بلفظ الكلام ، وقال : كلامه يخلق في محل كالهواء وورق الشجر .

ودخل بعض أهل الكلام والجدل من المنتسبين إلى الاسلام من
المعتزلة ونحوهم الى بعض مقالة الصابئة والمشركون ، متابعة للجعد والجهم .
وكان مبدأ ذلك أن الصابئة في « الخلق » على قولين : منهم من يقول
إن السموات مخلوقة بعد أن لم تكن ، كما أخبرت بذلك الرسل ، وكتب
الله تعالى ، ومنهم من ابتدع فقال : بل هي قديمة أزلية ، لم تزل موجودة
بوجود الأول ، واجب الوجود بنفسه ، ومنهم من قد ينكر الصانع
بالكلية ، ولهم مقالات كثيرة الاضطراب في الخلق والبعث ، والمبدأ
والمعاد ؛ لأنهم لم يكونوا معتصمين بحبل الله تعالى فيجمعهم ، والظنون
لا تجمع الناس في مثل هذه الأمور التي تعجز الآراء عن إدراك حقائقها
الا بوحى من الله تعالى .

وهم انما يناظر بعضهم بعضاً بالقياس المأخوذ مقدماته من الأمور
الطبيعية السفلية ، وقوى الطبائع الموجودة في التراب والماء ، والهواء

والحيوان ، والمعدن والنبات ، ويريدون بهذه المقدمات السفلية ان ينالوا معرفة الله وعلم ما فوق السموات ، وأول الأمر وآخره ؛ وهذا غلط بين اعترف به أساطينهم بأن هذا غير ممكن ، وانهم لاسبيل لهم الى ادراك اليقين ، وانهم ان يتبعون الا الظن .

فلما كان هذا حال هذه الصائبة المتبدعة الضالة ، ومن اضلوه من اليهود والنصارى ، وكان قد اتصل كلامهم ببعض من لم يهد بهدى الله ، الذي بعث به رسله ، من اهل الكلام والجدل ، صاروا يريدون ان يأخذوا مأخذهم ، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع » قالوا يا رسول الله ! فارس والروم ؟ ! قال : « ومن الناس إلا فارس والروم ؟ ! » فاحتجوا على حدوث العالم بنحو من مسالك هذه الصائبة ، وهو الكلام في الأجسام والاعراض ، بأن ثبتت الأعراض ثم ثبت لزومها للأجسام ثم حدوثها ، ثم يقال : ما لا يسبق الحوادث فهو حادث ، واعتمد كثير من أهل الجدل على هذا في اثبات حدوث العالم ، فلما رأوا أن الأعراض — التي هي الصفات — تدل عندم على حدوث الموصوف الحامل للأعراض التزموا نفيها عن الله ؛ لأن ثبوتها مستلزم حدوثه . وبطلان دليل حدوث العالم — الذي اعتقدوا ان لا دليل سواه ، بل ربما اعتقدوا انه لا يصح إيمان أحد إلا به — معلوم بالاضطرار من دين الاسلام .

وهؤلاء يخالفون « الصابئة الفلاسفة » الذين يقولون بقدوم العالم ،
وبأن النبوة كمال تفيض على نفس النبي ؛ لأن هؤلاء المتكلمين أكثر
حقاً ، واتبع للأدلة العقلية والسمعية لما تنورت به قلوبهم من نور
الاسلام والقرآن ، وإن كانوا قد ضلوا في كثير مما جاءت به الرسل ؛
لكن هم خير من أولئك من وجوه أخرى وافقوا فيها [أهل السنة]
فوافقوا أولئك على أن الله لم يتكلم ، كما وافقوهم على أنه لا علم له ولا
قدرة ولا صفة من الصفات ، ورأوا أن إثباته متكلاً يقتضي أن يكون
جسماً ، والجسم حادث ؛ لأنه من الصفات الدالة على حدوث الموصوف ،
بل هو عندهم أدل على حدوث المتكلم من غيره ؛ بل الله يفتقر من
الخارج إلى ما لا يفتقر إليه غيره ؛ ولأن فيه من الترتيب والتقديم
 والتأخير ما ليس في غيره ؛ ولما رأوا أن الرسل اتفقت على أنه متكلم
والقرآن مملوء بآيات ذلك صاروا تارة يقولون متكلم مجازاً لا حقيقة ،
وهذا قولهم الأول لما كانوا في بدعتهم على الفطرة ، قبل أن يدخلوا
في المعاندة والجحود .

ثم إنهم رأوا أن هذا شنيعاً ، فقالوا بل هو متكلم حقيقة ، وربما
حكى بعض متكلميهم الاجماع وليس عندهم كذلك ، بل حقيقة قولهم
واصله عند من عرفه وأبتدعه أن الله ليس بتكلم ، وقالوا المتكلم
من فعل الكلام ولو في محل منفصل عنه ؛ ففسروا التكلم في اللغة

يعنى لا يعرف فى لغة العرب ولا غيرهم : لا حقيقة ولا مجازاً : وهذا قول من يقول إن القرآن مخلوق ، وهو أحد قولى الصابئة الذين يوافقون الرسل فى حدوث العالم ، وهو وإن كان كفراً بما جاءت به الرسل فليس هو فى الكفر مثل القول الأول : لأن هؤلاء لا يقولون ان الله أراد أن يبعث رسولاً معيناً ، وإن ينزل عليه هذا الكلام الذى خلقه ، وانكروا أن يكون متكلماً على الوجه الذى دلت عليه الكتب الالهية ، واتفقت عليه أهل الفطرة السليمة .

ونشأ بين هؤلاء الذين هم فروع الصابئة وبين المؤمنين اتباع الرسل الخلاف ، فكفر هؤلاء ببعض ما جاءت به الرسل من وصف الله بالكلام والتكليم ، واختلفوا فى كتاب الله فأمنوا ببعض وكفروا ببعض .

واتبع المؤمنون ما أنزل اليهم من ربهم من ان الله تكلم بالقرآن ، وأنه كلم موسى تكليماً ، وأنه يتكلم ولم يحرفوا الكلم عن مواضعه كما فعل الأولون : بل ردوا تحريف أولئك بباطل الإيمان الذى علموا به حراد الرسل من إخبارهم برسالة الله وكلامه ، واتبعوا هذا القرآن والحديث واجماع السلف من الصحابة والتابعين وسائر اتباع الانبياء ، وعلموا ان قول هؤلاء اخبث من قول اليهود والنصارى ، حتى كان ابن المبارك — امام المسلمين — يقول : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع ان نحكي كلام الجهمية .

وكان قد كثر ظهور هؤلاء الذين هم فروع المشركين ومن اتبعهم من مبدلة الصابئين ، ثم مبدلة اليهود والنصارى فى أوائل المائة الثانية ، وأوائل الثالثة فى إمارة أبى العباس الملقب « بالمأمون » ، بسبب تعريب كتب الروم المشركين الصابئين ؛ الذين كانوا قبل النصارى ، ومن أشبههم من فارس والهند ، وظهرت علوم الصابئين المنجمين ونجوم .

وقدم تقدم ان أهل الكلام المبتدع فى الاسلام هم من فروع الصابئين ، كما يقال : المعتزلة مخانيث الفلاسفة . فظهرت هذه المقالة فى أهل العلم والكلام ، وفى أهل السيف والامارة ، وصار فى أهلها من الخلفاء والأمراء ، والوزراء والقضاة ، والفقهاء ما امتحنوا به المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الذين اتبعوا ما انزل اليهم من ربهم ، ولم يبدلوا . ولم يبتدعوا ، وذلك لقصور وتفريط من أكثرهم فى معرفة حقيقة ما جاء به الرسول واتباعه ، والا فلو كان ذلك كثيراً فيهم لم يتمكن أولئك المبتدعة لما يخالف دين الاسلام من التمكن منهم .

فصل

فجاء قوم من متكلمي الصفاتية الذين نصرُوا ان الله له علم وقدره وبصر وحياة ، بالمقاييس العقلية المطابقة للنصوص النبوية ، وفرقوا بين الصفات القائمة بالجواهر فجعلوها اعراضاً ، وبين الصفات القائمة بالرب فلم يسموها اعراضاً ؛ لأن العرض ما لا يدوم ولا يبقى ، أو ما يقوم بتمحيض أو

جسم . فصفات الرب لازمة دائمة ليست من جنس الأعراض القائمة بالأجسام .
وهؤلاء أهل الكلام القياسي من الصفاتية فارقوا أولئك المبتدعة
المعطاة الصابئة في كثير من أمورهم ، واثبتوا الصفات التي قد يستدل
بالقياس العقلي عليها ، كالصفات السبع وهي : الحياة ، والعلم ، والقدرة ،
والارادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام . ولهم نزاع في السمع والبصر
والكلام ، هل هو من الصفات العقلية أو الصفات النبوية الخبرية
السمعية ، ولهم اختلاف في البقاء والقدم ، وفي الإدراك الذي هو
إدراك المشمومات والمذوقات والملموسات ، ولهم أيضا اختلاف في الصفات
السمعية القرآنية الخبرية كالوجه واليد ، فاکثر متقدميهم أو كلهم يثبتها
وكثير من متأخريهم لا يثبتها ، وأما ما لا يرد إلا في الحديث فأكثرهم
لا يثبتها . ثم منهم من يصرف النصوص عن دلالتها لأجل ماعرضها
من القياس العقلي عنده ، ومنهم من يفوض معناها — وليس الغرض
هنا تفصيل مقالات الناس فيما يتعلق بسائر الصفات .

وانما المقصود القول في « رسالة الله ، وكلامه » الذي بلغته رساله
فكان هؤلاء بينهم وبين أهل الوراثة النبوية قدر مشترك بما سلكوه
من الطرق الصابئة في أمر الخالق ، واسمائه وصفاته : فصار في مذهبهم
في الرسالة تركيب من الوراثةين ، لبسوا حق ورثة الأنبياء بباطل ،
ورثة اتباع الصابئة ، كما كان في مذهب أهل الكلام المحض المبتدع :
كالمعتزلة تركيب ، وليس بين الاثارة النبوية وبين الاثارة الصابئة ؛

لكن أولئك اشد اتباعا للاشارة النبوية ، وأقرب إلى مذهب اهل السنة من المعتزلة ، ونحوم من وجوه كثيرة .

ولهذا وافقهم في بعض ما ابتدعوه كثير من أهل الفقه ، والحديث والتصوف ؛ لوجوه :

« أحدها » كثرة الحق الذي يقولونه ، وظهور الاشارة النبوية عندهم .

« الثاني » لبسهم ذلك بمقاييس عقلية بعضها موروث عن الصائبة ، وبعضها مما ابتدع في الاسلام ، واستيلاء ما في ذلك من الشبهات عليهم ، وظنهم انه لم يمكن التمسك بالاثارة النبوية من اهل العقل والعلم ، الا على هذا الوجه .

« الثالث » ضعف الاثارة النبوية الدافعة لهذه الشبهات ، والموضحة لسبيل الهدى عندهم .

« الرابع » العجز والتفريط الواقع في المنتسبين إلى السنة والحديث : تارة يروون ما لا يعلمون صحته ، وتارة يكونون كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب الا أماني ، ويعرضون عن بيان دلالة الكتاب والسنة على حقائق الأمور .

فلما كان هذا « منهاجهم » وقالوا : إن القرآن غير مخلوق لما دل على ذلك من النصوص واجماع السلف ، ولما رأوا أنه مستقيم على الأصل الذي قرروه في الصفات ، ورأوا ان التوفيق بين النصوص النبوية السمعية ، وبين القياس العقلي لا يستقيم إلا ان يجعلوا القرآن معنى قائماً بنفس الله تعالى — كسائر الصفات ، كما جعله الأولون من باب المصنوعات المخلوقات ، لا قديماً كسائر الصفات — ورأوا انه ليس إلا مخلوق أو قديم ، فان إثبات قسم ثالث قائم بالله يقتضي حلول الحوادث بذاته ، وهو دليل على حدوث الموصوف ، ومبطل لدلالة حدوث العالم .

ثم رأوا أنه لا يجوز ان يكون معاني كثيرة ؛ بل إما معنى واحد عند طائفة ، أو معاني أربعة عند طائفة ، والتزموا على هذا أن حقيقة الكلام هي المعنى القائم بالنفس ، وأن الحروف والاصوات ليست من حقيقة الكلام ؛ بل دالة عليه فتسمى باسمه ؛ اما مجاز عند طائفة ، أو حقيقة بطريق الاشتراك عند طائفة ، وإما مجاز في كلام الله حقيقة في غيره عند طائفة .

وخالفهم الأولون وبعض من يتسنان ايضاً ، وقالوا : لا حقيقة للكلام إلا الحروف والاصوات ، وليس وراء ذلك معنى الا العلم ونوعه ، أو الارادة ونوعها ، فصار النزاع بين الطائفتين .

وأورد على هؤلاء أن الأمر والنهي والخبر صفات للكلام اضافية
ليست أنواعاً له وأقساماً . وأن كلام الله معنى واحد : إن عبر عنه
بالعربية فهو قرآن ، وبالعبرية فهو تورا ، وبالسريانية فهو انجيل . وقال
لهم أكثر الناس هذا معلوم الفساد بالضرورة ، كما قال الأولون انه
خلق الكلام في الهواء فصار متكلماً به : وإن المتكلم من أحدث
الكلام ولو في ذات غير ذاته : وقال لهم أكثر الناس : إن هذا معلوم
الفساد بالضرورة .

وقال الجمهور من جميع الطوائف : إن الكلام إسم للفظ والمعنى
جميعاً ، كما أن الانسان المتكلم إسم للروح والجسم جميعاً . وأنه إذا
أطلق على أحدهما فبقريته . وأن معاني الكلام متنوعة ليست منحصرة في
العلم والارادة ، كتشوع ألفاظه ، وإن كانت المعاني أقرب إلى الاتحاد
والاجتماع ، والألفاظ أقرب إلى التعدد والفرق .

والتزم هؤلاء أن حروف القرآن مخلوقة ، وإن لم يكن عندهم الذي
هو كلام الله مخلوقاً ، وفرقوا بين كتاب الله وكلامه . فقالوا كتاب الله
هو الحروف وهو مخلوق . وكلام الله هو معناها غير مخلوق . وهؤلاء
والأولون متفقون على خلق القرآن الذي قال الأولون انه مخلوق ،
واختلف هؤلاء أين خلقت هذه الحروف ؟ هل خلقت في الهواء ؟ أو
في نفس جبرائيل ؟ أو أن جبرائيل هو الذي أحدثها أو محمد ؟

وأما جمهور الأمة وأهل الحديث والفقه والتصوف فعلى ما جاءت به الرسل ، وما جاء عنهم من الكتب والآثار من العلم ، وهم المتبعون للرسالة اتباعاً محضاً ، لم يشوبوه بما يخالفه من مقالة الصابئين . وهو أن القرآن كلام الله ، لا يجعلون بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله ، والقرآن هو القرآن — الذي يعلم المسلمون أنه القرآن — حروفه ومعانيه ، والأمر والنهي هو اللفظ والمعنى جميعاً .

ولهذا كان الفقهاء المصنفون في أصول الفقه من جميع الطوائف : الحنفية والمالكية ، والشافعية والحنبلية — إذا لم يخرجوا عن مذاهب الأئمة ، والفقهاء — إذا تكلموا في الأمر والنهي ذكروا ذلك ، وخالفوا من قال إن الأمر هو المعنى المجرد ، ويعلم أهل الآثار النبوية — أهل السنة والحديث ، عامة المسلمين الذين هم جماهير أهل القبلة — أن قوله تعالى : (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه) ونحو ذلك هو كلام الله لا كلام غيره ، وكلام الله هو ما تكلم به لا ما خلقه في غيره ، ولم يتكلم به .

وسئل شيخ الإسلام

قدس الله روحه^(١)

عن رجلين تجادلا في « الأحرف التي أنزلها الله على آدم » فقال أحدهما إنها قديمة ليس لها مبتدأ . وشكلها ونقطها محدث . فقال الآخر ليست بكلام الله وهي مخلوقة بشكلها ونقطها ، والقديم هو الله ، وكلامه منه بدأ وإليه يعود ، منزل غير مخلوق ، ولكنه كُتِبَ بها . وسألا أيهما أصوب قولاً وأصح اعتقاداً ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . أصل هذه المسألة هو معرفة « كلام الله تعالى » . ومذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم ما دل عليه الكتاب والسنة . وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه ، ليس ذلك

(١) تسمى : « مسألة الأحرف التي أنزلها الله على آدم » .

مخلوقاً منفصلاً عنه ، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته ، فكلامه قائم بذاته ، ليس مخلوقاً بآثاء عنه ، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته ، لم يقل أحد من سلف الأمة إن كلام الله مخلوق بآثاء عنه ، ولا قال أحد منهم ان القرآن أو التوراة أو الانجيل لازمة لذاته أزلاً وأبداً ، وهو لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا قالوا إن نفس ندائه لموسى أو نفس الكلمة المعينة قديمة أزلية ، بل قالوا لم يزل الله متكلماً إذا شاء ، فكلامه قديم بمعنى أنه لم يزل متكلماً إذا شاء .

وكلمات الله لا نهاية لها ، كما قال تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) ، والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي ، وبالتوراة العبرية . فالقرآن العربي كلام الله ، كما قال تعالى : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) الى قوله : (لسان عربي مبين) فقد بين سبحانه أن القرآن الذي يبدل منه آية مكان آية نزله روح القدس وهو جبريل — وهو الروح الأمين كما ذكر ذلك في موضع آخر — من الله بالحق ، وبين بعد ذلك أن من الكفار من قال : (إنما يعلمه بشر) كما قال بعض المشركين يعلمه رجل بمكة أعجمي ، فقال تعالى : (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي) أي الذي يضيفون إليه هذا التعليم أعجمي (وهذا لسان عربي مبين) .

ففي هذا ما يدل على أن الآيات التي هي لسان عربي مبين ، نزلها روح القدس من الله بالحق ، كما قال في الآية الأخرى : (أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ؛ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) والكتاب الذي أنزل مفصلاً هو القرآن العربي باتفاق الناس ، وقد أخبر أن الذين أتاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق ، والعلم لا يكون إلا حقاً فقال : (يعلمون) ولم يقل يقولون ، فان العلم لا يكون إلا حقاً بخلاف القول . وذكر علمهم ذكر مستشهد به .

وقد فرق سبحانه بين إيحائه إلى غير موسى وبين تكليمه لموسى في قوله تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح) إلى قوله : (حجة بعد الرسل) فرق سبحانه بين تكليمه لموسى وبين إيحائه لغيره ، ووكد تكليمه لموسى بالمصدر ، وقال تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) إلى قوله : (روح القدس) وقال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً) إلى آخر السورة . فقد بين سبحانه أنه لم يكن لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد الأوجه الثلاثة : إما وحياً ، وإما من وراء حجاب ، وإما أن يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء ؛ فجعل الوحي غير التكليم ، والتكليم من وراء حجاب كان لموسى .

وقد أخبر في غير موضع أنه ناداه كما قال : (وناديناه من جانب
الطور) الآية . وقال : (فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن)
الآية . و « النداء » باتفاق أهل اللغة لا يكون إلا صوتاً مسموعاً ، فهذا
مما اتفق عليه سلف المسلمين وجمهورهم . وأهل الكتاب يقولون : إن
موسى ناداه ربه نداء سمعه بأذنه ، وناداه بصوت سمعه موسى ، والصوت
لا يكون إلا كلاماً ، والكلام لا يكون إلا حروفاً منظومة ، وقد قال
تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقال : (حم تنزيل
من الرحمن الرحيم) وقال : (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز
الحكيم) فقد بين في غير موضع أن الكتاب والقرآن العربي منزل
من الله .

وهذا معنى قول السلف : منه بدأ ، قال أحمد بن حنبل رحمه
الله : منه بدأ أي هو المتكلم به ، فإن الذين قالوا أنه مخلوق قالوا خلقه
في غيره فبدأ من ذلك المخلوق ، فقال السلف : منه بدأ ، أي هو
المتكلم به لم يخلق في غيره فيكون كلاماً لذلك المحل الذي خلقه فيه ،
فإن الله تعالى إذا خلق صفة من الصفات في محل كانت الصفة صفة
لذلك المحل ولم تكن صفة لرب العالمين ، فإذا خلق طعاماً أو لوناً في
محل كان ذلك المحل هو المتحرك المتلون به ، وكذلك إذا خلق حياة
أو إرادة أو قدرة أو علماً أو كلاماً في محل كان ذلك المحل هو المرید ،

القادر ، العالم ، المتكلم بذلك الكلام ، ولم يكن ذلك المعنى المخلوق في ذلك المحل صفة لرب العالمين ، وإنما يتصف الرب تعالى بما يقوم به من الصفات ، لا بما يخلقه في غيره من المخلوقات . فهو الحي ، العليم ، القدير ، السميع ، البصير ، الرحيم . المتكلم بالقرآن وغيره من الكلام ، بحياته وعلمه وقدرته وكلامه القائم به لا بما يخلقه في غيره من هذه المعاني .

ومن جعل كلامه مخلوقاً لزمه أن يقول المخلوق هو القائل لموسى : (إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ، وأقم الصلاة لذكري) وهذا ممتنع لا يجوز أن يكون هذا كلاماً إلا لرب العالمين ، وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن والتوراة وغير ذلك من الكتب بمعانيها وألفاظها المنتظمة من حروفها لم يكن شيء من ذلك مخلوقاً ؛ بل كان ذلك كلاماً لرب العالمين .

وقد قيل للامام أحمد بن حنبل : إن فلاناً يقول لما خلق الله الأحرف سجدت له إلا الألف ، فقالت : لا أسجد حتى أؤمر ، فقال : هذا كفر . فأنكر على من قال ان الحروف مخلوقة ؛ لأنه إذا كان جنس الحروف مخلوقاً لزم أن يكون القرآن العربي والتوراة العبرية وغير ذلك مخلوقاً ، وهذا باطل مخالف لقول السلف والأئمة ، مخالف للدلالة العقلية والسمعية ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والناس قد تنازعوا في كلام الله نزاعاً كثيراً ؛ والطوائف الكبار
نحو ست فرق ، فابعدتها عن الاسلام قول من يقول من المتفلسفة
والصابئة إن كلام الله إنما هو ما يفيض على النفوس : أما من العقل
الفعال ، وأما من غيره ، وهؤلاء يقولون : إنما كلم الله موسى من سماء
عقله أي بكلام حدث في نفسه لم يسمعه من خارج .

واصل قول هؤلاء أن الأفلاك قديمة أزلية ، وإن الله لم يخلقها
بمشيئته وقدرته في ستة أيام كما اخبرت به الأنبياء ، بل يقولون : إن
الله لا يعلم الجزئيات ، فلما جاءت الأنبياء بما جاءوا به من الأمور الباهرة
جعلوا يتأولون ذلك تأويلات يحرفون فيها الكلم عن مواضعه ،
ويريدون أن يجمعوا بينها وبين أقوال سلفهم الملاحدة ، فقالوا مثل
ذلك . وهؤلاء اكفر من اليهود والنصارى ، وهم كثيرون التناقض ،
كقولهم إن الصفة هي الموصوف ، وهذه الصفة هي الأخرى فيقولون :
هو عقل وعقل ومعقول ، ولذيد وملتذ ولذة ، وعاشق ومعشوق
وعشق . وقد يعبرون عن ذلك بأنه حي عالم معلوم ، محب محبوب ،
ويقولون نفس العلم هو نفس المحبة ، وهو نفس القدرة . ونفس العلم
هو نفس العالم ، ونفس المحبة هي نفس المحبوب .

ويقولون إنه علة تامة في الأزل ؛ فيجب أن يقارنها معلولها في

الأزل في الزمن وإن كان متقدماً عليها بالعلّة لا بالزمان . ويقولون
إن العلة التامة ومعلولها يقتزمان في الزمان ويتلازمان ، فلا يوجد
معلول إلا بعلة تامة ، ولا تكون علة تامة إلا مع معلولها في الزمان .
ثم يعترفون بأن حوادث العالم حدثت شيئاً بعد شيء من غير أن
يتجدد من المبدع الأول ما يوجب أن يصير علة للحوادث المتعاقبة ؛
بل حقيقة قولهم أن الحوادث حدثت بلا محدث ، وكذلك عدت بعد
حدوثها من غير سبب يوجب عدمها على أصلهم .

وهؤلاء قائلهم طوائف من أهل الكلام ظنوا أن المؤثر التام
يتراخى عنه أثره ، وأن القادر المختار يرجع أحد مقدوريه على الآخر
بلا مرجع ، والحوادث لها ابتداء ، وقد حدثت بعد أن لم تكن بدون
سبب حادث . ولم يهتد الفريقان للقول الوسط ، وهو أن المؤثر التام
مستلزم أن يكون أثره عقب تأثيره التام لا مع التأثير ولا متراخياً
عنه ، كما قال تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن
فيكون) فهو سبحانه يكون كل شيء فيكون عقب تكوينه لا مع تكوينه
في الزمان ، ولا متراخياً عن تكوينه ، كما يكون الانكسار عقب الكسر
والانقطاع عقب القطع ، ووقوع الطلاق عقب التطليق لا متراخياً عنه
ولا مقارناً له في الزمان .

والقائلون بالتراخي ظنوا امتناع حوادث لا تنهاى ، فلزمهم أن

الرب لا يمكنه فعل ذلك ، فالتزموا أن الرب يتمتع أن يكون لم يزل متكلماً بمشيئته ، ويتمتع أن يكون لم يزل قادراً على الفعل والكلام بمشيئته . فافترقوا بعد ذلك ، منهم من قال : كلامه لا يكون إلا حادثاً ؛ لأن الكلام لا يكون إلا مقدوراً مراداً ، وما كان كذلك لا يكون إلا حادثاً . وما كان حادثاً كان مخلوقاً منفصلاً عنه ؛ لامتناع قيام الحوادث به ، وتسلسلها في ظنهم .

ومنهم من قال : بل كلامه لا يكون إلا قائماً به ، وما كان قائماً به لم يكن متعلقاً بمشيئته وإرادته ، بل لا يكون إلا قديم العين ؛ لأنه لو كان مقدوراً مراداً لكان حادثاً فكانت الحوادث تقوم به ، ولو قامت به لم يسبقها ولم ينخل منها ، وما لم ينخل من الحوادث فهو حادث ؛ لامتناع حوادث لا أول لها .

ومنهم من قال : بل هو متكلم بمشيئته وقدرته ، لكنه يتمتع أن يكون متكلماً في الأزل ، أو أنه لم يزل متكلماً بمشيئته وقدرته ؛ لأن ذلك يستلزم وجود حوادث لا أول لها ، وذلك ممتنع .

قالت « هذه الطوائف » : ونحن بهذا الطريق علمنا حدوث العالم ؛ فاستدللنا على حدوث الأجسام بأنها لا تخلوا من الحوادث ولا تسبقها ، وما لم يسبق الحوادث فهو حادث . ثم من هؤلاء من ظن أن هذه

قضية ضرورية ولم يتفطن لاجمالها . ومنهم من تفطن للفرق بين ما لم يسبق الحوادث المحصورة المحدودة وما يسبق جنس الحوادث المتعاقبة شيئاً بعد شيء . أما الأول فهو حادث بالضرورة ؛ لأن تلك الحوادث لها مبدأ معين ، فما لم يسبقها يكون معها أو بعدها وكلاهما حادث .

وأما جنس الحوادث شيئاً بعد شيء فهذا شيء تنازع فيه الناس ، فقل إن ذلك ممتنع في الماضي والمستقبل ، كقول الجهم وأبي الهذيل . فقال الجهم : بقاء الجنة والنار . وقال أبو الهذيل : بقاء حركات أهلها وقيل : بل هو جائز في المستقبل دون الماضي ؛ لأن الماضي دخل في الوجود دون المستقبل . وهو قول كثير من طوائف النظار . وقيل : بل هو جائز في الماضي والمستقبل . وهذا قول أئمة أهل الملل وأئمة السنة كعبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل ، وغيرها ممن يقول بأن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، وأن كلمات الله لا نهاية لها وهي قائمة بذاته وهو متكلم بمشيئته وقدرته . وهو أيضاً قول أئمة الفلاسفة .

لكن أرسطو وأتباعه مدعون ذلك في حركات الفلك ، ويقولون إنه قديم أزلي . وخالفوا في ذلك جمهور الفلاسفة ، مع مخالفة الأنبياء والمرسلين وجهاهير العقلاء . فانهم متفقون على أن الله خلق السموات والأرض ؛ بل هو خالق كل شيء ، وكل ما سوى الله مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن . وإن القديم الأزلي هو الله تعالى بما هو متصف به من صفات

الكمال وليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه ؛ بل من قال عبدت الله ودعوت الله فانما عبد ذاته المتصفة بصفات الكمال التي تستحقها ، ويمتنع وجود ذاته بدون صفاتها اللازمة لها .

ثم لما تكلم في « النبوات » من اتباع أرسطو — كابن سينا وأمثاله — ورأوا ما جاءت به الأنبياء من إخبارهم بأن الله يتكلم ، وأنه كلم موسى تكليماً ، وأنه خالق كل شيء ، أخذوا يحرفون كلام الأنبياء عن مواضعه ، فيقولون : الحدوث نوعان ، ذاتي وزماني ، ونحن نقول إن الفلك محدث الحدوث الزماني ؛ بمعنى أنه معلول وإن كان أزلياً لم يزل مع الله ، وقالوا إنه مخلوق بهذا الاعتبار ، والكتب الإلهية أخبرت بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ، والقديم الأزلي لا يكون في أيام .

وقد علم بالاضطرار أن ما أخبرت به الرسل من أن الله خلق كل شيء ، وأنه خلق كذا إنما أرادوا بذلك أنه خلق المخلوق ، وأحدثه بعد أن لم يكن ، كما قال : (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) والعقول الصريحة توافق ذلك ، وتعلم أن المفعول المخلوق المصنوع لا يكون مقارناً للفاعل في الزمان ولا يكون إلا بعده ، وأن الفعل لا يكون إلا باحداث المفعول .

وقالوا لهؤلاء قولكم : « إنه مؤثر تام في الازل » لفظ مجمل يراد به التأثير العام في كل شيء . ويراد به التأثير المطلق في شيء بعد شيء ويراد به التأثير في شيء معين دون غيره : فان أردتم « الاول » لزم أن لا يحدث في العالم حادث . وهذا خلاف المشاهدة . وإن أردتم « الثاني » لزم أن يكون كل ما سوى الله مخلوقا حادثا كائناً بعد أن لم يكن ، وكان الرب لم يزل متكلماً بمشيئته فعلاً لما يشاء . وهذا يناقض قولكم ويستلزم أن كل ما سواه مخلوق ويوافق ما أخبرت به الرسل ، وعلى هذا يدل العقل الصريح . فتبين أن العقل الصريح يوافق ما أخبرت به الانبياء ، وإن أردتم « الثالث » فسد قولكم ؛ لانه يستلزم انه يشاء [حدوثها] بعد أن لم يكن فاعلاً لها من غير تجدد سبب يوجب الاحداث ، وهذا يناقض قولكم . فان صح هذا جاز أن يحدث كل شيء بعد أن لم يكن محدثاً لشيء ، وإن لم يصح هذا بطل : فقولكم باطل على التقديرين .

وحقيقة قولكم أن المؤثر التام لا يكون إلا مع أثره . ولا يكون الاثر إلا مع المؤثر التام في الزمن : وحينئذ فيلزمكم أن لا يحدث شيء . ويلزمكم أن كل ما حدث حدث بدون مؤثر . ويلزمكم بطلان الفرق بين أثر وأثر : وليس لكم أن تقولوا بعض الآثار يقارن المؤثر التام وبعضها يتراخي عنه .

وأيضاً فكونه فاعلاً لمفعول معين مقارن له أزلاً وأبداً باطل في صريح العقل ، وأيضاً فأنتم وسائر العقلاء موافقون على ان الممكن الذي لا يكون [الا] ممكناً يقبل الوجود والعدم ، وهو الذي جعلتموه الممكن الخاص الذي قسمه الضروري الواجب ، والضروري المتسع لا يكون إلا موجوداً تارة ومعدوماً أخرى ، وأن القديم الازلي لا يكون إلا ضرورياً واجباً يتمتع عدمه . وهذا مما اتفق عليه ارسطو واتبعاه حتى ابن سينا ، وذكره في كتبه المشهورة « كالشفا » وغيره . ثم تناقض فزعم أن الفلك ممكن مع كونه قديماً أزلياً لم يزل ولا يزال ، وزعم ان الواجب بغيره القديم الازلي الذي يتمتع عدمه يكون ممكناً يقبل الوجود والعدم ، وزعم ان له ماهية غير وجوده . وقد بسط الكلام على فساد قول هؤلاء وتناقضه في غير هذا الموضع .

و « القول الثاني » للناس في كلام الله تعالى قول من يقول : ان الله لم يقم به صفة من الصفات ، لا حياة ولا علم ، ولا قدرة ولا كلام ، ولا إرادة ولا رحمة ، ولا غضب ولا غير ذلك ، بل خلق كلاماً في غيره فذلك المخلوق هو كلامه ، وهذا قول الجهمية والمعتزلة . وهذا القول أيضاً مخالف للكتاب والسنة واجماع السلف . وهو مناقض لاقوال الانبياء ونصوصهم ، وليس مع هؤلاء عن الأنبياء قول يوافق قولهم ؛ بل لهم شبه عقلية فاسدة ، قد يتنا فسادهما في غير هذا

الموضع . وهؤلاء زعموا أنهم يقيمون الدليل على حدوث العالم بتلك الحجج ، وهم لا للإسلام نصروا ، ولا لأعدائه كسروا .

و « القول الثالث » قول من يقول : انه يتكلم بغير مشيئته وقدرته بكلام قائم بذاته أزلا وابدأ ، وهؤلاء موافقون لمن قبلهم في اصل قولهم ، لكن قالوا الرب تقوم به الصفات ، ولا يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الصفات الاختيارية .

وأول من اشتهر عنه انه قال هذا القول في الاسلام « عبد الله ابن سعيد بن كلاب » ثم افترق موافقوه ، ففهم من قال : ذلك الكلام معنى واحد هو الامر بكل مأمور ، والهي عن كل محذور ، والخبر عن كل مخبر عنه ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وإن عبر عنه بالعبرية كان تورا . وقالوا معنى القرآن والتوراة والانجيل واحد ، ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدين . وقالوا : الأمر والهي والخبر صفات للكلام لا أنواع له . ومن محققهم من جعل المعنى يعود الى الخبر ، والخبر يعود الى العلم .

وجمهور العقلاء يقولون : قول هؤلاء معلوم الفساد بالضرورة . وهؤلاء يقولون تكليمه لموسى ليس الا خلق ادراك يفهم به موسى ذلك المعنى . فقل لهم : أفهم كل الكلام ام بعضه ؟ ان كان فهمه كله

فقد علم علم الله . وان كان فهم بعضه فقد تبعه . وعندهم كلام الله لا يتبعه ولا يتعدد .

وقيل لهم : قد فرق الله بين تكليمه لموسى وإيحائه لغيره . وعلى أصلكم لا فرق .

وقيل لهم : قد كفر الله من جعل القرآن العربي قول البشر ، وقد جعله تارة قول رسول من البشر . وتارة قول رسول من الملائكة ، فقال في موضع : (انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) فهذا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقال في الآية الأخرى : (انه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين) فهذا جبريل ، فاضافه تارة الى الرسول الملائكي . وتارة الى الرسول البشري . والله يصطفي من الملائكة رسالا ومن الناس .

وكان بعض هؤلاء ادعى ان القرآن العربي احده جبريل او محمد ف قيل لهم : لو أحدهما لم يجز إضافته الى الآخر . وهو سبحانه اضافه الى كل منها باسم الرسول الدال على مرسله لا باسم الملك والنبي فدل ذلك على انه قول رسول بلغه عن مرسله لا قول ملك او نبي احده من تلقاء نفسه ، بل قد كفر من قال انه قول البشر .

والطائفة الأخرى التي وافقت ابن كلاب على ان الله لا يتكلم
بمشيئته وقدرته قالت : بل الكلام القديم هو حروف ، أو حروف
وأصوات لازمة لذات الرب أزلا وأبداً لا يتكلم بها بمشيئته وقدرته ،
ولا يتكلم بها شيئاً بعد شيء . ولم يفرق هؤلاء بين جنس الحروف
وجنس الكلام ، وبين عين حروف قديمة أزلية ، وهذا أيضاً مما
يقول جمهور العقلاء انه معلوم الفساد بالضرورة ؛ فان الحروف المتعاقبة
شيئاً بعد شيء يتمتع ان يكون كل منها قديماً أزلياً ، وان كان جنسها
قديماً ؛ لامكان وجود كلمات لانهاية لها ، وحروف متعاقبة لانهاية
لها ، وامتناع كون كل منها قديماً أزلياً ، فان المسبوق بغيره
لا يكون أزلياً .

وقد فرق بعضهم بين وجودها وماهيتها فقال : الترتيب في ماهيتها
لا في وجودها . وبطلان هذا القول معلوم بالاضطرار لمن تدبره ، فان
ماهية الكلام الذي هو حروف لا يكون شيئاً بعد شيء ، والصوت
لا يكون إلا شيئاً بعد شيء ، فامتنع أن يكون وجود الماهية المعينة أزلياً
متقدماً عليها به ، مع ان الفرق بينهما بين لو قدر الفرق بينهما .
ويلزم من هذين الوجهين ان يكون وجودها أيضاً مترتباً ترتيباً متعاقباً .

ثم من هؤلاء من يزعم ان ذلك القديم هو ما يسمع من العباد
من الاصوات بالقرآن والتوراة والانجيل أو بعض ذلك ، وكان أظهر

فساداً مما قبله ، فانه يعلم بالضرورة حدوث أصوات العباد .

و « طائفة خامسة » قالت : بل الله يتكلم بمشيئته وقدرته بالقرآن العربي وغيره ؛ لكن لم يكن يمكنه أن يتكلم بمشيئته في الأزل لامتناع حوادث لا أول لها ، وهؤلاء جعلوا الرب في الأزل غير قادر على الكلام بمشيئته ، ولا على الفعل كما فعله أولئك ثم جعلوا الفعل والكلام ممكناً مقدوراً من غير تجديد شيء أوجب القدرة والامكان ، كما قال أولئك في المفعولات المنفصلة .

واما السلف فقالوا : لم يزل الله متكلماً اذا شاء ، وان الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، كما ان من يعلم ويقدر أكمل ممن لا يعلم ولا يقدر ، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازماً لذاته ، ليس له عليه قدرة ولا له فيه مشيئة ، والكمال انما يكون بالصفات القائمة بالموصوف لا بالأمور المباشرة له ، ولا يكون الموصوف متكلماً علماً قادراً إلا بما يقوم به من الكلام والعلم والقدرة . واذا كان كذلك فمن لم يزل موصوفاً بصفات الكمال أكمل ممن حدث له بعد أن لم يكن متصفاً بها لو كان حدوثها ممكناً ، فكيف اذا كان ممتنعاً ؟ فتبين ان الرب لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال ؛ ومن أجلها الكلام . فلم يزل متكلماً إذا شاء ولا يزال كذلك ، وهو يتكلم اذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن

العربي ، وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقاً منفصلاً عنه ،
فلا تكون الحروف التي هي مباني أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة ،
لان الله تكلم بها .

فصل

ثم تنازع بعض المتأخرين في الحروف الموجودة في كلام الآدميين .
وسبب نزاعهم أصران :

« احدهما » أنهم لم يفرقوا بين الكلام الذي يتكلم الله به فيسمع
منه ، وبين ما إذا بلغه عنه مبلغ فسمع من ذلك المبلغ ، فان القرآن
كلام الله ، تكلم به بلفظه ومعناه بصوت نفسه ؛ فاذا قرأ القراء قرأوه
بأصوات أنفسهم . فاذا قال القاريء : (الحمد لله رب العالمين ، الرحمن
الرحيم) كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه ، وكان
هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت الله ، فالكلام كلام الباري ، والصوت
صوت القاريء ، كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « زينوا القرآن
بأصواتكم » وكان يقول : « ألا رجل يحملني الى قومه لأبلغ كلام
ربي ؟ فان قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » وكلا الحديثين
ثابت ، فيبين ان الكلام الذي يبلغه كلام ربه ، وبين ان القاريء

يقرأه بصوت نفسه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال أحمد والشافعي وغيرها : هو تحسينه بالصوت . قال أحمد بن حنبل : يحسنه بصوته ، فبين أحمد أن القارئ يحسن القرآن بصوت نفسه .

و « السبب الثاني » أن السلف قالوا : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق . وقالوا لم يزل متكلماً إذا شاء . فبينوا أن كلام الله قديم أي جنسه قديم لم يزل ، ولم يقل أحد منهم إن نفس الكلام المعين قديم ، ولا قال أحد منهم القرآن قديم ؛ بل قالوا : انه كلام الله منزل غير مخلوق . وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن بمشيئته كان القرآن كلامه ، وكان منزلاً منه غير مخلوق ، ولم يكن مع ذلك أزلياً قديماً بقدم الله . وإن كان الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، فجنس كلامه قديم . فمن فهم قول السلف وفرق بين هذه الأقوال زالت عنه الشبهات في هذه المسائل المعضلة التي اضطرب فيها أهل الأرض .

فمن قال ان حروف المعجم كلها مخلوقة وان كلام الله تعالى [مخلوق . فقد قال قولاً] مخالفاً للعقول الصريح ، والمنقول الصحيح ، ومن قال نفس أصوات العباد او مدادم او شيئاً من ذلك قديم فقد خالف ايضاً أقوال السلف ، وكان فساد قوله ظاهراً لكل أحد ، وكان مبتدعاً قولاً لم يقاتله أحد من أئمة المسلمين ، ولا قاله طائفة كبيرة من

طوائف المسلمين ، بل الأئمة الأربعة وجمهور أصحابهم بريئون من ذلك . ومن قال إن الحرف المعين أو الكلمة المعينة قديمة العين ، فقد ابتدع قولاً باطلاً في الشرع والعقل .

ومن قال : إن جنس الحروف التي تكلم الله بها بالقرآن وغيره ليست مخلوقة ، وإن الكلام العربي الذي تكلم به ليس مخلوقاً ، والحروف المنتظمة منه جزء منه ولازمة له وقد تكلم الله بها فلا تكون مخلوقة فقد أصاب .

وإذا قال إن الله هدى عباده وعلمهم البيان ، فانطقهم بها باللغات المختلفة ، وأنعم عليهم بأن جعلهم ينطقون بالحروف التي هي مبانى كتبه وكلامه وأسمائه فهذا قد أصاب ، فالإنسان وجميع ما يقوم به من الأصوات والحركات وغيرها مخلوق كائن بعد أن لم يكن ، والرب تعالى بما يقوم به من صفاته وكمالاته وأفعاله غير مخلوق ، والعباد إذا قرأوا كلامه فإن كلامه الذي يقرؤنه هو كلامه لا كلام غيره ، وكلامه الذي تكلم به لا يكون مخلوقاً ، وكان ما يقرؤون به كلامه من حركاتهم وأصواتهم مخلوقاً ، وكذلك ما يكتب في المصاحف من كلامه فهو كلامه مكتوباً في المصاحف وكلامه غير مخلوق ، والمداد الذي يكتب به كلامه وغير كلامه مخلوق .

وقد فرق سبحانه وتعالى بين كلامه وبين مداد كلماته بقوله تعالى :
 (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد
 كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) وكلمات الله غير مخلوقة ، والمداد الذي
 يكتب به كلمات الله مخلوق ، والقرآن المكتوب في المصاحف غير
 مخلوق ، وكذلك المكتوب في اللوح المحفوظ وغيره ، قال تعالى : (بل
 هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) وقال : (كلا إنها تذكرة . فمن
 شاء ذكره . في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة) وقال تعالى : (يتلو
 صحفا مطهرة . فيها كتب قيمة) وقال : (انه لقرآن كريم . في كتاب
 مكنون . لا يمسه الا المطهرون) .

فصل

فهذان المتنازعان اللذان تنازعا في « الأحرف التي أنزلها الله على آدم »
 فقال أحدهما : انها قديمة وليس لها مبتدأ ، وشكلها ونقطتها محدث .
 وقال الآخر : انها ليست بكلام الله ، وانها مخلوقة بشكلها ونقطتها ، وان
 القديم هو الله . وكلامه منه بدأ واليه يعود منزل غير مخلوق ، ولكنه
 كتب بها . وسؤالهما ان نبين لهما الصواب وأيهما أصح اعتقاداً ، يقال
 لهما : يحتاج بيان الصواب إلى بيان مافي السؤال من الكلام المجمل ،

فإن كثيراً من نزاع العقلاء لكونهم لا يتصورون مورد النزاع تصوراً
بيناً ، وكثير من النزاع قد يكون الصواب فيه في قول آخر غير القولين
الذين قالاهما ، وكثير من النزاع قد يكون مبنياً على أصل ضعيف إذا
بين فساد ارتفع النزاع .

فأول ما في هذا السؤال قولها : الأحرف التي أنزلها الله على آدم ،
فانه قد ذكر بعضهم أن الله أنزل عليه حروف المعجم مفرقة مكتوبة ،
وهذا ذكره ابن قتيبة في المعارف ، وهو ومثله يوجد في التواريخ
كتاريخ ابن جرير الطبري ونحوه ، وهذا ونحوه منقول عن ينقل
الاحاديث الاسرائيلية ونحوها من أحاديث الأنبياء المتقدمين ، مثل
وهب بن منبه وكعب الاحبار ، ومالك بن دينار ، ومحمد بن
اسحاق وغيرهم .

وقد أجمع المسلمون على أن ما ينقله هؤلاء عن الأنبياء المتقدمين
لا يجوز أن يجعل عمدة في دين المسلمين إلا إذا ثبت ذلك بنقل متواتر ،
أو أن يكون منقولاً عن خاتم المرسلين ، وأيضاً فهذا النقل قد عارضه
نقل آخر وهو : « أن أول من خط وخط ادريس » . فهذا منقول عن بعض
السلف وهو مثل ذلك وأقوى ، فقد ذكروا فيه أن ادريس أول من
خط الثياب وخط بالقلم : وعلى هذا فبنوا آدم من قبل ادريس لم يكونوا
يكتبون بالقلم ولا يقرؤون كتباً . والذي في حديث أبي ذر المعروف عن أبي ذر عن

النبي صلى الله عليه وسلم : « ان آدم كان نبياً مكلاً كلمه الله قبلاً »
وليس فيه أنه أنزل عليه شيئاً مكتوباً ، فليس فيه ان الله أنزل على
آدم صحيفة ولا كتاباً ، ولا هذا معروف عند أهل الكتاب ، فهذا يدل
على أن هذا لا أصل له ، ولو كان هذا معروفاً عند أهل الكتاب لكان
هذا النقل ليس هو في القرآن ، ولا في الأحاديث الصحيحة عن النبي
صلى الله عليه وسلم وإنما هو من جنس الأحاديث الإسرائيلية التي
لا يجب الإيمان بها ؛ بل ولا يجوز التصديق بصحتها إلا بحجة ، كما
قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « إذا حدثكم أهل
الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ؛ فلما أن يحدثكم بحق فتكذبوه ،
وأما أن يحدثكم بباطل فتصدقوه . »

والله سبحانه علم آدم الاسماء كلها . وانطقه بالكلام المنظوم . وأما
تعليم حروف مقطعة لا سيما إذا كانت مكتوبة فهو تعليم لا ينفع ، ولكن
لما أرادوا تعليم المبتدئ بالخط صاروا يعلمونه الحروف المفردة حروف
الهجاء ، ثم يعلمونه تركيب بعضها الى بعض ، فيعلم أبجد هوز ، وليس
هذا وحده كلاماً .

فهذا المنقول عن آدم من نزول حروف الهجاء عليه لم يثبت به نقل ،
ولم يدل عليه عقل ؛ بل الأظهر في كليها نفيه ، وهو من جنس ما يروونه
عن النبي صلى الله عليه وسلم من تفسير ا ، ب ، ت ، ث ، وتفسير أبجد ،

هوز ، حطي ، ويروونه عن المسيح أنه قاله لمعلمه في الكتاب ، وهذا كله من الأحاديث الواهية بل المكذوبة . ولا يجوز باتفاق أهل العلم بالنقل أن يحتج بشيء من هذه ، وإن كان قد ذكرها طائفة من المصنفين في هذا الباب ، كالشريف المزيدي ، والشيخ أبي الفرج ، وابنه عبد الوهاب وغيرهم . وقد يذكر ذلك طائفة من المفسرين والمؤرخين ، فهذا كله عند أهل العلم بهذا الباب باطل لا يعتمد عليه في شيء من الدين .

وهذا وإن كان قد ذكره أبو بكر النقاش وغيره من المفسرين وعن النقاش ونحوه نقله الشريف المزيدي الحراني وغيره (١) فأجل من ذكر ذلك من المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، وقد بين في تفسيره أن كل ما نقل في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو باطل . فذكر في آخر تفسيره اختلاف الناس في تفسير أبجد ، هوز ، حطي ، وذكر حديثاً رواه من طريق محمد بن زياد الجزري ، عن فرات بن أبي الفرات ، عن معاوية بن قررة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعلموا أبجاده وتفسيرها ، ويل لعالم جهل تفسير أبي جاد » قال : قالوا يا رسول الله وما تفسيرها ؟ قال : « أما الألف فآلاء الله وحرف من أسمائه . وأما الباء فبهاء الله ، وأما الجيم فجلال الله ، وأما الدال فدين

(١) في هذا التركيب نظر . والمعنى : أن هذا إن كان النقاش والمزيدي وأبو الفرج وابنه قد ذكروه وسكتوا عليه فابن جرير قد ذكره وصرح بطلانه وهو أجل منهم .

الله : وأما الهاء فالهاوية ، وأما الواو فويل لمن سها ، وأما الزاي فالزاوية
وأما الحاء فحطوط الخطايا عن المستغفرين بالاسحار ، وذكر تمام الحديث
من هذا الجنس .

وذكر حديثاً ثانياً من حديث عبد الرحيم بن واقد حدثني الفرات
ابن السائب عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : « ليس شيء
إلا وله سبب ، وليس كل أحد يفطن له ولا بلغه ذلك ، ان لأبي جاد
حديثاً عجيباً ، أما « أبو جاد » فأبي آدم الطاعة وجد في اكل الشجرة .
وأما « هوز » فزل آدم فهوى من السماء إلى الأرض ، وأما « حطي »
فحطت عنه خطيئته ، وأما « كلمن » فأكله من الشجرة ومن عليه بالتوبة »
وساق تمام الحديث من هذا الجنس .

وذكر حديثاً ثالثاً من حديث اسماعيل بن عياش عن اسماعيل بن يحيى
عن ابن أبي مليكة عن حدثه عن ابن مسعود ومسر بن كدام عن أبي
سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان عيسى بن مريم
أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه ، فقال له المعلم : اكتب بسم الله ، فقال
له عيسى . وما بسم الله ؟ فقال له المعلم وما ادري . فقال له عيسى الباء
بهاء الله . والسين سناؤه ، والميم ملكه ، والله إله الآلهة ، والرحمن رحمن
الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة . ابو جاد : الف آلاء الله ، وباء بهاء
الله . وجيم جمال الله ، ودال الله الدائم ، وهوز هاء الهاوية » وذكر حديثاً

من هذا الجنس ، وذكره عن الربيع بن أنس موقوفا عليه . وروى أبو
الفرج المقدسي عن الشريف الزيدي حديثاً عن عمر عن النبي صلى الله عليه
وسلم في تفسير : ا ، ب ، ت ، ث من هذا الجنس .

ثم قال ابن جرير : ولو كانت الأخبار التي رويت عن النبي صلى
الله عليه وسلم في ذلك صحاح الأسانيد لم يعدل عن القول بها الى غيرها
ولكنها واهية الأسانيد غير جاز الاحتجاج بمثلها : وذلك أن محمد بن
زياد الجزري الذي حدث حديث معاوية بن قررة عن فرات عنه غير
موثوق بنقله ، وإن عبد الرحيم بن واقد الذي خالفه في رواية ذلك عن
الفرات مجهول غير معروف عند أهل النقل ، وإن اسماعيل بن يحيى
الذي حدث عن ابن أبي مليكة غير موثوق بروايته ولا جاز عند أهل
النقل الاحتجاج بأخباره .

قلت : اسماعيل بن يحيى هذا يقال له التيمي كوفي معروف بالكذب ،
ورواية اسماعيل بن عياش في غير الشاميين لا يحتج بها ، بل هو ضعيف
فيما ينقله عن أهل الحجاز وأهل العراق ، بخلاف ما ينقله عن شيوخه
الشاميين ؛ فانه حافظ لحديث أهل بلده كثير الغلط في حديث أولئك
وهذا متفق عليه بين أهل العلم بالرجال ، وعبد الرحمن بن واقد
لا يحتج به باتفاق أهل العلم ، وفرات بن السائب ضعيف أيضاً

لا يحتاج به فهو فرات بن أبي الفرات ، ومحمد بن زياد الجزري
ضعيف أيضاً .

وقد تنازع الناس في أبجد ، هوز ، حطي ، فقال طائفة هي أسماء
قوم ، قيل أسماء ملوك مدين ، أو أسماء قوم كانوا ملوكاً جبارة . وقيل :
هي أسماء الستة الأيام التي خلق الله فيها الدنيا . والاول اختيار الطبري .
وزعم هؤلاء أن أصلها أبو جاد مثل أبي عاد ، وهواز مثل رواد
وجواب . وإنما لم تعرب لعدم العقد والتركيب .

والصواب : أن هذه ليست أسماء لمسيات ، وإنما ألقت ليعرف
تأليف الأسماء من حروف المعجم بعد معرفة حروف المعجم . ولفظها :
أبجد ، هوز ، حطي ، ليس لفظها أبو جاد ، هواز . ثم كثير من أهل
الحساب صاروا يجعلونها علامات على مراتب العدد . فيجعلون الألف
واحداً . والباء اثنين ، والجيم ثلاثة ، إلى الياء ثم يقولون الكاف
عشرون ... وآخرون من أهل الهندسة والمنطق يجعلونها علامات على
الخطوط المكتوبة ، أو على ألفاظ الأقيسة المؤلفة كما يقولون : كل ألف
ب ، وكل ب ج ، فكل ألف ج . ومثلوا بهذه لكونها ألفاظاً تدل
على صورة الشكل ، والقياس لا يختص بمادة دون مادة .

كما جعل أهل التصريف لفظ « فعل » تقابل الحروف الأصلية .

والزائدة ينطقون بها . ويقولون : وزن استخرج « استفعل » ،
وأهل العروض يزنون بألفاظ مؤلفة من ذلك ؛ لكن يراعون الوزن
من غير اعتبار بالأصل ، والزائد ؛ ولهذا سئل بعض هؤلاء عن وزن
نكتل فقال نفعل ، وضحك منه أهل التصريف . ووزنه عندهم نفعل
فان أصله نكتال ، وأصل نكتال : نكتيل . تحركت الياء وانفتح
ما قبلها فقلت الفا ، ثم لما جزم الفعل سقطت ، كما نقول مثل ذلك في
نعتد ونقتد من اعتاد يعتاد واقتاد البعير يقتاده . ونحو ذلك في نقتيل ،
فلما حذفوا الألف التي تسمى لام الكلمة صار وزنها .

وجعلت « ثمانية » تكون متحركة : وهي الهمزة ، وتكون ساكنة
وهي حرفان على الاصطلاح الأول ، وحرف واحد على الثاني ، والألف
تقرن بالواو والياء لأنهن حروف العلة ، ولهذا ذكرت في آخر حروف
المعجم ، ونطقوا بأول لفظ كل حرف منها إلا الألف فلم يمكنهم أن
ينطقوا بها ابتداء ، فجعلوا اللام قبلها فقالوا : « لا » والتي في الأول
هي الهمزة للمتحركة ، فان الهمزة في أولها . وبعض الناس ينطق بها
« لام ألف » والصواب أن ينطق بها « لا » وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن العلم لا بد فيه من نقل مصدق ونظر محقق .
وأما النقول الضعيفة لاسيا المكذوبة فلا يعتمد عليها . وكذلك النظريات
الفاسدة ، والعقليات الجبلية الباطلة لا يحتاج بها .

(الثاني) أن يقال : هذه الحروف الموجودة في القرآن العربي قد تكلم الله بها بأسماء حروف ، مثل قوله : (الم وقوله المص وقوله الم طس — حم — كهيعص — حم عسق — ن — ق) فهذا كله كلام الله غير مخلوق .

(الثالث) أن هذه الحروف إذا وجدت في كلام العباد ، وكذلك الاسماء الموجودة في القرآن اذا وجدت في كلام العباد مثل آدم ، ونوح ، ومحمد ، وإبراهيم وغير ذلك ، فيقال : هذه الاسماء وهذه الحروف قد تكلم الله بها ؛ لكن لم يتكلم بها مفردة . فان الاسم وحده ليس بكلام ؛ ولكن تكلم بها في كلامه الذي أنزله في مثل قوله (محمد رسول الله) وقوله : (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) إلى قوله : (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) وقوله : (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) ونحو ذلك ، ونحن إذا تكلمنا بكلام ذكرنا فيه هذه الاسماء ، فكلامنا مخلوق وحروف كلامنا مخلوقة ، كما قال احمد بن حنبل لرجل : ألسنت مخلوقا؟ قال : بلى ، قال : أليس كلامك منك ؟ قال : بلى ، قال : أليس كلامك مخلوقا ؟ قال : بلى ، قال : قاله تعالى غير مخلوق ، وكلامه منه ليس بمخلوق .

فقد نص احمد وغيره على ان كلام العباد مخلوق ، وهم إنما

يتكلمون بالأسماء والحروف التي يوجد نظيرها في كلام الله تعالى . لكن الله تعالى تكلم بها بصوت نفسه وحروف نفسه وذلك غير مخلوق ، وصفات الله تعالى لا تماثل صفات العباد ؛ فان الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ، ولا صفاته ، ولا أفعاله ، والصوت الذي ينادي به عباده يوم القيامة والصوت الذي سمعه منه موسى ليس كاصوات شيء من المخلوقات ، والصوت المسموع هو حروف مؤلفة وتلك لا يماثلها شيء من صفات المخلوقين ، كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده ، فان الله لا يماثل المخلوقين في شيء من الصفات ، وهو سبحانه قد علم العباد من علمه ما شاء ، كما قال تعالى : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) وهم إذا علمهم الله ما علمهم من علمه ، فنفس علمه الذي اتصف به ليس مخلوقا ، ونفس العباد وصفاتهم مخلوقة ، لكن قد ينظر الناظر إلى مسمى العلم مطلقاً ، فلا يقال : ان ذلك العلم مخلوق لاتصاف الرب به ، وان كان ما يتصف به العبد مخلوقا .

واصل هذا ان ما يوصف الله به ويوصف به العباد يوصف الله به على ما يليق به ، ويوصف به العباد بما يليق بهم من ذلك ؛ مثل الحياة والعلم والقدرة ، والسمع والبصر والكلام ، فان الله له حياة وعلم وقدرة ، وسمع وبصر وكلام . فكلامه يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه ، والعبد له حياة وعلم وقدرة ، وسمع وبصر وكلام ،

وكلام العبد يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه .

فهذه الصفات لها ثلاث اعتبارات : تارة تعتبر مضافة إلى الرب .
وتارة تعتبر مضافة إلى العبد ، وتارة تعتبر مطلقة لا تختص بالرب ولا
بالعبد . فاذا قال العبد : حياة الله وعلم الله وقدره الله وكلام الله ونحو
ذلك ، فهذا كله غير مخلوق ولا يماثل صفات المخلوقين ، وإذا قال علم
العبد وقدره العبد وكلام العبد ، فهذا كله مخلوق ولا يماثل صفات
الرب . وإذا قال العلم والقدرة والكلام ، فهذا مجمل مطلق لا يقال
عليه كله انه مخلوق ولا انه غير مخلوق ، بل ما اتصف به الرب من
ذلك فهو غير مخلوق ، وما اتصف به العبد من ذلك فهو مخلوق .
فالصفة تتبع الموصوف . فان كان الموصوف هو الخالق فصفاته غير
مخلوقة ، وان كان الموصوف هو العبد المخلوق فصفاته مخلوقة .

ثم إذا قرأ بام القرآن وغيرها من كلام الله فالقرآن في نفسه
كلام الله غير مخلوق ، وإن كان حركات العباد واصواتهم مخلوقة . ولو
قال الجنب : (الحمد لله رب العالمين) ينوي به القرآن منع من ذلك
وكان قرآنا ، ولو قاله ينوي به حمد الله لا يقصد به القراءة لم يكن
قارئاً وجاز له ذلك .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « افضل الكلام بعد

القرآن اربع وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله اكبر » رواه مسلم في صحيحه . فاخبر انها أفضل الكلام بعد القرآن وقال هي من القرآن ، فهي من القرآن باعتبار ، وليست من القرآن باعتبار ، ولو قال القائل : (يا يحيى خذ الكتاب) ومقصوده القرآن كان قد تكلم بكلام الله ولم تبطل صلاته باتفاق العلماء ، وان قصد مع ذلك تنبيه غيره لم تبطل صلاته عند جمهور العلماء . ولو قال لرجل اسمه يحيى وبحضرته كتاب : يا يحيى خذ الكتاب لكان هذا مخلوقا ؛ لأن لفظ يحيى هنا مراد به ذلك الشخص ، وبالكتاب ذلك الكتاب ليس مراداً به ما اراده الله بقوله : (يا يحيى خذ الكتاب) والكلام كلام [المخلوق] بلفظه ومعناه .

وقد تنازع الناس في مسمى « الكلام » في الأصل ، ف قيل : هو اسم اللفظ الدال على المعنى ، وقيل : المعنى المدلول عليه باللفظ ، وقيل : لكل منها بطريق الاشتراك اللفظي ، وقيل : بل هو اسم عام لهما جميعاً يتناولهما عند الاطلاق ، وان كان مع التقييد يراد به هذا تارة وهذا تارة . هذا قول السلف وأئمة الفقهاء وان كان هذا القول لا يعرف في كثير من الكتب .

وهذا كما تنازع الناس في مسمى « الانسان » هل هو الروح فقط أو الجسد فقط ؟ والصحيح انه اسم للروح والجسد جميعاً ، وان

كان مع القرينة قد يراد به هذا تارة وهذا تارة ، فتنازعهم في مسمى النطق كتنازعهم في مسمى الناطق . فمن سمي شخصاً محمداً وإبراهيم . وقال : جاء محمد وجاء إبراهيم لم يكن هذا محمد وإبراهيم . المذكورين في القرآن . ولو قال : محمد رسول الله ، وإبراهيم خليل الله . يعني به خاتم الرسل و خليل الرحمن لكان قد تكلم بمحمد وإبراهيم الذي في القرآن ، لكن قد تكلم بالاسم والفه كلاماً فهو كلامه لم يتكلم به في القرآن العربي الذي تكلم الله به .

ومما يوضح ذلك ان الفقهاء قالوا في « آداب الخلاء » انه لا يستصحب ما فيه ذكر الله ، واحتجوا بالحديث الذي في السنن « ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا دخل الخلاء نزع خاتمه . وكان خاتمه مكتوباً عليه « محمد رسول الله » محمد سطر ، رسول سطر ، الله سطر . ولم يمنع أحد من العلماء ان يستصحب ما يكون فيه كلام العباد وحروف الهجاء مثل ورق الحساب الذي يكتب فيه أهل الديوان الحساب ، ومثل الأوراق التي يكتب فيها الباعة ما يبيعونه ونحو ذلك .

وفي السيرة « ان النبي صلى الله عليه وسلم لما صالح غطفان على نصف تمر المدينة أتاه سعد فقال له : اهذا شيء أمر الله به فسمعاً وطاعة ، أم شيء تفعله لمصلحتنا ؟ فبين له النبي صلى الله عليه وسلم انه لم يفعل ذلك بوحي بل فعله باجتهاده فقال : لقد كنا في الجاهلية

وما كانوا يأكلون منها ثمرة الا بقرى أو بشراء ، فلما اعزنا الله بالاسلام يريدون ان يأكلوا تمرنا لا يأكلون ثمرة واحدة ، وبصق سعد في الصحيفة وقطعها « فاقره النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ولم يقل هذه حروف ، فلا يجوز اهانتها والبصاق فيها . وأيضاً فقد ذكره السلف محو القرآن بالرجل ولم يكرهوا محو ما فيه كلام الآدميين .

وأما قول القائل : ان الحروف قديمة أو حروف المعجم قديمة فان أراد جنسها فهذا صحيح ، وإن أراد الحرف المعين فقد اخطأ ، فان له مبدأ ومنتهى ، وهو مسبق بغيره ، وما كان كذلك لم يكن إلا محدثاً .

وأيضاً فلفظ الحروف مجمل ، يراد بالحروف الحروف المنطوقة المسموعة التى هي مباني الكلام ، ويراد بها الحروف المكتوبة ، ويراد بها الحروف المتخيلة فى النفس ، والصوت لا يكون كلاماً إلا بالحروف باتفاق الناس . وأما الحروف فهل تكون كلاماً بدون الصوت ؟ فيه نزاع . والحرف قد يراد به الصوت المقطع ، وقد يراد به نهاية الصوت وحده ، وقد يراد بالحروف المداد ، وقد يراد بالحروف شكل المداد ، فالحروف التى تكلم الله بها غير مخلوقة ، وإذا كتبت فى المصحف قيل كلام الله المكتوب فى المصحف غير مخلوق ، وأما نفس أصوات العباد فمخلوقة والمداد مخلوق وشكل المداد مخلوق . فالمداد مخلوق بمادته وصورته ، وكلام الله المكتوب بالمداد غير مخلوق . ومن كلام الله

الحروف التي تكلم الله بها . فاذا كتبت بالمداد لم تكن مخلوقة وكان المداد مخلوقا . وأشكال الحروف المكتوبة مما يختلف فيها اصطلاح الامم .

والخط العربي قد قيل ان مبداءه كان من الأنبار ، ومنها انتقل الى مكة وغيرها ، والخط العربي يختلف صورته : العربي القديم فيه تكوف ، وقد اصطلح المتأخرون على تغيير بعض صورته ، وأهل المغرب لهم اصطلاح ثالث حتى في نقط الحروف وترتيبها ، وكلام الله المكتوب بهذه الخطوط كالقرآن العربي هو في نفسه لا يختلف باختلاف الخطوط التي يكتب بها .

فان قيل : فالحرف من حيث هو مخلوق أو غير مخلوق مع قطع النظر عن كونه في كلام الخالق أو كلام المخلوق ؟ فان قلتم هو من حيث هو غير مخلوق لزم أن يكون غير مخلوق في كلام العباد ، وان قلتم مخلوق لزم ان يكون مخلوقا في كلام الله ؟ قيل : قول القائل الحرف من حيث هو هو كقوله الكلام من حيث هو هو ، والعلم من حيث هو هو ، والقدرة من حيث هي هي ، والوجود من حيث هو هو ، ونحو ذلك .

والجواب عن ذلك ان هذه الأمور وغيرها اذا أخذت مجردة مطلقة غير مقيدة ولا مشخصة لم يكن لها حقيقة في الخارج عن الازهان

إلا شيء معين ، فليس ثم وجود إلا وجود الخالق أو وجود المخلوق
ووجود كل مخلوق مختص به وإن كان اسم الوجود عاما يتناول ذلك كله ،
وكذلك العلم والقدرة اسم عام يتناول أفراد ذلك ، وليس في الخارج
إلا علم الخالق وعلم المخلوق ، وعلم كل مخلوق مختص به قائم به ،
واسم الكلام والحروف يعم كل ما يتناوله لفظ الكلام والحروف وليس
في الخارج إلا كلام الخالق وكلام المخلوقين . وكلام كل مخلوق مختص به
واسم الكلام يعم كل ما يتناوله هذا اللفظ . وليس في الخارج إلا
الحروف التي تكلم الله بها الموجودة في كلام الخالق ، والحروف الموجودة
في كلام المخلوقين . فإذا قيل : أن علم الرب وقدرته وكلامه غير مخلوق ،
وحروف كلامه غير مخلوقة لم يلزم من ذلك أن يكون علم العبد وقدرته
وكلامه غير مخلوق ، وحروف كلامه غير مخلوقة .

وأیضا فلفظ الحرف يتناول الحرف المنطوق والحرف المكتوب .
وإذا قيل إن الله تكلم بالحروف المنطوقة كما تكلم بالقرآن العربي وبقوله :
(الم - وحم - وطسم - وطس - ويس - وق - ون) ونحو
ذلك فهذا كلامه وكلامه غير مخلوق ، وإذا كتب في المصاحف كان ما
كتب من كلام الرب غير مخلوق وإن كان المداد وشكله مخلوقا .

و « أيضا » فإذا قرأ الناس كلام الله فالكلام في نفسه غير مخلوق
إذا كان الله قد تكلم به ، وإذا قرأ المبلغ لم يخرج عن أن يكون

كلام الله : فان الكلام كلام من قاله مبتدئاً امرأً يأمر به . أو خبراً
يخبر به . ليس هو كلام المبلغ له عن غيره : اذ ليس على الرسول الا
البلاغ المبين . وإذا قرأه المبلغ فقد بشار اليه من حيث هو كلام الله
فيقال هذا كلام الله مع قطع النظر عما بلغه به العباد من صفاتهم :
وقد بشار الى نفس صفة العبد كحركته وحياته ، وقد بشار اليهما .
فالشار اليه الأول غير مخلوق : والشار اليه الثاني مخلوق ، والشار
اليه الثالث فتمه مخلوق ومنه غير مخلوق . وما يوجد في كلام الآدميين
من نظير هذا هو نظير صفة العبد لا نظير صفة الرب أبداً .

وإذا قال القائل القاف في قوله (أقم الصلاة لذكري) كالقاف
في قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

قيل : ما تكلم الله به وسمع منه لا يماثل صفة المخلوقين ، ولكن
إذا بلغنا كلام الله فانما بلغناه بصفاتنا وصفاتنا مخلوقة . والمخلوق
يماثل المخلوق .

وفي هذا جواب للطائفتين لمن قاس صفة المخلوق بصفة الخالق
فجعلها غير مخلوقة ، فان الجهمية المعطلة أشباه اليهود ، والحلولية الممثلة

أشياء النصارى دخلوا في هذا وهذا ، أولئك مثلوا الخالق بالخلق
فوصفوه بالنقائص التي تختص بالخلق : كالفقر والبخل ، وهؤلاء مثلوا
الخلق بالخالق فوصفوه بمخائص الربوبية التي لا تصلح إلا لله ،
والمسلمون يصفون الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسالته ،
من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكيف ولا تمثيل ، بل يثبتون
له ما يستحقه من صفات الكمال ، وينزهونه عن الاكفاء والأمثال ،
فلا يعطلون الصفات ولا يمثلونها بصفات المخلوقات ؛ فان المعطل يعبد
عدما ، والممثل يعبد صنماً . والله تعالى (ليس كمثله شيء وهو
السميع البصير) .

ومما ينبغي أن يعرف أن كلام التكلم في نفسه واحد ، وإذا بلغه
المبلغون تختلف أصواتهم به ، فاذا أنشد المنشد قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

كان هذا الكلام كلام لبيد لفظه ومعناه ، مع أن أصوات المنشدين
له تختلف ، وتلك الأصوات ليست صوت لبيد ، وكذلك ممن روى
حديث النبي صلى الله عليه وسلم بلفظه ، كقوله : « إنما الأعمال بالنيات ،
وإنما لكل امرئ ما نوى » كان هذا الكلام كلام رسول الله صلى
الله عليه وسلم لفظه ومعناه ، ويقال لمن رواه : أدى الحديث بلفظه ،

وإن كان صوت المبلّغ ليس هو صوت الرسول ، فالقرآن أولى أن يكون كلام الله لفظه ومعناه ، وإذا قرأ القراء فأنما يقرؤونه بأصواتهم .

ولهذا كان الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة يقولون : من قال اللفظ بالقرآن أو لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال إنه غير مخلوق فهو مبتدع ، وفي بعض الروايات عنه : من قال لفظي بالقرآن مخلوق يعني به القرآن فهو جهمي ؛ لأن اللفظ يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً ، ومسمى هذا فعل العبد وفعل العبد مخلوق ، ويراد باللفظ القول الذي يلفظ به اللفظ ، وذلك كلام الله لا كلام القارئ . فمن قال إنه مخلوق فقد قال إن الله لم يتكلم بهذا القرآن ، وإن هذا الذي يقرؤه المسلمون ليس هو كلام الله ، ومعلوم أن هذا مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول .

وأما صوت العبد فهو مخلوق . وقد صرح أحمد وغيره بأن الصوت المسموع صوت العبد . ولم يقل أحمد قط : من قال إن صوتي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، وإنما قال من قال لفظي بالقرآن ، والفرق بين لفظ الكلام وصوت المبلّغ له فرق واضح ، فكل من بلغ كلام غيره بلفظ ذلك الرجل فأنما بلغ لفظ ذلك الغير لا لفظ نفسه : وهو إنما بلغه بصوت نفسه لا بصوت ذلك الغير . ونفس اللفظ والتبلاوة والقراءة والكتابة ونحو ذلك لما كان يراد به المصدر الذي هو حركات

العباد ، وما يحدث عنها من اصواتهم وشكل المداد ، ويراد به نفس الكلام الذي يقرأه التالي ويتلوه ويلفظ به ويكتبه : منع أحمد وغيره من اطلاق النفي والاثبات ، الذي يقتضي جعل صفات الله مخلوقة ، أو جعل صفات العباد ومدادهم غير مخلوق .

وقال أحمد : نقول القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف : أي حيث تلي وكتب وقرئ مما هو في نفس الأمر كلام الله ، فهو كلامه ، وكلامه غير مخلوق ، وما كان من صفات العباد وأفعالهم التي يقرؤون ويكتبون بها كلامه كأصواتهم ومدادهم فهو مخلوق : ولهذا من لم يهتد الى هذا الفرق يحار ، فانه معلوم أن القرآن واحد ويقرأه خلق كثير ، والقرآن لا يكثر في نفسه بكثرة قراءة القراء ، وإنما يكثر ما يقرؤون به القرآن ، فما يكثر ويحدث في العباد فهو مخلوق : والقرآن نفسه لفظه ومعناه الذي تكلم الله به ، وسمعه جبريل من الله . وسمعه محمد من جبريل ، وبلغه محمد إلى الناس ، وأنذر به الأمم : لقوله تعالى : (لاندركم به ومن بلغ) قرآن واحد ، وهو كلام الله ليس بمخلوق .

وليس هذا من باب ما هو واحد بالنوع متعدد الأعيان ، كالإنسانية الموجودة في زيد وعمرو ، ولا من باب ما يقول الانسان مثل قول غيره كما قال تعالى : (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم) فان

القرآن لا يقدر أحد أن يأتي بمثله ، كما قال تعالى : (قل لئن اجتمعت
الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان
بعضهم لبعض ظهيراً) فالانس والجن إذا اجتمعوا لم يقدرُوا أن يأتوا
بمثل هذا القرآن مع قدرة كل قارئ على أن يقرأه ويبلغه .

فعلم أن ما قرأه هو القرآن ليس هو مثل القرآن ، وأما الحروف
الموجودة في القرآن إذا وجد نظيرها في كلام غيره فليس هذا هو
ذاك بعينه بل هو نظيره . وإذا تكلم الله باسم من الأسماء : كآدم ونوح
وإبراهيم ، وتكلم بتلك الحروف والأسماء التي تكلم الله بها ، فإذا قرئت
في كلامه فقد بلغ كلامه ، فإذا أنشأ الانسان لنفسه كلاماً لم يكن عين
ما تكلم الله به من الحروف والأسماء هو عين ما تكلم به العبد حتى يقال :
إن هذه الأسماء والحروف الموجودة في كلام العباد غير مخلوقة : فان
بعض من قال إن الحروف والأسماء غير مخلوقة في كلام العباد ادعى ان
المخلوق إنما هو النظم والتأليف دون المفردات ، وقائل هذا يلزمه أن
يكون أيضاً النظم والتأليف غير مخلوق إذا وجد نظيره في القرآن
كقوله : (يا يحيى خذ الكتاب) وإن أراد بذلك شخصاً اسمه يحيى
وكتاباً يحضرته .

(فان قيل) يحيى هذا والكتاب الحاضر ليس هو يحيى والكتاب
المذكور في القرآن ، وان كان اللفظ نظير اللفظ ، (قيل) كذلك

سائر الأسماء والحروف إنما يوجد نظيرها في كلام العباد لا في كلام الله .
وقولنا يوجد نظيرها في كلام الله تقريب أي يوجد فيما نقرأه وتتلوه ،
فان الصوت المسموع من لفظ محمد ويحيى وإبراهيم في القرآن هو مثل
الصوت المسموع من ذلك في غير القرآن ، وكلا الصوتين مخلوق . واما
الصوت الذي يتكلم الله به فلا مثل له لا يماثل صفات المخلوقين ،
وكلام الله هو كلامه بنظمه ونثره ومعانيه . وذلك الكلام ليس مثل
كلام المخلوقين . فاذا قلنا : (الحمد لله رب العالمين) وقصد بذلك
قراءة القرآن الذي تكلم الله به فذلك القرآن تكلم الله بلفظه ومعناه
لا يماثل لفظ المخلوقين ومعنهم ، واما إذا قصدنا به الذكر ابتداء من
غير أن نقصد قراءة كلام الله فانما نقصد ذكراً ننشئه نحن يقوم معناه
بقلوبنا ، وتنطق بلفظه بألسنتنا ، وما أنشأناه من الذكر فليس هو من
القرآن وان كان نظيره في القرآن .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « أفضل
الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ،
ولا إله إلا الله ، والله أكبر » فجعل النبي صلى الله عليه وسلم هذه
الكلمات أفضل الكلام بعد القرآن . فجعل درجتها دون درجة القرآن ،
وهذا يقتضي أنها ليست من القرآن . ثم قال : « هي من القرآن »
وكلا قوله حق وصواب ؛ ولهذا منع أحمد أن يقال : الإيمان مخلوق .

وقال : لا إله إلا الله من القرآن . وهذا الكلام لا يجوز أن يقال :
إنه مخلوق وإن لم يكن من القرآن ، ولا يقال في التوراة والإنجيل أنها
مخلوقان ، ولا يقال في الأحاديث الإلهية التي يرويها عن ربه أنها مخلوقة
كقوله : « يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً
فلا تظالموا » فكلام الله قد يكون قرآناً وقد لا يكون قرآناً . والصلاة
إنما تجوز وتصح بالقرآن . وكلام الله كله غير مخلوق .

فاذا فهم هذا في مثل هذا فليفهم في نظائره ، وإن ما يوجد من
الحروف والأسماء في كلام الله ويوجد في غير كلام الله يجوز أن يقال :
انه من كلام الله باعتبار ، ويقال ليس من كلام الله باعتبار ، كما أنه يكون
من القرآن باعتبار وغير القرآن باعتبار ، لكن كلام الله القرآن وغير
القرآن غير مخلوق ، وكلام المخلوقين كله مخلوق . فما كان من كلام الله
فهو غير مخلوق . وما كان من كلام غيره فهو مخلوق .

وهؤلاء الذين يحتجون على نفي الخلق أو اثبات القدم بشيء من
صفات العباد وأعمالهم لوجود نظير ذلك فيما يضاف إلى الله وكلامه
والإيمان به ، شاركهم في هذا الأصل الفاسد من احتج على خلق ما هو
من كلام الله وصفاته بأن ذلك قد يوجد نظيره فيما يضاف إلى العبد .
مثال ذلك : أن القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله قرؤه
بحركاتهم وأصواتهم ، فقال الجهمي أصوات العباد ومدادهم مخلوقة وهذا

هو المسمى بكلام الله ، أو يوجد نظيره في المسمى بكلام الله .
فيكون كلام الله مخلوقا .

وقال الحلوي الاتحادي الذي يجعل صفة الخالق هي عين صفة
المخلوق الذي : نسمعه من القراء هو كلام الله ، وإنما نسمع اصوات
العباد فاصوات العباد بالقرآن كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق فاصوات
العباد بالقرآن غير مخلوقة ، والحروف المسموعة منهم غير مخلوقة ، ثم
قالوا : الحروف الموجودة في كلامهم هي هذه او مثل هذه فتكون
غير مخلوقة . وزاد بعض غلاتهم فجعل أصوات كلامهم غير مخلوقة ،
كما زعم بعضهم ان الاعمال من الايمان وهو غير مخلوق والاعمال غير
مخلوقة . وزاد بعضهم أعمال الخير والشر ، وقال : هي القدر والشرع
المشروع ، وقال عمر : ما مرادنا بالاعمال الحركات بل الثواب الذي
يأتي يوم القيامة ، كما ورد في الحديث الصحيح : « انه تأتي البقرة
وآل عمران كأنهما غمامتان او غيابتان ، او فرقان من طير صواف »
فيقال له : وهذا الثواب مخلوق . وقد نص احمد وغيره من الأئمة على
أنه غير مخلوق ، وبذلك أجابوا من احتج على خلق القرآن بمثل هذا
الحديث فقالوا له : الذي يجيء يوم القيامة هو ثواب القرآن لانفس
القرآن وثواب القرآن مخلوق ، الى أمثال هذه الأقوال التي ابتدعها
طوائف ، والبدع تنشأ شيئا فشيئا ، وقد بسط الكلام في هذا الباب
في مواضع أخر .

وقد بينا أن الصواب في هذا الباب هو الذي دل عليه الكتاب والسنة واجماع السابقين الأولين والتابعين لهم باحسان . وهو ما كان عليه الامام احمد بن حنبل ومن قبله من أئمة الاسلام ومن وافق هؤلاء ، فان قول الامام احمد وقول الأئمة قبله هو القول الذي جاء به الرسول ، ودل عليه الكتاب والسنة ، ولكن لما امتحن الناس بمحنة الجهمية ، وطلب منهم تعطيل الصفات ، وان يقولوا بان القرآن مخلوق ، وان الله لا يرى في الآخرة ونحو ذلك ، ثبت الله الامام احمد في تلك المحنة ؛ فدفع جميع المعارضين النفاة ، وأظهر دلالة الكتاب والسنة ، وان السلف كانوا على الاثبات فآتاه الله من الصبر واليقين ماصار به إماما للمتقين كما قال تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)

ولهذا قيل فيه رحمه الله : عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه . أنه البدع فنفاها ، والدنيا فأبأها ، فلما ظهر به من السنة ما ظهر كان له من الكلام في بيانها ، وإظهارها أكثر وأعظم مما لغيره ، فصار أهل السنة من عامة الطوائف يعظمونه وينتسبون اليه .

وقد ذكرت كلامه وكلام غيره من الأئمة ونصوص الكتاب والسنة في هذه الابواب في غير هذا الموضع . وبيننا أن كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فانه موافق لصريح المعتول ، وان العقل الصريح لا يخالف

النقل الصحيح ، ولكن كثيراً من الناس يغلطون إما في هذا وإما في هذا ، فمن عرف قول الرسول و مراده به كان عارفا بالأدلة الشرعية ، وليس في المعقول ما يخالف المنقول ؛ ولهذا كان أئمة السنة على ما قاله أحمد بن حنبل ، قال : معرفة الحديث والفقه فيه أحب إلي من حفظه أي « معرفته » بالتمييز بين صحيحه وسقيمه . « والفقه فيه » معرفة مراد الرسول وتنزيله على المسائل الاصولية والفروعية أحب إلي من أن يحفظ من غير معرفة وفقه . وهكذا قال علي بن المديني وغيره من العلماء ، فانه من احتج بلفظ ليس بثابت عن الرسول [أو بلفظ ثابت عن الرسول] وحمله على ما لم يدل عليه فانما أتى من نفسه .

وكذلك « العقلية الصريحة » إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحاً لم تكن إلا حقاً ، لا تناقض شيئاً مما قاله الرسول ، والقرآن قد دل على الأدلة العقلية التي بها يعرف الصانع وتوحيده ، وصفاته وصدق رساله ، وبها يعرف امكان المعاد . ففي القرآن من بيان أصول الدين التي تعلم مقدماتها بالعقل الصريح ما لا يوجد مثله في كلام أحد من الناس ، بل عامة ما يأتي به حذاق النظار من الأدلة العقلية يأتي القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها : قال تعالى : (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) وقال : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) وقال : (وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

وأما الحجج الداحضة التي يحتاج بها الملاحدة ، وحجج الجهمية معطلة الصفات ، وحجج الدهرية وأمثالها ، كما يوجد مثل ذلك في كلام المتأخرين الذين يصنفون في الكلام المبتدع وأقوال المتفلسفة ويدعون أنها عقليات ففيها من الجهل والتناقض والفساد . مالا يحصىه إلا رب العباد . وقد بسط الكلام على هؤلاء في مواضع آخر .

وكان من أسباب ضلال هؤلاء تقصير الطائفتين أو قصورهم عن معرفة ما جاء به الرسول ، وما كان عليه السلف ، ومعرفة المعقول الصريح ؛ فان هذا هو الكتاب ، وهذا هو الميزان ، وقد قال تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز)

وهذه المسألة لا تحتمل البسط على هذه الأمور ؛ إذ كان المقصود هنا التنبيه على ان هؤلاء المتنازعين أجمعوا على أصل فاسد ، ثم تفرقوا فأجمعوا على أن جعلوا عين صفة الرب الخالق هي عين صفة المخلوق . ثم قال هؤلاء : وصفة المخلوق مخلوقة فصفة الرب مخلوقة ، فقال هؤلاء : صفة الرب قديمة فصفة المخلوق قديمة . ثم احتاج كل منها الى طرد أصله ، فخرجوا إلى أقوال ظاهرة الفساد : خرج النفاة الى أن الله لم يتكلم بالقرآن ؛ ولا بشيء من الكتب الالهية ؛ لا التوراة ولا الانجيل ولا غيرها ، وانه لم

يناد موسى بنفسه نداء يسمعه منه موسى ولا تكلم بالقرآن العربي ولا التوراة العبرية ، وخرج هؤلاء إلى أن ما يقوم بالعباد ويتصفون به يكون قديماً أزلياً ، وان ما يقوم بهم ويتصفون به لا يكون قائماً بهم حالا فيهم بل يكون ظاهراً عنهم من غير قيام بهم .

ولما تكلموا في « حروف المعجم » صاروا بين قولين : طائفة فرقت بين المتماثلين ، فقالت الحرف حرفان هذا قديم وهذا مخلوق . كما قال ابن حامد والقاضي أبو يعلى وابن عقيل وغيرهم . فانكر ذلك عليهم الا كثرون وقالوا هذا مخالفة للحس والعقل . فان حقيقة هذا الحرف هي حقيقة هذا الحرف ، وقالوا الحرف حرف واحد . وصنف في ذلك القاضي يعقوب البرزيني مصنفاً خالف به شيخه القاضي ابا يعلى مع قوله في مصنفه : وينبغي ان يعلم ان ماسطرته في هذه المسألة ان ذلك مما استفدته وتفرع عندي من شيخنا وامامنا القاضي ابي يعلى بن الفراء . وان كان قد نصر خلاف ماذكرته في هذا الباب . فهو العالم المقتدى به في علمه ودينه . فاني ما رأيت احسن سمتاً منه . ولا اكثر اجتهاداً منه . ولا تشاغلاً بالعالم ، مع كثرة العلم والصيانة والانقطاع عن الناس والزهادة فيما بأيديهم . والقناعة في الدنيا باليسير . مع حسن التجميل . وعظم حشمته عند الخاص والعام . ولم يعدل بهذه الاخلاق شيئاً من نفر من الدنيا .

وذكر القاضي يعقوب في مصنفه ان ما قاله قول ابي بكر احمد بن
المسيب الطبري ، وحكاه عن جماعة من أفضل أهل طبرستان . وانه سمع الفقيه
عبد الوهاب بن حله قاضي حران يقول : هو مذهب العلوي الحراني .
وجماعة من أهل حران . وذكره أبو عبد الله بن حامد عن جماعة من
أهل طبرستان ممن ينتمي إلى مذهبنا : كأبي محمد الكشغل واسماعيل
الكاوذري (١) في خلق من اتباعهم يقولون إنها قديمة ، قال القاضي أبو
يعلى : وكذلك حكى لي عن طائفة بالشام انها تذهب الى ذلك منهم النابلسي
وغيره ، وذكر القاضي حسين أن أباه رجع في آخر عمره إلى هذا .
وذكروه عن الشريف أبي علي بن أبي موسى ، وتبعهم في ذلك الشيخ
أبو الفرج المقدسي وابنه عبد الوهاب وسائر اتباعه ، وأبو الحسن بن
الزاغوني وأمثاله . وذكر القاضي يعقوب ان كلام أحمد يشمل
القولين .

وهؤلاء تعلقوا بقول أحمد لما قيل له ان سريا السقطي قال : لما
خلق الله الاحرف سجدت له إلا الألف فقالت لا أسجد حتى أومر .
فقال أحمد هذا كفر . وهؤلاء تعلقوا من قول أحمد بقوله : كل شيء
من المخلوقين على لسان المخلوقين فهو مخلوق ، وبقوله لو كان كذلك
لما تمت صلاته بالقرآن كما لا تتم بغيره من كلام الناس . وبقول أحمد

(١) نسخة الكلوزاي.

لأحمد بن الحسن الترمذي : أأست مخلوقا ؟ قال بلى ، قال أليس كل شيء منك مخلوقا ؟ قال بلى . قال فكلامك منك وهو مخلوق .

(قلت) الذي قاله أحمد في هذا الباب صواب يصدق بعضه بعضا وليس في كلامه تناقض . وهو أنكره على من قال : إن الله خلق الحروف ؛ فان من قال ان الحروف مخلوقة كان مضمون قوله : ان الله لم يتكلم بقرآن عربي . وان القرآن العربي مخلوق ، ونص أحمد ايضا على ان كلام الآدميين مخلوق . ولم يجعل شيئا منه غير مخلوق ، وكل هذا صحيح ، والسري رحمه الله إنما ذكر ذلك عن بكر بن خنيس العابد ، فكان مقصودها بذلك ان الذي لا يعبد الله الا بامر ، هو اكمل ممن يعبد برأيه من غير أمر من الله ، واستشهدا على ذلك بما بلغها « أنه لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف فقالت لا أسجد حتى أمر » وهذا الأثر لا يقوم بمثله حجة في شيء ، ولكن مقصودها ضرب المثل أن الألف منتصبه في الخط ليست هي مضطجعة كالباء والتاء ، فمن لم يفعل حتى يؤمر أكمل ممن فعل بغير أمر .

وأحمد أنكر قول القائل ان الله لما خلق الحروف ، وروى عنه انه قال : من قال إن حرفا من حروف المعجم مخلوق فهو جهمي ، لأنه سلك طريقا إلى البدعة . ومن قال ان ذلك مخلوق فقد قال ان القرآن مخلوق . وأحمد قد صرح هو وغيره من الأئمة ان الله لم يزل متكلم إذا

شاء . وصرح أن الله يتكلم بمشيئته ، ولكن أتباع ابن كلاب كالقاضي وغيره تأولوا كلامه على أنه أراد بذلك إذا شاء الاسماع ؛ لانه عندهم لم يتكلم بمشيئته وقدرته .

وصرح أحمد وغيره من السلف ان القرآن كلام الله غير مخلوق . ولم يقل أحد من السلف ان الله تكلم بغير مشيئته وقدرته . ولا قال أحد منهم ان نفس الكلام المعين كالقرآن أو ندائه لموسى أو غير ذلك من كلامه المعين انه قديم ازلي لم يزل ولا يزال ، وان الله قامت به حروف معينة أو حروف وأصوات معينة قديمة أزلية لم تزل ولا تزال ، فان هذا لم يقله ولا دل عليه قول احمد ولا غيره من أئمة المسلمين ، بل كلام أحمد وغيره من الأئمة صريح في نقيض هذا ، وأن الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، وانه لم يزل يتكلم إذا شاء ، مع قولهم إن كلام الله غير مخلوق . وانه منه بدأ ؛ ليس بمخلوق ابتداءً من غيره ، ونصوصهم بذلك كثيرة معروفة في الكتب الثابتة عنهم ، مثل ما صنف أبو بكر الخلال في « كتاب السنة » وغيره ، وما صنفه عبد الرحمن بن أبي حاتم من كلام أحمد وغيره ، وما صنفه أصحابه وأصحاب أصحابه : كابنيه صالح وعبد الله ، وحنبل ، وأبي داود السجستاني صاحب « السنن » والاثرم ، والمروزي ، وأبي زرعة ، وأبي حاتم ، والبخاري صاحب الصحيح ، وهشام بن سعيد الدارمي ، وإبراهيم الحربي ، وعبد الوهاب الوراق .

وعباس بن عبد العظيم الغنبري : وحرب بن اسماعيل الكرمانى : ومن لا يحصى عدده من أكابر أهل العلم والدين . وأصحاب أصحابه ممن جمع كلامه وأخباره : كعبد الرحمن بن أبي حاتم وأبي بكر الخلال . وأبي الحسن البنائى الاصبهانى . وأمثال هؤلاء ، ومن كان أيضاً يأتى به وبأمثاله من الأئمة في الأصول والفروع : كأبي عيسى الترمذى صاحب الجامع ، وأبي عبد الرحمن النسائى وأمثالهما ، ومثل أبي محمد بن قتيبة وأمثاله . وبسط هذا له موضع آخر .

وقد ذكرنا في « المسائل الطبرستانية » و « الكيلانية » بسط مذاهب الناس وكيف تشعبت وتفرعت في هذا الأصل .

والمقصود هنا ان كثيراً من الناس المتأخرين لم يعرفوا حقيقة كلام السلف والأئمة ، فمنهم من يعظمهم ويقول انه متبع لهم ، مع انه مخالف لهم من حيث لا يشعر . ومنهم من يظن أنهم كانوا لا يعرفون أصول الدين ولا تقريرها بالدلائل البرهانية ، وذلك لجهله بعامهم : بل لجهله بما جاء به الرسول من الحق الذي تدل عليه الدلائل العقلية مع السمعية : فلهذا يوجد كثير من المتأخرين يشتركون في أصل فاسد . ثم يفرع كل قوم عليه فروعا فاسدة يلتزمونها ، كما صرحوا في تكلم الله تعالى بالقرآن العربى . وبالتوراة العبرية ، وما فيها من حروف الهجاء مؤلفاً او مفرداً لما رأوا ان ذلك بلغ بصفات المخلوقين اشبه بصفات المخلوقين ، فلم يهتدوا لموضع

الجمع والفرق ، فقال هؤلاء : هذا الذي يقرأ ويسمع مثل كلام المخلوقين فهو مخلوق .

وقال هؤلاء : هذا الذي من كلام الآدميين هو مثل كلام الله فيكون غير مخلوق . كما ذكر ابن عقيل في « كتاب الارشاد » عن بعض القائلين بأن القرآن مخلوق . فقال : شبهة اعترض بها عليّ بعض أئمتهم فقال : أقل ما في القرآن من امارات الحدث كونه مشبهاً لكلامنا . والقديم لا يشبه المحدث ومعلوم انه لا يمكن دفع ذلك ؛ لأن قول القائل لغلामه يحيى : يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، يضاهاى قوله سبحانه ، حتى لا يميز السامع بينهما من حيث حسه ، إلا أن يخبره أحدهما بقصده والآخر بقصده ، فيميز بينهما بخبر القائل لا بحسه ، وإذا اشتبهتا الى هذا الحد فكيف يجوز دعوى قدم ما يشابه المحدث ويسد مسده ، مع انه إن جاز دعوى قدم الكلام مع كونه مشاهداً للمحدث جاز دعوى التشبيه بظواهر الآي والاعبار ، ولا مانع من ذلك ، فلما فزعنا نحن وانتم الى نفي التشبيه خوفاً من جواب دخول القرآن بالحدث علينا ، كذلك يجب أن تفزعوا من القول بالقدم مع وجود الشبه ، حتى ان بعض أصحابكم يقول لقوة ما رأى من الشبه بينهما ان الكلام واحد والحروف غير مخلوقة . فكيف يجوز ان يقال فى الشيء الواحد انه قديم محدث .

قلت : وهذا الذي حكى عنه ابن عقيل من بعض الاصحاب المذكورين
منهم القاضي يعقوب البرزيني ذكره في مصنفه فقال : (دليل عاشر)
وهو ان هذه الحروف بعينها وصفتها ومعناها وفائدتها هي التي في كتاب
الله تعالى وفي اسمائه وصفاته والكتاب بحروفه قديم : وكذلك هاهنا .
قال : فان قيل : لا نسلم ان تلك لها حرمة وهذه لا حرمة لها . قيل :
لا نسلم بل لها حرمة .

فان قيل : لو كان لها حرمة لوجب ان تمتنع الحائض والنفساء من
مسها وقراءتها ، قيل : قد لا تمتنع من قراءتها ومسها ويكون لها حرمة
كبعض آية لا تمتنع من قراءتها ولها حرمة وهي قديمة ، وانما لم تمتنع من
قراءتها ومسها للحاجة الى تعليمها ، كما يقال في الصبي يجوز له مس
المصحف على غير طهارة للحاجة إلى تعليمه .

فان قيل : فيجب اذا حلف بها حالف ان تعتقد يمينه وإذا خالف
يمينه أن يحنث . قيل له : كما في حروف القرآن مثله نقول هنا .

فان قيل : أليس إذا وافقها في هذه المعاني دل على انها هي .
الا ترى انه إذا نكلم متكلم بكلمة يقصد بها خطاب آدمي فوافق
صفتها صفة ما في كتاب الله تعالى ، مثل قوله . يا داود ! يا نوح !
يا يحيى ! وغير ذلك ؛ فانه موافق لهذه الاسماء التي في كتاب الله ، وان

كانت في كتاب الله قديمة وفي خطاب الآدمي محدثة ؟ .

قيل : كل ما كان موافقاً لكتاب الله من الكلام في لفظه ونظمه وحروفه فهو من كتاب الله وان قصد به خطاب آدمي .

فان قيل : فيجب إذا أراد بهذه الاسماء آدمياً وهو في الصلاة ان لا تبطل صلاته .

قيل له : كذلك نقول وقد ورد مثل ذلك عن علي وغيره ؛ اذ ناداه رجل من الخوارج : (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) قال : فأجابه علي وهو في الصلاة : (فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون) . وعن ابن مسعود انه استأذن عليه بعض اصحابه فقال : (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) .

قال : فان قيل : أليس إذا قال : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) ونوى به خطاب غلام اسمه يحيى يكون الخطاب مخلوقاً ؟ وان نوى به القرآن يكون قديماً ، قيل له : في كلا الحالين يكون قديماً ؛ لأن القديم عبارة عما كان موجوداً فيما لم يزل ، والمحدث عبارة عما حدث بعد ان لم يكن ، والنية لا تجعل المحدث قديماً ولا القديم محدثاً ، قال : ومن قال هذا فقد بالغ في الجهل والخطأ .

وقال ايضاً : كل شيء يشبه بشيء ما فأنما يشبهه في بعض الأشياء دون بعض ، ولا يشبهه من جميع أحواله : لأنه إذا كان مثله في جميع أحواله كان هو لا غيره ، وقد بينا أن هذه الحروف تشبه حروف القرآن فهي غيرها اه .

(قلت) : هذا كلام القاضي يعقوب وامثاله ، مع انه اجل من تكلم في هذه المسألة ، ولما كان جوابه مشتملاً على ما يخالف النص والاجماع والعقل خالفه ابن عقيل وغيره من أئمة المذهب الذين هم أعلم به .

وأجاب ابن عقيل عن سؤال الذين قالوا هذا مثل هذا ، بأن قال : الاشتراك في الحقيقة لا يدل على الاشتراك في الحدوث ، كما ان كونه علماً هو تبيينه للشيء على أصلكم ، ومعرفة به على قولنا على الوجه الذي يتبينه الواحد منا ، وليس مماثلنا في كوننا عالمين . وكذلك كونه قادراً هو صحة الفعل منه سبحانه وتعالى ، وليست قدرته على الوجه الذي قدرنا عليها ، فليس الاشتراك في الحقيقة حاصلاً ، والافتراق في القدم والحدوث حاصل .

قال : « وجواب آخر » ، لا نقول ان الله يتكلم بكلامه على

الوجه الذي يتكلم به زيد ، بمعنى انه يقول : يا يحيى ! فاذا فرغ من ذلك انتقل إلى قوله خذ الكتاب بقوة ، وترتب في الوجود كذلك ، بل هو سبحانه وتعالى يتكلم به على وجه تعجز عن مثله أدواتنا . فما ذكرته من الاشتباه من قول القائل يا يحيى خذ الكتاب يعود الى اشتباه التلاوة بالكلام المحدث ، فأما انه يشابه الكلام القائم بذاته فلا .

قال ابن عقيل : قالوا فهذا لا يجيء على مذهبكم : فان عندكم التلاوة هي المتلو والقراءة هي المقروء . قيل : ليس معنى قولنا هي المتلو انها هذه الاصوات المقطعة . وانما يزيد به ما يظهر من الحروف القديمة في الاصوات المحدثه ، وظهورها في المحدث لا بد ان يكسبها صفة التقطيع لاختلاف الانفاس ، وإدارة اللهوات ؛ لأن الآلة التي تظهر عليها لا تحمل الكلام إلا على وجه التقطيع ، وكلام الباري قائم بذاته على خلاف هذا التقطيع . والابتداء ، والانهاء ، والتكرار ، والبعدية ، والقبلية .

ومن قال ذلك لم يعرف حد القديم وادعى قدم الاعراض وتقطع القديم . وتقطع القديم عرض لا يقوم بقديم ، ومن اعتقد ان كلام الله القائم بذاته على حد تلاوة التالى من القطع والوصل ، والتقريب والتباعد والبعدية والقبلية فقد شبه الله بخلقه . ولهذا روي في الخبر « أن موسى سأله بنو اسرائيل كيف سمعت كلام ربك ؟ قال كالرعد الذي لا يترجع » يعني ينقطع لعدم قطع الانفاس وعدم الأنفاس ، والآلات والشفاه

واللهوات ، ومن قال غير ذلك وتوهم ان الله تكلم على لسان التالي ،
او الكلام الذي قام بذاته على هذه الصفة من التقطيع والوصل ،
والتقريب والتباعد : فقد حكم به محدثا ؛ لأن الدلالة على حدوث العالم
هو الاجتماع والافتراق ؛ ولأن هذه من صفات الأدوات اه .

(قلت) فهذا الذي قاله ابن عقيل أقل خطأ مما قاله البرزني ،
فان ذلك مخالف للنص والاجماع والعقل مخالفة ظاهرة . فانه قد ثبت
بالنص والاجماع ان من تكلم في الصلاة بكلام الآدميين عامداً لغير
مصلحتها علما بالتحريم بطلت صلاته بالاجماع ، خلاف ما ذكره القاضي
يعقوب ، ومتى قصد به التلاوة لم تبطل بالاجماع . وان قصد به التلاوة
والخطاب ففيه نزاع ، وظاهر مذهب احمد لا تبطل كمذهب الشافعي وغيره
وقيل تبطل كقول أبي حنيفة وغيره .

وما ذكروه عن الصحابة حجة عليهم ؛ فان قول علي بن أبي طالب :
(فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون) هو كلام
الله ولم يقصد علي أن يقول للخارجي : ولا يستخفك الخوارج ؛ وإنما قصد
أن يسمعه الآية . وانه عامل بها صابر لا يستخفه الذين لا يوقنون ،
وابن مسعود قال لهم وهو بالكوفة : (ادخلوا مصر إن شاء الله آمين) .
ومعلوم أن مصر بلا تنوين هي مصر المدينة وهذه لم تكن بالكوفة .
وابن مسعود إنما كان بالكوفة ؛ فعلم أنه قصد تلاوة الآية ، وقصد مع

ذلك تنبيه الحاضرين على الدخول : فانهم سمعوا قوله ادخلوا . فعملوا
انه اذن لهم في الدخول ، وان كان هو تلا الآية فهذا هذا .

وأما جواب ابن عقيل فبناء على أصل ابن كلاب الذي يعتقد هو
وشيخه وغيرها ، وهو الأصل الذي وافقوا فيه ابن كلاب ومن اتبعه
كالأشعري وغيره ، وهو ان الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وانه ليس
فيما يقوم به شيء يكون بمشيئته وقدرته : لامتناع قيام الأمور الاختيارية
به عندهم : لأنها حادثة والله لا يقوم به حادث عندهم : ولهذا تأولوا
النصوص المناقضة لهذا الأصل ، كقوله تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله
عملكم ورسوله والمؤمنون) فان هذا يقتضي انه سيرى الأعمال في
المستقبل ، وكذلك قوله : (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم
لتنظر كيف تعملون) وقوله : (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله)
وكذلك قوله : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) فان هذا
يقتضي أنه يحبهم بعد اتباع الرسول . وكذلك قوله تعالى : (ولقد
خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فان هذا
يقتضي انه قال لهم بعد خلق آدم ، وكذلك قوله تعالى : (فلما أتاها
نودي) يقتضي أنه نودي لما أتاها ، لم يناد قبل ذلك ، وكذلك قوله :
(إنما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون) ومثل هذا
في القرآن كثير .

وهذا الأصل هو مما أنكره الامام أحمد على ابن كلاب وأصحابه ،
حتى على الحارث المحاسبي مع جلالة قدر الحارث ، وأمر أحمد بهجره
وهجر الكلاية ، وقال : احذروا من حارث ، الآفة كلها من حارث .
فمات الحارث وما صلى عليه إلا نفر قليل بسبب تحذير الامام أحمد
عنه ، مع أن فيه من العلم والدين ما هو أفضل من عامة من وافق
ابن كلاب على هذا الأصل . وقد قيل إن الحارث رجع عن ذلك وأقر
بأن الله يتكلم بصوت : كما حكى عنه ذلك صاحب « التعرف لمذهب
التصوف » أبو بكر محمد بن اسحاق الكلاباذي .

وكثير من المتأخرين من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي
حنيفة وافقوا ابن كلاب على هذا الأصل ، كما قد بسط الكلام على
ذلك في مواضع آخر .

واختلف كلام ابن عقيل في هذا الأصل : فتارة يقول بقول ابن
كلاب ، وتارة يقول بمذهب السلف وأهل الحديث أن الله تقوم به
الأمور الاختيارية ، ويقول انه قام به أبصار متجددة حين تجدد المرئيات
لم تكن قبل ذلك ، وقام به علم بأن كل شيء وجد غير العلم الذي كان
أولاً أنه سيوجد ، كما دل على ذلك عدة آيات في القرآن ، كقوله تعالى :
(لنعلم من يتبع الرسول) وغير ذلك . وكلامه في هذا الأصل وغيره
يختلف ، تارة يقول بهذا ، وتارة يقول بهذا ، فان هذه المواضع مواضع

مشكلة كثر فيها غلط الناس : لما فيها من الاشتباه والالتباس .

والجواب الحق : أن كلام الله لا يماثل كلام المخلوقين : كما لا يماثل في شيء من صفاته صفات المخلوقين ، وقول القائل : إن الاشتراك في الحقيقة لا يدل على الاشتراك في الحدوث لفظ مجمل ، فانا إذا قلنا : لله علم ولنا علم ، أو له قدرة ولنا قدرة . أو له كلام ولنا كلام ، أو تكلم بصوت ونحن نتكلم بصوت ، وقلنا صفة الخالق وصفة المخلوق اشتركتا في الحقيقة ، — فان أريد بذلك ان حقيقتها واحدة بالعين فهذا مخالف للحس والعقل والشرع ، وان أريد بذلك أن هذه مماثلة لهذه في الحقيقة ، وإنما اختلفتا في الصفات العرضية ، كما قال ذلك طائفة من أهل الكلام — وقد بين فساد ذلك في الكلام على « الأربعين » للرازي وغير ذلك — فهذا أيضاً من أبطل الباطل ، وذلك يستلزم أن تكون حقيقة ذات الباري عز وجل مماثلة لحقيقة ذوات المخلوقين .

وان أريد بذلك أمهما اشتراكا في مسمى العلم والقدرة والكلام فهذا صحيح ، كما انه إذا قيل : إنه موجود أو ان له ذاتا فقد اشتراكا في مسمى الوجود والذات . لكن هذا المشترك أمر كلي لا يوجد كلياً إلا في الأذهان لا في الاعدان ، فليس في الخارج شيء اشترك فيه مخلوقان كاشتراك الجزئيات في كلياتها بخلاف اشتراك الاجزاء في الكل ، فانه يجب الفرق بين قسمة الكلي إلى جزئياته ، كقسمة الحيوان إلى

ناطق وغير ناطق ، وقسمة الانسان الى مسلم وكافر ، وقسمة الاسم الى معرب ومبني ، وقسمة الكل إلى أجزائه كقسمة العقار بين الشركاء وقسمة الكلام إلى اسم وفعل وحرف ، ففي الأول انما اشتركت الأقسام في أمر كلي فضلاً عن أن يكون الخالق والمخلوقون مشتركين في شيء موجود في الخارج ، وليس في الخارج صفة لله يماثل بها صفة المخلوق ، بل كل ما يوصف به الرب تعالى فهو مخالف بالحد والحقيقة ؛ لما يوصف به المخلوق أعظم مما يخالف المخلوق المخلوق وإذا كان المخلوق مخالفاً بذاته وصفاته لبعض المخلوقات في الحد والحقيقة ، فمخالفة الخالق لكل مخلوق في الحقيقة أعظم من مخالفة أي مخلوق فرض لأي مخلوق فرض ، ولكن علمه ثبت له حقيقة العلم ، ولقدرته حقيقة القدرة ، ولكلامه حقيقة الكلام ، كما ثبت لذاته حقيقة الذاتية ، ولوجوده حقيقة الوجود ، وهو أحق بأن تثبت له صفات الكمال على الحقيقة من كل ما سواه .

فهذا هو المراد بقولنا : علمه يشارك علم المخلوق في الحقيقة ، فليس ما يسمع من العباد من أصواتهم مشابهاً ولا مماثلاً لما سمعه موسى من صوته إلا كما يشبه ويمثل غير ذلك من صفاته لصفات المخلوقين ، فهذا في نفس تكلمه سبحانه وتعالى بالقرآن ، والقرآن عند الامام احمد وسائر أئمة السنة كلامه تكلم به ، وتكلم بالقرآن العربي بصوت نفسه ، وكلم موسى بصوت نفسه الذي لا يماثل شيئاً من اصوات العباد .

ثم إذا قرأنا القرآن فأنما نقرؤه بأصواتنا المخلوقة التي لا تماثل صوت
الرب ، فالقرآن الذي نقرؤه هو كلام الله مبلغاً عنه لا مسموعاً منه ،
وأنما نقرؤه بحركاتنا وأصواتنا . الكلام كلام الباري ، والصوت صوت
القارئ ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة مع العقل ، قال الله تعالى :
(وإن أحد من المشركين استجارك فآجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه
مأمنه) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم »
وقال الإمام أحمد في قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من
لم يتغن بالقرآن » قال ، يزينه ويحسنه بصوته ، كما قال : « زينوا
القرآن بأصواتكم »

فنص أحمد على ما جاء به الكتاب والسنة أنا نقرأ القرآن بأصواتنا
والقرآن كلام الله كله لفظه ومعناه ، سمعه جبريل من الله وبلغه إلى
محمد صلى الله عليه وسلم وسمعه محمد منه ، وبلغه محمد إلى الخلق ،
والخلق يبلغه بعضهم إلى بعض ، ويسمعه بعضهم من بعض ، ومعلوم أنهم
إذا سمعوا كلام النبي صلى الله عليه وسلم وغيره فبلغوه عنه ، كما قال :
« نضر الله أحراً سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه » فهم سمعوا اللفظ من
الرسول بصوت نفسه بالحروف التي تكلم بها ، وبلغوا لفظه بأصوات
أنفسهم ، وقد علم الفرق بين من يروي الحديث بالمعنى لا باللفظ ،
واللفظ المبلغ هو لفظ الرسول وهو كلام الرسول : فإن كان صوت

المبلغ ليس صوت الرسول ، وليس ما قام بالرسول من الصفات والاعراض فارقتة وما قامت بغيره ؛ بل ولا تقوم الصفة والعرض بغير محله . وإذا كان هذا معقولا في صفات المخلوقين فصفات الخالق أولى بكل صفة كمال ، وأبعد عن كل صفة نقص ، والتباين الذي بين صفة الخالق والمخلوق اعظم من التباين الذي بين صفة مخلوق ومخلوق ، وامتناع الاتحاد والحلول بالذات للخالق وصفاته في المخلوق أعظم من الاتحاد والحلول بالذات للمخلوق وصفاته في المخلوق ، وهذه جمل قد بسطت في مواضع اخر .

هذا مع ان احتجاج الجهمية والمعتزلة بان كلام المخلوق بقوله : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) مثل كلام الخالق غلط باتفاق الناس حتى عندهم ، فان الذين يقولون هو مخلوق يقولون انه خلقه في بعض الاجسام . اما الهواء او غيره ، كما يقولون : انه خلق الكلام في نفس الشجرة فسمعه موسى .

ومعلوم ان تلك الحروف والاصوات التي خلقها الله ليست مماثلة لما يسمع من العبد ، وتلك هي كلام الله المسموع منه عندهم ؛ كما ان اهل السنة يقولون الذي تكلم هو الله بمشيئته ، وليس ذلك مماثلاً لصوت العبد .

وأما القائلون بقدم الكلام المعين سواء كان معنى أو حرفاً أو أصواتاً ، فيقولون : خلق لموسى ادراكاً أدرك به ذلك القديم ، وبكل حال فكلام المتكلم إذا سمع من المبلغ عنه [غير ما قام بنفس المتكلم المنشيء] فكيف [لا] يكون ذلك في كلام الله تعالى ؟ .

فيجب على الإنسان في « مسألة الكلام » أن يتحرى أصليين : (أحدهما) تكلم الله بالقرآن وغيره ، هل تكلم به بمشيئته وقدرته أم لا ؟ وهل تكلم بكلام قائم بذاته أم خلقه في غيره ؟ (والثاني) تبليغ ذلك الكلام عن الله ، وأنه ليس مما يتصف به الثاني ، وإن كان المقصود بالتبليغ الكلام المبلغ . وبسط هذا له موضع آخر .

وأيضاً فهذان المتنازعان إذا قال أحدهما : أنها قديمة ، وليس لها مبدأ ، وشكلها ونقطها محدث . وقال الآخر : أنها ليست بكلام الله وإنما مخلوقة بشكلها ونقطها ، قد يفهم من هذا أنها أرادت بالحروف الحروف المكتوبة دون المنطوقة ، والحروف المكتوبة قد تنازع الناس في شكلها ونقطها ، فإن الصحابة لما كتبوا المصاحف كتبوها غير مشكولة ولا منقوطة ؛ لأنهم إنما كانوا يعتمدون في القرآن على حفظه في صدورهم لا على المصاحف ، وهو منقول بالتواتر محفوظ في الصدور ، ولو عذمت المصاحف لم يكن للمسلمين بها حاجة . فإن المسلمين ليسوا كاهل الكتاب الذين يعتمدون على الكتب التي تقبل التغير . والله أنزل القرآن على محمد فتلقاه تلقياً وحفظه في قلبه . لم ينزله مكتوباً كالتوراة ،

وأنزله منجما مفرقا ليحفظ فلا يحتاج الى كتاب ، كما قال تعالى : (وقالوا
لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) الآية ، وقال تعالى : (وقرآنا فرقناه)
الآية ، وقال تعالى : (ولا تعجل بالقرآن) الآية ، وقال تعالى : (ان
علينا جمعه وقرآنه) الآية .

وفي الصحيح عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم
يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفثيه ، فقال ابن عباس : أنا
أحركها لك كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحركهما ، فحرك شفثيه ،
فأنزل الله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه)
قال جمعه في صدرك ثم تقرأه : (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) قال :
فاستمع له وانصت (ثم ان علينا بيانه) أي نيينه بلسانك . فكان
النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه جبريل استمع ، فاذا انطلق جبريل
قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما أقرأه ؛ فلماذا لم تكن الصحابة
ينقطون المصاحف ويشكلونها ، وأيضا كانوا عربا لا يلحنون ؛ فلم يحتاجوا
إلى تقييدها بالنقط ، وكان في اللفظ الواحد قراءتان يقرأ بالياء والتاء
مثل : يعملون وتعملون . فلم يقيدوه بأحدهما ليمنعوه من الأخرى .

ثم انه في زمن التابعين لما حدث اللحن صار بعض التابعين يشكل
المصاحف وينقطها ، وكانوا يعملون ذلك بالحمزة ، ويعملون القتح بنقطة
حمراء فوق الحرف ، والكسرة بنقطة حمراء تحته ، والضمة بنقطة حمراء

امامه . ثم مدوا النقطة وصاروا يعملون الشدة بقولك « شد » ، ويعملون
المدّة بقولك « مد » ، وجعلوا علامة الهمزة تشبه العين ؛ لأن الهمزة أخت
العين . ثم خففوا ذلك حتى صارت علامة الشدة مثل رأس السين ،
وعلاّمة المدّة مختصرة كما يختصر أهل الديوان الفاظ العدد وغير ذلك .
وكما يختصر المحدثون أخبرنا وحدثنا ، فيكتبون أول اللفظ وآخره على
شكل « أنا » وعلى شكل « ثنا » .

وتتّزع العلماء هل يكره تشكيل المصاحف وتقيطها ؟ على قولين
معروفين وهما روايتان عن الامام احمد ، لكن لا نزاع بينهم ان المصحف
إذا شكل ونقط وجب احترام الشكل والنقط ، كما يجب احترام الحرف ،
ولا تتّزع بينهم ان مداد النقطة والشكل مخلوق ، كما أن مداد الحرف
مخلوق ، ولا نزاع بينهم ان الشكل يدل على الاعراب ، والنقط يدل
على الحروف ، وان الاعراب من تمام الكلام العربي ،

ويروى عن أبي بكر وعمر انهما قالّا : حفظ إعراب القرآن أحب
الينا من حفظ بعض حروفه . ولا ريب ان النقطة والشكّة بمجردهما
لا حكم لهما ولا حرمة ولا ينبغي أن يجرّد الكلام فيهما ، ولا ريب
أن إعراب القرآن العربي من تمامه ، ويجب الاعتناء بإعرابه ، والشكل
يبين إعرابه كما تبين الحروف المكتوبة للحرف المنطوق ، كذلك يبين
الشكل المكتوب للاعراب المنطوق .

فهذه المسائل إذا تصورها الناس على وجهها تصوراً تاماً ظهر لهم الصواب ، وقلت الاهواء والعصيات ، وعرفوا موارد النزاع ، فمن تبين له الحق في شيء من ذلك اتبعه ، ومن خفي عليه توقف حتى يبينه الله له وينبغي له أن يستعين على ذلك بدعاء الله ، ومن أحسن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يصلي يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وقول القائل الآخر كلامه كتب بها : يقتضي انه أراد بالحروف ما يتناول المنطوق والمكتوب ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول الم حرف ، ولكن الف حرف ولام حرف وميم حرف » قال الترمذي : حديث صحيح . فهنا لم يرد النبي صلى الله عليه وسلم بالحرف نفس المداد وشكل المداد ، وإنما أراد الحرف المنطوق . وفي مراده بالحرف قولان : قيل هذا اللفظ المفرد . وقيل أراد صلى الله عليه وسلم بالحرف الاسم ، كما قال : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف .

ولفظ « الحرف والكلمة » له في لغة العرب التي كان النبي صلى

الله عليه وسلم يتكلم بها معنى ، وله في اصطلاح النحاة معنى .
 قال كلمة في لغتهم هي الجملة التامة : الجملة الاسمية أو الفعلية ، كما قال
 النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته : « كلمتان خفيفتان
 على اللسان : ثقيلتان في الميزان . حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله
 وبحمده : سبحان الله العظيم » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أصدق
 كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وقال : « ان العبد
 ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن ان تبلغ ما بلغت يكتب له بها
 رضوانه الى يوم القيامة : وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله
 ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب له بها سخطه إلى يوم القيامة »
 وقال لأم المؤمنين « لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزنت بما قلت منذ
 اليوم لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله رضا نفسه ،
 سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » ومنه قوله تعالى :
 (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) وقوله :
 (وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) وقوله تعالى : (يا أهل
 الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله) وقوله :
 (وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون) وقوله : (وجعل كلمة
 الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا) وقول النبي صلى الله عليه وسلم :
 « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ونظائره كثيرة .

ولا يوجد قط في الكتاب والسنة وكلام العرب لفظ الكلمة إلا

والمراد به الجملة التامة . فكثير من النحاة أو أكثرهم لا يعرفون ذلك ؛ بل يظنون ان اصطلاحهم في مسمى الكلمة ينقسم إلى اسم وفعل وحرف هو لغة العرب ، والفاضل منهم يقول :

وكلمة بها كلام قد يؤم

ويقولون : العرب قد تستعمل الكلمة في الجملة التامة وتستعملها في المفرد ، وهذا غلط لا يوجد قط في كلام العرب لفظ الكلمة إلا للجملة التامة .

ومثل هذا اصطلاح المتكلمين على ان القديم هو مالا أول لوجوده أو ما لم يسبقه عدم ، ثم يقول بعضهم : وقد يستعمل القديم في المتقدم على غيره ، سواء كان أزلياً أو لم يكن ، كما قال تعالى : (حتى عاد كالعرجون القديم) وقال : (وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفاك قديم) وقوله تعالى : (قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم) وقال : (أفرايتم ما كنتم تعبدون أئتم وآباؤكم الاقدمون) وتخصيص القديم بالأول عرف اصطلاحى ، ولا ريب انه أولى بالقدم في لغة العرب ؛ ولهذا كان لفظ المحدث في لغة العرب بازاء القديم ، قال تعالى : (ما يأتينهم من ذكر من ربهم محدث) وهذا يقتضى ان الذي نزل قبله ليس بمحدث بل متقدم . وهذا موافق للغة العرب التى نزل بها القرآن ،

ونظير هذا لفظ « القضاء » فانه في كلام الله وكلام الرسول المراد به إتمام العبادة وإن كان ذلك في وقتها ، كما قال تعالى : (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) وقوله : (فاذا قضيت مناسككم) ثم اصطلح طائفة من الفقهاء فجعلوا لفظ « القضاء » مختصاً بفعلها في غير وقتها ، ولفظ « الأداء » مختصاً بما يفعل في الوقت ، وهذا التفريق لا يعرف قط في كلام الرسول ، ثم يقولون قد يستعمل لفظ القضاء في الأداء ، فيجعلون اللغة التي نزل القرآن بها من النادر .

ولهذا يتنازعون في مراد النبي صلى الله عليه وسلم : « فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأقضوا » وفي لفظ : « فأتموا » فيظنون ان بين اللفظين خلافا وليس الأمر كذلك ؛ بل قوله : « فأقضوا » كقوله : « فأتموا » لم يرد بإحدهما الفعل بعد الوقت ؛ بل لا يوجد في كلام الشارع أمر بعبادة في غير وقتها ، لكن الوقت وقتان : وقت عام ووقت خاص لأهل الأعذار : كالنائم والناسي إذا صليا بعد الاستيقاظ والذكر فانما صليا في الوقت الذي أمر الله به ، فان هذا ليس وقتا في حق غيرها .

ومن أعظم أسباب الغلط في فهم كلام الله ورسوله ان ينشأ الرجل

على اصطلاح حادث ، فيريد أن يفسر كلام الله بذلك الاصطلاح ويحمّله على تلك اللغة التي اعتادها .

وما ذكر في مسمى « الكلام » ما ذكره سيبويه في كتابه عن العرب ، فقال : واعلم « ان » في كلام العرب انما وقعت على أن يحكى وانما يحكى بعد القول ما كان كلاماً قولاً ؛ وإلا فلا يوجد قط لفظ الكلام والكلمة الا للجملة التامة في كلام العرب ، ولفظ الحرف يراد به الاسم والفعل وحروف المعاني واسم حروف الهجاء ؛ ولهذا سأل الخليل اصحابه : كيف تنطقون بالزاي من زيد ؟ فقالوا : زاي ، فقال نطقتم بالاسم ، وانما الحرف زه ؛ فبين الخليل ان هذه التي تسمى حروف الهجاء هي اسماء .

وكثيراً ما يوجد في كلام المتقدمين هذا « حرف من الغريب » يعبرون بذلك عن الاسم التام ، فقوله صلى الله عليه وسلم : « فله بكل حرف » مثله بقوله : « ولكن الف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » . وعلى نهج ذلك : وذلك حرف ، والكتاب حرف ، ونحو ذلك . وقد قيل : ان ذلك احرف والكتاب احرف ، وروي ذلك مفسراً في بعض الطرق .

والنحاة اصطلاحوا اصطلاحاً خاصاً ، فجعلوا لفظ « الكلمة » يراد

به الاسم أو الفعل أو الحرف الذي هو من حروف المعاني : لأن
سيبويه قال في أول كتابه : الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس
باسم ولا فعل . فجعل هذا حرفاً خاصاً ، وهو الحرف الذي جاء لمعنى
ليس باسم ولا فعل : لأن سيبويه كان حديث العهد بلغة العرب وقد
عرف انهم يسمون الاسم او الفعل حرفاً ، ف قيد كلامه بان قال :
وقسموا الكلام إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل .
وأراد سيبويه أن الكلام ينقسم إلى ذلك قسمة الكل إلى اجزائه
لأقسمة الكل إلى جزئياته كما يقول الفقهاء بان القسمة كما يقسم العقار
والمنقول بين الورثة ، فيعطى هؤلاء قسم غير قسم هؤلاء . كذلك الكلام هو
مؤلف من الأسماء والأفعال وحروف المعاني فهو مقسوم إليها ، وهذا التقسيم غير
تقسيم الجنس إلى أنواعه ، كما يقال : الاسم ينقسم إلى معرب ومبني .

وجاء الجزولي وغيره فاعترضوا على النحاة في هذا ولم يفهموا كلامهم .
فقالوا : كل جنس قسم إلى أنواعه او أشخاص أنواعه ، فاسم المقسوم
صادق على الأنواع والأشخاص والا فليست أقساماً له . و ارادوا بذلك
الاعتراض على قول الزجاج : الكلام اسم وفعل وحرف . والذي ذكره
الزجاج هو الذي ذكره سيبويه وسائر أئمة النحاة ، و ارادوا بذلك
القسمة الأولى المعروفة ، وهي قسمة الأمور الموجودة إلى أجزائها كما
يقسم العقار والمال ، ولم يريدوا بذلك قسمة الكليات — التي لا توجد كليات

إلا في الذهن — كقسمة الحيوان الى ناطق وبهيم ، وقسمة الاسم إلى
المعرب والمبني . فان المقسم هنا هو معنى عقلي كلي لا يكون كلياً
إلا في الذهن .

فصل

ولفظ « الحرف » يراد به حروف المعاني التي هي قسيمة الأسماء
والأفعال : مثل حروف الجر والجزم ، وحرفي التنفيس ، والحروف
المشبهة للأفعال مثل « إنَّ وأخواتها » وهذه الحروف لها أقسام
معروفة في كتب العربية ، كما يقسمونها بحسب الاعراب الى ما يختص
بالأسماء والى ما يختص بالأفعال ، ويقولون : ما اختص باحد النوعين ولم
يكن كالجزء منه كان عاملاً كما تعمل حروف الجر وإنَّ وأخواتها في
الأسماء ، وكما تعمل النواصب والجوازم في الأفعال : بخلاف حرف
التعريف وحرفي التنفيس : كالسين وسوف فانها لا يعملان لأنها كالجزء
من الكلمة ، ويقولون : كان القياس في « ما » انها لا تعمل لأنها
تدخل على الجمل الاسمية والفعلية ، ولكن أهل الحجاز أعملوها
لمشابهتها لليس وبلغتهم جاء القرآن في قوله : (ما هذا بشراً)
(ما هن أمهاتهم) .

ويقسمون « الحروف » باعتبار معانيها الى حروف استفهام ،
وحروف نفي ، وحروف تحضيض وغير ذلك ، ويقسمونها باعتبار بنيتها
كما تقسم الأفعال والأسماء إلى مفرد وتثاني ، وثلاثي ورباعي وخماسي .
فاسم الحرف هنا منقول عن اللغة الى عرف النحاة بالتخصيص ، والا
فلفظ الحرف في اللغة يتناول الأسماء والحروف والأفعال ، وحروف
التهجاء تسمى حروفاً وهي أسماء كالحروف المذكورة في أوائل السور ،
لأن مسماها هو الحرف الذي هو حرف الكلمة .

وتقسم تقسيماً آخر الى حروف حلقية وشفوية ، والمذكورة في
أوائل السور في القرآن هي نصف الحروف ، واشتملت من كل صنف
على أشرف نصفه : على نصف الحلقية ، والشفوية ، والمطبقة ؛ والمصمتة ،
وغير ذلك من أجناس الحروف .

فان لفظ « الحرف » أصله في اللغة هو الحد والطرف كما يقال : حروف
الرغيف وحرف الجبل . قال الجوهري : حرف كل شيء طرفه وشفيره
وحده ، ومنه حرف الجبل وهو أعلاه المحدد ، ومنه قوله تعالى : (ومن
الناس من يعبد الله على حرف) الى قوله : (والآخرة) فان طرف الشيء
إذا كان الانسان عليه لم يكن مستقراً ؛ فلهذا كان من عبد الله على
السراء دون الضراء عابداً له على حرف : تارة يظهره وتارة ينقلب

على وجهه ، كالواقف على حرف الجبل : فسميت حروف الكلام حروفاً لأنها طرف الكلام وحده ومنتهاه ، إذ كان مبدأ الكلام من نفس التكلم ، ومنتهاه حده وحرفه القائم بشفتيه ولسانه : ولهذا قال تعالى : (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين) فلفظ الحرف يراد به هذا وهذا وهذا .

ثم إذا كتب الكلام في المصحف سموا ذلك حروفاً : فيراد بالحرف الشكل المخصوص ولكل أمة شكل مخصوص هي خطوطهم التي يكتبون بها كلامهم ، ويراد به المادة ، ويراد به مجموعها : وهذه الحروف المكتوبة تطابق الحروف المنطوقة وتبينها وتدل عليها فسميت باسمائها : إذ كان الانسان يكتب اللفظ بقلمه : ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه (اقرأ باسم ربك الذي خلق) الى قوله : (ما لم يعلم) فيبين سبحانه في أول ما أنزله انه سبحانه هو الخالق الهادي الذي خلق قسوى ، والذي قدر فهدى ، كما قال موسى : (ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فالخلق يتناول كل ما سواه من المخلوقات ثم خص الانسان فقال : (خلق الانسان من علق) . ثم ذكر انه علم : فان الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات .

والعلم له « ثلاث مراتب » علم بالجنان ، وعبارة باللسان ، وخط

بالبنان ؛ ولهذا قيل : ان لكل شيء أربع وجودات : وجود عيني ،
وعلمي ، ولفظي ، ورسمي . وجود في الأعيان ، ووجود في الأذهان ،
واللسان ، والبنان ؛ لكن الوجود العيني هو وجود الموجودات في أنفسها
والله خالق كل شيء ، وأما الذهني الجنائي فهو العلم بها الذي في القلوب ،
والعبارة عن ذلك هو اللساني : وكتابة ذلك هو الرسمي البنائي ، وتعليم
الخط يستلزم تعليم العبارة واللفظ ، وذلك يستلزم تعليم العلم فقال :
(علم بالقلم) لأن التعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث ، وأطلق التعليم ،
ثم خص ، فقال : (علم الانسان ما لم يعلم) .

وقد تنازع الناس في وجود كل شيء ، هل هو عين ماهيته أم لا ؟
وقد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع ، وبين أن الصواب
من ذلك انه قد يراد بالوجود ما هو ثابت في الأعيان ، وبالماهية ما يتصور
في الأذهان ، فعلى هذا فوجود الموجودات الثابت في الأعيان ليس هو
ماهيتها المتصورة في الأذهان ؛ لكن الله خلق الموجود الثابت في الأعيان
وعلم الماهيات المتصورة في الأذهان ، كما أنزل بيان ذلك في أول سورة
أنزلها من القرآن ، وقد يراد بالوجود والماهية كلاهما : ما هو متحقق في
الأعيان ، وما هو متحقق في الأذهان ، فاذا أريد بهذا وهذا ما هو
متحقق في الأعيان أو ما هو متصور في الأذهان ، فليس هما في الأعيان
اثنان ؛ بل هذا هو هذا . وكذلك الذهن إذا تصور شيئاً فتلك الصورة

هى المثال الذى تصورها ، وذلك هو وجودها الذهنى الذى تتصوره
الأذهان ؛ فهذا فصل الخطاب فى هذا الباب .

ومن تدبر هذه المسائل وأمثالها تبين له أن أكثر اختلاف
العقلاء من جهة اشتراك الأسماء (ومن لم يجعل الله له نوراً فما
له من نور) .

وقد بسط الكلام على أصول هذه المسائل وتفصيلها فى مواضع
أخرى ؛ فان الناس أكثر نزاعهم فيها حتى قيل : « مسألة الكلام »
حيرت عقول الانام . ولكن سؤال هذين لا يحتمل البسط الكثير فانها
سألاً بحسب ما سمعنا واعتقدها وتصورها ، فاذا عرف السائل أصل مسأله
ولوازمها وما فيها من الألفاظ الجملة والمعانى المشتبهة ، تبين له أن من
الخلق من تكلم فى مثل هذه الأسماء بالنفي والاثبات من غير تفصيل ،
فلا بد له أن يقابله آخر بمثل اطلاقه .

ومن الاصول الكلية أن يعلم أن الألفاظ « نوعان » : نوع جاء به
الكتاب والسنة فيجب على كل مؤمن أن يقر بموجب ذلك ، فيثبت
ما أثبتته الله ورسوله وينفي ما نفاه الله ورسوله ، فاللفظ الذى أثبتته الله ،
او نفاه حق ؛ فان الله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، والألفاظ

الشرعية لها حرمة . ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبتته وينفي ما نفاه من المعاني . فانه يجب علينا أن نصدق في كل ما أخبر . ونطيعه في كل ما أوجب وأمر . ثم إذا عرفنا تفصيل ذلك كان ذلك من زيادة العلم والايمان . وقد قال تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) .

وأما الألفاظ التي ليست في الكتاب والسنة ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده ، فان أراد بها معنى يوافق خبر الرسول أقر به . وان أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره .

ثم التعبير عن تلك المعاني ان كان في ألفاظه اشتباه أو اجمال عبر بغيرها أو بين مراده بها . بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي ؛ فان كثيراً من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة . ومعان مشبهة . حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق ألفاظ ونفيها ، ولو سئل كل منهما عن معنى ما قاله لم يتصوره فضلاً عن أن يعرف دليله ، ولو عرف دليله لم يلزم أن من خالفه يكون مخطئاً بل يكون في قوله نوع من الصواب ، وقد يكون هذا مصيباً من وجه وهذا مصيباً من وجه . وقد يكون الصواب في قول ثالث .

وكثير من الكتب المصنفة في « أصول علوم الدين » وغيرها تجد الرجل المصنف فيها في « المسألة العظيمة » كمسألة القرآن والرؤية ، والصفات والمعاد ، وحدث العالم وغير ذلك يذكر أقوالاً متعددة . والقول الذي جاء به الرسول وكان عليه سلف الأمة ليس في تلك الكتب ؛ بل ولا عرفه مصنفوها ولا شعروا به . وهذا من أسباب توكيد التفريق والاختلاف بين الأمة ، وهو مما نهيت الأمة عنه ، كما في قوله تعالى : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) . قال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة .

وقد قال تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله) وقال تعالى : (وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) . وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يتنازعون في القدر ، وهذا يقول ألم يقل الله كذا ؟ وهذا يقول ألم يقل الله كذا ؟ فقال : « أبهذا أمرتم ؟ أم إلى هذا دعيتم ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا : أن ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، انظروا ما أمرتم به فافعلوه ، وما نهيتهم عنه فاجتنبوه » . ومما أمر الناس به أن يعملوا بحكم القرآن ، ويؤمنوا بمتشابهه .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : وقد كتبت في أصول هذه المسائل
قواعد متعددة وأصول كثيرة . ولكن هذا الجواب كتب وصاحبه مستوفز
في قعدة واحدة ، والله تعالى يهدينا وسائر اخواتنا لما يحبه ويرضاه .
والحمد لله رب العالمين .

وقال رحمه الله

فصل

في بيان أن القرآن العظيم كلام الله العزيز العليم ، ليس شيء منه كلاماً لغيره لا جبريل ولا محمد ولا غيرها ، قال الله تعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون . وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ، ولقد نعيبنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين) .

فأمره أن يقول : (نزله روح القدس من ربك بالحق) فإن الضمير في قوله (قل نزله) عائد على ما في قوله : (بما ينزل) والمراد به القرآن . كما يدل عليه سياق الكلام وقوله : (والله أعلم

بما ينزل (فيه إخبار الله بأنه أنزله ؛ لكن ليس في هذه اللفظة بيان ان روح القدس نزل به ، ولا انه منزل منه .

ولفظ « الانزال » في القرآن قد يرد مقيداً بالانزال منه : كنزول القرآن ، وقد يرد مقيداً بالانزال من السماء ويراد به العلو : فيتناول نزول المطر من السحاب . ونزول الملائكة من عند الله وغير ذلك ، وقد يرد مطلقاً فلا يختص بنوع من الانزال ؛ بل ربما يتناول الانزال من رؤوس الجبال ، كقوله : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) والانزال من ظهور الحيوان كنزال الفحل الماء وغير ذلك . فقوله : (نزله روح القدس من ربك بالحق) بيان لنزول جبريل به من الله ، فان روح القدس هنا هو جبريل ؛ بدليل قوله : (من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله) وهو الروح الأمين كما في قوله : (وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين) وفي قوله (الأمين) دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به ، لا يزيد فيه ولا ينقص منه ، فان الرسول الحائن قد يغير الرسالة ، كما قال في صفته في الآية الأخرى : (إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين) .

وفي قوله : (منزل من ربك) دلالة على أمور :

« منها » بطلان قول من يقول إنه كلام مخلوق خلقه في جسم

من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم ؛ فان السلف كانوا يسمون كل من نفي الصفات وقال ان القرآن مخلوق وان الله لا يرى في الآخرة جهمياً ؛ فان « جهما » أول من ظهرت عنه بدعة نفي الأسماء والصفات ، وبالع في نفي ذلك ، فله في هذه البدعة مزية المبالغة في النفي والابتداء بكثرة اظهار ذلك والدعوة إليه ، وان كان الجعد بن درهم قد سبقه الى بعض ذلك .

فان الجعد بن درهم أول من أحدث ذلك في الاسلام ؛ فضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسطة يوم النحر . وقال : يا أيها الناس ! ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فاني مضح بالجعد بن درهم ؛ انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً . ثم نزل فذبجه ؛ ولكن المعتزلة وان وافقوا جهما في بعض ذلك فهم يخالفونه في مسائل غير ذلك : كمسائل القدر والايمان ، وبعض مسائل الصفات أيضاً ، ولا يبالغون في النفي مبالغته .

وجهم يقول : ان الله تعالى لا يتكلم . أو يقول : انه يتكلم بطريق المجاز ، وأما « المعتزلة » فيقولون انه يتكلم حقيقة ؛ لكن قولهم في المعنى هو قول جهم ، وجهم ينفي الأسماء أيضاً . كما نفى الباطنية ومن وافقهم من الفلاسفة ، وأما جمهور المعتزلة فلا ينفون الأسماء .

و (المقصود) ان قوله : (منزل من ربك) فيه بيان انه منزل من الله لا من مخلوق من المخلوقات ؛ ولهذا قال السلف : منه بدأ ، أي : هو الذي تكلم به لم يتبدأ من غيره . كما قالت الخلقية .

و « منها » ان قوله : (منزل من ربك) فيه بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبي صلى الله عليه وسلم من العقل الفعال او غيره ، كما يقول ذلك طوائف من الفلاسفة والصابئة ، وهذا القول أعظم كفراً وضلالاً من الذي قبله .

و « منها » ان هذه الآية — ايضاً — تبطل قول من يقول ان القرآن العربي ليس منزلاً من الله بل مخلوق : اما في جبريل او محمد او جسم آخر غيرها ، كما يقول ذلك السكلاية والأشعرية الذين يقولون ان القرآن العربي ليس هو كلام الله ، وانما كلامه المعنى القائم بذاته ، والقرآن العربي خلق ليدل على ذلك المعنى ، ثم اما ان يكون خلق في بعض الأجسام : الهواء او غيره ، او الهمة جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي ، او الهمة محمد فعبر عنه بالقرآن العربي ، او يكون اخذه جبريل من اللوح المحفوظ او غيره : فهذه الأقوال التي تقدمت هي تفريع على هذا القول ، فان هذا القرآن العربي لا بد له من متكلم تكلم به أولاً قبل ان يصل إلينا .

وهذا القول يوافق قول المعتزلة ونحوهم في اثبات خلق القرآن العربي ، وكذلك التوراة العبرية ، ويفارقه من وجهين .

« أحدهما » ان اولئك يقولون ان المخلوق كلام الله ، وهؤلاء يقولون انه ليس كلام الله ؛ لكن يسمى كلام الله مجازاً وهذا قول أئمتهم وجهورهم . وقالت طائفة من متأخريهم ؛ بل لفظ الكلام يقال على هذا وهذا بالاشتراك اللفظي ، لكن هذا ينقض أصلهم في ابطال قيام الكلام بغير المتكلم به . وهم مع هذا لا يقولون ان المخلوق كلام الله حقيقة ، كما تقوله المعتزلة مع قولهم انه كلامه حقيقة ، بل يجعلون القرآن العربي كلاماً لغير الله وهو كلام حقيقة ، وهذا شر من قول المعتزلة ، وهذا حقيقة قول الجهمية . ومن هذا الوجه : فقول المعتزلة أقرب وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة ، لكن المعتزلة في المعنى موافقون لهؤلاء ، وانما ينازعونهم في اللفظ .

« الثاني » ان هؤلاء يقولون : لله كلام هو معنى قديم قائم بذاته ، والخلقية يقولون : لا يقوم بذاته كلام . ومن هذا الوجه فالكلالية خير من الخلقية في الظاهر ؛ لكن جمهور الناس يقولون : ان اصحاب هذا القول عند التحقيق لم يثبتوا له كلاماً حقيقة غير المخلوق ؛ فانهم يقولون : انه معنى واحد هو الأمر والنهي والخبر : فان عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وان عبر عنه بالعبرية كان توراة ، وان عبر عنه بالسريانية

كان أنجيلا . ومنهم من قال : هو خمس معان .

وجمهور العقلاء يقولون : ان فساد هذا معلوم بالضرورة بعد
التصور التام ، والعقلاء الكثيرون لا يتفقون على الكذب وجحد
الضرورات من غير تواطؤ واتفاق ؛ كما في الأخبار المتواترة . واما مع
التواطؤ فقد يتفقون على الكذب عمدا ، وقد يتفقون على جحد الضرورات
وان لم يعلم كل منهم انه جاحد للضرورة ، ولو لم يفهم حقيقة القول
الذي يعتقده لحسن ظنه فيمن يقلد قوله ولحجته لنصر ذلك القول كما
اتفقت النصارى والرافضة وغيرهم من الطوائف على مقالات يعلم
فسادها بالضرورة .

وقال جمهور العقلاء : نحن إذا عربنا التوراة والانجيل لم يكن معنى
ذلك معنى القرآن ؛ بل معاني هذا ليست معاني هذا ، ومعاني
هذا ليست معاني هذا . وكذلك معنى : (قل هو الله أحد) ليس
هو معنى (تبت يدا أبي لهب) ولا معنى آية الكرسي هو معنى آية
الدين . وقالو : اذا جوزتم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئا واحداً
فجوزوا أن يكون العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر صفة
واحدة ، فاعترف أئمة هذا القول بان هذا الالتزام ليس لهم عنه
جواب عقلي .

ثم منهم من قال : الناس في الصفات إما مثبت لها وقائل بالتعدد . وإما ناف لها ؛ وأما اثباتها واتحادها فخلاف الاجماع . وهذه طريقة القاضي أبي بكر وأبي المعالي وغيرها . ومنهم من اعترف بأنه ليس له عنه جواب ، كأبي الحسن الآمدي وغيره .

« والمقصود هنا » أن هذه الآية تبين بطلان هذا القول ، كما تبين بطلان غيره فان قوله : (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) يقتضي نزول القرآن من ربه ، والقرآن اسم للقرآن العربي لفظه ومعناه بدليل قوله : (فاذا قرأت القرآن) وإنما يقرأ القرآن العربي لا يقرأ معانيه المجردة . وأيضاً فضمير المفعول في قوله نزله عائد على ما في قوله : (والله أعلم بما ينزل) فالذي أنزله الله هو الذي نزله روح القدس ، فاذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربي لزم أن يكون نزله من الله ، فلا يكون شيء منه نزله من عين من الأعيان المخلوقة ، ولا نزله من نفسه .

وأيضاً فانه قال عقيب هذه الآية : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين) وهم كانوا يقولون : إنما يعلمه هذا القرآن العربي بشر ، لم يكونوا يقولون إنما يعلمه بشر معانيه فقط ؛ بدليل قوله : (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين) فانه تعالى أبطل قول الكفار بأن

لسان الذي أُلحدوا إليه ، بأن اُضافوا إليه هذا القرآن : فجعلوه هو الذي يعلم محمداً القرآن لسان أعجمي ، والقرآن لسان عربي مبين ، وعبر عن هذا المعنى بلفظ (يلحدون) لما تضمن من معنى ميلهم عن الحق وميلهم الى هذا الذي أضافوا إليه هذا القرآن ، فان لفظ « الالحاد » يقتضي ميلاً عن شيء الى شيء باطل ، فلو كان الكفار قالوا يعلمه معانيه فقط لم يكن هذا رداً لقولهم : فان الانسان قد يتعلم من الأعجمي شيئاً بلغة ذلك الأعجمي ، ويعبر عنه هو بعبارة .

وقد اشتهر في التفسير أن بعض الكفار كانوا يقولون : هو تعلمه من شخص كان بمكة أعجمي . قيل : انه كان مولى لابن الحضرمي ، وإذا كان الكفار جعلوا الذي يعلمه ما نزل به روح القدس بشراً ، والله أبطل ذلك بأن لسان ذلك أعجمي وهذا لسان عربي مبين : علم ان روح القدس نزل باللسان العربي المبين ، وان محمداً لم يؤلف نظم القرآن بل سمعه من روح القدس ، وإذا كان روح القدس نزل به من الله علم انه سمعه منه ولم يؤلفه هو ، وهذا بيان من الله ان القرآن الذي هو اللسان العربي المبين سمعه روح القدس من الله ونزل به منه .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن) الى قوله : (فذرهم وما يفترون :) وكذلك قوله : (وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ، والذين آتيناهم

الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق . فلا تكونن من الممترين (و« الكتاب » اسم للقرآن العربي بالضرورة والاتفاق ، فان الكلاية أو بعضهم يفرق بين كلام الله وكتاب الله . فيقول : لآله هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق ، وكتابه هو المنظوم المؤلف العربي ، وهو مخلوق .

و« القرآن » يراد به هذا تارة وهذا تارة ، والله تعالى قد سمي نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآنًا وكتابًا وكلامًا ، فقال تعالى (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) وقال : (طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين) وقال : (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) إلى قوله تعالى : (قالوا يا قومنا انا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه) فبين ان الذي سمعوه هو القرآن وهو الكتاب . وقال : (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) وقال : (انه لقرآن كريم . في كتاب مكنون) وقال : (يتلو محفلاً مطهرة . فيها كتب قيمة) وقال : (والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور) وقال : (ولو زلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم) . ولكن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام ، وقد يراد به ما يكتب فيه كما قال تعالى : (إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون) وقال : (ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً) .

و « المقصود هنا » ان قوله (وهو الذي انزل اليكم الكتاب مفصلاً) يتناول نزول القرآن العربى على كل قول . وقد اخبر : (ان الذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) اخبار مستشهد بهم لا مكذب لهم . وقال انهم يعلمون ذلك ولم يقل انهم يظنوننه أو يقولونه والعلم لا يكون إلا حقاً مطابقاً للمعلوم ، بخلاف القول والظن الذي ينقسم الى حق وباطل ؛ فعلم ان القرآن العربى منزل من الله لا من الهواء ، ولا من اللوح ، ولا من جسم آخر ، ولا من جبريل ، ولا من محمد ولا غيرها ، وإذا كان أهل الكتاب يعلمون ذلك فمن لم يقر بذلك من هذه الأمة كان أهل الكتاب المقرون بذلك خيراً منه من هذا الوجه .

وهذا لا ينافى ما جاء عن ابن عباس وغيره من السلف فى تفسير قوله : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) انه انزله الى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ثم انزله بعد ذلك منها مفرقا بحسب الحوادث ، ولا ينافى انه مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل نزوله ، كما قال تعالى : (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) وقال تعالى : (إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون) . وقال تعالى : (كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأبدي سفرة كرام بررة) وقال تعالى : (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلي حكيم)

فان كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ . وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله . سواء كتبه الله قبل ان يرسل به جبريل او بعد ذلك . واذا كان قد انزله مكتوباً إلى بيت الغزة جملة واحدة في ليلة القدر فقد كتبه كله قبل ان ينزله .

والله تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون ، وهو سبحانه قد قدر مقادير الخلائق ، وكتب أعمال العباد قبل ان يعملوها ، كما ثبت ذلك في صريح الكتاب والسنة وآثار السلف ، ثم انه يأمر الملائكة بكتابتها بعد ما يعملونها : فيقابل بين الكتابة المتقدمة على الوجود والكتابة المتأخرة عنه . فلا يكون بينهما تفاوت هكذا قال ابن عباس وغيره من السلف — وهو حق — فاذا كان ما يخلقه بائناً عنه قد كتبه قبل ان يخلقه ، فكيف يستبعد ان يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل ان يرسلهم به .

ومن قال ان جبريل اخذ القرآن من الكتاب لم يسمعه من الله كان هذا باطلا من وجوه :

« منها » ان يقال إن الله سبحانه وتعالى قد كتب التوراة لموسى بيده ، فبنوا اسرائيل اخذوا كلام الله من الكتاب الذي كتبه هو سبحانه وتعالى فيه ، فان كان محمد أخذ عن جبريل ، وجبريل عن الكتاب

كان بنوا اسرائيل اعلا من محمد بدرجة .

وكذلك من قال انه القى إلى جبريل المعاني وان جبريل عبر عنها بالكلام العربي فقوله يستلزم ان يكون جبريل الهمة الهاماً ، وهذا الالهام يكون لآحاد المؤمنين . كما قال تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى ورسولي) وقال : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) وقد أوحى إلى سائر النبيين فيكون هذا الوحي الذي يكون لآحاد الانبياء والمؤمنين أعلى من أخذ محمد القرآن عن جبريل ؛ لأن جبريل الذي علمه محمد هو بمنزلة الواحد من هؤلاء ؛ ولهذا زعم ابن عربي ان خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، وقال : لأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به الى الرسول . فجعل اخذه واخذ الملك الذي جاء إلى الرسول من معدن واحد ، وادعى ان اخذه عن الله أعلى من اخذ الرسول للقرآن ، ومعلوم ان هذا من أعظم الكفر ، وان هذا القول من جنسه .

وابيضاً فالله تعالى يقول : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح واثنيين من بعده ، وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط) إلى قوله : (وكلم الله موسى تكليماً) ففضل موسى بالتكليم على غيره ممن اوحى اليهم ، وهذا يدل على أمور : على ان الله يكلم عبده تكليماً زائداً عن الوحي الذي هو قسيم التكليم الخاص ، فان

لفظ التكليم والوحي كل منها ينقسم إلى عام وخاص ، فالتكليم هو المقسوم في قوله : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً) والتكليم المطلق هو قسم الوحي الخاص ليس هو قسماً منه ، وكذلك لفظ الوحي قد يكون عاماً فيدخل فيه التكليم الخاص ، كما في قوله لموسى : (فاستمع لما يوحى) وقد يكون قسم التكليم الخاص ، كما في سورة الشورى ، وهذا يبطل قول من يقول الكلام معنى واحد قائم بالذات ، فإنه حينئذ لا فرق بين التكليم الذي خص به موسى والوحي العام الذي يكون لآحاد العباد .

ومثل هذا قوله في الآية الأخرى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحى بأذنه ما يشاء) فإنه فرق بين الأيحاء وبين التكليم من وراء الحجاب ، وبين إرسال رسول يوحى بأذنه ما يشاء ، فدل على أن التكليم من وراء حجاب - كما كلم موسى - أمر غير الإيحاء .

وأيضاً فقوله : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقوله : (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) وقوله : (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) وأمثال ذلك يدل على أنه منزل من الله لا من غيره . وكذلك قوله (بلغ ما أزل إليك من ربك) فإنه يدل على إثبات أن ما أزل إليه من ربه ، وأنه مبلغ مأمور بتبليغ ذلك .

وأيضاً فهم يقولون : انه معنى واحد فان كان موسى سمع جميع المعنى فقد سمع جميع كلام الله ، وان سمع بعضه فقد تبع بعض ، وكلاهما ينقض قولهم : فانهم يقولون : انه معنى واحد لا يتعدد ولا يتبع بعض ، فان كان ما يسمعه موسى والملائكة هو ذلك المعنى كله كان كل منهم علم جميع كلام الله ، وكلامه متضمن لجميع خبره وجميع أمره ، فيلزم أن يكون كل واحد ممن كلمه الله أو أنزل عليه شيئاً من كلامه عالماً بجميع أخبار الله وأوامره ، وهذا معلوم الفساد بالضرورة . وان كان الواحد من هؤلاء انما يسمع بعضه ، فقد تبع بعض كلامه وذلك يناقض قولهم .

وايضاً فقوله : (وكلم الله موسى تكليماً) وقوله : (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) وقوله : (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً) وقوله : (فلما أتاها نودي يا موسى انى انا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) الآيات . دليل على تكليم سمعه موسى . والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة ، ومن قال انه يسمع فهو مكابر ، ودليل على انه ناداه ، والنداء لا يكون الا صوتاً مسموعاً ، ولا يعقل في لغة العرب لفظ النداء بغير صوت مسموع . لا حقيقة ولا مجازاً .

وأيضاً فقد قال تعالى : (فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين) وقوله : (فلما أتاها نودي من

شاطيء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى انى
انا الله رب العالمين (وقال : (وهل أتاك حديث موسى اذ ناداه ربه
بالواد المقدس طوى) وقال : (فلما أتاها نودي ياموسى انى أنا ربك)
وفى هذا دليل على انه حينئذ نودى ولم يناد قبل ذلك ؛ ولما فيها من
معنى الظرف ، كفاى قوله : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون
عليه لبدا) ومثل هذا قوله : (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم
المرسلين) (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون)
فانه وقت النداء بظرف محدود ، فدل على ان النداء يقع فى ذلك
الحين دون غيره من الظروف ، وجعل الظرف للنداء لا يسمع النداء
إلا فيه .

ومثل هذا قوله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى
الأرض خليفة) وقوله : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) وأمثال
ذلك مما فيه توقيت بعض أقوال الرب بوقت معين ، فان الكلاية
ومن وافقهم من أصحاب الأئمة الأربعة يقولون : انه لا يتكلم بمشيئته
وقدرته ؛ بل الكلام المعين لازم لذاته كزوم الحياة لذاته .

ثم من هؤلاء من قال انه معنى واحد ؛ لأن الحروف والأصوات
متعاقبة ، يمتنع أن تكون قديمة . ومنهم من قال : بل الحروف والأصوات
قديمة الأعيان ، وأنها مترتبة فى ذاتها متقاربة فى وجودها ، لم تزل ولا

يزال قائمة بذاته ، والنداء الذي سمعه موسى قديم أزلي ، لم يزل ولا يزال . ومنهم من قال : بل الحروف قديمة الأعيان ، بخلاف الأصوات ، وكل هؤلاء يقولون : ان التكليم والنداء ليس الا مجرد خلق ادراك المخلوق . بحيث يسمع ما لم يزل ولا يزال لا أنه يكون هناك كلام يتكلم الله به بمشيئته وقدرته ، ولا تكليم : بل تكليمه عندهم جعل العبد سامعاً لما كان موجوداً قبل سمعه ، بمنزلة جعل الأعمى بصيراً لما كان موجوداً قبل رؤيته من غير احداث شيء منفصل عن الأعمى . فعندما جاء موسى لميقات ربه سمع النداء القديم لا انه حينئذ نودي .

ولهذا يقولون : انه يسمع كلامه لخلقه يدل عن قول الناس إنه يكلم خلقه ، وهؤلاء يردون على الخلقية الذين يقولون القرآن مخلوق ، ويقولون عن أنفسهم إنهم أهل السنة الموافقون للسلف ، الذين قالوا : ان القرآن كلام الله غير مخلوق ، وليس قولهم قول السلف ؛ لكن قولهم أقرب إلى قول السلف من وجه ، وقول الخلقية أقرب إلى قول السلف من وجه .

أما كون قولهم أقرب فلأنهم يثبتون لله كلاماً قائماً بنفس الله ، وهذا قول السلف ؛ بخلاف الخلقية الذين يقولون : ليس كلامه إلا ما خلقه في غيره ، فان قول هؤلاء مخالف لقول السلف . وأما كون قول

الخلقية أقرب فالأنهم يقولون ان الله يتكلم بمشيئته وقدرته وهذا قول السلف ، وهؤلاء عندهم لا يقدر الله على شيء من كلامه ، وليس كلامه بمشيئته واختياره ، بل كلامه عندهم كحياته ، وهم يقولون : الكلام عبداً صفة ذات لا صفة فعل . والخلقية يقولون صفة فعل لا صفة ذات ، ومذهب السلف انه صفة ذات وصفة فعل معاً ، فكل منهما موافق للسلف من وجه دون وجه .

واختلافهم في كلام الله تعالى شبيه باختلافهم في أفعاله تعالى ورضاه وغضبه ، واراادته وكراهته ، وجهه وبغضه ، وفرحه وسخطه ونحو ذلك . فان هؤلاء يقولون هذه كلها أمور مخلوقة بآئنة عنه ترجع إلى الثواب والعقاب . والآخرون يقولون بل هذه كلها أمور قديمة الأعيان قائمة بذاته . ثم منهم من يجعلها كلها تعود الى ارادة واحدة بالعين متعلقة بجميع المخلوقات . ومنهم من يقول : بل هي صفات متعددة الأعيان ، لكن يقول : كل واحدة واحدة العين ، قديمة قبل وجود مقتضياتها ، كما قالوا مثل ذلك في الكلام ، والله تعالى يقول : (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) فأخبر أن أفعالهم أسخطته ، قال تعالى : (فلما آسفونا انتقمنا منهم) أي أغضبونا . وقال تعالى : (ادعوني أستجب لكم) الى أمثال ذلك مما يبين أنه سخط على الكفار لما كفروا ، ورضي عن المؤمنين لما آمنوا .

ونظير هذا اختلافهم في أفعاله تعالى ومسائل القدر ؛ فان المعتزلة يقولون :
انه يفعل لحكمة مقصودة ، واردة الاحسان الى العباد ؛ لكن لا يثبتون
لفعله حكمة تعود اليه . وأولئك يقولون لا يفعل لحكمة ولا لمقصود
أصلاً . فأولئك أثبتوا حكمة لكن لا تقوم به ، وهؤلاء لا يثبتون له
حكمة ولا قصداً يتصف به . والفريقان لا يثبتون له حكمة ولا
مقصوداً يعود اليه .

وكذلك في « الكلام » : أولئك أثبتوا كلاماً هو فعله لا يقوم به .
وهؤلاء يقولون مالا يقوم به لا يعود حكمه اليه . والفريقان يمنعون ان
يقوم به حكمة مرادة له ، كما يمنع الفريقان ان يقوم به كلام وفعل يريد
وقول أولئك أقرب الى قول السلف والفقهاء اذ أثبتوا الحكمة والمصلحة
في احكامه وأفعاله واثبتوا كلاماً يتكلم به بقدرته ومشئته : وقول
هؤلاء أقرب الى قول السلف اذ اثبتوا الصفات ، وقالوا : لا يوصف
بمجرد المخلوق المنفصل عنه الذي لم يقم به اصلاً ، ولا يعود اليه حكم
من شيء لم يقم به ، فلا يكون متكلاً بكلام لم يقم به ، ولا
يكون حكماً كريماً ورحيماً بحكمة ورحمة لم تقم به ، كما لا يكون عليماً بعلم
لم يقم به ، وقديراً بقدرة لم تقم به ، ولا يكون محباً راضياً غضباناً
بحب ورضى وغضب لم يقم به .

فكل من المعتزلة والأشعرية في مسائل كلام الله وأفعال الله : بل

وسائر صفاته وافقوا السلف والأئمة من وجه . وخالفوه من وجه ،
وليس قول أحدهما هو قول السلف دون الآخر ؛ لكن الأدعية في
جنس مسائل الصفات ، بل وسائر الصفات والقدر أقرب إلى قول
السلف والأئمة من المعتزلة .

فان قيل : فقد قال تعالى : (إنه لقول رسول كريم) وهذا
يدل على أن الرسول أحدث الكلام العربي . قيل : هذا باطل ؛
وذلك لأن الله ذكر هذا في القرآن في موضعين ؛ والرسول في أحد
الموضعين محمد ، والرسول في الآية الأخرى جبريل . قال تعالى في
سورة الحاقة : (إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا
ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب
العالمين) فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال في سورة
التكوير : (إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين
مطاع ثم أمين) فالرسول هنا جبريل . فلو كان أضافه إلى الرسول
لكونه أحدث حروفه أو أحدث منه شيئاً لكان الخبران متناقضين ،
فانه ان كان أحدهما هو الذي أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو
الذي أحدثها .

وأيضاً فانه قال : (لقول رسول كريم) ولم يقل : لقول ملك
ولا نبي ، ولفظ « الرسول » يستلزم مرسلاته ، فدل ذلك على أن

الرسول مبلغ له عن مرسله : لا أنه أنشأ منه شيئاً من جهة نفسه .
وهذا يدل على أنه أضافه الى الرسول : لأنه بلغه وأداه . لا لأنه أنشأ
منه شيئاً وابتداه .

وأيضاً فان الله قد كفر من جعله قول البشر بقوله : (انه فكر
وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر . ثم عبس
وبسر ، ثم أدبر واستكبر : فقال : ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا
الا قول البشر) ومحمد بشر : فمن قال : انه قول محمد فقد كفر ، ولا
فرق بين ان يقول : هو قول بشر أو جني أو ملك ، فمن جعله قولاً
لأحد من هؤلاء فقد كفر : ومع هذا فقد قال تعالى : (انه لقول
رسول كريم ، وما هو بقول شاعر) فجعله قول الرسول البشري مع
تكفيره من يقول انه قول البشر ، فعلم ان المراد بذلك ان الرسول
بلغه عن مرسله ، لا انه قول له من تلقاء نفسه ، وهو كلام الله
الذي أرسله ، كما قال تعالى : (وان أحد من المشركين استجارك
فأجره حتى يسمع كلام الله) فالذي بلغه الرسول هو كلام الله
لا كلام الرسول .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس
بالمواسم ويقول : « الا رجل يحملني الى قومه لأبلغ كلام ربي فان قریشا
قد منعوني ان ابلغ كلام ربي » رواه أبو داود وغيره ، والكلام كلام من

قاله مبتدئاً لا كلام من قاله مبلغاً مؤدياً ، وموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة ، والمؤمنون يسمعه بعضهم من بعض ، فسمع موسى سماع مطلق بلا واسطة ، وسمع الناس سماع مقيد بواسطة . كما قال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بأذنه ما يشاء) .

ففرق بين التكليم من وراء حجاب — كما كلم موسى — وبين التكليم بواسطة الرسول — كما كلم الأنبياء برسال رسول اليهم — والناس يعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلام تكلم به بحروفه ومعانيه بصوته صلى الله عليه وسلم ، ثم المبلغون عنه يبلغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « نضر الله أحراً سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه » فالمستمع منه يبلغ حديثه كما سمعه ؛ لكن بصوت نفسه لا بصوت الرسول ، فالكلام هو كلام الرسول تكلم به بصوته ، والمبلغ بلغ كلام الرسول ، لكن بصوت نفسه ، وإذا كان هذا معلوماً فيمن يبلغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بذلك .

ولهذا قال تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » فجعل الكلام كلام الباري وجعل الصوت الذي يقرأ به العبد صوت القارئ وأصوات العباد ليست هي عين الصوت الذي ينادي

الله به ويتكلم به ، كما نطقت النصوص بذلك ، بل ولا مثله ، فان الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فليس علمه مثل علم المخلوقين ، ولا قدرته مثل قدرتهم ، ولا كلامه مثل كلامهم ، ولا نداءؤه مثل ندائهم ، ولا صوته مثل أصواتهم .

فمن قال عن القرآن الذي يقرؤه المسلمون : ليس هو كلام الله ، أو هو كلام غيره فهو ملحد مبتدع ضال . ومن قال : ان أصوات العباد أو المداد الذي يكتب به القرآن قديم أزلي فهو ملحد مبتدع ضال : بل هذا القرآن هو كلام الله ، وهو مثبت في المصاحف ، وهو كلام الله مبلغاً عنه مسموعاً من القراء ، ليس هو مسموعاً منه ، والانسان يرى الشمس والقمر والكواكب بطريق المباشرة ، ويراها في ماء أو حراة ، فهذه رؤية مقيدة بالواسطة ، وتلك رؤية مطلقة بطريق المباشرة ، وكذلك الكلام يسمع من المتكلم به بطريق المباشرة ، ويسمع من المبلغ عنه بواسطة ، والمقصود بالسماع هو كلامه في الموضعين ، كما ان المقصود بالرؤية هو المرئى في الموضعين .

فمن عرف ما بين الحالين من الاجتماع والافتراق ، والاختلاف والاتفاق ، زالت عنه الشبهة التي تصيب كثيراً من الناس في هذا الباب ، فان طائفة قالت : هذا المسموع كلام الله ، والمسموع صوت العبد وصوته مخلوق ؛ فكلام الله مخلوق . وهذا جهل ، فانه مسموع من

المبلغ . ولا يلزم إذا كان صوت المبلغ مخلوقاً ان يكون نفس الكلام مخلوقاً .

وقالت « طائفة » : هذا المسموع صوت العبد وهو مخلوق ، والقرآن ليس بمخلوق . فلا يكون هذا المسموع كلام الله . وهذا جهل ؛ فان المخلوق هو الصوت لا نفس الكلام الذي يسمع من التكلم به ومن المبلغ عنه .

و « طائفة » قالت : هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق ، فيكون هذا الصوت غير مخلوق وهذا جهل ؛ فانه إذا قيل : هذا كلام الله فالشار إليه هو الكلام من حيث هو هو ، وهو الثابت إذا سمع من الله وإذا سمع من المبلغ عنه ، وإذا قيل للمسموع انه كلام الله فهو كلام الله مسموعاً من المبلغ عنه لا مسموعاً منه ، فهو مسموع بواسطة صوت العبد ، وصوت العبد مخلوق . وأما كلام الله نفسه فهو غير مخلوق حيث ما تصرف . وهذه نكت قد بسط الكلام فيها في غير هذا الموضع .

فصل

فان قيل : ما منشأ هذا النزاع والاشتباه والتفرق والاختلاف ؟
قيل : منشأه هو الكلام الذي ذمه السلف وعابوه ، وهو الكلام
المشتبه المشتمل على حق وباطل : فيه ما يوافق العقل والسمع ، وفيه
ما يخالف العقل والسمع ، فيأخذ هؤلاء جانب النفي المشتمل على نفي
الحق والباطل ، وهؤلاء جانب الاثبات المشتمل على إثبات حق وباطل ،
وجماعه هو الكلام المخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف ، فكل
كلام خالف ذلك فهو باطل ، ولا يخالف ذلك الأكلام مخالف للعقل
والسمع ، وذلك أنه لما تناظروا في مسألة حدوث العالم وإثبات الصانع
استدلّت الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من طوائف أهل الكلام على ذلك
بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث .

ثم ان المستدلين بذلك على حدوث الأجسام ، قالوا : ان الأجسام
لا تخلو عن الحوادث ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، ثم تنوعت
طرقهم في المقدمة الأولى . فتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن
الحركة والسكون وهما حادثان ، وتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن

الاجتماع والافتراق وهما حادثان ، وتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الاكوان الأربعة : الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون ، وهى حادثة . وهذه طرق المعتزلة ومن وافقهم على ان الأجسام لا تخلو عن بعض أنواع الأعراض .

وتارة يثبتونها بأن الجسم لا يخلو من كل جنس من الاعراض عن عرض منه . ويقولون : القابل للشيء لا يخلو منه وعن ضده ويقولون : ان الاعراض يمتنع بقاءها لان العرض لا يبقى زمانين ، وهذه الطريقة هي التي اختارها الآمدي ، وزيف ما سواها ، وذكر ان جمهور اصحابه اعتمدوا عليها ، وقد وافقهم عليها طائفة من الفقهاء من أصحاب الأئمة الأربعة : كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالى الجويني ، وأبي الوليد الباجي وأمثالهم .

وأما الهشامية والكرامية وغيرهم من الطوائف الذين يقولون بحدوث كل جسم ، ويقولون : ان القديم تقوم به الحوادث ، فهؤلاء إذا قالوا بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، كما هو قول الكرامية وغيرهم موافقة للمعتزلة في هذا الاصل ، فانهم يقولون إن الجسم القديم يخلو عن الحوادث بخلاف الأجسام المحدثه ، فانها لا تخلو عن الحوادث .

والناس متنازعون في « السكون » هل هو أمر وجودي او عديمي ؟

فمن قال انه وجودي قال إن الجسم الذي لا يخلو عن الحركة والسكون إذا انتفت عنه الحركة قام به السكون الوجودي ، وهذا قول من يحتاج بتعاقب الحركة والسكون على حدوث المتصف بذلك ، ومن قال انه عديمي : لم يلزم من عدم الحركة عن المحل ثبوت سكون وجودي ، فمن قال انه تقوم به الحركة او الحوادث بعد ان لم تكن مع قوله بامتناع تعاقب الحوادث ، كما هو قول الكرامية وغيرهم - يقولون : إذا قامت به الحركة لم بعدم قيامها سكون وجودي ؛ بل ذلك عندهم بمنزلة قولهم مع المعتزلة والاشعرية وغيرهم انه بفعل بعد ان لم يكن فاعلا ، ولا يقولون : ان عدم الفعل أمر وجودي - كذلك الحركة عند هؤلاء ، وكان كثير من أهل الكلام يقولون : ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث ، بناء على أن هذه مقدمة ظاهرة ، فان ما لا يسبق الحادث فلا بد ان يقارنه او يكون بعده ، وما قارن الحادث فهو حادث وما كان بعده فهو حادث .

وهذا الكلام مجمل فانه إذا أريد به ما لا يخلو عن الحادث المعين او ما لا يسبق الحادث المعين فهو حق بلا ريب ، ولا نزاع فيه ، وكذلك إذا أريد بالحادث جملة ما له أول او ما كان بعد العدم ونحو ذلك ، وأما إذا أريد بالحوادث الامور التي تكون شيئاً بعد شيء لا الى أول . وقيل : انه ما لا يخلو عنها وما لم يخل عنها فهو حادث لم يكن ذلك ظاهراً ولا بيناً

بل هذا المقام حار فيه كثير من الافهام ، وكثر فيه النزاع والخصام ؛
ولهذا صار المستدلون بقولهم : ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث يعلمون
ان هذا الدليل لا يتم إلا إذا اثبتوا امتناع حوادث لا أول لها ، فذكروا
في ذلك طرقا قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع .

وهذا الاصل تنازع الناس فيه على « ثلاثة أقوال » .

ف قيل : ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، وبامتناع حوادث لا اول لها
مطلقاً ، وهذا قول المعتزلة ومن اتبعهم من الكرامية والاشعرية ، ومن
دخل معهم من الفقهاء وغيرهم .

وقيل : بل يجوز دوام الحوادث مطلقاً وليس كل ما قارن حادثاً بعد
حادث لا إلى اول يجب ان يكون حادثاً ؛ بل يجوز ان يكون قديماً سواء كان
واجباً بنفسه او بغيره ، وربما عبر عنه بالعادة والمعلول . والفاعل والمفعول ونحو
ذلك وهذا قول الفلاسفة القائلين بقدم العالم والأفلاك ، كارسطو واتباعه
مثل ثامسطيوس ، والاسكندر الافريدوسي وبرقلس ، والفارابي ، وابن
سينا وأمثالهم .

واما جمهور الفلاسفة المتقدمين على ارسطو فلم يكونوا يقولون

بقدم الافلاك . ثم الفلاسفة من هؤلاء وهؤلاء متنازعون في قيام
المفقات والحوادث بواجب الوجود على قولين معروفين لهم ، واثبات
ذلك قول كثير من الأساطين القدماء ، وبعض المتأخرين ، كابى البركات
صاحب المعبر وغيره ، كما بسطت اقوالهم في غير هذا الموضع .

وقيل : بل ان كان المستلزم للحوادث ممكناً بنفسه ، وانه هو الذي
يسمى مفعولاً ومعلولاً ، ومربوباً ونحو ذلك من العبارات وجب ان يكون
حادثاً . وان كان واجباً بنفسه لم يجز ان يكون حادثاً ، وهذا قول أئمة أهل
الملل واساطين الفلاسفة ، وهو قول جماهير أهل الحديث . وصاحب
هذا القول يقول مالا يخلو عن الحوادث وهو ممكن بنفسه فهو حادث
او مالا يخلو عن الحوادث وهو معلول او مفعول او مبتدع او مصنوع
فهو حادث ؛ لأنه إذا كان مفعولاً مستلزماً للحوادث امتنع ان يكون
قديماً : فان القديم المعلول لا يكون قديماً إلا إذا كان له موجب
قديم بذاته يستلزم معلوله ، بحيث يكون معه ازلياً لا يتأخر عنه ،
وهذا ممتنع .

فان كونه مفعولاً ينافى كونه قديماً ، بل قدمه ينافى كونه ممكناً ،
فلا يكون ممكناً إلا ما كان محدثاً عند جماهير العقلاء من الأولين
والآخرين ، وهذا قول الفلاسفة القدماء قاطبة كرسطو وأتباعه ،
وإنما أثبت ممكناً قديماً بعض متأخريهم كابن سينا وأتباعه خالفوا في

ذلك الفلاسفة القدماء قاطبة ، كما خالفوا في ذلك جماهير العقلاء من سائر الطوائف ؛ ولهذا تناقضوا في احكام الممكن : وورد عليهم فيه من الأسئلة [مالا جواب لهم عنه كما ذكرت ذلك] في [الرد على] الأربعين وغير ذلك من المواضع .

وما يدعى من أن المعلول قد يقارن علته إنما يعقل فيما كان شرطاً لا فاعلاً ، كقولهم : حركت يدي فتحرك الحاتم ؛ فان حركة اليد شرط في تحريك الحاتم ، والشرط والمشروط قد يتلازمان [و] ليست فاعلة مبدعة لها ، وكذلك الشعاع مع النار والشمس ونحو ذلك ، وأما ما يكون فاعلاً فلا يتصور ان يقارنه مفعوله في الزمان ، سواء كان فاعلاً بالارادة أو قدر أنه فاعل بغير إرادة ، وسواء سمي فاعلاً بالذات أو بالطبع ، أو ما قدر . لا يتصور أن يكون المفعول مقارناً لفاعله في الزمان ، كما اعترف بذلك جماهير العقلاء من الأولين والآخرين .

وأرسطو وأتباعه لم يقولوا إن الفلك مفعول للرب ، ولا أنه معلول لعله فاعلية أبدعت ذاته ؛ بل زعموا أنه قديم واجب بنفسه ، وأن له علة غائية يتشبه بها ، نحو حركة العشوق يجب أن يقتدى به ، والفلك عندهم يتحرك للتشبه بتلك العلة ، ولهذا قالوا : « الفلسفة » هي التشبه بالاله بحسب الطاقة ، وقولهم — وإن كان فيه من الكفر والجهل بالله أعظم مما في قول ابن سينا وأتباعه . وفيهم من التناقض في الالهيات

ما ليس هذا موضع بسطه — فلم يتناقضوا في إثبات ممكن قديم
كتناقض متأخريهم .

ولهذا لما كانت هذه القضية مستقرة في فطر العقلاء وكان مجرد
العلم والخبر بأن السموات مخلوقة او مصنوعة أو مفعولة موجباً للعلم
بأنها حادثة ، لا يخطر بالفطر السليمة امكان كونها مفعولة لفاعل فعلها
مع كونها قديمة لم تزل معه ، ولهذا لم يدع هذا إلا هذه الشرذمة
القليلة من المتفلسفة .

و « أيضاً » فان ما استلزم الحوادث يتمتع أن يكون فاعله موجباً
بذاته يستلزم معلوله في الأزل ؛ فان الحوادث المتعاقبة شيئاً بعد شيء ،
لا يكون مجموعها في الأزل ، ولا يكون شيء منها أزلياً ، بل الأزلي هو
دوامها واحداً بعد واحد ، والموجب بذاته المستلزم لمعلوله في الأزل لا يكون
معلوله شيئاً بعد شيء ، سواء كان صادراً عنه بواسطة أو بغير واسطة ، فان
ما كان واحداً بعد واحد يكون متعاقباً حادثاً شيئاً بعد شيء ، فيمتنع
أن يكون معلولاً مقارناً لعلته في الأزل بخلاف ما اذا قيل ان المقارن
لذلك هو الموجب بذاته الذي يفعل شيئاً بعد شيء ، فانه على هذا
التقدير لا يكون في الأزل موجباً بذاته ، ولا علة سابقة تامة لشيء من العالم ،
فلا يكون معه في الأزل من المخلوقات شيء لكن فاعليته للمفعولات
تكون شيئاً بعد شيء ، وكل مفعول يوجد عنده وجود كمال فاعليته ،

إذ المؤثر التام المستلزم لجميع شروط التأثير لا يتخلف عنه اثره ؛ إذ لو تخلف لم يكن مؤثراً تاماً ، فوجود الاثر يستلزم وجود المؤثر التام ، ووجود المؤثر التام يستلزم وجود الأثر ، فليس في الأزل مؤثر تام ، فليس مع الله شيء من مخلوقاته قديم بقدمه ، والأزل ليس هو حداً محدوداً ولا وقتاً معيناً ؛ بل كل ما يقدره العقل من الغاية التي ينتهي إليها فالأزل قبل ذلك ، كما هو قبل ما قدره ، فالأزل لا أول له ، كما ان الأبد لا آخر له .

وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان كان يقول : « انت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء » فلو قيل انه مؤثر تام في الأزل لشيء من الأشياء لزم ان يكون مقارناً له دائماً ، وذلك يناقض كونه مفعولاً له ، وانما يصح مثل هذا في الصفة اللازمة للموصوف ، فانه اذا قيل : الذات مقتضى تمام للصفة كان المعنى أن الذات مستلزمة للصفة ، ليس المراد بذلك ان الذات مبدعة للصفة ، فانه إذا تصور معنى المبدع امتنع في المقارن بصريح المعقول ، سواء سمي علة فاعلة أو خالقاً أو غير ذلك ، وامتنع ان يقوم بالأثر شيء من الحوادث ؛ لأن كل حادث يحدث لا يحدث إلا إذا وجد مؤثره التام عند حدوثه ، وان كانت ذات المؤثر موجودة قبل ذلك ؛ لكن لا بد من كمال وجود شروط التأثير عند وجود الأثر

وإلا لزم الترجيح بلا مرجح ، وتختلف المعلول عن العلة التامة ،
ووجود الممكن بدون المرجح التام . وكل هذا ممتنع ، فامتنع ان يكون
مؤثراً لشيء من الحوادث في الأزل ، وامتنع ان يكون مؤثراً
في الأزل فيما يستلزم الحوادث ، لأن وجود الملزوم بدون اللازم محال
فامتنع ان يكون المفعول المستلزم للحوادث قديماً .

وإذا قيل ذاته مقتضية للحدث الثاني بشرط انقضاء الأول . قيل :
فليس هو مقتضياً لشيء واحد دائماً ، فلا يكون معه قديم من مفعولاته .
وقيل ايضاً : هذا انما يكون إذا كانت لذاته احوال متعاقبة تختلف
المفعولات لأجلها ، فاما إذا قدر ان لا يقوم بها شيء من الأحوال
المتعاقبة ؛ بل حالها عند وجود الحادث كحالها قبله ، كان امتناع فعله
للحوادث المتعاقبة البائدة أعظم من امتناع فعله لحادث معين ، فاذا كان
الثاني ممتنعاً عندهم فالأول أولى بالامتناع ، ومتى كان للذات أحوال متعاقبة
تقوم بها بطلت كل حجة لهم على قدم شيء من العالم ، وامتنع أيضاً
قدم شيء من العالم إذا كان المفعول لا بد له من فاعل والفعل الحادث
لا يكون مفعوله الا حادثاً . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

فصل

واذا عرف الأصل الذى منه تفرع نزاع الناس فى « مسألة كلام الله » فالذين قالوا ما لا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً تنازعوا فى كلام الله تعالى . فقال كثير من هؤلاء : الكلام لا يكون إلا بمشيئة المتكلم وقدرته ، فيكون حادثاً كغيره من الحوادث ، ثم قالت طائفة : والرب لا تقوم به الحوادث ، فيكون الكلام مخلوقاً فى غيره ، فجعلوا كلامه مخلوقاً من المخلوقات ، ولم يفرقوا بين قال وفعل . وقد علم أن المخلوقات لا يتصف بها الخالق ، فلا يتصف بما يخلقه فى غيره من الألوان والأصوات ، والروائح والحركة : والعلم والقدرة ، والسمع والبصر ، فكيف يتصف بما يخلقه فى غيره من الكلام ، ولو جاز ذلك لكان ما يخلقه من انطاق الجمادات كلامه ، ومن علم انه خالق كلام العباد وأفعالهم يلزمه ان يقول كل كلام فى الوجود فهو كلامه ، كما قال بعض الاتحادية :

وكل كلام فى الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهذا قول الجهمية والنجارية والضرارية وغيرهم . فان هؤلاء

يقولون : انه خالق أفعال العباد وكلامهم ، مع قولهم ان كلامه مخلوق
فيلزمهم هذا .

وأما « المعتزلة » فلا يقولون ان الله خالق افعال العباد . لكن الحجة
توجب القول بذلك .

وقالت طائفة : بل الكلام لا بد ان يقوم بالتكلم ، ويمتنع ان
يكون كلامه مخلوقاً في غيره ، وهو متكلم بمشيئته وقدرته فيكون
كلامه حادثاً بعد ان لم يكن : لامتناع حوادث لا أول لها . وهذا
قول الكرامية وغيرهم . ثم من هؤلاء من يقول : كلامه كله حادث .
لامحدث . ومنهم من يقول هو حادث ومحدث . وقال كثير من هؤلاء
الذين يقولون بامتناع حوادث لا أول لها مطلقاً : الكلام لازم لذات
الرب ، كلزوم الحياة ليس هو متعلقاً بمشيئته وقدرته بل هو قديم
كقدم الحياة ؛ إذ لو قلنا انه بقدرته ومشيئته لازم ان يكون حادثاً ،
وحينئذ فيلزم ان يكون مخلوقاً أو قائماً بذات الرب ، فيلزم قيام
الحوادث به وذلك يستلزم تسلسل الحوادث ؛ لأن القابل للشيء لا يخلو
عنه أو عن ضده . قالوا : وتسلسل الحوادث ممتنع ؛ إذ التفريع على
هذا الأصل .

ثم ان هؤلاء لما قالوا بقديم عين الكلام تنازعوا فيه فقالت طائفة :

القديم لا يكون حروفاً ولا أصواتاً ؛ لأن الصوت يستحيل بقاءه ، كما يستحيل بقاء الحركة ، وما امتنع بقاءه امتنع قدم عينه بطريق الأولى والأخرى ، فيمتنع قدم شيء من الأصوات المعينة ، كما يمتنع قدم شيء من الحركات المعينة ؛ لأن تلك لا تكون كلاماً إلا إذا كانت متعاقبة ، والقديم لا يكون مسبوقاً بغيره ، فلو كانت الميم من (بسم الله) قديمة مع كونها مسبقة بالسین والباء لكان القديم مسبوقاً بغيره ، وهذا ممتنع فيلزم أن يكون القديم هو المعنى فقط ولا يجوز تعدده ؛ لأنه لو تعدد لكان اختصاصه بقدر دون قدر ترجيحاً بلا مرجع ، وإن كان لا يتناهى لزم وجود اعداد لانهاية لها في آن واحد . قالوا : وهذا ممتنع ، فيلزم ان يكون معنى واحداً هو الأمر والخبر ، وهو معنى التوراة والانجيل والزبور والقرآن ، وهذا أصل قول الكلاية والأشعرية .

وقالت طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء وغيرهم : بل هو حروف قديمة الأعيان لم تزل ولا تزال ، وهي مترتبة في ذاتها لافي وجودها ، كالحروف الموجودة في المصحف وليس بأصوات قديمة .

ومنهم من قال : بل هو أيضاً أصوات قديمة ولم يفرق هؤلاء بين الحروف المنطوقة التي لا توجد إلا متعاقبة ، وبين الحروف المكتوبة التي توجد في آن واحد ، كما يفرق بين الأصوات والمداد : فان الأصوات لا تبقى بخلاف المداد فانه جسم يبقى ، وإذا كان الصوت لا يبقى امتنع

ان يكون الصوت المعين قديماً ؛ لأن ماوجب قدمه لزم بقاؤه وامتنع
عدمه ، والحروف المكتوبة قد يراد بها نفس الشكل القائم بالمداد
او ما يقدر بقدر المداد : كالشكل المصنوع في حجر وورق ، فإزالة
بعض اجزائه تدل على حدوثه ، وقد يراد بالحروف نفس المداد .

وأما الحروف المنطوقة فقد يراد بها أيضاً الأصوات المقطعة المؤلفة ،
وقد يراد بها حدود الأصوات وأطرافها ، كما يراد بالحرف في الجسم
حده ومنتهاه . فيقال : حرف البرغيف وحرف الجبل ونحو ذلك . ومنه
قوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف) وقد يراد
بالحروف الحروف الخيالية الباطنة ، وهي ما يتشكل في باطن الانسان من
الكلام المؤلف المنظوم قبل أن يتكلم به .

وقد تنازع الناس هل يمكن وجود حروف بدون أصوات في الحي
الناطق ؟ على قولين لهم ، وعلى هذا تنازعت هذه الطائفة القائلة بقدم
أعيان الحروف ، هل تكون قديمة بدون أصوات قديمة أم لا بد من
أصوات قديمة لم تزل ولا تزال ؟

ثم القائلون بقدم الأصوات المعينة تنازعوا في المسموع من القارىء .
هل يسمع منه الصوت القديم ؟ ف قيل : المسموع هو الصوت القديم
وقيل بل المسموع هو صوتان أحدهما القديم ، والآخر المحدث ، فما
لا بد منه في وجود القرآن فهو القديم ، وما زاد على ذلك فهو المحدث .

وقيل : بل الصوت القديم غير المسموع من العبد .

وتنازعوا في « القرآن » هل يقال انه حال في المصحف والصدور أم لا يقال ذلك ؟ على قولين . ف قيل : هو ظاهر في المحدث ليس بحال فيه . وقيل : بل القرآن حال في الصدور والمصاحف ، فهؤلاء الحلقة والحادثية ، والاتحادية والاقترانية أصل قولهم ان ما لا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً . ومن قال بهذا الأصل فانه يلزمه بعض هذه الأقوال أو ما يشبه ذلك ، فان من الناس من يجعله حادثاً . يريد انه كائن بعد ان لم يكن ، ويجعل الحادثات ارادات وتصورات لا حروف وأصوات . والداربي وغيره يميلون الى هذا القول ؛ فانه اما أن يجعل كلام الله حادثاً أو قديماً ، وإذا كان حادثاً فاما ان يكون حادثاً في غيره واما ان يكون حادثاً في ذاته . وإذا كان قديماً فاما أن يكون القديم المعنى فقط ، أو اللفظ فقط ، أو كلاهما ، فاذا كان القديم هو المعنى فقط لزم أن لا يكون الكلام المقروء كلام الله تعالى ثم الكلام في ذلك المعنى قد عرف .

وأما قدم اللفظ فقط ، فهذا لم يقل به أحد ؛ لكن من الناس من يقول ان الكلام القديم هو اللفظ . وأما معناه فليس هو داخلا في مسمى الكلام ، بل هو العلم والارادة وهما قديمان ، لكن ليس ذلك داخلا في مسمى الكلام ؛ فهذا يقول الكلام القديم هو اللفظ

فقط إما الحروف المؤلفة وأما الحروف والأصوات ؛ لكنه يقول إن
معناه قديم .

وأما « الفريق الثاني » الذين قالوا بجواز حوادث لا أول لها
مطلقاً ، وإن القديم الواجب بنفسه يجوز أن تتعقب عليه الحوادث
مطلقاً ، وإن كان ممكناً لا واجباً بنفسه ، فهؤلاء القائلون بقدم العالم كما
يقولون بقدم الأفلاك ، وإنما لم تزل ولا تزال معلولة لعلّة قديمة أزلية ،
لكن المنتسبون إلى الملل كابن سينا ونحوه منهم قالوا أنها صادرة عن
الواجب بنفسه الموجب لها بذاته ، وأما أرسطو وأتباعه فانهم قالوا :
إن لها علة غائية تتحرك للتشبه بها في تحركها ، كما يحرك المعشوق
عاشقه ، ولم يثبتوا لها مبدعاً موجباً ولا موجباً قائماً بذاته ، ولا قالوا إن
الفلك ممكن بنفسه واجب بغيره ، بل الفلك عندهم واجب بنفسه ،
لكن قالوا ، مع ذلك : إن له علة غائية يتحرك للتشبه بها لاقوام له إلا
بها ، فجعلوا الواجب بنفسه الذي لا فاعل له مقتقراً إلى علة غائية منفصلة
عنه ، هذه حقيقة قول أرسطو وأتباعه ؛ ولهذا لم يثبتوا الأول عالماً
بغيره ؛ إذ لم يكن الأول عندهم مبدعاً للفلك ؛ فانه إذا كان مبدعاً يجب
أن يكون عالماً بمفعوله ، كما قال : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟)

ولهذا كانت أقوالهم في الالهيات من أعظم الأقوال فساداً ، بخلاف
أقوالهم في الطبيعيات ؛ ولهذا كان قولهم اشد فساداً في العقل والدين

من قول ابن سينا وأتباعه ، ولم يثبت أرسطو وأتباعه « العلة الاولى »
بطريقة الوجود ، ولا قسموا الوجود القديم الى واجب وممكن ، بل
الممكن عندهم لا يكون إلا حادثا ، ولا اثبتوا الوجود الواجب الخصائص
المميزة للرب عن الأفلاك ، بل هذا من تصرف متأخريهم الذين خلطوا
فلسفتهم بكلام المعتزلة ونحوهم ، وانما أثبت واجب الوجود بطريقة
الوجود ابن سينا وأتباعه .

وحقيقة قول هؤلاء وجود الحوادث بلا محدث أصلا ، أما على قول
من جعل الأول علة غائية للحركة فظاهر ، فانه لا يلزم من ذلك أن
يكون هو فاعلا لها . فقولهم في حركات الأفلاك نظير قول القدرية في
حركة الحيوان ، وكل من الطائفتين قد تناقض قولهم . فان هؤلاء
يقولون بأن فعل الحيوان صادر عن غيره ؛ لكون القدرة والداعي
مستلزمين وجود الفعل ، والقدرة والداعي كلاهما من غير العبد .

فيقال لهم : فقولوا هكذا في حركة الفلك بقدرته وداعيه ، فانه
يجب أن يكونا صادرين عن غيره ، وحينئذ فيكون الواجب بنفسه هو
المحدث لتلك الحوادث شيئا بعد شيء ، وان كان ذلك بواسطة العقل ،
وهذا القول هو الذي يقوله ابن سينا وأتباعه ، وهو باطل أيضا ؛ لأن
الموجب بذاته القديم الذي يقارنه موجبه ومقتضاه يتمتع ان يصدر عنه

حادث بواسطة أو بلا واسطة ، فان صدور الحوادث عن العلة التامة الأزلية ممتنع لذاته .

واذا قالوا الحركة بتوسطه أي [بتوسط] حركة الفلك ، قيل لهم :
فالكلام إنما هو في حدوث الحركة الفلكية ، فان الحركة الحادثة شيئاً بعد شيء
يمتنع أن يكون المقتضى لها علة تامة أزلية ، مستلزمة لمعلولها ، فان
ذلك جمع بين النقيضين ؛ إذ القول بمقارنة المعلول لعلته في الأزل
ووجوده معها يناقض أن يتخلف المعلول أو شيء من المعلول عن الأزل
بل يمتنع أن يكون المقتضى لها ذاتاً بسيطة لا يقوم بها شيء من الصفات
والأحوال المقتضية لحدوث الحوادث المتعاقبة المختلفة ؛ بل يمتنع ان يكون
المقتضى لها ذاتاً موصوفة لا يقوم بها شيء من الأحوال الموجبة لحدوث
الحوادث المذكورة ؛ فان التجدد والتعدد الموجود في المعلولات يمتنع
صدوره عن علة واحدة بسيطة من كل وجه ، فصار حقيقة قولهم ان
الحوادث العلوية والسفلية لا يحدث لها .

وهؤلاء يقولون كلام الله ما يفيض على النفوس الصافية ، كما ان
ملائكة الله عندهم ما يتشكل فيها من الصور النورانية ، فلا يثبتون له
كلاماً خارجاً عما في نفوس البشر ، ولا ملائكة خارجة عما في نفوسهم
غير « العقول العشرة » و « النفوس الفلكية التسعة » ، مع أن أكثرهم يقولون
إنها أعراض ، وقد بين في غير هذا الموضع ان ما يثبتونه من المجردات

العقلية التي هي العقول والنفوس والمواد والصور ، إنما وجودها في الأذهان لا في الأعيان .

وأما « الصنف الثالث » الذين فرقوا بين الواجب والممكن ، والخالق والمخلوق ، والغنى الذي لا يفتقر إلى غيره ، والفقر الذي لا أقوام له إلا بالغنى ، فقالوا : كل ما قارن الحوادث من الممكنات فهو محدث كائن بعد ان لم يكن ، وهو مخلوق مصنوع مربوب ، وانه يتمتع أن يكون فيما هو فقير ممكن مربوب شيء قديم فضلاً عن ان تقارنه حوادث لا أول لها ؛ ولهذا كانت حركات الفلك دليلاً على حدوثه كما تقدم التنبيه على ذلك .

وأما « الرب تعالى » إذا قيل لم يزل متكلاً إذا شاء أو لم يزل فاعلاً لما يشاء لم يكن دوام كونه متكلاً بمشيئته وقدرته ، ودوام كونه فاعلاً بمشيئته وقدرته ممتعاً ؛ بل هذا هو الواجب ؛ لأن الكلام صفة كمال لا نقص فيه ، فالرب أحق أن يتصف بالكلام من كل موصوف بالكلام ؛ إذ كل كمال لا نقص فيه ثبت للمخلوق فالخالق أولى به ؛ لأن القديم الواجب الخالق أحق بالكمال المطلق من المحدث الممكن المخلوق ؛ ولأن كل كمال ثبت للمخلوق فأنما هو من الخالق . وما جاز اتصافه به من الكمال وجب له ، فانه لو لم يجب له لكان اما ممتعاً وهو محال بخلاف الفرض ، وإما ممكناً ، فيتوقف ثبوته له على غيره ، والرب

لا يحتاج في ثبوت كماله إلى غيره ، فان معطى الكمال أحق بالكمال ،
فيلزم أن يكون غيره أكمل منه لو كان غيره معطياً له الكمال ، وهذا
ممتنع ؛ بل هو بنفسه المقدسة مستحق لصفات الكمال ، فلا يتوقف
ثبوت كونه متكلاً على غيره ، فيجب ثبوت كونه متكلاً ، وان ذلك لم
يزل ولا يزال ، والمتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازماً
له بدون قدرته ومشيئته ، والذي لم يزل متكلاً إذا شاء أكمل ممن صار
الكلام يمكنه بعد ان لم يكن الكلام ممكناً له .

وحينئذ فكلامه قديم مع انه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وان قيل :
انه ينادي ويتكلم بصوت ولا يلزم من ذلك قدم صوت معين ، واذا
كان قد تكلم بالتوراة والقرآن والانجيل بمشيئته وقدرته لم يمتنع ان
يتكلم بالباء قبل السين ، وان كان نوع الباء والسين قديماً لم يستلزم
ان تكون الباء المعينة والسين المعينة قديمة ؛ لما علم من الفرق بين النوع
والعين ، وهذا الفرق ثابت في الارادة والكلام ، والسمع والبصر
وغير ذلك من الصفات ، وبه تتحل الاشكالات الواردة على وحدة هذه
الصفات وتعددتها ، وقدمها وحدوثها ، وكذلك نزول به الاشكالات
الواردة في أفعال الرب ، وقدمها وحدوثها ، وحدوث العالم .

واذا قيل : ان حروف المعجم قديمة بمعنى النوع كان ذلك ممكناً .
بخلاف ما اذا قيل ان عين اللفظ الذي نطق به زيد وعمرو قديم ،

فان هذا مكبرة للحس . والمتكلم يعلم ان حروف المعجم كانت موجودة قبل وجوده بنوعها . وأما نفس الصوت المعين الذي قام به التقطيع أو التأليف المعين لذلك الصوت : فيعلم ان عينه لم تكن موجودة قبله . والمنقول عن الامام أحمد وغيره من ائمة السنة مطابق لهذا القول : ولهذا انكروا على من زعم ان حرفا من حروف المعجم مخلوق . وانكروا على من قال : « لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف ، فقالت لا اسجد حتى أمر » مع ان هذه الحكاية نقلت لأحمد عن سري السقطي . وهو نقلها عن بكر بن خنيس العابد ، ولم يكن قصد أولئك الشيوخ بها الا بيان ان العبد الذي يتوقف فعله على الأمر والشرع هو أكمل من العبد الذي يعبد الله بغير شرع : فان كثيراً من العباد يعبدون الله بما تحبه قلوبهم ، وان لم يكونوا مأمورين به ، فقصد أولئك الشيوخ ان من عبد الله بالأمر ولم يفعل شيئاً حتى يؤمر به فهو افضل ممن عبده بما لم يؤمر به ، وذكروا هذه الحكاية الاسرائيلية شاهداً لذلك ، مع ان هذه لا اسناد لها ، ولا يثبت بها حكم ، ولكن الاسرائيليات إذا ذكرت على طريق الاستشهاد بها لما عرف صحته لم يكن بذكرها بأس ، وقصدوا بذلك الحروف المكتوبة : لأن الألف منتصبة وغيرها ليس كذلك ، مع ان هذا أمر اصطلاحي وخط غير العربي لا بمائل خط العربي : ولم يكن قصد أولئك الأشياخ ان نفس الحروف المنطوقة التي هي مباني أسماء الله الحسنى ، وكتبه المنزلة ، مخلوقة بآنة عن الله :

بل هذا شيء لعله لم يحظر بعلومهم ، واحروف المتطوفة لا يقال فيها
انها منتصبة ولا ساجدة ، فمن احتج بهذا من قولهم على انهم يقولون :
ان الله لم يتكلم بالقرآن العربي ولا بالتوراة العبرية ، فقد قال عنهم
ما لم يقولوه .

واما الامام أحمد : فانه أنكر اطلاق هذا القول ، وما يفهم منه
عند الاطلاق ، وهو ان نفس حروف المعجم مخلوقة ، كما نقل عنه انه
قال : ومن زعم ان حرفا من حروف المعجم مخلوق فهذا جهمي يسلك
طريقاً الى البدعة ، فانه اذا قال ان ذلك مخلوق . فقد قال : ان القرآن
مخلوق - أو كما قال - ولا ريب ان من جعل نوع الحروف مخلوقاً بئناً
عن الله كائناً بعد أن لم يكن لزم عنده أن يكون كلام الله العربي والعبري
ونحوها مخلوقاً ، وامتنع ان يكون الله متكلماً بكلامه ، الذي أنزله على
عبد محمد صلى الله عليه وسلم فلا يكون شيء من ذلك كلامه ، فطريقة
الامام أحمد وغيره من السلف مطابقة للقول الثالث ، الموافق لصريح
المعقول وصحيح المنقول .

وقال الشيخ الامام أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي الشافعي
في كتابه الذي سماه « الفصول في الاصول » سمعت الامام أبا منصور
محمد بن أحمد يقول : سمعت الامام أبا بكر عبد الله بن أحمد يقول :
سمعت الشيخ أبا حامد الاسفرائيني يقول : مذهبي ومذهب الشافعي

وفقهاء الامصار ان القرآن كلام الله غير مخلوق . ومن قال انه مخلوق فهو كافر . والقرآن حملاه جبريل عليه السلام مسموعا من الله ، والنبي صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل : والصحابة سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي تتلوه نحن مقروء بالسنتنا . وفيما بين الدفتين ، وما في صدورنا مسموعا ومكتوبا . ومحفوظاً ومقروءاً ، وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق ، ومن قال إنه مخلوق فهو كافر عليه لعائن الله والملائكة والناس اجمعين .

والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع : وذكر ما يتعلق بهذا الباب من الكلام في سائر الصفات : كالعلم والقدرة والارادة ، والسمع والبصر والكلام في تعدد الصفة واتحادها ، وقدمها وحدوثها ، أو قدم النوع دون الأعيان ، أو اثبات صفة كلية عمومية متناولة الأعيان ، مع تجدد كل معين من الأعيان ، أو غير ذلك مما قيل في هذا الباب ، فان هذه مواضع مشكلة ، وهي من محارات العقول : ولهذا اضطرب فيها طوائف من أذكياء الناس ونظارهم ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وسئل شيخ الإسلام

قدس الله روحه^(١)

عمن قال : اختلاف المسلمين في كلام الله تعالى على « ثلاثة أنحاء »
فقوم إلى أنه قديم الحرف والصوت وهم الحشوية ، وقوم إلى أنه حادث
بالصوت والحرف وهم الجهمية ومن تابعهم . وقوم إلى أنه قديم لا بصوت
ولا حرف إلا معنى قائم بذات الله وهم الأشعرية ؛

فأجاب - رضي الله عنه وأرضاه : -

الحمد لله رب العالمين . قول القائل : إن اختلاف المسلمين في كلام
الله على « ثلاثة أنحاء » اليع هو كلام بحسب ما بلغه من ذلك ، وأكثر
من تكلم في هذه المسألة من المتأخرين إنما يذكر فيها بعض اختلاف
الناس . فقوم يحكون أربعة أقوال . كأبي المعالي ونحوه . وقوم يحكون
خمسة أو ستة ، كالشهرستاني ونحوه .

(١) « المسألة انصرية في القرآن » .

والأقوال التي قالها المنتسبون إلى القبلة في هذه المسألة تبلغ سبعة
أو أكثر.

[الأول] «قول المتفلسفة» ومن وافقهم من متصوف، ومتكلم، كابن سينا
وابن عربي الطائى، وابن سبعين، وأمثالهم ممن يقول [بقول] الصابئة
الذين يقولون إن كلام الله ليس له وجود خارج عن نفوس العباد؛ بل هو
ما يفيض على النفوس من المعاني: أعلاما وطلبيا: إما من العقل الفعال
كما يقوله كثير من المتفلسفة. وإما مطلقا كما يقوله بعض متصوفة
الفلاسفة. وهذا قول الصابئة ونحوهم. وهؤلاء يقولون: الكلام الذي
سمعه موسى لم يكن موجوداً إلا في نفسه، وصاحب «مشكات الأنوار»
وأمثاله في كلامه ما يضاهاى كلام هؤلاء أحيانا، وإن كان أحيانا
يكفرهم، وهذا القول أبعد عن الاسلام ممن يقول: القرآن مخلوق.

و (القول الثانى) قول الجهمية من المعتزلة وغيرهم، الذين يقولون:
كلام الله مخلوق، يخلقه فى بعض الأجسام، فمن ذلك الجسم ابتداءً.
لا من الله: ولا يقوم—عندهم—بالله كلام ولا إرادة، وأول هؤلاء
«الجعد بن درهم» الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري—لما
خطب الناس يوم عيد النحر—وقال: ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني
مضح بالجعد بن درهم، انه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا. ولم

يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعداء علواً كبيراً ، ثم
نزل فذبحه .

وهؤلاء هم الذين دعوا من دعوه من الخلفاء إلى مقاتلتهم ، حتى
امتحن الناس في القرآن بالحنّة المشهورة في إمارة المأمون ، والمعتصم
والواثق ، حتى رفع الله شأن من ثبت فيها من أئمة السنة : كالإمام
أحمد — رحمه الله — وموافقيه ، وكشفها الله عن الناس في إمارة المتوكل
وظهر في الأمة « مقالة السلف » : ان القرآن كلام الله غير مخلوق ،
منه بدأ واليه يعود . أي هو المتكلم به : لم يبدأ من بعض المخلوقات
— كما قالت الجهمية — بل هو منه نزل ، كما قال تعالى : تنزيل
الكتاب من الله العزيز الحكيم (وقال : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون
أنه منزل من ربك بالحق) وقال : (حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم)
وقوله : (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) .

ثم لما شاعت الحنّة كثر اضطراب الناس وتنازعهم في ذلك ، حتى
صار أهل السنة والجماعة — المتفقون على ان كلام الله منزل غير مخلوق —
يقول كل منهم قولاً يخالف به صاحبه ، وقد لا يشعر أحدهم بخلاف الأدلة
وصار اتباع الأئمة الأربعة — كأبي حنيفة . ومالك ، والشافعي ، وأحمد ،
مع كون الظاهر المشهور عندهم ان القرآن كلام الله غير مخلوق —
بين كل طائفة منهم تنازع في تحقيق ذلك ، كما سننبه على ذلك .

و [القول الثالث] قول أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري ومن اتبعه : كالقلانسي وأبي الحسن الأشعري وغيرهم . ان كلام الله معنى قائم بذات الله ، هو الأمر بكل مأمور أمر الله به ، والخبر عن كل من خبر أخبر الله عنه ، ان عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وان عبر عنه بالعبرية كان تورا ، وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا .

والأمر والنهي والخبر ليست انواعا له ينقسم الكلام اليها ، وإنما كلها صفات له إضافية ، كما يوصف الشخص الواحد بانه ابن لزيد ، وعم لعمر ، وخال لبكر ،

والقائلون بهذا القول منهم من يقول : إنه معنى واحد في الأزل وانه في الأزل أمر ونهى وخبر ، كما يقوله الأشعري .

وممنهم من قال : بل يصير أمراً ونهياً عند وجود المأمور والمنهي .

وممنهم من يقول : هو عدة معان ، الأمر والنهي ، والخبر ، والاستخبار .

وقد ألزم الناس أصحاب هذا القول أن يجعلوا العلم والقدرة والارادة والحياة شيئاً واحداً ، فاعترف محققوهم بصحة الالتزام .

وجمهور العقلاء — من أهل السنة وأهل البدعة — يقولون
ان فساد هذا القول معلوم بالضرورة ، كما يقولون : ان فساد قول
من يقول : ان الاصوات المسموعة من العباد قديمة معلوم بالضرورة ،
كما يقولون : ان فساد قول من يقول ان المتكلم يكون متكلماً بكلام
يقوم بغيره ، وان العالم يكون عالماً بعلم يقوم بغيره ، والقادر يكون قادراً
بقدرته تقوم بغيره معلوم بالضرورة .

وكما يقول جمهور العقلاء : ان فساد قول من يقول : ان العلم
هو القدرة ، والقدرة هي الارادة . وان العلم هو العالم ، والقدرة هي
القادر ، معلوم بالضرورة .

[القول الرابع] قول طوائف من اهل الكلام والحديث من
السالية وغيرهم يقولون : ان كلام الله حروف وأصوات قديمة أزلية ،
ولها مع ذلك معان تقوم بذات المتكلم ، وهؤلاء يوافقون الأشعرية
والكلابية في ان تكليم الله لعباده ليس الا مجرد خلق إدراك للمتكلم .
ليس هو امراً منفصلاً عن المستمع .

ثم ان جمهور هؤلاء لا يقولون ان تلك الأصوات [هي] المسموعة
من القارئ [بل] يفرقون بين هذا وهذا . ومنهم طائفة وهم أهل (١)

(١) يياض بالاصل .

يقولون : ان الصوت القديم يسمع من القاريء . ثم قد يفوهين تبرة :
ان القديم نفس الصوت المسموع من القاريء ، وتارة يقوهن : انه
يسمع من القاريء صوتاً قديماً ومحدثاً . وكثير منهم : و اكثرهم
لا يقولون بحلول القديم في المحدث : بل يقولون ظهر فيه كما يظهر
الوجه في المرأة .

ومنهم من يقول بحلول القديم في المحدث ، وليس هذا القول
ولا الأقوال قبله قول أحد من سلف الأمة ولا أئمتها ، ولم يقل ذلك
لا الامام أحمد ، ولا أئمة اصحابه ، ولا غيره من الأئمة : بل هم متفقون
على الإنكار على من قال ان لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فكيف بمن
قال صوتي غير مخلوق ؟ فكيف بمن قال صوتي قديم ؟!

وأما القول بان المداد الذي في المصحف قديم : فهذا ما رأيناه في
كتاب أحد من طوائف الاسلام . ولا نقلاه أحد عن رجل معروف
من العلماء أنه سمعه منه : ولكن طائفة بسكتون عن التكلم في المداد
بنفي أو اثبات ، ويقولون : لا نتول إنه قديم : ولكن نسكت سداً
للأريفة . وقد حكاها طائفة عن سموم الحشوية القول بقدم المداد ،
وقالوا : انهم يقولون : ان المداد الذي في المصحف قديم . وانه لما كان
في المحبرة كان محدثاً ، فلما صار في الورق صار قديماً .

ورأينا طوائف يكذبون هؤلاء في النقل ، وكأن حقيقة الأمر أن أولئك يقولون قول غيرهم بمجرد ما بلغهم من إطلاق قولهم : أو لما ظنوه لازماً لهم ، أو لما سمعوه ممن يجازف في النقل ولا يحرره ، وربما سمعوه من بعض عوامهم ان كان ذلك قد وقع .

وهذا الباب وقع فيه غلط بهذا السبب ، حتى غلط الناس على من يعظمونه ؛ وبهذا السبب غلط أبا طالب « الامام احمد » فيما نقله عنه فانه قرأ عليه : (قل هو الله أحد) وسأله هذا مخلوق ؟ فقال له احمد هذا ليس بمخلوق . فبلغه أن أبا طالب حكى عنه انه قال لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فغضب عليه احمد . وقال : أنا قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ فقال : لا . ولكن قرأت عليك : (قل هو الله أحد) فقلت لك : هذا غير مخلوق فقلت نعم . فقال : فلم حكيت غنى أني قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ فقال : لم احكه عنك وإنما حكيتك عن نفسي . قال : فلا تقل هذا فاني لم اسمع علماً يقول هذا ؛ ولكن قل : القرآن حيث تصرف كلام الله غير مخلوق .

ولهذا قال البخاري في « كتاب خلق الأفعال » إن « اللفظية » هؤلاء يذكرون قولهم عن أحمد وهم لا يفهمون دقة قوله ، وموضع الشبهة أنه إذا قال هذا ، فالإشارة تكون الى الكلام من حيث هو كلام ، مع قطع النظر عما يبلغ به من حركات العبد وصوته ، كما ان

الرجل اذا كتب اسم الله — تبارك وتعالى — وسمع قائلًا يذكر الله فقال هـذا ربي كان صادقًا ، ولو قيل له : أتعبد هذا ؟ لقال نعم . — لأن المشار اليه هو المسمى بذلك — الا تعلم المكتوب ؟ والاسم يراد به من الكلام المؤلف المسمى ، فاذا قال : (محمد رسول الله والذين معه) فالمراد ان المسمى الذي اسمه محمد هو رسول الله : ليس المراد ان نفس اللفظ والخط هو رسول الله .

ومن هنا تنازع الناس في « الاسم » هل هو المسمى أو غيره ، وكان الصواب ان يمنع من كلا الاطلاقين ، ويقال كما قال الله تعالى : (والله الأسماء الحسنى) وكما قال صلى الله عليه وسلم : « ان لله تسعة وتسعين اسما ، من احصاها دخل الجنة » . والذين أطلقوا أنه المسمى كان أصل مقصودهم أن المراد به هو المسمى ، وانه إذا ذكر الاسم فالإشارة به إلى مسماه ، وإذا قال العبد حمدت الله ودعوت الله وعبدت الله فهو لا يريد إلا أنه عبد المسمى بهذا الاسم .

والذين نفوا ذلك رأوا أن نفس اللفظ أو الخط ليس هو الأعيان المسماة بذلك ، وآخرون فرقوا بين التسمية والاسم ، فجعلوا الألفاظ هي التسمية ، وجعلوا الاسم هو الأعيان المسماة بالألفاظ ، فخرجوا عن موجب اللغة المعروفة التي جاء بها الكتاب والسنة .

وأصل مقصود الطوائف كلها صحيح : إلا من توسل منهم بقوله
إلى قول باطل : مثل قول الجهمية إن الاسم غير المسمى : فأنهم
توسلوا بذلك إلى أن يقولوا : أسماء الله غيره . ثم قالوا : وما كان
غير الله فهو مخلوق بائن عنه ، فلا يكون الله تعالى سمي نفسه باسم .
ولا تكلم باسم من أسمائه ، ولا يكون له كلام تكلم به : بل لا يكون
كلامه إلا ما كان مخلوقاً بائناً عنه .

فهؤلاء لما علم السلف أن مقصودهم باطل أنكروا إطلاقهم القول
بأن كلام الله غير الله ، وإن علم الله غير الله وأمثال ذلك : لأن لفظ
« الغير » محمل ، يحتمل الشيء البائن عن غيره ، ويحتمل الشيء الذي
ليس هو إياه ولا هو بائن عنه . فمن قال : إنه غيره ليجعله بائناً عنه ،
كان كلاما المعنيين صحيحاً وإن كان في العبارة تقصير .

وهكذا أنكر الأئمة قول من قال : لفظي بالقرآن مخلوق أو غير
مخلوق . وقالوا : من قال هو مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير
مخلوق فهو مبتدع . وكذلك قالوا في « التلاوة » والقراءة « لأن اللفظ
والتلاوة والقراءة يراد بهما المصدر الذي هو فعل العبد ، وأفعال العباد
مخلوقة ، فمن جعل شيئاً من أفعالهم وأصواتهم وغير ذلك من صفاتهم
غير مخلوق فهو مبتدع ، ويراد بـ « اللفظ » نفس المفروض ، كما يراد
بالتلاوة والقراءة نفس الكلام ، وهو القرآن نفسه . ومن قال كلام

الله الذي انزله على نبيه صلى الله عليه وسلم وقرء مسطور مخروف
فهو جهمي .

ومن المعلوم أنه إذا سمع الناس كلام محدث يحدث بحديث النبي
صلى الله عليه وسلم ، كقوله : « إنما الأعمال بنية ، وإنما لكل
امرئ ما نوى » قالوا : هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، أو هذا
كلامه بعينه ؛ لأنهم قد علموا أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم
بذلك الكلام لفظه ومعناه ، وتكلم بصوته . ثم المبلغ له عنه بلغه
بصوت نفسه ، فالكلام كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، هو الذي نكلم
بمعانيه وألف حروفه بصوته ، والمبلغ له بلغه بفعل نفسه وصوت نفسه .

فاذا قالوا : هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم كانت إشارتهم الى نفس
الكلام الذي هو الكلام حروفه ونظمه ومعانيه ، لا إلى ما اختص
به المبلغ من حركاته وأصواته ؛ بل يضيفون الصوت الى المبلغ فيقولون
صوت حسن ، وما كان في الكلام من فصاحة حروفه ونظمه وبلاغة
معانيه فانما يضاف الى المتكلم به ابتداء ، لا إلى المبلغ له ؛ ولكن يضاف
الى المبلغ حسن الأداء : كتجويد الحروف ، وتحسين الصوت ؛ ولهذا
قال تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع
كلام الله) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس ، فيقول :
« ألا رجل يحملني الى قومه لابلغ كلام ربي ؟ » وقال النبي صلى الله عليه
وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال : « الله أشد أذناً الى الرجل
يحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة الى قينته » .

فبين الله ورسوله ان القرآن المسموع كلام الله لا كلام أحد من
المخلوقين ، والناس يقرؤنه بأصواتهم ، فمن قال : إن هذا القرآن
المسموع ليس هو كلام الله ، أو هو كلام القارئ كان فساد قوله
معلومًا بالضرورة شرعاً وعقلاً ، كما أن من قال : إن هذا الصوت
المسموع ليس هو صوت العبد أو هو صوت الله كان فساد قوله معلومًا
بالضرورة شرعاً وعقلاً ؛ بل هذا هو كلام الله لا كلام غيره ، سَمِعَهُ
جبريل من الله وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم من جبريل ، وسمعه
المسلمون من نبيهم : ثم بلغه بعضهم الى بعض ، وليس لأحد من
الوسائط فيه الا التبليغ بأفعاله وصوته ، لم يحدث منهم أحد شيئاً من
حروفه ، ولا نظمه ، ولا معانيه ؛ بل جميع ذلك كلام الله تعالى .

[القول الخامس] قول الهشامية والكرامية ومن وافقهم أن كلام
الله حادث قائم بذات الله بعد أن لم يكن متكلماً بكلام : بل ما زال
عندهم قادراً على الكلام ، وهو عندهم لم يزل متكلماً بمعنى أنه لم يزل
قادراً على الكلام ، والا فوجود الكلام عندهم في الأزل ممتنع ؛ كوجود

الأفعال عندهم ، وعند من وافقهم من أهل الكلام ، كالمعتزلة واتباعهم .
وهم يقولون : انه حروف وأصوات حادثة بذات الرب ، بقدرته ومشيئته .
ولا يقولون : إن الأصوات المسموعة ، والمداد الذي في المصحف قديم ؛
بل يقولون : إن ذلك محدث .

[القول السادس] قول الجمهور وأهل الحديث وأئمتهم : ان الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ، وأنه يتكلم بصوت ، كما جاءت به الآثار ، والقرآن وغيره من الكتب الالهية كلام الله تكلم الله به بمشيئته وقدرته ، ليس ببائن عنه مخلوقاً . ولا يقولون إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً ، ولا أن كلام الله تعالى من حيث هو هو حادث : بل مازال متكلماً إذا شاء ، وإن كان كلم موسى وناداه بمشيئته وقدرته ، فكلامه لا ينفد ، كما قال تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ، ولو جئنا بمثله مدداً) .

ويقولون : ما جاءت به النصوص النبوية الصحيحة ، ودلت عليه العقول الزكية الصريحة ، فلا ينفون عن الله تعالى صفات الكمال سبحانه وتعالى ؛ فيجعلونه كالجسادات التي لا تتكلم ، ولا تسمع ولا تبصر . فلا تتكلم عابديها ، ولا تهديهم سييلا ، ولا ترجع إليهم قولاً ولا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً .

ومن جعل كلام الله لا يقوم الا بغير الله كان المتصف به هو ذلك الغير ، فتكون الشجرة هي القائلة لموسى (اني انا الله) ؛ ولهذا اشتد نكير السلف على من قال ذلك . وقالوا هذا نظير قول فرعون : (أنا ربكم الأعلى) اي هذا كلام قائم بغير الله ؛ ولهذا صرح بحقيقة ذلك الاتحادية : كابن عربي ونحوه ، الذين يقولون :

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه .

واهل هذا القول — الموافقون للسلف والأئمة — لا يقولون ان الرب كان مسلوباً صفات الكمال في الأزل ، وانه كان عاجزاً عن الكلام حتى حدث له قدرة عليه ، كالطفل . والذين يقولون : ان القرآن مخلوق يجعلون الكلام لغيره ، فيسلبونه صفات الكمال ، ويقولون : انه لا يقدر على الكلام في الأزل ، لا على كلام مخلوق ولا غيره . وهم ان لم يصرحوا بالعجز عن الكلام في الأزل فهو لازم لقولهم . والكرامية فروا من الأول ؛ وجعلوه متكلاً بكلام يقوم به ؛ لكن لم يجعلوه متكلاً في الأزل ؛ بل ولا قادراً على الكلام في الحقيقة في الأزل .

والكلالية ومن وافقهم من السالية ونحوهم وصفوه بالكلام في الأزل . وقالوا : إنه موصوف به أزلاً وابدأ ، لكن لم يجعلوه قادراً على الكلام ، ولا متكلاً بمشيئته واختياره ، ولا يقدر ان يحدث شيئاً

يكون به مكلما لغيره ؛ لكن يخلق لغيره ادراكا بما لم يزل . كما يزيل العمى عن
الاعمى الذى لا يرى الشمس التى كانت ظاهرة متجلية ، لا أن الشمس فى نفسها
تجلت وظهرت ، وهذا يقول كثير من هؤلاء فى رؤيته إنها ليست إلا مجرد
خلق الادراك ، ليس هناك حجب منفصلة عن الرأي . فلا يكشف حجابا ،
ولا يرفع حجابا .

والقرآن مع الحديث ومع العقل يرد على هؤلاء ؛ كقوله تعالى :
(وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا ، او من وراء حجاب ، او
يرسل رسولا) ولو كان الحجاب هو عدم الرؤية : لكان الوحي
وارسال الرسل من وراء حجاب . وقال تعالى : (فلما تجلى ربه للجبل
جعلاه دكا وخرموسى صعقا) وفى الصحيح : « اذا دخل اهل الجنة الجنة
نادى مناد : يا اهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد ان ينجزكموه ،
فيقولون : ماهو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ، ويدخلنا الجنة ،
وينجيننا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون اليه ، فما اعطاهم
شيئا احب اليهم من النظر » والآثار فى ذلك كثيرة .

و « ايضا » فقول الكلاية : ان الحقائق المتوعة شيء واحد ،
وقول الآخرين إن الأصوات المتضادة تجتمع فى آن واحد مما يقول
اكثر العلماء العقلاء انه معلوم الفساد بالضرورة . وقد بسط الكلام
على هذه الأقوال فى غير هذا الموضع .

و « المقصود هنا » الجواب عن قول هذا القائل : فقوم الى انه
قديم الصوت والحرف ، وهم الحشوية . إن أراد بذلك قول من يقول
إن نفس الأصوات مجتمعة في الأزل : فهذا قول من تقدم من السالمية ،
وغيرهم من أهل الكلام والحديث .

وأما قول القائل : « حشوية » فهذا اللفظ ليس له مسمى معروف
لا في الشرع ، ولا في اللغة ، ولا في العرف العام ؛ ولكن يذكر أن
أول من تكلم بهذا اللفظ عمرو بن عبيد . وقال : كان عبد الله بن عمر
حشويا . وأصل ذلك : أن كل طائفة قالت قولا تخالف به الجمهور
والعامة [ينسب] الى انه قول الحشوية ، أي الذين هم حشوف في الناس ليسوا من
التأهلين عندهم ؛ فاعتزلة تسمي من أثبت القدر حشويا ، والجهمية
يسمون مثبتة الصفات حشوية ، والقرامطة — كاتباع الحاكم — يسمون
من أوجب الصلاة والزكاة والصيام والحج حشويا .

وهذا كما ان الرافضة يسمون قول أهل السنة والجماعة قول الجمهور ،
وكذلك الفلاسفة تسمي ذلك قول الجمهور ، فقول الجمهور وقول العامة
من جنس واحد .

فان كان قائل ذلك يعتقد أن الخاصة لا تقوله ؛ وإنما تقوله العامة والجمهور .
فأضافه اليهم وسماهم حشوية . والطائفة تضاف تارة الى الرجل الذي هو رأس مقالاتها .
كما يقال : الجهمية ، والاباضية ، والأزارقة ، والكلابية ، والأشعرية ، والكرامية ،

ويقال في أئمة المذاهب : مالكية ، وحنفية . وشافعية ، وحنبلية . وتارة
تضاف الى قولها وعملها ، كما يقال : الروافض ، والخواارج ، والقدرية ،
والمعتزلة ، ونحو ذلك . ولفظة الحشوية لا ينبغي لأحد أن يفتريها ولا
عن هذا .

وأما قوله : وقوم ذهبوا الى انه حادث بالصوت والحرف — وهم
الجهمية — فهو كلام من لا يعرف مقالات الناس . فان الجهمية يقولون :
إن الله لا يتكلم ، وليس له كلام ، وإنما خلق شيئاً فعبّر عنه . ومنهم
قال : إنه يتكلم بكلام يخلقه في غيره ، وهو قول المعتزلة .

وأما الكرامية فتقول : ان القرآن كلام الله غير مخلوق ، وهو
متكلم به بحرف وصوت . ويقولون مع ذلك : انه حادث قائم به وهم
ليسوا من الجهمية ؛ بل يردون عليهم أعظم الرد ، وهم اعظم مباينة لهم
من الاشعرية . ويقولون مع ذلك : ان القرآن حادث في ذات الله .

ثم من هؤلاء من يقول : إن كلام الله كله حادث ومنهم من لا
يقول ذلك ، وهذا القول معروف عن أبي معاذ التومني ، وزهير البائي ،
وداود بن علي الأصبهاني ، بل والبخاري صاحب الصحيح وغيره ،
وطوائف كثيرة بذكر عنهم هذا ، فليس كل من قال : إنه حادث كان
من الجهمية ، ولا يقول انه مخلوق .

وأما قوله : وقوم نحووا إلى أنه قديم لا بصوت ولا حرف ، إلا
معنى قائم بذات الله — وهم الأشعرية — فهذا صحيح ؛ ولكن هذا
القول أول من قاله في الإسلام عبد الله بن كلاب ؛ فإن السلف والأئمة
كانوا يثبتون لله تعالى ما يقوم به من الصفات ، والأفعال ، المتعلقة بمشيئته
وقدرته . والجهمية تنكر هذا وهذا ، فوافق ابن كلاب السلف على
القول بقيام الصفات القديمة ، وانكر أن يقوم به شيء يتعلق
بمشيئته وقدرته .

وجاء أبو الحسن الأشعري بعده — وكان تلميذاً لأبي علي الجبائي
المعتزلي ثم إنه رجع عن مقالة المعتزلة ، وبين تناقضهم في مواضع
كثيرة ، وبالغ في مخالفتهم في مسائل القدر والایمان ، والوعد والوعيد ،
حتى نسبوه بذلك إلى قول المرجئة ، والجبرية والواقفة — ، وسلك في
الصفات طريقة ابن كلاب . وهذا القول في القرآن هو قول ابن كلاب
في الأصل ، وهو قول من اتبعه كالأشعري وغيره .

وقوله : فمن قال ان الحرف والصوت الملفوظ بهما عين الكلام
القديم فلاهل الحق فيه رأيان : رأي بتكفيره ، ورأي بتبديعه ، الى
قوله : وليعلم ان الحرف اللساني والحرف البنائي كلاهما مقيد
بزمam تصرفه .

فيقال : اما القول بأن المداد المكتوب قديم فما علمنا قائلًا معروفًا قال به ، وما رأينا ذلك في كتاب أحد من المصنفين ، لامن أصحاب أبي حنيفة ، ولا مالك ، ولا الشافعي ولا أحمد ؛ بل رأينا في كتب طائفة من المصنفين من أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد ، انكار القول بأن المداد قديم ، وتكذيب من نقل ذلك ، وفي كلام بعضهم ما يدل على أن في المصحف حرفًا قديمًا ليس هو المداد .

ثم منهم من يقول : هو ظاهر فيه ، ليس بحال ، ومنهم من يقول هو حال . وفي كلام بعضهم ما يقتضي ان يكون ذلك هو الشكل : شكل الحرف وصورته : لا مادته التي هي مداده . وهذا القول ايضا باطل . كما ان القول بأن شيئًا من أصوات الأديين قديم هو قول باطل ، وهو قول قاله طائفة من أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وجمهور هؤلاء ينكرون هذا القول . وكلام الامام أحمد وجمهور أصحابه في انكار هذا القول كثير مشهور .

ولا ريب ان من قال ان أصوات العباد قديمة فهو مفتر مبتدع ، له حكم أمثاله ، كما ان من قال : ان هذا القرآن ليس هو كلام الله فهو مفتر مبتدع ، له حكم أمثاله .

ومن قال : إن القرآن العربي ليس هو كلام الله . بل بعضه كلام

الله وبعضه ليس كلام الله فهو مفتر مبتدع ، له حكم أمثاله . ومن قال :
إن معنى آية الكرسي ، وآية الدين ، و (قل هو الله احد) و
(تبت يدا أبي لهب) معنى واحد فهو مفتر مبتدع ، له
حكم أمثاله .

واما « التكفير » : فالصواب انه من اجتهد من أمة محمد صلى
الله عليه وسلم ، وقصد الحق ، فاخطأ : لم يكفر ؛ بل يغفر له خطؤه . ومن
تبين له ما جاء به الرسول ، فشاق الرسول من بعد ماتين له الهدى ، واتبع
غير سبيل المؤمنين : فهو كافر . ومن اتبع هواه ، وقصر في طلب الحق ،
وتكلم بلا علم : فهو عاص مذب . ثم قد يكون فاسقاً ، وقد تكون
له حسنات ترجح على سيئاته .

في « التكفير » يختلف بحسب اختلاف حال الشخص ، فليس كل
مخطيء ولا مبتدع ، ولا جاهل ولا ضال ، يكون كافراً ؛ بل ولا
فاسقاً ، بل ولا عاصياً ، لاسيما في مثل « مسألة القرآن » وقد غلط
فيها خلق من أئمة الطوائف : المعروفين عند الناس بالعلم والدين .
وغالبهم يقصد وجهها من الحق فيتبعه ، ويعزب عنه وجه آخر لا يحققه ،
فيبقى عارفاً ببعض الحق جاهلاً ببعضه ؛ بل منكراً له .

ومن ههنا نشأ نزاعهم ، فالذين قالوا انه مخلوق : رأوا أن

الكلام لا يكون إلا بقدره المتكلم ومشيتته ، وإن كلاماً لازماً لذات المتكلم لا يعقل : فانه ان جعل معنى واحداً كان مكابرة للعقل ، وكذلك ان جعل أصواتاً أزلية ، ثم ظنوا أن ما كان بقدره الرب ومشيتته لا يكون إلا منفصلاً عنه : وما انفصل عنه فهو مخلوق . ولهذا أنكروا أن يجيء ، أو يأتي ، أو ينزل . وغير ذلك مما جاء به الكتاب والسنة .

وآخرون وافقوهم على هذا الأصل الذي أحدثه أولئك ، وهو أنه لا يقوم به ما يتعلق بمشيته وقدرته : لكن رأوا ان كلاماً لا يقوم بالمتكلم لا يكون كلاماً له . فقالوا : ان كلامه قائم به .

ثم رأى « فريق » ان قدم الأصوات ممتنع ، فجعلوا القديم هو المعنى ، ثم رأوا أن تعدد المعاني القديمة ممتنع ، وأنه يفضي إلى وجود معاني لانهاية لها ، فقالوا هو معنى واحد .

ورأى « فريق آخر » أن كون المعاني المتنوعة معنى واحداً ممتنع ، وكون الرب لم يتكلم بحروف القرآن ، بل خلقها في غيره موافقة لمن جعل الكلام لا يقوم بالمتكلم : فان تلك الحروف المنظومة — كالقرآن العربي — ان قالوا هو كلام الله لزم أن لا يكون كلامه قائماً به بل بغيره : وان قالوا ليس كلاماً لله لزم أن يكون كلاماً لمن خلقت فيه ، فلا يكون الكلام العربي كلاماً لله : بل كلاماً لمن خلق فيه . وهذا

هو الذي انكروه على من قال القرآن مخلوق . والذي قال انه مخلوق لم يقل إلا هذا : فلزمهم أن يوافقوا في الحقيقة قول من يقول : القرآن مخلوق ، وان ضموا إلى ذلك قولاً لا حقيقة له يخالف العقل والنقل : وهو اثبات معنى واحد يكون هو جميع معاني التوراة ، والإنجيل ، والقرآن : لكنهم إنما قالوا ذلك فراراً من أقوال ظنوها باطلة ، فلم يقصدوا إلا الفرار عما رأوه باطلاً ، فوقعوا في أقوال لها لوازم تقتضي بطلانها أيضاً .

فلما رأى هذا « الفريق الثاني » ما أجاب به هؤلاء ، قالوا : انه حروف وأصوات ، قديمة أزلية . فرد عليهم غيرهم . وقالوا : ان الأصوات متضادة في نفسها ، والضدان لا يجتمعان ، وأقل ما في الأمور القديمة أن تكون مجتمعة ، وقالوا لهم : الأصوات مستلزمة للحركات المستلزمة للقدرة والارادة ، فلا تكون الأصوات إلا بقدرة وإرادة ، وما كان كذلك لم يكن قديم العين : لكن النزاع في كونه قديم النوع . وقالوا : الأصوات هي في نفسها يتمتع بقاؤها ، وما يتمتع بقاؤه يتمتع قدمه ، فامتنع قدم الأصوات .

وقال « آخرون » : إذا كان الأمر كذلك كان متكلماً بحروف ، وأصوات ، حادثة بمشيئته وقدرته ، قائمة بذاته ، لكن يتمتع قدم شيء من ذلك : لأن الحوادث لا تكون أزلية ، ورأوا أن هذا القول ينجيهم من

سأر ما وقع فيه غيرهم ، وليس فيه ما ينكر أولئك عليهم ، إلا أن يقوم بذات الرب ما يتعلق بمشيئته وقدرته .

فان المعتزلة نفت أن يقوم به شيء من المعاني ، وعبروا عن ذلك بأنه لا يقوم به شيء من الأعراض والحوادث ، فسموا ما يقوم به من العلم ، والقدرة ، والحياة ، اعراضاً . وما يقوم به من الخلق ، والاحسان والاتيان ، والمجيء ، والنزول حوادث . وقالوا — لسلف الأمة وأئمتها وجمهورها : — ان قلتم الكلام المعين لازم له فقد قلتم انه تقوم به الأعراض ، وان قلتم يتكلم باختياره وقدرته ، فقد قلتم تقوم به الحوادث .

فقال هؤلاء : كلام المعتزلة وقولهم لا تقوم به هذه الأمور : كلام باطل ، مخالف للكتاب والسنة . ولاجماع سلف الأمة . وهو أيضاً مخالف لصريح العقل : فان اثبات عالم بلا علم ، وقادر بلا قدرة ، وحي بلا حياة ، ممتنع في صريح العقل . وكذلك اثبات خالق وعادل بلا خلق ولا عدل ، واثبات فاعل لا يقوم به فعل ، واثبات رب لا يقدر على التصرف بنفسه : بل يكون بمنزلة الجماد سلب لصفات الكمال عنه . كما أن إثبات رب لا يعلم ولا يقدر سلب لصفات الكمال عنه .

قال هؤلاء : فاذا قلنا إنه تكلم بالكلام ، حروفه ومعانيه . بمشيئته وقدرته ، سلمنا من هذه المحاذير ، ولم يكن منا محذور شرعى ولا عقلي .

فقال لهم « الفريق السابع » : ولكن جعلتموه عاجزاً عن الكلام فى الأزل ، مسلوباً للكمال : ولزمكم أن يقال : إذا كان من الأزل الى الأبد لم يتكلم ثم تكلم ، كان ذلك أحراً حادثاً ، فيحتاج الى سبب حادث ، والقول فى ذلك الحادث كالقول فى الأول : فيلزم تسلسل الحوادث . فان كان ذلك ممتعاً بطل قولكم ، وان كان جازئاً فقولوا لم يزل متكلماً إذا شاء ، كما قاله أئمة السنة وجماهير أهل الحديث ، فانكم حينئذ تكونون قد وصفتم ربكم بصفات الكمال أزلاً وأبداً .

قالوا : وهذا القول خير من سائر الأقوال ، مع موافقته المعقول وصحيح المنقول . فقال لهم أولئك : هذا يستلزم حوادث لا أول لها . وذلك ممتنع ، فقال لهم هؤلاء : هذا كلام مبتدع ، وإنما أخذتموه عن المعتزلة لم يأت به كتاب ولا سنة ، ولا قاله أحد من سلف الأمة وأئمتها ، ولا دل عليه العقل : بل العقل يدل على نقيضه .

والذين قالوا هذا القول من المعتزلة ومن تبعهم من الكرامية والأشعرية : ظنوا أنهم بهذا القول يثبتون حدوث العالم : بناء على أن الأجسام لا تخلوا من الأعراض المحدثه ، وما لا يخلو من الحوادث فهو

محدث ، وهذا القول هو الذي سلط عليهم « الفلاسفة الدهرية »
القائلين بقدم العالم ؛ فان هذا القول الذي قالوه وجعلوه مستلزماً
لحدوث العالم هو مناقض لحدوث العالم ، بل هو مناقض لاثبات الصانع .
فهم قصدوا نصر الاسلام بما ينافي دين الاسلام .

ولهذا كثر ذم السلف لمثل هذا الكلام ، وهذا هو أصل
«الكلام المذموم» عند سلف الأمة وأئمتها ؛ وذلك لأن الشيء إذا
كان يمكن وجوده ويمكن عدمه فلا يوجد إلا بمقتضى يستلزم وجوده .
وان جاز وجوده بدون ذلك أمكن ان تكون المخلوقات — التي يمكن
وجودها وعدمها — وجدت بلا فاعل ، فلا بد للممكنات من وجود
واجب يحصل به وجودها ، ولا تكون مع وجود المقتضى التام محتملة
للوجود والعدم ؛ بل يكون وجودها لازماً حتماً . فان ما شاء الله
كان وما لم يشأ لم يكن . وإذا شاء الرب شيئاً لم يمكن ان لا يكون ؛
بل يجب كونه بمشيئة الرب تعالى المستلزمة لقدرته .

قالوا : وإذا كان كذلك : فالحدث الذي يمكن وجوده ويمكن عدمه
إذا حدث بدون سبب حادث مع استواء نسبه إلى جميع الاوقات ،
واستواء نسبة جميع الحوادث والأوقات إلى مشيئة الرب وقدرته لزم
من ذلك أن يكون قد تخصص بعض الحوادث بالحدوث ، وبعض

الازمنة بالحدوث ، من غير مخصص يقتضى ذلك ، ومن غير سبب
حادث يقتضى الحادث .

وهذا مع أنه فاسد فى صريح العقول : فهو يبطل ما استدلوا به
على اثبات الصانع ، فلا بد حينئذ أن يكون لحدوث الحوادث سبب
حادث ؛ وحينئذ فما من حادث إلا وهو مسبوق بحادث . وحينئذ :
فهذا يقتضى ان الله إذا كان متكلماً بمشيئته وقدرته ، أمكن أنه لا يزال
متكلماً بمشيئته وقدرته ، ولم يجوز أن يصير متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً
بحال ؛ لأن ذلك يقتضى حدوث الحادث بلا سبب حادث وهو ممتنع ،
ويقتضى انه تجدد له من صفات الكمال ما أمكن ثبوته فى الأزل ؛
وذلك ممتنع ؛ وذلك لأن صفات الكمال التى يمكن اتصاف الرب بها
لا يجوز ان يتوقف ثبوتها له على غيره ؛ لأنه يلزم ان يكون ذلك
الغير هو المعطى له صفات الكمال ، ومعطى غيره صفات الكمال أولى
بان يكون هو الرب تعالى ، ورب العالمين ، الخالق ما سواه ، الذى
يعطيه صفات الكمال لا يكون غيره رباً له بوجه من الوجوه ، سبحانه
وتعالى عن ذلك .

وحينئذ فيجب اتصافه بالكلام إذا شاء أزلاً وابدأ .

قال هؤلاء : وهذا الأصل يبطل حجة الفلاسفة الدهرية ، التى

احتجوا بها على قدم العالم ، وعجزتم انتم معاشر المعتزلة وأتباعكم - من المتكلمين القائلين بامتناع دوام الحوادث - عنها ، فانهم الزمواكم على أصولكم ؛ إذ قدرتم ثبوت موجود لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا يفعل شيئاً . بل يمتنع منه في الأزل كل شيء يكون منه : من كلام أو فعل . فقالوا : إذا قدرنا وجود هذا ، وأنه يبقى دائماً ابداً لا يتكلم ولا يفعل شيئاً ، ثم تكلم وفعل ؛ فلا بد من سبب اوجب حدوث هذا الكلام والفعل ، اما حدوث قدرة أو إرادة ، أو علم أو غير ذلك من الأسباب . فاما إذا قدر حاله فيما لا يزال كحاله فيما لم يزل : امتنع ان يتجدد له كلام ، أو فعل ، أو غير فعل .

فهذه حجة الفلاسفة عليكم ؛ وأتم لم تجيبوهم إلا بالمكبرة أو بالالزام « فالمكبرة » دعواكم حدوث الحوادث بلا حدوث سبب ؛ بل جعلتم نفس القدرة أو الارادة القديمة : تخص أحد المتماثلين عن المثل الآخر بلا سبب أصلاً ، مع أن نسبتها إلى جميع المتماثلات نسبة واحدة . وهذا مع أنه معلوم البطلان بالضرورة : فهو يسد عليكم طريق « اثبات الصانع » فانه مبنى على أن الحوادث لا بد لها من محدث ، والمخصص لا بد له من مخصص ، والترجيح لا بد له من مرجع ؛ إذا كان المخصص أو المرجح من الممكنات ، او المحدثات .

وأما « الالزام » فقولكم إن هذا الاشكال لازم للفلاسفة ، كما هو

لازم لنا . فان الحوادث إذا امتنع حدوثها عن علة تامة أزلية — وليس
عندكم إلا العلة التامة الأزلية — لزم ألا يكون للحوادث محدث . واما
نحن إذا سلكنا طريق سلف الأمة واتمتها ، فنقول لهؤلاء الفلاسفة :
بل خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ، كما أخبرت به الرسل .
فحدثت بأسباب حدثت قبل ذلك ، وإذا قلنا : انه لم يزل متكلماً إذا
شاء — و (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون) —
كان ما يحدث حادثاً بما شاء ان يتكلم به من كلامه : لا سيما إذا قيل
بنظير ذلك في إرادته — سبحانه وتعالى — وامكثنا ان نجيب الفلاسفة
بجواب آخر . مركب عنا وعنكم .

فنقول لهم : وجود حوادث لا أول لها ممكن أو ممتنع ؟ .

فان قلتم ممتنع : لزمكم القول بحدوث العالم ، وامكن حينئذ صحة
قول الكرامية ونحوهم .

وان قلتم : هو ممكن . قيل : فممكن حينئذ أن يكون هذا العالم حدث
بسبب حادث قبله . وكذلك السبب الآخر لا الى غاية ، والكلام على
هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع .

و « المقصود هنا » التنبيه على أن هذه مقامات دقيقة ، مشكلة ،

بسببها افرقت الأمة واختلفت . فاذا اجتهد الرجل في متابعة الرسول ،
والتصديق بما جاء به ، واخطأ في المواضع الدقيقة التي تشبهه على أذكىاء
المؤمنين ، غفر الله له خطاياه ؛ تحقيقاً لقوله : (ربنا لا تؤاخذنا إن
نسينا أو اخطأنا) وقد ثبت في الصحيح ان الله قال : « قد فعلت »

وأما قول القائل : ومن قال : كلام الله منزّه عن سمات الحدوث
إذ الصوت والحرف لازمها الحدوث ، فكما لذاته التنزيه عن سمات الخلق
كذلك لقوله الحق .

فيقال له : لا نزاع بين المسلمين ؛ بل وسائر أهل الملل وغيرهم
من العقلاء ، أن الخالق منزّه عن سمات الحدوث ، فان قدمه ضروري ؛
فيمتنع أن يقوم دليل على حدوثه ، و « السمة » هي العلامة والدليل .
ولكن منازعوك في الصوت والحرف : جمهور الخلائق ؛ إذ لم يوافق
الكلاية على قولهم احد من الطوائف ، لا الجهمية ، ولا المعتزلة . ولا
الضرارية ، ولا النجارية ، ولا الكرامية ، ولا السالمية ، ولا جمهور
المرجئة والشيعة ، ولا جمهور أهل الحديث والفقهاء والتصوف . ولا
الفلاسفة : لا الإلهيون ، ولا الطبائعيون على اختلاف أصنافهم .

وخصومهم منهم من يقول : الحروف محدثة مخلوقة في محل منفصل
عن الله ، كما يقولون هم ذلك ؛ لكن يقولون : هذا كلام الله ليس لله

كلام غيره ، كما أجمع المسلمون على أن هذا كلام الله . بل أجمعت الأمم على أن الكلام لا يعقل الا كذلك .

فان قلتم : هذا هو كلام الله . لزمكم ان يكون كلامه مخلوقا ، وان قلتم : ليس ذلك كلام الله خالفتم المعلوم بالاضطرار من الشرع واللغة ، وان قلتم نسمي هذا كلام الله ، وهذا كلام الله ، كلاهما حقيقة بطريق الاشتراك اللفظي . قيل لكم : فاذا ثبت ان الكلام المخلوق في غيره هو كلام له حقيقة بطل أصل حجبتكم ، التي إحتججتم بها ، حيث قلتم الكلام لا يكون كلاما الا لمن قام به ، ولا يكون المتكلم متكلم بكلام يحل في غيره .

وقالوا لكم أيضاً : إثبات المعنى الذي أثبتموه غير هذه الحروف ، والأصوات يحتاج إلى اثبات وجوده ، ثم اثبات قدمه ، ثم اثبات حدوثه ، وكل من هذه المقامات أتم فيها منقطعون ، كما هو مبسوط في موضعه . وكما اعترف بذلك فضلاء هذه المقالة .

و « الفريق الثاني » يقول لكم : انا نسلم لكم أن الحروف والأصوات محدثة ؛ لكن نقول هي كلام الله القائم بذاته ، فان قلتم هذا يستلزم كونه محالا للحوادث . قالوا لكم : ونفس هذا من كلام المعتزلة الذي تلقيتموه عنهم ، وليس لكم على ذلك حجة ، لا عقلية ولا شرعية ،

وقد اعترف فضلائكم بأن هذا القول يلزم جمهور الطوائف . وقال لكم منازعوكم : قد دل على هذا الأصل الأدلة الشرعية والعقلية .

و « الفريق الثالث » يقول لكم : هب أنها محدثة أي محدثة الأعيان أم نوعها محدث ؟ فان قلتم : ان كل فرد من أفرادها محدث لم ينفعكم . وان قلتم بل النوع محدث لا متاع حوادث لا تنتهي . قيل لكم : هذا مما ينازعكم فيه جمهور أهل الحديث ، مع جمهور الفلاسفة ، وينازعكم فيه أئمة الملل وأئمة النحل ، وينازعكم فيه الأئمة من أهل التوراة والإنجيل ، والقرآن ، والأئمة : من الصابئة ، والفلاسفة ، والمجوس وغيرهم ، وانما ابتدع هذا القول في الاسلام طائفة من اهل الكلام . الذين ذمهم أئمة الدين ، واعلام المسلمين . وهذا القول ليس معلوماً بالكتاب والسنة والاجماع ، ولا قاله أحد من السلف والأئمة . وإنما هو قول مبتدع ، ومبتدعه يزعم ان العقل دل عليه . ويثبت به حدوث العالم ، والعلم باثبات الصانع .

وهؤلاء يقولون له : العقل يدل على نقيضه : وانه مناف مضاد لحدوث العالم ، ولا ثبات الصانع . وهذا مبسوط في موضعه ؛ وانما المقصود التنبيه على ما في هذا الكلام من موارد النزاع . ومواقع الاجماع .

وقول القائل : كما لذاته التنزيه عن سمات الخلق . فكذلك لقوله الحق . فهذا من جنس سجع الكهان . الذي لا يقيم حقاً ولا يبطل باطلاً ، فهل تقول ان كل ما وصف به الرب من الصفات يتصف به كل ما له من الكلمات ، او غيرها من الصفات ؟ . واذا قيل : ان الرب تعالى إله قادر ، خالق معبود ، فهل يجب ان يكون شيء من كلماته وصفاته الهاً قادراً ، خالقاً ، معبوداً ؟ وهذا القول بضاهي قول النصارى ، الذين قالوا : كما ان أقنوم الوجود اله ، فكذلك أقنوم الكلمة والروح ، فيثبتون للصفات الالهية ، التي اثبتوها للذات ،

والرب تعالى له كلام قائم بمحل لا يوجد بغيره ، إذ لا بد للكلام من محل لا يوجد الكلام بدونه ، فهل يجب أن يفتقر الرب الى محل يقوم به ، كما يفتقر الكلام الى ذلك ؟ ولكن يجب تنزيه كلامه عن كل نقص وعيب ؛ إذ هو المستحق للكمال في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله . ويمتنع ان يخلو عن صفات الكمال من الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والكلام ، وغير ذلك من صفات الكمال ، مع أنه يتصف بها بعض مخلوقاته ، فالموصوف الواجب الوجود القديم الأزلي أحق بصفات الكمال من المخلوقات ، وكل كمال ثبت لمخلوق فمن الخالق استفاده ، والخالق أوهبه إياه ، وأعطاه فواهب الكمال ، ومعطيه أحق به ، وأولى .

وهذا مما يعبر عنه كل قوم باصطلاحهم ، حتى تقول المتفلسفة :

كل كمال ثبت للمعلول فهو [من] كمال العلة . ومعلوم أن المخلوق الذي خلق من قبل ، ولم يك شيئاً ليس له من نفسه شيء أصلاً ؛ بل كل ماله فمن خالقه سبحانه وتعالى .

وأما قوله : ولتعلم ان الحرف اللساني والحرف البنائي : كلاهما مقيد بزمان ، يصرفه المولى متكلم قبل الزمان ، فتعالى كلامه عن ان تكتفه الحدثان ، فقد عرف منازعة المنازعين له في هذا ، ولم يذكر الا مجرد الدعوى ، وقد علم أن تصور الدعوى معلوم الفساد بالضرورة عند أكثر العقلاء ، وان الدليل عليها مقدمات يتنازع فيها جمهور العقلاء ، وآخرها ينتهي الى مقدمات تلقوها عن شيوخهم المعتزلة ؛ فان الكلائية والأشعرية إنما أخذوا مقدمات هذا الكلام ، ومادته منهم . وقد عرف حالهم في ذلك .

وقوله المولى متكلم قبل الزمان ، إن أراد أنه سبحانه وتعالى قبل السموات والأرض ، والليل والنهار . وقبل جميع المخلوقات ، فهذا حق ؛ لكن من أين له ان كل ما كلم به عباده ، ويكلمهم به يوم القيامة ، يجب أن يكون قبل جميع المخلوقات ؟ ومن أين له أنه قبل خلق العالم كان منادياً لموسى ، قائلاً له : (اني انا الله ، لا إله الا أنا فاعبدني . وأقم الصلاة لذكري) ؟

وان أراد أنه سبحانه وتعالى قبل ما يوصف بالقبل فهذا ممتنع ،
فانه سبحانه موصوف بانه الأول قبل كل شيء ، وان أراد بذلك ان
الزمان مقدار الفعل والحركة ، وان ذلك ممتنع في الأزل ، فقد عرف
ان أئمة الملل والنحل ينازعونه في هذا . مع اتفاق أهل الملل على ان
الله خالق السموات والأرض في ستة أيام ، وقوله : ان الحرف والصوت
اداتان يعبر بهما عن المعنى القائم بذات الله ، كما يعبر الانسان عما قام
به من الطلب : تارة بالبنان ، وتارة باللسان ، وتارة بالرأس عند
طلب الرواح ، وعند طلب الاتيان ، فهذا مذهب الحق ، ومركب الصدق .

فيقال له : هذا عليه اعتراضات :

« أحدها » ان يقال : ما ذلك المعنى القائم بالذات ؟ أهو واحد
كما يقوله الأشعري ، وهو عنده مدلول التوراة ، والإنجيل ، والقرآن
ومدلول آية الكرسي والدين . ومدلول سورة الاخلاص وسورة الكوثر ؟
ام هو معان متعددة ؟ فان قال بالأول : كان فسادة معلوماً بالاضطرار
ثم يقال : التصديق فرع التصور ، ونحن لا نتصور هذا ، فبين لنا
معناه . ثم تكلم على اثباته ، فان قال : هو نظير المعاني الموجودة
فينا كان هذا الكلام بعد النزول عما يحتمله من التشبيه والتمثيل
باطلا ؛ لأن الذي فينا معان متعددة متنوعة ، وإما معنى واحد هو
أمر بكل مأمور به ، وخبر عن كل مخبر عنه ، فهذا غير متصور .

« الثاني » أن يقال : هب أنه متصور . فما الدليل على ثبوته ؟
وما الدليل على قدمه ؟ .

« الثالث » أن يقال : قولك الصوت والحرف عبارة عنه . أتغني
به الأصوات المسموعة من القراء ، أو الحروف الموجودة في التلاوة
والمصاحف ، وإما حروفاً وأصواتاً غير هذه . فان قلت بالأول كان
باطلاً من وجوه :

« أحدها » : انه كل من أجاد القراءة عبر عما في نفس الله ،
من غير ان يكون الله عبر عما في نفسه ، فيكون المخلوق أقدر
من الخالق .

« الثاني » ان كثيراً من القراء أو أكثرهم لا يفقهون أكثر معاني
القرآن ، والتعبير عما في نفس المعبر فرع على معرفته ، فمن لم يفهم جميع
معاني القرآن — كلام الله — فكيف يعبر عن تلك المعاني ؟ !

« الثالث » أن الناس لا يفهمون معاني القرآن ، الا بدلالة ألفاظ
القرآن على معانيه ؛ فاذا سمعوا ألفاظه وتدبروه كان اللفظ لهم دليلاً على
المعاني ، والمستدل باللفظ على المعنى الذي أراده المتكلم يتمتع أن يكون
هو المعبر باللفظ عن المعنى ، فان المعبر باللفظ عن المعنى يعرف المعنى اولاً ،

ثم بدل غيره عليه بالعبارة ، والناس في القرآن على ضد هذه الحال ؛
فيمتنع أن يكونوا هم المعبرين به .

« الرابع » ان كل واحد منهم يعلم أنه تعلم القرآن العربي من
غيره ، وأنه ليس له فيه الا الحفظ ، والتبليغ ، والأداء ؛ بل يعلم أنه
إذا حفظ خطب الخطباء ، وشعر الشعراء ، لم يكن هو المعبر عما في
أنفسهم بذلك الكلام ؛ بل يكون الكلام كلامهم ، وهو قد حفظه ،
وآداه ، وبلغه . فكيف بكلام رب العالمين ؟ !

« الخامس » ان كل واحد يعلم بالاضطرار ان نفس القرآن العربي
كان موجوداً قبل وجود كل القراء ، وان الناس إنما تلقوه عن محمد
صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

و « بالجملة » فالدلالة على فساد هذا القول أكثر من أن تحصر .

وان قلت : بل الحروف والاصوات المعبر بها عن المعاني التي
أرادها الله من حروف وأصوات كانت موجودة قبل وجود القراء ؛
ولكن كل من القراء حفظ ذلك النظم العربي ، الذي كان موجوداً قبله
قليل لك . فحينئذ قد كان ثم حروف وأصوات غير هذه الأصوات
المسموعة من القراء ، وغير المداد المكتوب في المصاحف ، وهذا هو

الحق الذي اتفق عليه جميع الخلق .

فقول القائل : إنه ما ثم إلا المعنى القائم بالذات ، أو هذه الحروف والأصوات ليس بحق . ويقال له حينئذ : فتلك الحروف والأصوات أهي من كلام الله الذي تكلم به ؟ أم هي مخلوقة خلقها في غيره ؟ فان قلت : هي من كلام الله تعالى لزمك ما فررت منه ، حيث أقررت أن لله كلاماً هو حروف وأصوات ، كما يقوله جمهور المسلمين . وان قلت : ليست كلاماً لله فهذه أولى من أن تكون كلاماً لله . وحينئذ فلا يكون هذا القرآن كلام الله . وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من دين الاسلام .

وأما قوله : من قال لفظي عين كلام الله : فقد انسلخ عن رتبة العقل ، وغرق في بحر العماية والجهل . فيقال : قول القائل : [لفظي] « عين كلام الله » كلام مجمل . فان « اللفظ » في الأصل مصدر لفظ يلفظ لفظاً ، كما أن « التلاوة » والقراءة « في الأصل مصدر تلا يتلو ، وقرأ يقرأ ، ويعبر باللفظ والتلاوة » والقراءة عن نفس الكلام الملفوظ به ، المتلو المقروء .

فان الناس إذا قالوا : اللفظ يدل على المعنى . لم يريدوا باللفظ المصدر ؛ بل يريدون به الملفوظ به . وإذا قالوا لمن سمعوه يتكلم : هذه ألفاظ حسنة ، ارادوا به ما يلفظه ، كما قال تعالى : (ما يلفظ من

قول إلا لديه رقيب عتيد) يراد باللفظ نفس الفعل ، وقد يراد به نفس القول الذي لفظه اللفظ . وهذا كـ « القرآن » قد يراد به المصدر ، وقد يراد به الكلام المقروء . وقال تعالى : (ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرآنه فاتبع قرآنه) والقرآن هنا مصدر ، كما في الآية عن ابن عباس : قال : علينا ان نجمعه في صدرك . ثم ان تقرأ بلسانك . فاذا قرأه جبريل فاستمع لقراءته . ثم ان علينا ان نبينه .

وقد يراد بـ « القرآن » نفس الكلام المقروء ، كما قال : (واذا قرأ القرآن فاستمعوا له وانصتوا) وقوله : (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) وقال تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) وقال تعالى : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) ونظائره كثيرة .

وإذا كان كذلك : فقول القائل لفظي : هو عين كلام الله . إن أراد به المصدر فقد اخطأ ، فان نفس حركاته ليست هي كلام الله ، وهذا لا يقوله أحد يفهم ما يقول .

وان اراد « الثاني » : كان المعنى ان هذا القرآن الذي أتى به هو عين كلام الله ، وهذا هو الذي يقصده الناس ، إذا قالوا : الذي يقرأ

القرآء عين كلام الله ، وهذا الذي نسمعه من القراء عين كلام الله ، وهذا الذي يقرأ في الصلاة عين كلام الله . لا يقصد أحد ان يجعل حركات العباد نفس كلامه .

ثم إذا قال القائل هذا فقد وافق قول الله تعالى : (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) بل قد علم بالاضطرار من دين الاسلام : ان هذا الذي يقرأه المسلمون ، ويكتبونه في مصاحفهم هو كلام الله لا كلام غيره . تارة يسمع منه كما سمعه موسى ابن عمران ، وتارة يسمع من المتلقين عنه كما سمعه الصحابة من الرسول ، فهذا الذي نسمعه هو كلام الله . متلقى عنه مسموعا من المبلغ عنه . قال تعالى : (وأوحى الي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) وقال تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته) وقال تعالى : (ليعلم ان قد ابلاغوا رسالات ربهم) . والناس يعلمون أن الكلام كلام من قاله أمراً بأمره ، مخبراً بخبره ، مبتدئاً به ، لا كلام من بلغه عن غيره وأداء .

فالناس يقرؤون القرآن ، وليس هو كلامهم ؛ ولكنه كلام يقرؤونه بأفعالهم واصواتهم . وإذا كان كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكلام غيره اذا رواه الناس عنه ، وبلغوه وقرؤوه ، فهو كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وغيره من المتكلمين بذلك الكلام . والنبي صلى

الله عليه وسلم تكلم بلفظه ، ونظمه : ومعناه : وتكلم به بحروف
وأصوات ، مع ان اصوات الرواة ليست صوت النبي صلى الله
عليه وسلم .

فالقراء إذا قرأه الناس وبلغوه باصواتهم وأفعالهم : كان أولى بان
يكون كلام الله ، وان كانوا لم يسمعه من الله : بل من الخلق .

ومما ينبغي ان يعلم : ان قول الله ورسوله والمؤمنين ان هذا كلام
الله : بل قول الناس لما بلغ من كلام المخلوقين ان هذا كلام فلان حق ،
كما اتفق على ذلك الناس ؛ لكن عرضت شبهة لكثير من المتطعين ، فلم يفرقوا
بين ما إذا سمع كلام المتكلم به ، وبين ما إذا سمع من غيره ، فظنوا أنه
إذا قال : (فأجره حتى يسمع كلام الله) كان بمنزلة سماع موسى
كلام الله .

فقلت « طائفة » المسموع اصوات العباد : وكلام الله ليس هو
أصوات العباد ، فلا يكون المسموع كلام الله .

وقالت « طائفة » بل هذا كلام الله ، وهذا مخلوق : فكلام
الله مخلوق .

وقالت « طائفة » : بل هذا كلام الله : وكلام الله غير مخلوق ،
فهذا غير مخلوق .

وهذا إذا أطلقوه « مجملاً » فهو حق : لكن قال بعضهم : هذا لفظي أو تلاوتي أو صوتي ؛ فلفظي أو تلاوتي أو صوتي غير مخلوق ؛ فضلوا كما ضل غيرهم ؛ ولو اهتموا لعلوا أنا إذا قلنا : هذا كلام الله فلم نشر إليه بما امتاز قارئ عن قارئ . إذا كان من المعلوم انه ما يسمع من كل قارئ فهو كلام الله ، مع العلم بأن صوت هذا القارئ ليس هو صوت هذا القارئ فقد آخذ من جهة كونه كلام الله . واختلف من جهة أصوات القراء . وهو كلام الله باعتبار الحقيقة المتحدة ، لا باعتبار ما اختلف فيه أحوال القراء .

وهذا لأن الكلام إنما يقصد به لفظه ومعناه ، ولفظه هو الحروف المقروءة المنظومة . وإن كانت الحروف أصواتاً مقطعة ، أو هي أطراف الأصوات المقطعة ، فهي من الكلام باعتبار صورتها الخاصة من التقطيع والتأليف ، لا باعتبار المادة الصوتية التي يشترك فيها جميع الصائتين ؛ ولهذا ما كان في الكلام من بلاغة وبيان ، وحسن تأليف ونظم . وكما كان معان وغير ذلك ، فهو للمتكلم بلفظه ومعناه ، ليس هو لمجرد صفات الذي بلغه وأداه .

وأما قول القائل : من قال ان مذهب جهم بن صفوان مذهب الأشعري أو قريب أو سواء معه فهو جاهل بمذهب الفريقين ؛ إذ الجهمية

قائلون بخلق القرآن ، وبخلق جميع^(١)

والاشعري يقول بقديم القرآن ، وإن كلام الانسان مخلوق للرحمن
فوضح لليب كل من المذاهب الثلاثة .

فيقال : لا ريب أن قول ابن كلاب والاشعري ، ونحوهما من
المثبتة للصفات ليس هو قول الجهمية ، بل ولا المعتزلة ، بل هؤلاء لهم
مصنفات في الرد على الجهمية والمعتزلة ، وبيان تضليل من نفاها ، بل
هم تارة يكفرون الجهمية والمعتزلة ، وتارة يضللونهم . لاسيما والجهم هو
اعظم الناس نفيا للصفات ، بل وللأسماء الحسنى . قوله من جنس قول
الباطنية القرامطة ، حتى ذكروا عنه أنه لا يسمى الله شيئاً ، ولا غير
ذلك من الاسماء التي يسمى بها المخلوق ؛ لأن ذلك بزعمه من التشبيه
الممتنع . وهذا قول القرامطة الباطنية .

وحكى عنه انه لا يسميه الا « قادراً فاعلاً » ؛ لأن العبد عنده
ليس بقادر ولا فاعل ، إذ كان هو رأس المجبرة . وقوله في الايمان شر
من قول المرجئة ، فانه لا يجعل الايمان إلا مجرد تصديق القلب .
و « ابن كلاب » إمام الاشعرية أكثر مخالفة لجهم ، وأقرب إلى السلف

(١) بياض بالاصل .

من الأشعري نفسه ، والأشعري اقرب الى السلف من القاضي أبي بكر الباقلاني . والقاضي ابو بكر وامثاله اقرب إلى السلف من أبي المعالي واتباعه ، فان هؤلاء نفوا الصفات : كالاستواء . والوجه ، واليدين .

ثم اختلفوا هل تتأول او تفوض ؟ على قولين أو طريقين . فأول قولي أبي المعالي هو تأويلها ، كما ذكر ذلك في « الارشاد » وآخر قوليه تحريم التأويل ذكر ذلك في « الرسالة النظامية » واستدل باجماع السلف على ان التأويل ليس بسائغ ولا واجب .

وأما « الأشعري » نفسه وأئمة أصحابه فلم يختلف قولهم في إثبات الصفات الخبرية ، وفي الرد على من يتأولها ، كمن يقول : استوى بمعنى استولى . وهذا مذكور في كتبه كلها ، كما « لموجز الكبير » و « المقالات الصغيرة » ، والكبيرة » و « الابانة » وغير ذلك . وهكذا نقل سائر الناس عنه ، حتى المتأخرون ، كالرازي والآمدي ينقلون عنه إثبات الصفات الخبرية ، ولا يحكون عنه في ذلك قولين .

فمن قال : ان « الأشعري » كان ينفيها ، وان له في تأويلها قولين : فقد افترى عليه ؛ ولكن هذا فعل طائفة من متأخري أصحابه ، كآبي المعالي ونحوه ؛ فان هؤلاء ادخلوا في مذهبه أشياء من أصول المعتزلة .

و « الأشعري » ابتلى بطائفتين : طائفة تبغضه ، وطائفة تحبه ، كل منها يكذب عليه ويقول : إنما صنف هذه الكتب تقية ، واطهارا لموافقة أهل الحديث والسنة ، من الحنبلية وغيرهم . وهذا كذب على الرجل ، فانه لم يوجد له قول باطن يخالف الأقوال التي أظهرها ، ولا نقل أحد من خواص أصحابه ، ولا غيرهم عنه ما يناقض هذه الأقوال الموجودة في مصنفاته ؛ فدعوى المدعي أنه كان يبطن خلاف ما يظهر دعوى مردودة شرعا وعقلا ؛ بل من تدبر كلامه في هذا الباب — في مواضع — تبين له قطعاً أنه كان ينصر ما أظهره ؛ ولكن الذين يحبونه ويخالفونه في اثبات الصفات الخبرية يقصدون نفي ذلك عنه ، لئلا يقال : إنهم خالفوه ، مع كون ما ذهبوا إليه من السنة ، قد اقتدوا فيه بحجته التي على ذكرها يعولون ، وعليها يعتمدون .

و « الفريق الآخر » : دفعوا عنه لكونهم رأوا المنتسبين إليه لا يظهرون إلا خلاف هذا القول ، ولكونهم اتهموه بالتقية ؛ وليس كذلك ، بل هو انتصر للمسائل المشهورة عند أهل السنة ، التي خالفهم فيها المعتزلة ؛ كمسألة « الرؤية » و « الكلام » واثبات « الصفات » ونحو ذلك ؛ لكن كانت خبرته بالكلام خبرة مفصلة ، وخبرته بالسنة خبرة مجملة ؛ فلذلك وافق المعتزلة في بعض أصولهم التي التزموا لأجلها خلاف السنة ، واعتقد انه يمكنه الجمع بين تلك الأصول ، وبين الانتصار

للسنة ، كما فعل في مسألة الرؤية والكلام ، والصفات الخبرية وغير ذلك .

والمخالفون له من اهل السنة والحديث ، ومن المعتزلة والفلاسفة يقولون : إنه متناقض ، وإن ما وافق فيه المعتزلة يناقض ما وافق فيه أهل السنة ، كما ان المعتزلة يتناقضون فيما نصرؤا فيه دين الاسلام ، فانهم بنوا كثيراً من الحجج على اصول تناقض كثيراً من دين الاسلام ؛ بل جمهور المخالفين للاشعري من المثبتة والنفاة يقولون : إنما قاله في مسألة الرؤية ، والكلام : معلوم الفساد بضرورة العقل .

ولهذا يقول اتباعه : إنه لم يوافقنا أحد من الطوائف على قولنا في « مسألة الرؤية ، والكلام » : فلما كان في كلامه شوب من هذا وشوب من هذا : صار يقول من يقول ان فيه نوعاً من التجهم . وأما من قال : إن قوله قول جهم فقد قال الباطل . ومن قال : إنه ليس فيه شيء من قول جهم فقد قال الباطل ، والله يحب الكلام بعلم وعدل ، واعطاء كل ذي حق حقه ، وتنزيل الناس منازلهم .

وقول جهم هو النفي المحض لصفات الله تعالى ، وهو حقيقة قول القرامطة الباطنية : ومنحرفي المتفلسفة : كالفارابي وابن سينا . وأما مقتصدة الفلاسفة كأبي البركات صاحب المعبر ، وابن رشد الحفيد - ففي قولهم من الإثبات ما هو خير من قول جهم ؛ فان المشهور عنهم إثبات الأسماء

الحسنى : واثبات أحكام الصفات ، ففي الجملة قولهم خير من قول جهنم ،
وقول ضرار بن عمرو الكوفي خير من قولهم .

وأما ابن كلاب والقلانسي والأشعري فليسوا من هذا الباب ، بل
هؤلاء معروفون بالصفائية ، مشهورون بمذهب الإثبات ؛ لكن في أقوالهم
شيء من أصول الجهمية ، وما يقول الناس إنه يلزمهم بسببه التناقض ،
وانهم جمعوا بين الضدين ، وإنهم قالوا ما لا يعقل ، ويجعلونهم مذبذبين لا إلى
هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فهذا وجه من يجعل في قولهم شيئاً من أقوال الجهمية ،
كما أن الأئمة - كاحمد وغيره - كانوا يقولون : افرقت الجهمية على
« ثلاث فرق » : فرقة يقولون : القرآن مخلوق . وفرقة تقف ولا تقول
مخلوق ولا غير مخلوق . وفرقة تقول : الفاظنا بالقرآن مخلوقة .

ومن المعلوم انهم إنما أرادوا بذلك افتراقهم في « مسألة القرآن »
خاصة ، وإلا فكثير من هؤلاء يثبت الصفات والرؤية ، والاستواء على
العرش ، وجعلوه من الجهمية في بعض المسائل : أي أنه وافق الجهمية ،
فيها : ليتبين ضعف قوله ، لا أنه مثل الجهمية ولا ان حكمه حكمهم ؛ فان هذا
لا يقوله من يعرف ما يقول .

ولهذا عامة كلام أحمد إنما هو يحجم اللفظية ، لا يكاد يطلق القول
بتكفيرهم كما يطلقه بتكفير المخلوقية ، وقد نسب إلى هذا القول غير
واحد من المعروفين بالسنة والحديث : كالحسين الكرابيسي . ونعيم

ابن حماد الخزاعي . والبويطي ، والحارث المحاسبي ، ومن الناس من نسب إليه البخاري .

والقول بان « اللفظ غير مخلوق » نسب إلى محمد بن يحيى الذهلي وأبي حاتم الرازي ؛ بل وبعض الناس ينسبه إلى أبي زرعة أيضاً ، ويقول إنه هو وأبو حاتم هجرا البخاري لما هجره محمد بن يحيى الذهلي ، والقصة في ذلك مشهورة .

وبعد موت « أحمد » وقع بين بعض أصحابه وبعضهم . وبين طوائف من غيرهم بهذا السبب . وكان أهل الثغر مع محمد بن داود ، والمصيبي شيخ أبي داود ، يقولون بهذا . فلما ولي صالح بن أحمد قضاء الثغر : طلب منه أبو بكر المروزي ان يظهر لأهل الثغر « مسألة أبي طالب » فانه قد شهدها صالح وعبد الله ابنا احمد ، والمروزي . وفوران ، وغيرهم . وصنف المروزي كتاباً في الإنكار على من قال : إن لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وارسل في ذلك إلى العلماء بمكة والمدينة ، والكوفة والبصرة . وخراسان وغيرهم ؛ فوافقوه . وقد ذكر ذلك أبو بكر الخلال في « كتاب السنة » وبسط القول في ذلك .

ومع هذا فطوائف من المنتسبين إلى السنة ، وإلى اتباع أحمد ، كأبي عبد الله بن منده ، وأبي نصر السجزي ، وأبي اسماعيل الانصاري

وإبي العلاء الهمداني وغيرهم يقولون : لفظنا بالقرآن غير مخلوق . ويقولون :
إن هذا قول أحمد . ويكذبون - أو منهم من يكذب - برواية أبي
طالب . ويقولون : أنها مفتعلة عليه . أو يقولون رجع عن ذلك ، كما
ذكر ذلك أبو نصر السجزي ، في كتابه « الإبانة » المشهور .

وليس الأمر كما قاله هؤلاء ؛ فإن أعلم الناس بأحمد وأخص الناس
وأصدق الناس في النقل عنه هم الذين رووا ذلك عنه ؛ ولكن أهل
خراسان لم يكن لهم من العلم بأقوال أحمد ما لأهل العراق ، الذين هم
أخص به . وأعظم ما وقعت فتنة « اللفظ » بخراسان ، وندب فيها
على البخاري - مع جلالته وإمامته - وإن كان الذين قاموا عليه أيضاً
أئمة اجلاء ، فالبخاري - رضي الله عنه - من أجل الناس .

وإذا حسن قصدهم ، واجتهد هو وهم ، أثابه الله وإياهم على حسن
القصد والاجتهاد . وإن كان قد وقع منه أو منهم بعض الغلط والخطأ
فإن الله يغفر لهم كلهم ؛ لكن من الجهال من لا يدري كيف وقعت
الأمور ، حتى رأيت بخط بعض الشيوخ الذين لهم علم ودين ، يقول :
مات البخاري بقرية خرتك ، فأرسل أحمد إلى أهل القرية يأمرهم أن
[لا] يصلوا عليه لأجل قوله في « مسألة اللفظ » وهذا من أبين
الكذب على أحمد والبخاري ، وكاذبه جاهل بجاهلها . فإن البخاري -
رضي الله عنه - توفي سنة ست وخمسين ، بعد موت أحمد بخمسة عشر

سنة ، فان أحمد توفي سنة احدى وأربعين ، وكان احمد مكرما للبخاري معظما . وأما تعظيم البخاري وأمثاله لأحمد فهذا أظهر من أن يذكر .

والبخاري ذكر في كتابه في « خلق الأفعال » ان كلتا الطائفتين لا تفهم كلام احمد . ومن الطائفة الأخرى المنتسبة إلى السنة ، واتباع احمد : ابو نعيم الاصبهاني ، وابو بكر البيهقي ، وغيرها ممن يقول : إنهم متبعون لأحمد ، وان قولهم في « مسألة اللفظ » موافق لقول أحمد . ووقع بين ابن منده وابي نعيم بسبب ذلك مشاجرة ، حتى صنف ابو نعيم كتابه في « الرد على الحروفية الحلولية » ، وصنف ابو عبد الله كتابه في الرد على « اللفظية » .

والمنتصرون للسنة — من أهل الكلام والفقہ : كالأشعري ، والقاضي ابى بكر بن الطيب ، والقاضي ابى يعلى وغيرهم — يوافقون أحمد على الإنكار على الطائفتين ، على من يقول : لفظي بالقرآن مخلوق ، وعلى من يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، ولكن يجعلون سبب الكراهة كون القرآن لا يلفظ ؛ لأن اللفظ الطرح والرمي .

ثم هؤلاء منهم من ينكر تكلم الله بالصوت . ومنهم من يقر بذلك ؛ بل منهم من يقول ان الصوت المسموع هو الصوت القديم . وينكرون مع ذلك على من يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، لظنهم ان الكراهة

في ذلك لما فيه من الطرح والرمي . وليس الأمر على ما ظنوه . فان
الامام أحمد وغيره من الأئمة لم ينكروا قول القائل : لفظي بالقرآن
مخلوق أو غير مخلوق لكون اللفظ الطرح ، فانه لو كان كذلك لما
انكروا إلا مجرد ما يتصرف من حروف لفظ يلفظ ، وليس كذلك ؛
بل أنكروا على من قال التلاوة والقراءة مخلوقة . وعلى من قال :
تلاوتي وقراءتي غير مخلوقة . مع جواز قول المسلمين : قرأت
القرآن وتلوته .

و « ايضاً » فانه يجوز أن يقال : لفظت الكلام وتلفظت به .
كما قال تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ولكن الامام
أحمد وغيره من أئمة السنة قالوا : من قال : لفظي بالقرآن وتلاوتي
أو قراءتي مخلوقة فهو جهمي . ومن قال : إنه غير مخلوق فهو مبتدع
لأن « اللفظ » و « التلاوة » و « القراءة » يراد به مصدر لفظ يلفظ
لفظاً . ومصدر قرأ بقرأ قراءة . وتلا يتلو تلاوة . ومسمى المصدر
هو فعل العبد وحركاته ، ليس هو بتقديم باتفاق سلف الأمة وأئمتها ،
حتى القدريه القائلون بأن أفعال العباد غير مخلوقة . يقولون :
ان ذلك ليس بتقديم . ويقولون انه مخلوق لله .

والسلف والأئمة — كحماد بن زيد . والمعتز بن سليمان . ويحيى
ابن سعيد القطان . واحمد بن حنبل وغيرهم — انكروا على من قال : إن

أقوال العباد وأفعالهم غير مخلوقة ، وقال يحيى بن سعيد : ما زلت اسمع أصحابنا يقولون : ان أفعال العباد مخلوقة . وقال بعض هؤلاء : من قال إن هذا غير مخلوق فهو بمنزلة من قال : إن سماء الله وأرضه غير مخلوقة .

وقد يراد بالتلاوة والقراءة واللفظ نفس القرآن ، الذي أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . الذي هو كلام الله . ومن قال ان كلام الله الذي أنزله على نبيه مخلوق فهو جهمي ؛ ولهذا قال أحمد وغيره من السلف : القرآن كلام الله حيث تصرف غير مخلوق ، ولم يقل احد من السلف والأئمة ان اصوات العباد بالقرآن غير مخلوقة او قديمة ، ولا قال ايضاً أحد منهم : ان المداد الذي يكتب به القرآن قديم ، أو غير مخلوق . فمن قال ان شيئاً من اصوات العباد . او أفعالهم او حركاتهم ، او مدادهم : قديم ، أو غير مخلوق فهو مبتدع ضال ، مخالف لأجماع السلف والأئمة .

وقد بدع أحمد بن حنبل من هو أحسن حالا من هؤلاء . وأمر بهجرهم ان لم يرجعوا عن بدعتهم .

و « مسألة القرآن » قد كثر فيها اضطراب الناس ، حتى قال بعضهم : مسألة الكلام حيرت عقول الأنام . وغالبهم يقصدون وجها من

الحق : ويعزب عنهم وجه آخر ، وكلام الأئمة من أشد الكلام : كأحمد
ابن حنبل ومن قبله من أئمة المسلمين : من الصحابة والتابعين لهم
بإحسان ، وسائر الأئمة الذين لهم في الأمة لسان صدق : مثل سعيد
ابن المسيب ، وعلى بن الحسين ، وعلقمة ، والأسود ، والحسن البصري ،
وابن سيرين ، وغيرهم من التابعين . ومثل مالك ، والثوري ، والأوزاعي ،
والليث بن سعد ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وأبي حنيفة ، وابن
أبي ليلى ، وشريك ، وأمثالهم من تابعي التابعين ، ومثل الشافعي ،
وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن إبراهيم ، وأبي عبيد ، وأمثالهم من اتباع
تابعي التابعين .

وهم أئمة أهل القرون الثلاثة ، الذين دخلوا في ثناء النبي صلى الله
عليه وسلم ، حيث قال : « خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم
الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

ومن تدبر كلام أئمة المسلمين في هذا الباب وغيرهم وجدده أشد
الكلام المطابق لصريح المعقول ، وصحيح المنقول . وهذه الجملة لا تشمل
البسط هنا ، فقد بسطت في غير هذا الموضع ، وبين ان « الكلام
المذموم » الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل ، المخالف لصحيح
المنقول ، وصريح المعقول ؛ وان ما ثبت بالأدلة القطعية لا يتعارض ولا
يتناقض أصلا ، فلا يتعارض دليلان يقينان أصلا ، سواء كانا عقليين

أو سمعين ، أو كان أحدهما عقلياً والآخر سمعياً ، ومن ظن أنهما يتعارضان
كان ذلك خطأ منه ؛ لاعتقاده في أحدهما أنه يقينياً . ولا يكون كذلك ،
ولا سيما إذا كانا جميعاً غير يقينيين .

واختلاف الناس في هذا الباب وغيره كثير منه يكون « اختلاف
تنوع » مثل ان يقصد هذا حقاً فيما يثبته ، والآخر يقصد حقاً فيما
نقضه ، وكلاهما صادق . لكن بظن أن بينهما نزاعاً معنوياً ، ولا يكون
الأمر كذلك ، وكثير من النزاع يعود إلى إطلاقات لفظية ، لا إلى معان
عقلية ، وأحسن الناس طريقة من كان إطلاقه موافقاً للإطلاق الشريعة ،
والمعاني التي يقصدها معان صحيحة ، تطابق الشرع والعقل (١)

وأصل منشأ نزاع المسلمين في هذا الباب : ان المتكلمين — من
الجهمية ، والمعتزلة ، ومن اتبعهم — سلكوا في إثبات حدوث العالم ،
وإثبات الصانع طريقاً مبتدعة في الشرع ، مضطربة في العقل ،
وأوجبوها ، وزعموا أنه لا يمكن معرفة الصانع إلا بها ، وتلك الطريق
فيها مقدمات مجمة ، لها نتائج مجمة ، فغلط كثير من سالكيها في مقصود
الشارع ، ومقتضى العقل ، فلم يفهموا ما جاءت به النصوص النبوية ، ولم
يحرروا ما اقتضته الدلائل العقلية ، وذلك أنهم قالوا : لا يمكن معرفة

(١) ياض بالاصل :

الصانع إلا بآثبات حدوث العالم ، ولا يمكن اثبات حدوث العالم إلا بآثبات حدوث الأجسام .

قالوا : والطريق الى ذلك هو الاستدلال بحدوث الأعراض على حدوث ما قامت به الأعراض ، فمنهم من استدل بالحركة والسكون فقط ومنهم من احتج بالاكوان التي هي عندهم الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون . ومنهم من احتج بالأعراض مطلقاً . ومبنى الدليل على ان ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ؛ لامتناع حوادث لا أول لها .

فيقول لهم المعارضون — من أهل الملل وغيرهم ، القائلون بأن السموات والأرض محدثة عن عدم ، والقائلون بأن الأفلاك قديمة أزلية — حدوث الحوادث بعد أن لم تكن أمر حادث . فلا بد له من سبب حادث . والالزم ترجيح أحد طرفي الممكن بلا مرجح .

وقال لهم القائلون بحدوث الأفلاك ، من أهل الملل وغيرهم : انتم أثبتم حدوث العالم بطريق ، وحدثت العالم لا يتم إلا مع نقيض ما أثبتتموه . فما جعلتموه دليلاً على حدوث العالم لا يدل على حدوثه ؛ بل ولا يستلزم حدوثه . والدليل لابد أن يكون مستلزماً للدلول ؛ بحيث يلزم من تحقق الدليل تحقق المدلول ؛ بل هو مناف لحدوث العالم مناقض له ، وهو يقتضي امتناع حدوث العالم ، بل امتناع حدوث

شيء من الأشياء . وهذا يقتضي بطلانه في نفسه ، وانه لو صح لم يدل
إلا على نقيض المطلوب ، ونقيض ما يقوله كل عاقل .

فان كل عاقل يعلم حدوث الحوادث في الجملة ، سواء قيل بقدوم
الأفلاك أم لم يقل بذلك ؛ وذلك ان مبنى دليلكم على أن القادر يرجح
أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح ، وان الارادة الأزلية — التي
نسبتها الى جميع المرادات على السواء — رجعت مراداً على مراد بلا
مرجح ، غير المرجح الذي نسبته الى جميع المرجحات نسبة واحدة
لا يتفاضل .

ومن المعلوم أن القول بترجيح وجود الممكن على عدمه بلا مرجح ،
أو ترجيح أحد المتماثلين على الآخر بلا سبب ، يقتضى ذلك باطل في
بديهية العقل . ولو قيل : إن ذلك صحيح لبطل الدليل الذي يستدل به
على ثبوت الصانع ، وحدث العالم ، فان مبنى الدليل على أن المحدث
لا بد له من محدث ، وذلك يستلزم ان ترجيح الحدوث على العدم لا بد
له من مرجح ، ولا بد أن يكون المحدث المرجح قد حدث منه ما يستلزم
وجود المحدث ، الذي جعله موجوداً ، واذا لم يلزم وجوده كان وجوده
جائزاً ممكناً : فكان محتملاً للوجود والعدم .

فترجيح الوجود على العدم لا بد له من مرجح محدث له ، فكل

ما امكن حدوثه ان لم يحصل له ما يستلزم حدوثه لم يحصل ، فما شاء الله كان لا محالة ووجب وجوده بمشيئة الله ، وما لم يشأ لم يكن : بل يتمتع وجوده مع عدم مشيئة الله تعالى له ، فما شاء الله حدوثه كان لازم الحدوث ، واجب الحدوث بمشيئة الله لا بنفسه ، وما لم يشأ حدوثه كان ممتنع الحدوث . لازم العدم . واجب العدم : لأنه لم توجد مشيئة الله المستلزمة لحدوثه .

ثم ان الفلاسفة الدهرية القائلين بقدم العالم قالوا : ما ذكرتموه من الدليل لا يدل على الحدوث : بل يقتضى عدم الحدوث : لأن حدوث الحوادث بعد ان لم تكن عن ذات لم تزل معطلة من الفعل باطل ، فيكون العالم قديماً ، وعبروا عن ذلك بان جميع الأمور المعبرة في كونه فاعلا ان وجدت في الأزل لزوم وجود الفعل في الأزل ، والا لزم تخلف المقتضى عن المقتضى التام .

وحينئذ فاذا وجدت بعد ذلك لزوم الترجيح بلا مرجح ، وان لم توجد في الأزل فوجودها بعد ذلك امر حادث : فيقتضى أمراً حادثاً ، والا لزم الحدوث بلا محدث ، وحينئذ فيلزم تسلسل الحوادث ، فان القول في هذا الحادث كالقول في غيره . وهذا مما تنكره المعتزلة وموافقهم المتكلمون . قالوا : فأنتم بين امرين : اما اثبات التسلسل في الحوادث ، واما اثبات الترجيح بلا مرجح . وكلاهما ممتنع عنكم .

ثم زعم هؤلاء الفلاسفة ان العالم قديم بناء على هذه الحجة . ومن سلك سبيل السلف والأئمة اثبت ما أثبتته الرسل من حدوث العالم بالدليل العقلي ، الذي لا يحتمل النقيض ، وبين خطأ المتكلمين من المعتزلة ونحوهم ، الذين خالفوا السلف والأئمة بابتداع بدعة مخالفة للشرع والعقل وبين أن ضلال الفلاسفة — القائلين بقدم العالم ، ومخالفتهم العقل ، والشرع — أعظم من ضلال أولئك ، وبين أن الاستدلال على حدوث العالم لا يحتاج الى الطريق التي سلكها أولئك المتكلمون ، بل يمكن اثبات حدوثه بطرق أخرى عقلية صحيحة ، لا يعارضها عقل صريح ، ولا نقل صحيح . وثبت بذلك ان ما سوى الله فانه محدث ، كائن بعد ان لم يكن ، سواء سمي جسماً او عقلاً او نفساً أو غير ذلك .

فان أولئك المتكلمين من المعتزلة واتباعهم ، لما لم يكن في حجتهم الا اثبات حدوث اجسام العالم ، قالت الفلاسفة ومن وافقهم من المتأخرين — كالشهرستاني ، والرازي ، والآمدي وغيرهم — انكم لم تقيموا دليلاً على نفي ما سوى الأجسام . وحينئذ فاثبات حدوث أجسام العالم لا يقتضي حدوث ما سوى الله ، ان لم تثبتوا ان كل ما سواه جسم ، وانتم لم تثبتوا ذلك ؛ ولهذا صار بعض المتأخرين — كالأرموي ومن وافقه من أهل مصر ، كأبي عبد الله القشيري — الى ان أجسام العالم محدثة . واما العقول والنفوس فتوقفوا عن حدوثها ، وقالوا بقدمها .

وان كان حقيقة قولهم انه موجب بالذات لها ، وانه محدث للاجسام بسبب حدوث بعض التصورات ، والارادات ، التي تحدث للنفوس ، فيصير ذلك سبباً لحدوث الأجسام . وهذا القول كما أنه معلوم البطلان في الشرع : فهو أيضاً معلوم البطلان في العقل ، كما سنبينه ان شاء الله تعالى .

فنقول : الدليل الدال على أن كل ما سوى الله محدث يتناول هذا وهذا .

و « أيضاً » فاذا كان موجبا بالذات كان اختصاص حدوث اجسام العالم بذلك الوقت دون ما قبله وما بعده يقتصر الى مخصص ، والموجب بذاته لا يصدر عنه ما يختص بوقت دون وقت ؛ إذ لو جاز ذلك لم يكن موجبا بذاته ؛ ولجاز حدوث العالم عنه ، ولأن النفوس التي تثبت بها الفلاسفة هي عند جمهورهم عرض قائم بجسم الفلك ؛ فيمتنع وجودها به بدون الفلك ؛ وعند ابن سينا وطائفة انها جوهر قائم بنفسه ؛ لكنها متعلقة بالجسم تعلق التدبير والتصريف . وحينئذ فلو وجدت ولا تعلق لها بالجسم لم تكن نفساً ؛ بل كانت عقلا ، فلم أن وجود النفس مستلزم لوجود الجسم .

فاذا قال هؤلاء : ان النفس ازلية دون الأجسام كان هذا القول

باطلا بصريح العقل ، مع أنه لم يعرفه قائل من العقلاء قبل هؤلاء .
وانما الجأ هؤلاء إلى هذا ظهم صحة دليل المتكلمين على حدوث الاجسام ،
وصحة قول الفلاسفة بوجود موجود وممكن غير الاجسام ،
واثبات الموجب بالذات ؛ فلما بنوا قولهم على الأصل الفاسد لهؤلاء
ولهؤلاء : لزم هذا ، مع أنهم متناقضون في الجمع بين هذين ؛ فان
عمدة المتكلمين على ابطال حوادث لا أول لها .

وعمدة الفلاسفة على ان المؤثرية من لوازم الواجب بنفسه ، فاذا
قالوا بقدوم نفس لها تصورات وارادات لا تنتهي ؛ لزم جواز حوادث
لا تنتهي ؛ فبطل أصل قول المتكلمين الذي بنوا عليه حدوث الأجسام ؛
فكان حينئذ موافقتهم المتكلمين بلا حجة عقلية ، فعلم انهم جمعوا
بين المتناقضين .

وابو عبد الله ابن الخطيب وامثاله كانوا أفضل من هؤلاء ، وعرفوا
انه لا يمكن الجمع بين هذا وهذا ، فلم يقولوا هذا القول المتناقض ،
ولم يهتدوا الى مذهب السلف والأئمة ، وان كانوا يذكرون اصوله في
مواضع آخر ، ويثبتون ان جمهور العقلاء يلتزمون بها ، فلو تفتنوا لما
يقوم بذات الله من كلامه وافعاله المتعلقة بمشيئته وقدرته ودوام اتصافه
بصفة الكمال ، خلصوا من هذه المحارات .

ونحن ننبه على بعض الطرق العقلية ، التي يعلم بها حدوث كل ما
سوى الله تعالى . فنقول :

من « الطرق » التي يعلم بها حدوث كل ما سوى الله هي ان يقال :
لو كان فيما سوى الله شيء قديم لكان صادرا عن علة تامة ، موجبة
بذاتها ، مستلزمة لمعلولها ، سواء ثبت له مشيئة أو اختيار ، او لم يثبت :
فان القديم الأزلي الممكن الذي لا يوجد بنفسه لا يتصور وجوده ان لم
يكن له في الأزل مقتض تام يستلزم ثبوته .

وهذا كما انه معلوم بضرورة العقل فلا نزاع فيه بين العقلاء .
فلا يقول احد : ان القديم الأزلي صادر عن مؤثر لا يلزمه اثره ، فلا
يقول : إنه صادر عن علة غير تامة مستلزمة لغير معلولها ، ولا يقول :
إنه صادر عن موجب بذاته لا يقارنه موجب ومقتضاه ، ولا يقول : إنه
صادر عن فاعل بالاختيار يمكن ان يتأخر مفعوله : فانه إذا أمكن تأخر
مفعوله امكن ان يكون ذلك القديم الأزلي قديما أزليا ، فيكون ثبوته في
الازل ممكنا . وليس في الازل ما يستلزم ثبوته في الأزل ، فيمتنع
ثبوته في الأزل : فان ثبوت الممكن الأزلي بدون مقتض تام مستلزم له
ممتنع بضرورة العقل : اذ قد علم بصريح العقل ان شيئا من الممكنات
لا يكون حتى يحصل المقتضى التام ، المستلزم لثبوته .

ومن نازع في هذا من المعتزلة وغيرهم ، وقال انه لا ينتهي الى حد الوجوب ؛ بل يكون العقل بالوجود اولى منه بالعدم ، فانه لم ينزع في ان القادر المختار يتمتع ان يكون مقدوره المعين أزلياً ، مقارناً له ؛ بل هذا مما لم ينزع فيه لا هؤلاء ولا غيرهم .

فتبين انه لو كان شيء مما سوى الله أزلياً للزم أن يكون له مؤثر تام ، مستلزم له في الازل ؛ سواء سمي علة تامة ، أو موجبا بالذات ، او قدر انه فاعل بالارادة ، وان مراده المعين يكون أزلياً مقارناً له .

واذا كان كذلك فنقول : ثبوت علة تامة ازلية ممتنع ، فان العلة التامة الازلية تستلزم معلولها ، لا يتخلف عنها شيء من معلولها ؛ فانه ان تخلف عنها لم تكن علة تامة لمعلولها ؛ فيمتنع في الشيء الواحد ان يكون موجباً بذاته ، وان يتخلف عنه موجبه أو شيء من موجبه ؛ فان الموجب بالذات لشيء لا بد ان يكون ذلك الموجب جميعه مقارناً لذاته ، والعلة التامة هي التي يقارنها معلولها . ولا يتأخر عنها شيء من معلولها ، فلو تأخر عنها شيء من معلولها لم تكن علة تامة لذلك المستأخر . والفلاسفة يسمون ان ليس علة تامة في الازل لجميع الحوادث التي تحدث شيئاً بعد شيء ، فان ذلك جمع بين النقيضين ؛ إذ يمتنع ان يكون علة تامة أزلية لاحر حادث عنه غير أزلي .

وان شئت قلت : يمتنع أن يكون موجباً بذاته في الأزل لأمر
حادث ليس بأزلي ؛ سواء كان ايجابه بواسطة أو بغير واسطة ، فان
تلك الواسطة ان كانت أزلية كان اللازم لها أزلياً ، وان كانت حادثة
كان القول فيها كالقول في الحادث بتوسطها ، وهذا الذي سامود معلوم
أيضاً بصريح العقل ، فالمقدمة برهانية مسامة ؛ لكن يقولون : إنه علة
تامة ؛ لما هو قديم كالأفلاك عديم . وليس علة تامة للحوادث ، وهذا
أيضاً باطل .

وذلك ان كل ما يقال : انه قديم كالأفلاك ، إما أن يجب ان
يكون مقارناً للحوادث كما يقولون في الفلك : انه يجب له لزوم الحركة ،
وانه لم يزل متحركاً ، وأما أنه لا يجب أن يكون مقارناً لشيء من
الحوادث ، فان كان الأول لازم أن يكون علة تامة للحوادث ، وكونه
علة تامة للحوادث محال ؛ لأن ما قارته الحوادث ولم يخل منها بل هي
لازمة له امتنع صدوره عن الموجب بدونها ، ووجود الملزوم بدون
اللازم محال ، وإذا كانت الحركة لازمة للفلك ، كما يقولون : فوجود
الفلك بدون الحركة محال ، فالموجب بذاته الذي هو علة تامة للفلك ،
يجب أن يكون علة تامة موجبة للوازمه ، وعلة تامة في الأزل بحركته ،
لكن العلة التامة الأزلية لا يجوز أن تكون علة تامة أزلية للحوادث ،
لا الحركة ولا غيرها ، لأنه يجب وجود معلولها الذي هو موجبها ومقتضاها

في الأزل ، وان لا يتأخر عنها شيء من موجبها ، ومقتضاها ، ومعلوها .

والحركة التي توجد شيئاً فشيئاً هي وغيرها من الحوادث التي تحدث شيئاً بعد شيء ليس واحد منها قديماً ؛ بل كل منها حادث مسبوق بآخر ؛ فيمتنع أن يكون شيء منها معلولاً للعلة التامة الأزلية ؛ لامتناع أن يكون حادث من الحوادث قديماً ، ويمتنع وجود مجموع الحوادث في الأزل ، ويمتنع وجود المستلزم للحوادث إلا مع حادث من الحوادث أو مع مجموع الحوادث ، وإذا كان كلاهما يمتنع أن يكون قديماً امتنع أن يكون شيء مما يستلزم الحوادث قديماً ، فامتنع أن يكون لشيء من الحوادث أو ما يستلزم الحوادث علة تامة قديمة ؛ فامتنع صدور الحوادث أو شيء منها ، أو من ملزوماتها عن علة تامة قديمة ؛ فامتنع أن يكون شيء لا ينخلو عن الحوادث صادراً عن علة تامة أزلية ؛ فامتنع أن يكون الفلك المقارن للحوادث علة تامة أزلية قديمة . ولو كان قديماً لصدر عن علة تامة قديمة ، فاذا لم يكن قديماً إلا إذا كان المقتضى التام ثابتاً في الأزل ، وثبوت المقتضى التام له ممتنع ، كما ان قدمه ممتنع .

واما ان قيل : ان القديم شيء غير مقارن للحوادث ، ولا مستلزم لها ، مثل أن يقال : القديم أعيان ساكنة ، هي المعلول الاول ، فيقال ذلك المعلول اما أن يجوز حدوث حال من الاحوال ، اما فيه ، أو عنه ، أو غير ذلك . وإما أن لا يجوز .

فان جاز حدوث حال من الأحوال له امتنع حدوث ذلك الحادث
عن علة تامة أزلية - وهو الموجب بالذات كما تقدم . وكما هو معلوم
ومتفق عليه بين العقلاء - ولا بد من محدث ، والمحدث ان كان سوى
الله فالقول في حدوثه ان كان محدثاً ، او في حدوث ذلك الاحداث له
بعد ان لم يكن . كالقول في حدوث ذلك الحادث ، وان كان هو الله
تعالى امتنع ان يكون موجباً بالذات له ؛ إذ القديم لا يكون موجباً بالذات
لحادث - كما بين - فامتنع ثبوت العلة القديمة . وإذا لم يكن الصانع موجباً
بالذات - فلا يكون علة تامة - امتنع قدم شيء من العالم ؛ لأنه لا يكون
قديم إلا عن علة تامة ، وإن قيل إنه لا يجوز حدوث لما فرض قديماً
معلولاً للأول ؛ فهذا مع أنه لم يقل به أحد من العقلاء فهو
باطل ؛ لوجوه :

« أحدها » ان واجب الوجود تحدث له النسب والاضافات باتفاق
العقلاء ؛ فحدث ذلك لغيره أولى .

« الثاني » ان الحوادث مشهودة في العالم العلوي والسفلي ، وهذه
الحوادث صادرة عن الله : اما بوسط او بغير وسط ، فاذا كانت بوسط
فتلك الوسائط حدثت عنها أمور بعد ان لم تكن ؛ فلزم حدوث الاحوال
للقديم ، سواء كان هو الصانع او كان هو الوسائط للصانع .

وإن قيل : القديم هو شيء ليس بواسطة في شيء آخر . قيل : لا بد أن يكون ذلك قابلا لحدوث الأحوال ، فإنه يمكن حدوث النسب والإضافات لله عز وجل بالضرورة واتفاق العقلاء ، فامكان ذلك لغيره أولى ، وإذا كان قابلا لها أمكن أن تحدث له الأحوال ، كما تحدث لغيره من الممكنات ؛ فإن الله لا يتمتع حدوث الحوادث عنه : إما بوسط وأما بغير وسط ؛ فإذا كان ذلك قابلا ، وصدور مثل ذلك عن الصانع ممكن أمكن حدوث الحوادث عنه أو فيه بعد أن لم يكن .

وحينئذ فالقول في حدوثها كالقول في حدوث سائر ما يحدث عنه ، وذلك محال من العلة التامة المستلزمة لمعلومها ، فقد بين هذا البرهان الباهر أن كون الأول علة تامة لشيء من العالم - محال ، لا فرق في ذلك بين الفلك وغيره ؛ سواء قدر ذلك الغير جسما أو غير جسم ، وسواء قدر مستلزما للحوادث فيه أو عنه - كما يقوله الفلاسفة الدهرية : كالفارابي ، وابن سينا وامثالهما ، وسلفهما من اليونان . فأنهم يقولون : الفلك مستلزم للحوادث القديمة . والعقول والنفوس مستلزمة للحوادث التي تحدث عنها ، فكل منها مقارن للحوادث ، لا يجوز تقدمه عليها مع كون ذلك جميعه معلولا للموجب بذاته . فإذا تبين أن الموجب بذاته يتمتع أن يصدر عنه في الأزل حادث ، أو مستلزم لحادث ، بطل كون صانع العالم علة تامة في الأزل ، ومتى بطل كونه علة تامة في الأزل ، امتنع أن يكون فيها سواد شيء قديم بعينه ، فهذا بيان أن كل ما سوى الله محدث كائن بعد أن لم يكن . سواء قيل

بجواز دوام الحوادث ، أو قيل بامتناع ذلك .

فانه ان قيل بامتناع دوام الحوادث لزم حدوث كل ما لا يخلو عن الحوادث ، وان قيل بجواز دوام الحوادث فكل منها حادث بعد ان لم يكن مسبوقاً بالعدم ، وكل من العالم مستلزم لحادث بعد ان لم يكن مسبوقاً بالعدم ، وكل من العالم وكل ما كان مصنوعاً وهو مستلزم للحوادث امتنع ان يكون صانعه علة تامة قديمة موجبة له ؛ فاذا امتنع ذلك امتنع ان يكون قديماً فامتنع ان يكون من العالم ما هو قديم بعينه .

وأما كون الرب لم يزل متكلماً إذا شاء ، أو لم يزل فاعلاً تقوم به الأفعال بمشيئته ونحو ذلك - فهذا هو الذي قاله السلف والأئمة ؛ فتبين ان الذي قاله السلف والأئمة هو الحق المطابق للمنقول والمعقول .

وأما كون قول الفلاسفة أبطل من قول المعتزلة ، فانه يقال لهم : أولئك جوزوا حدوث الحوادث عن ذات لم تزل غير فاعلة ، ولا يقوم بها حادث ولا يصدر عنها حادث ، وأتم قلتم الحوادث الدائمة المختلفة تصدر عن هذه الذات ، وزدتم في نفي الصفات عنها ، فجعلتموها وجوداً مطلقاً بشرط الاطلاق او ما يشبه ذلك ، فقولكم في نفي الصفات عنها أعظم من قول المعتزلة .

وقلتهم : هو موجب بذاته علة تامة أزلية يقارنها المعلول الأزلي ،
فلا يتأخر عنها . ومعلوم ان صدور الحوادث المختلفة عن العلة التامة
البسيطة الأزلية ، التي لا يتخلف عنها مقتضاها ومعلوها اشد امتناعا من
صدور الحوادث عن قادر مختار بعد ان لم تكن صادرة عنه . فان كان
حدوث الحوادث عن القديم الذي لم يقم به حادث ممتعا فقولكم اشد
امتناعاً ، وان كان ممكناً فقول المعتزلة أقرب : فان قولهم : ان اقتضى
ان لا يكون للحوادث سبب حادث . فقولكم يقتضي ان لا يكون للحوادث
محدث اصلا ، والحوادث مشهودة . والمحدث لا بد ان يكون موجوداً عند
وجودها ، ولا بد ان يكون كلما يعتبر في الاحداث موجوداً عند
الاحداث . وذلك يمتنع صدور عن علة تامة .

فتبين ان المقدمات التي احتج بها الفلاسفة على المعتزلة واتباعهم على
قدم العالم يحتج بها بعينها على حدوث العالم : فان مبنى دليلهم على ان العلة
التامة الازلية تستلزم معلوها ، وان الباري ان لم يكن علة تامة ازلية لزم الحدوث
بلا سبب ، وان كان علة تامة أزلية لزم مقارنة معلوله : فيلزم قدم العالم .

اما كونه علة تامة فممتنع : لأن العلة التامة الأزلية يقارنها معلوها
كله ، لا يتأخر عنها شيئا من معلوها ، والعالم لا ينفك من حوادث
مقارنة له بالضرورة ، واتفاق جماهير العقلاء : وما كان مستلزما للحوادث
امتنع كونه معلول العلة التامة الأزلية : لامتناع كون الحوادث حادثة

عن علة تامة ازلية ، فانه ما من حادث الا وهو مسبوق بالعدم ، فليس هو علة تامة لشيء منها ، وما من زمن يقدر إلا وفيه حادث ، فليس هو في شيء من الأوقات علة تامة ، لا في الماضي ولا المستقبل ؛ فامتنع ان يكون علة تامة وهو المطلوب ؛ فيلزم من ذلك كون كل ما سواء محدثا ، سواء قيل بتسلسل الحادثة او لم يقل .

وأما قولهم : ان لم يكن علة تامة ازلية ، لزم الحدوث بلا سبب . فيقال لهم : هذا إنما يلزم إذا لم يكن متكلا إذا شاء — تقوم به الافعال الاختيارية بقدرته تعالى — والا فعلى هذا التقدير لم يزل ولا يزال قادراً على الفعل متكلا إذا شاء ، وحينئذ فما حصل بمشيئته وقدرته من اقواله وأفعاله يكون هو السبب لما بعده .

وان قالوا : هذا يستلزم قيام الحوادث به ، قيل لهم أولاً : قيام الحوادث بالقديم جائز عندكم ، ومن انكر ذلك من اهل الكلام فانما انكره لاعتقاده ان ما قامت به الحوادث فهو حادث ، فان كان هذا الاعتقاد صحيحا بطل قولكم بقدم الافلاك ، وان كان باطلا بطلت حجة من قال : ان القديم لا تقوم به الحوادث ؛ فلا يمكنكم على التقديرين ان تقولوا انه لا تقوم به الحوادث ؛ لكن اتم نفيتم ذلك بناء على نفي الصفات . وقولكم في نفي الصفات في غاية الفساد ، ودليكم عليه قد بين فساده في غير هذا الموضع ، وبين بطلان ما ذكرتموه .

و « بالجملة » فاذا كان القول بحدوث العالم مستلزما لاثبات الصفات وقيام الافعال بالله ، كان ما ذكرناه من دليل حدوثه دليلا على ان العالم محدث ، وأن محدثه موصوف بالصفات القائمة به . فاعل الافعال الاختيارية القائمة به ، كما دلت على ذلك النصوص الالهية المتواترة عن الانبياء من القرآن والتوراة . والانجيل . وذلك ما بين موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح ، والقضايا العقلية التي هي اصول فطر العقلاء ، ومنتهى عقلم توافق ذلك ، واعتبر ذلك بما ذكره ابو عبد الله بن الخطيب الرازي ، في كتابه « الاربعين » في ضبط المقدمات التي يمكن الرجوع اليها في اثبات المطالب العقلية .

قال : واعلم ان ههنا « مقدمتين » يفرع المتكلمون والفلاسفة اكثر مباحثهم عليها .

« المقدمة الاولى » مقدمة الكمال والنقصان ، كقولهم هذه الصفة من صفات الكمال فيجب اثباتها لله ، وهذه الصفة من صفات النقصان فيجب نفيها عن الله ، واكثر مذاهب المتكلمين مفرعة على هذه المقدمة .

الى ان قال :

« اما المقدمة الثانية » وهي مقدمة الوجوب ؛ والامكان . وهذه

المقدمة في غاية الشرف والعلو ، وهي غاية عقول العقلاء . قالوا :
الوجود اما واجب واما ممكن ، والممكن لا بد له من واجب ، وكذلك
الواجب لا بد ان يكون واجباً في ذاته وصفاته ؛ إذ لو كان ممكناً لافتقر
إلى مؤثر آخر .

« أما المقدمة الاولى » وهي انه واجب لذاته : فهذا له لازمان :
الاول ان يكون منزهاً عن الكثرة في حقيقته ، ثم يلزم في ذاته امور :

« احدها » ان لا يكون متحيزاً ؛ لان كل متحيز منقسم ، والمنقسم
لا يكون فرداً ، وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن في جهة .

و « ثانيا » ان لا يكون واجب الوجود اكثر من واحد ، ولو
كان اكثر من واحد لاشتركا في الوجوب ، وتباينسا في التعيين ، وما به
الاشتراك غير ما به الامتياز ؛ فيلزم كون كل واحد منها مركباً في نفسه ، وقد
فرضناه فرداً هذا خالف اللازم الثاني ؛ لكونه واجب الوجود لذاته ان
لا يكون حالاً ولا محلاً ، والافعال الافتقار هي .

قلت : ولقائل ان يقول : هذا هو اصل الفلاسفة في التوحيد .
الذي نفوا به صفاته تعالى ، وهو ضعيف جداً .

والاصل الذي بنوا عليه ذلك ضعيف جداً ، وان كان اشبه على
كثير من المتأخرين :

وقولهم : ان الواجب لا يكون إلا واحداً . قصدوا به انه ليس
له علم ولا قدرة ، ولا حياة ولا كلام يقوم به ، ولا شيء من الصفات
القائمة به ؛ لأنه لو كان كذلك لكان الواجب اكثر من واحد ، كما
يقوله المعتزلة انه ليس له صفات قديمة قائمة بذاته ؛ لأنه لو كان كذلك
لكان القديم اكثر من واحد .

ولفظ « الواجب » ، والقديم « يراد به الاله الخالق سبحانه ،
الواجب الوجود القديم فهذا ليس الا واحدا ، ويراد به صفاته الأزلية ،
وهي قديمة واجبة بتقدم الموصوف ، ووجوبه لم يجب أن تكون مماثلة
له : ولا تكون الهاً ، كما أن صفة النبي ليست بنبي ، وصفة الانسان
والحيوان ليست بانسان ولا حيوان ، وكما ان صفة المحدث ان كانت
محدثة فموافقتها له في الحدوث لا يقتضي مماثلتها له ، وما ذكروا من
الحجة على ذلك ضعيفة .

فاذا قالوا : لو كان له علم واجب بوجوب العالم لكان الواجب
اكثر من واحد . قيل له : ولم قلتم بامتناع كون الواجب اكثر من
واحد ؛ اذ كانت الذات الواجبة إلهاً واحداً ، موصوفا بصفات الكمال .

قولهم : لو كان أكثر من واحد لاشتركا في الوجوب ، وتباينا في التعيين ، وما به الاشتراك غير ما به الامتياز : فيلزم ان يكون كل منها مركباً في نفسه ؛ وقد فرضناه : فرد هذا خلق .

يقال له في جوابه قول القائل اشتركا في الوجوب ، وتباينا في التعيين ، تريد به ان الوجوب الذي يختص كلا منها شاركه الآخر فيه ام تريد انهما اشتركا في الوجوب المطلق الكلي .

والاول باطل لا يريده عاقل . وأما الثاني فيقال : اشتراكها في المطلق الكلي ، كاشتراكها في التعيين المطلق الكلي . فان هذا له تعيين يخصه ، والتعيينان يشتركان في مطلق التعيين . وكذلك هذا له حقيقة تخصه ، وهذا له حقيقة تخصه ، وهما يشتركان في مطلق الحقيقة وكذلك لهذا ذات تخصه . ولهذا ذات تخصه ، وهما يشتركان في مطلق الذات . وكذلك سائر الاسماء التي تعم بالاطلاق ، وتخص بالتقييد ، كاسم الوجود والنفس ، والماهية وغير ذلك .

وإذا كان كذلك فمعلوم انهما اشتركا في الوجوب المطلق ، وامتاز كل منها بوجوبه بتعيين يخصه . وحينئذ : فلا فرق بين الوجوب والتعيين .

فقول القائل : اشتركا في الوجوب المطلق ، وتباينا بالتعيين الخاص .

كقول القائل اشتركا في التعيين المطلق ، وتباينا بالوجوب الخاص .
ومعلوم ان مثل هذا لا مندوحة عنه ، سواء سمي تركيباً او لم يسم .
فلا يمكن موجود يخلو عن مثل هذه المشاركة والمباينة ، لا واجب
ولا غيره . وما كان من لوازم الوجود كان نفيه عن الوجود
الواجب ممتنعاً .

و « أيضاً » فالمشترك المطلق الكلّي لا يكون كلياً مشتركاً الا في
الأذهان لا في الأعيان ، وإذا كان كذلك فليس في أحدهما شيء يشاركه
الأخر فيه في الخارج : بل كل ما اتصف به أحدهما لم يتصف الآخر
بعينه ؛ ولم يشاركه فيه ؛ بل لا يشابهه فيه ، أو يماثله فيه . وإذا كان
الاشتراك ليس الا في ما في الأذهان لم يكن أحدهما مركباً في مشترك
ومميز ؛ بل يكون كل منهما موصوفاً بصفة تخصه ، لا يشابهه الآخر
فيها ، وبصفة يشابهه الآخر فيها ، وهذا لا محذور فيه .

وأيضاً فيقال : هذا منقوض بالوجود ، فان الوجود الواجب
والممكن يشتركان في مسمى الوجود ، ويبين أحدهما الآخر بخصوصه ؛
فيلزم تركيب الوجود الواجب مما به الاشتراك ، ومما به الامتياز ؛ فما
كان الجواب عن هذا كان الجواب عن ذلك .

و « أيضاً » فيقال : هب انكم سميت هذا تركيباً . فلم قلت ان

هذا ممتنع على موجود من الموجودات ، واجباً كان أو ممكناً ؟ مع ان
المنازع يقول هذا المعنى الذي نفيتموه ، وسميتموه تركيياً ، هو لازم
لكل موجود .

قولهم : وقد فرضناه فرداً . قيل : هب انكم فرضتموه كذلك ؛
لكن مجرد فرضكم لا يقتضى ان يكون فرداً بالمعنى الذي ادعيتموه ان لم
يقم على ذلك [دليل] .

وسئل قديم من الاله روجه

عن بيان ما يجب على الانسان أن يعتقد ، ويصير به مسلماً ؛
بأوضح عبارة وأبينها ، من أن ما في المصاحف هل هو كلام الله
القديم ؟ أم هو عبارة عنه لا نفسه ، وأنه حادث أو قديم ، وأن كلام
الله حرف وصوت ؟ أم كلامه صفة قائمة به لا تفارقه ؟ وأن قوله تعالى :
(الرحمن على العرش استوى) حقيقة أم لا ؟ وأن الانسان إذا
أجرى القرآن على ظاهره من غير أن يتأول شيئاً منه ، ويقول
أو من به كما أنزل ، هل يكفيه ذلك في الاعتقاد أم يجب
عليه التأويل ؟

فأجاب : الذي يجب على الانسان اعتقاده في ذلك وغيره ما دل
عليه كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واتفق عليه سلف
المؤمنين ، الذين أثبت الله تعالى عليهم وعلى من اتبعهم ، وذنم من اتبع
غير سيبلهم ، وهو أن القرآن الذي أنزله الله على عبده ورسوله
كلام الله تعالى ، وأنه منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، وأنه
(قرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمس إلا المطهرون) ، وأنه

(قرآن مجيد ، في لوح محفوظ) . وأنه كما قال تعالى : (وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) وأنه في الصدور ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « استذكروا القرآن فلهو أشد تفصياً من صدور الرجال من النعم في عقلها » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الحرب » وأن ما بين لوحى المصحف الذي كتبه الصحابة رضي الله عنهم كلام الله ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو ؛ مخافة أن يتأله أيديهم » .

فهذه « الجملة » تكفي المسلم في هذا الباب .

وأما تفصيل ما وقع في ذلك من النزاع فكثير منه يكون كالأطلاقين خطأ ، ويكون الحق في التفصيل ، ومنه ما يكون مع كل من المتنازعين نوع من الحق ، ويكون كل منها ينكر حق صاحبه .

وهذا من التفرق والاختلاف الذي ذمه الله تعالى ونهى عنه ، فقال : (وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) وقال : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليينات) وقال : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وقال : (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم اليينات بغياً بينهم) .

فالواجب على المسلم أن يلزم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وسنة خلفائه الراشدين ، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ،
والذين اتبعوهم باحسان . وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيه ، إن
أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل وإلا استمسك بالجمال الثابتة بالنص
والاجماع ، وأعرض عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، فإن مواضع
التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن اتباع الظن ، وما تهوى الأنفس ،
ولقد جاءهم من ربهم الهدى .

وقد بسطت القول في جنس هذه المسائل ببيان ما كان عليه سلف
الأمة ، الذي اتفق عليه العقل والسمع ، وبيان ما يدخل في هذا الباب
من الاشتراك والاشتباه والغلط في مواضع متعددة ، ولكن نذكر منها
جملة مختصرة بحسب حال المسائل .

General Organization of the
India Library (G.O.A.L.)
Bibliotheca Alexandrina

والواجب أمر العامة بالجمال الثابتة بالنص والاجماع ، ومنعهم من
الخوض في التفصيل الذي يقع بينهم الفرقة والاختلاف ، فإن الفرقة
والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله .

والتفصيل المختصر أن نقول : من اعتقد أن المداد الذي في المصحف
وأصوات العباد قديمة أزلية فهو ضال مخطيء ، مخالف للكتاب والسنة ،
وإجماع السابقين الأولين ، وسائر علماء الاسلام ، ولم يقل أحد قط من

علماء المسلمين إن ذلك قديم . لا من أصحاب الامام أحمد ولا من غيرهم
ومن نقل قدم ذلك عن أحد من علماء أصحاب الامام أحمد ونحوهم فهو
مخطيء في هذا النقل ، أو متعمد للكذب ؛ بل المنصوص عن الامام
أحمد وعامة أصحابه تبديع من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، كما
جهموا من قال : اللفظ بالقرآن مخلوق .

وقد صنف أبو بكر المروزي — أخص أصحاب الامام أحمد به —
في ذلك رسالة كبيرة مبسوطه ، ونقلها عنه أبو بكر الخلال في « كتاب
السنة » الذي جمع فيه كلام الامام أحمد وغيره من أئمة السنة في أبواب
الاعتقاد ، وكان بعض أهل الحديث إذ ذاك أطلق القول بأن لفظي
بالقرآن غير مخلوق معارضة لمن قال : لفظي بالقرآن مخلوق ؛ فبلغ
ذلك الامام أحمد ، فأنكر ذلك إنكاراً شديداً ، وبدع من قال ذلك
وأخبر أن أحداً من العلماء لم يقل ذلك ، فكيف بمن يزعم أن صوت
العبد قديم ! وأقبح من ذلك من يحكى عن بعض العلماء أن المداد الذي
في المصحف قديم ، وجميع أئمة أصحاب الامام أحمد وغيرهم أنكروا
ذلك ، وما علمت أن عالماً يقول ذلك إلا ما يبلغنا عن بعض الجهال :
من الاكراد ونحوهم .

وقد ميز الله في كتابه بين الكلام والمداد ، فقال تعالى : (قل
لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو

جئنا بمثله مدداً) فهذا خطأ من هذا الجانب . وكذلك من زعم أن القرآن محفوظ في الصدور ، كما أن الله معلوم بالقلوب . وأنه متلو بالألسن ، كما أن الله مذكور بالألسن ، وأنه مكتوب في المصحف ، كما أن الله مكتوب .

وجعل ثبوت القرآن في الصدور والألسنة والمصاحف مثل ثبوت ذات الله تعالى في هذه المواضع ؛ فهذا — أيضاً — مخطيء في ذلك ، فان الفرق بين ثبوت الأعيان في المصحف ، وبين ثبوت الكلام فيها بين واضح ؛ فان الموجودات لها أربع مراتب : مرتبة في الأعيان ، ومرتبة في الأذهان ، ومرتبة في اللسان ، ومرتبة في البنان . فالعلم يطابق العين ، واللفظ يطابق العلم ، والخط يطابق اللفظ .

فاذا قيل : إن العين في كتاب الله كما في قوله : (وكل شيء فعلوه في الزبر) فقد علم ان الذي في الزبر إنما هو الخط المطابق للفظ المطابق للعلم ، فيبين الأعيان وبين المصحف مرتبتان ، وهي اللفظ والخط ، وأما الكلام نفسه فليس بينه وبين المصحف مرتبة ، بل نفس الكلام يجعل في الكتاب ، وان كان بين الحرف الملفوظ والحرف المكتوب فرق من وجه آخر ، الا إذا أريد أن الذي في المصحف هو ذكره والخبر عنه ، مثل قوله تعالى : (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين

على قلبك) الى قوله : وإنه لفي زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل) .

فالذي في زبر الأولين ليس هو نفس القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فان هذا القرآن لم ينزل على احد قبله صلى الله عليه وسلم ، ولكن في زبر الأولين ذكر القرآن وخبره ، كما فيها ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وخبره ، كما ان أفعال العباد في الزبر كما قال تعالى : (وكل شيء فعلوه في الزبر) فيجب الفرق بين كون هذه الأشياء في الزبر ، وبين كون الكلام نفسه في الزبر . كما قال تعالى : (انه لقرآن كريم . في كتاب مكنون) وقال تعالى : (يتلو صحفاً مطهرة . فيها كتب قيمة) .

فمن قال إن المداد قديم فقد اخطأ ، ومن قال ليس في المصحف كلام الله وإنما فيه المداد الذي هو عبارة عن كلام الله فقد أخطأ ؛ بل القرآن في المصحف كما ان سائر الكلام في الورق ، كما أن الأمة مجمعة عليه ، وكما هو في فطر المسلمين ، فان كل مرتبة لها حكم يخصها ، وليس وجود الكلام في الكتاب كوجود الصفة في الموصوف ، مثل وجود العلم والحياة في محلها ، حتى يقال : إن صفة الله حلت بغيره ، أو فارقت ، ولا الوجود فيه كالدليل المحض ، مثل وجود العالم الدال على الباري تعالى ، حتى يقال : ليس فيه إلا ما هو علامة على كلام الله عز وجل ؛

بل هو قسم آخر ، ومن لم يعط لل مرتبة مما يستعمل فيها اداه الطرف
حقها فيفرق بين وجود الجسم في الحيز وفي المكان ، ووجود العرض
بالجسم ، ووجود الصورة بالمرآة ، ويفرق بين رؤية الشيء بالعين
يقظة ، وبين رؤيته بالقلب يقظة ومناما ، ونحو ذلك ، والا اضطربت
عليه الامور .

وكذلك سؤال السائل عما في المصحف هل هو حادث أو قديم ؟
سؤال مجمل ؛ فان لفظ القديم اولا ليس مأثوراً عن السلف ، وانما
الذي اتفقوا عليه أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وهو كلام الله
حيث تلى ، وحيث كتب ، وهو قرآن واحد ، وكلام واحد وإن
تنوعت الصور التي يتلى فيها ويكتب من أصوات العباد ومدادهم .
فان الكلام كلام من قاله مبتدئاً ، لا كلام من بلغه مؤدياً ، فاذا سمعنا
محدثاً يحدث بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « انما الاعمال بالنيات »
قلنا : هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظه ومعناه ، مع
علمنا أن الصوت صوت المبلغ ، لا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهكذا كل من بلغ كلام غيره من نظم ونثر .

ونحن اذا قلنا : هذا كلام الله لما نسمعه من القارئ ، ونرى في
المصحف ، فالإشارة إلى الكلام من حيث هو هو ، مع قطع النظر
عما اقترن به البلاغ من صوت المبلغ ، ومداد الكاتب .

فمن قال : صوت القارىء ومداد الكاتب كلام الله الذي ليس
بمخلوق فقد اخطأ : وهذا الفرق الذي بينه الامام احمد لمن سألته ،
وقد قرأ : (قل هو الله احد) فقال : هذا كلام الله غير مخلوق ،
فقال : نعم . فنقل السائل عنه انه قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق ،
فدعا به وزبره زبراً شديداً . وطلب عقوبته وتغديره ، وقال : أنا
قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟! فقال : لا ، ولكن قلت لي لما
قرأت (قل هو الله احد) : هذا كلام الله غير مخلوق . قال : فلم
تنقل عني ما لم أقله ؟ ! .

فبين الامام أحمد أن القائل إذا قال لما سمعه من المبلغين المؤدين :
هذا كلام الله . فالإشارة الى حقيقة التي تكلم الله بها ، وإن كنا إنما
سمعناها ببلاغ المبلغ وحركته وصوته ؛ فاذا أشار إلى شيء من صفات
المخلوق لفظه أو صوته أو فعله ، وقال : هذا غير مخلوق فقد ضل
وأخطأ . فالواجب أن يقال : القرآن كلام الله غير مخلوق . فالقرآن في
المصحف ، كما ان سائر الكلام في الصحف ، ولا يقال : إن شيئاً
من المداد والورق غير مخلوق ؛ بل كل ورق ومداد في العالم فهو مخلوق ،
ويقال ايضاً : القرآن الذي في المصحف كلام الله غير مخلوق ، والقرآن الذي
يقرؤه المسلمون كلام الله غير مخلوق .

ويتبين هذا الجواب بالكلام على « المسألة الثانية » وهي قوله :

إن كلام الله هل هو حرف وصوت أم لا ؟ فان اطلاق الجواب في هذه المسألة نفياً وإثباتاً خطأ ، وهي من البدع المولدة ، الحادثة بعد المائة الثالثة ، لما قال قوم من متكلمة الصفاتية : إن كلام الله الذي أنزل على أنبيائه - كالتوراة : والإنجيل : والقرآن ، والذي لم ينزله ، والكلمات التي كون بها الكائنات ، والكلمات المشتملة على أمره ونهيه وخبره ، ليست الا مجرد معنى واحد ، هو صفة واحدة قامت بالله ، إن عبر عنها بالعبرانية كانت التوراة ، وان عبر عنها بالعربية كانت القرآن ، وان الامر والهي والخبر صفات لها ، لا أقسام لها ، وان حروف القرآن مخلوقة ، خلقها الله ولم يتكلم بها ، وليست من كلامه ؛ إذ كلامه لا يكون بحرف وصوت .

عارضهم آخرون من المثبتة فقالوا : بل القرآن هو الحروف والاصوات ، وتوهم قوم أنهم يعنون بالحروف المداد ، وبالاصوات أصوات العباد ، وهذا لم يقله عالم .

والصواب الذي عليه سلف الأمة - كالامام أحمد والبخاري صاحب الصحيح ، في « كتاب خلق أفعال العباد » وغيره ، وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم - اتباع النصوص الثابتة ، وإجماع (١) سلف الأمة ، وهو

(١) نسخة واتباع بدل وإجماع .

أن القرآن جميعه كلام الله ، حروفه ومعانيه ، ليس شيء من ذلك كلاما لغيره ؛ ولكن أنزله على رسوله ، وليس القرآن اسماً لمجرد المعنى ، ولا لمجرد الحرف ؛ بل لمجموعهما ، وكذلك سائر الكلام ليس هو الحروف فقط ؛ ولا المعاني فقط . كما أن الانسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح ، ولا مجرد الجسد ؛ بل مجموعهما . وان الله تعالى يتكلم بصوت ، كما جاءت به الأحاديث الصحاح ، وليس ذلك كأصوات العباد ، لا صوت القارئ ولا غيره . وان الله ليس كمثله شيء ، لا في ذاته . ولا في صفاته ، ولا في أفعاله . فكما لا يشبه علمه وقدرته وحياته علم المخلوق وقدرته وحياته : فكذلك لا تشبه كلامه كلام المخلوق ، ولا معانيه تشبه معانيه ، ولا حروفه يشبه حروفه ، ولا صوت الرب يشبه صوت العبد ، فمن شبه الله بمخلقه فقد ألحد في أسمائه وآياته ، ومن جحد ما وصف به نفسه فقد ألحد في أسمائه وآياته .

وقد كتبت في الجواب المبسوط المستوفى : مراتب مذاهب أهل الأرض في ذلك ، وان المتفلسفة تزعم أن كلام الله ليس له وجود إلا في نفوس الأنبياء ، تفيض عليهم المعاني من العقل الفعال ، فيصير في نفوسهم حروفاً ، كما ان ملائكة الله عندهم ما يحدث في نفوس الانبياء من الصور النورانية ، وهذا من جنس قول فيلسوف قريش الوليد ابن المغيرة : (ان هذا إلاقول البشر) فحقيقة قولهم إن القرآن تصنيف

الرسول الكريم ؛ لكنه كلام شريف صادر عن نفس صافية .

وهؤلاء هم الصابئة ؛ فتقربت منهم الجهمية . فقالوا : إن الله لم يتكلم ولا يتكلم ، ولا قام به كلام ، وإنما كلامه ما يخلقه في الهواء أو غيره ، فأخذ ببعض ذلك قوم من متكلمة الصفاتية . فقالوا : بل نصفه وهو المعنى كلام الله ، ونصفه وهو الحروف ليس هو كلام الله ، بل هو خلق من خلقه .

وقد تنازع الصفاتية القائلون بأن القرآن غير مخلوق . هل يقال : إنه قديم لم يزل ولا يتعلق بمشيئته ؟ أم يقال : يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء ؟ . على قولين مشهورين في ذلك ، وفي السمع والبصر ونحوها ، ذكرها الحارث المحاسبي عن أهل السنة ، وذكرها أبو بكر عبد العزيز عن أهل السنة ، من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم .

وكذلك النزاع بين أهل الحديث والصوفية ، وفرق الفقهاء : من المالكية ، والشافعية والحنفية ، والحنبلية ؛ بل وبين فرق المتكلمين والفلاسفة ، في جنس هذا الباب . وليس هذا موضعاً لبسط ذلك . (هذا لفظ الجواب في الفتا المصرية) .

وقال الإمام العلامة المحقق أبو العباس

أحمد بن تيمية - رحمه الله تعالى ورضي عنه -

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد فهذا « فصل في نزول القرآن » ولفظ « النزول » حيث ذكر في كتاب الله تعالى ، فإن كثيراً من الناس فسروا النزول في مواضع من القرآن ، بغير ما هو معناه المعروف لاشتباه المعنى في تلك المواضع ، وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع .

فمن الجهمية من يقول : أنزل بمعنى خلق كقوله تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) أو يقول : خلقه في مكان عال ثم أنزله من ذلك المكان .

(١) تسمى : التبيان في نزول القرآن .

ومن الكلاية من يقول نزوله بمعنى الاعلام به وافهامه للملك ،
أو نزول الملك بما فهمه .

وهذا الذي قالوه باطل في اللغة والشرع والعقل .

و « المقصود هنا » ذكر النزول .

فنقول وبالله التوفيق : النزول في كتاب الله عز وجل « ثلاثة
أنواع » : نزول مقيد بأنه منه ، ونزول مقيد بأنه من السماء ، ونزول
غير مقيد لا بهذا ولا بهذا .

فالأول لم يرد إلا في القرآن ، كما قال تعالى : (والذين آتيناهم
الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى (نزله روح
القدس من ربك بالحق) وقال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز
الحكيم) وفيها قولان :

« أحدهما » لا حذف في الكلام . بل قوله : (تنزيل الكتاب)
مبتدأ ، وخبره (من الله العزيز الحكيم)

و « الثاني » أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هذا (تنزيل الكتاب)
وعلى كلا القولين فقد ثبت أنه منزل منه ، وكذلك قوله : (حم

تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (وكذلك (حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم) (حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم)
والتنزيل بمعنى المنزل ، تسمية للمفعول باسم المصدر . وهو كثير : ولهذا قال السلف : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، منه بدأ . قال أحمد وغيره : واليه يعود . أي : هو المتكلم به . وقال كلام الله من الله ليس ببيان منه ، أي لم يخلقه في غيره فيكون مبتدأ منزلاً من ذلك المخلوق ؛ بل هو منزل من الله ، كما أخبر به ومن الله بدأ لا من مخلوق ، فهو الذي تكلم به لخلقه .

وأما النزول « المقيد » بالسما فقوله : (وأنزلنا من السماء)
والسما اسم جنس لكل ماعلا ، فاذا قيد بشيء معين [تقيد به] فقوله في غير موضع من السماء مطلق أي في العلو ؛ ثم قد بينه في موضع آخر بقوله (أأنتم أنزلتموه من المزن) وقوله (فترى الودق يخرج من خلاله) أي انه منزل من السحاب . ومما يشبه نزول القرآن قوله : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) فنزول الملائكة هو نزولهم بالوحي من أمره ، الذي هو كلامه وكذلك قوله : (تنزل الملائكة والروح فيها) بناسب قوله : (فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا انا كنا مرسلين) فهذا شبيه بقوله : (قل نزله روح القدس)

وأما « المطلق » ففي مواضع . منها : ما ذكره من ازال السكينة :
بقوله : (فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) وقوله : (هو
الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين) إلى غير ذلك .

ومن ذلك « ازال الميزان » ذكره مع الكتاب في موضعين ،
وجمهور المفسرين على أن المراد به العدل ، وعن مجاهد - رحمه الله -
هو ما يوزن به ، ولا منافاة بين القولين . وكذلك العدل ، وما يعرف
به العدل ، منزل في القلوب ، والملائكة قد تنزل على قلوب المؤمنين ؛
كقوله : (اذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا)
فذلك الثبات نزل في القلوب بواسطة الملائكة ، وهو السكينة . قال
النبي صلى الله عليه وسلم : « من طلب القضاء واستعان عليه وكل إليه
ومن لم يطلب القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده) فالله
ينزل عليه ملكا ، وذلك الملك يلهمه السداد ، وهو ينزل في قلبه .

ومنه حديث حذيفة رضي الله عنه ، الذي في الصحيحين عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال : « ان الله أنزل الامانة في جذر قلوب الرجال
فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » والامانة هي الايمان أنزلها في
أصل قلوب الرجال ، وهو كآزال الميزان والسكينة ، وفي الصحيح عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما اجتمع قوم في بيت من
بيوت الله يتلون كتاب الله » الحديث الى آخره ، فذكر أربعة غشيان

الرحمة ، وهى أن تغشاهم كما يغشى اللباس لابسـه ، وكما يغشى الرجل المرأة ، والليل النهار . ثم قال : « ونزلت عليهم السكينة » وهو انزالها فى قلوبهم « وحفظهم الملائكة » أى جلست حولهم « وذكرهم الله فيمن عنده » من الملائكة .

وذكر الله الغشيان فى مواضع مثل قوله تعالى : (يغشى الليل النهار) وقوله : (فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً) وقوله : (والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ما غشى) وقوله : (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) هذا كله فيه احاطة من كل وجه .

وذكر تعالى ازال النعاس فى قوله : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم) هذا يوم أحد . وقال فى يوم بدر : (إذ يغشىكم النعاس أمنة منه) والنعاس ينزل فى الرأس بسبب نزول الابخرة ، التى تدخل فى الدماغ ، فتعقد فيحصل منها النعاس .

وطائفة من أهل الكلام — منهم أبو الحسن الاشعري ومن اتبعه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد — جعلوا النزول والاتيان والمجيء حدثاً يحدثه منفصلاً عنه ، فذاك هو اتيانه واستواؤه على العرش ، فقالوا استواؤه فعل يفعله فى العرش يصير به مستوياً عليه من غير فعل

يقوم بالرب ، لكن أكثر الناس خالفوه . وقالوا : المعروف أنه لا يجيء شيء من الصفات والاعراض الا بمجيء شيء ، فاذا قالوا : جاء البرد أو جاء الحر فقد جاء الهواء الذي يحمل الحر والبرد ، وهو عين قائمة بنفسها . وإذا قالوا : جاءت الحمى فالحمى حر أو برد تقوم بعين قائمة بسبب أخلاط تتحرك وتتحول من حال الى حال ، فيحدث الحر والبرد بذلك ، وهذا بخلاف العرض الذي يحدث بلا تحول من حامل ، مثل لون الفاكهة ، فانه لا يقال في هذا : جاءت الحمرة والصفرة والخضرة ، بل يقال : أحمر وأصفر وأخضر . وإذا كان كذلك فانزاله تعالى العدل والسكينة ، والنعاس والامانة — وهذه صفات تقوم بالعباد — إنما تكون إذا أفضى بها اليهم ، فالأعيان القائمة توصف بالنزول ، كما توصف الملائكة بالنزول بالوحي والقرآن ، فاذا نزل بها الملائكة قيل انها نزلت .

وكذلك لو نزل غير الملائكة ، كالهواء الذي نزل بالاسباب ، فيحدث الله منه البخار الذي يكون منه النعاس ، فكان قد انزل النعاس سبحانه بانزال ما يحمله .

وقد ذكر سبحانه انزال الحديد ، والحديد يخلق في المعادن .

وما يذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن آدم عليه السلام

نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد ، السندان والكلبتان والمنقعة ،
والمطرقة ، والابرة ، فهو كذب لا يثبت مثله .

وكذلك الحديث الذي رواه الثعلبي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن
النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله أنزل أربع بركات من السماء
الى الارض فأنزل الحديد والماء والنار والملح » حديث موضوع مكذوب ،
في اسناده سيف بن محمد بن أحمد بن سفيان الثوري رحمه الله وهو من
الكذابين المعروفين بالكذب .

قال ابن الجوزي : هو سيف بن محمد بن أحمد بن سفيان الثوري
يروى عن الثوري وعاصم الأحول والاعمش ، قال أحمد رحمه الله : هو كذاب
يضع الحديث وقال حرة : ليس بشيء وقال يحيى : كان كذابا خيثاً وقال
حرة ليس بثقة وقال ابو داود كذاب وقال زكريا الساجي يضع الحديث
وقال النسائي : ليس بثقة ولا مأمون وقال الدار قطني ضعيف متروك .
والناس يشهدون ان هذه الآلات تصنع من حديد المعادن . فان قيل :
ان آدم عليه السلام نزل معه جميع الآلات فهذه مكابرة للبيان . وان
قيل بل نزل معه آلة واحدة وتلك لا تعرف فأى فائدة في هذا لسائر
الناس ؟! ثم ما يصنع بهذه الآلات اذا لم يكن ثم حديد موجود بطرق
هذه الآلات واذا خلق الله الحديد صنعت منه هذه الآلات مع ان

المأثور : « ان أول من خط وخط ادريس عليه السلام » وآدم عليه السلام لم يخط ثوبا فما يصنع بالابرة .

ثم اخبر انه انزل الحديد ، فكان المقصود الاكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد منه كالسيف والسنان والنصل وما اشبه ذلك الذي به ينصر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وهذ لم تنزل من السماء . فان قيل نزلت الآلة التي يطبع بها ، قيل فالله اخبر انه أنزل الحديد لهذه المعاني المتقدمة والآلة وحدها لا تكفي ، بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد ؛ لكن لفظ النزول أشكل على كثير من الناس حتى قال قطرب رحمه الله : معناه جعله نزلا ، كما يقال أنزل الأمر على فلان نزلا حسنا أي جعله نزلا . قال ومثله قوله تعالى : (وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج) وهذا ضعيف ؛ فان النزل انما يطلق على ما يؤكل لا على ما يقاتل به قال الله تعالى (فنزل من حميم) والضيافة سميت نزلا لأن العادة ان الضيف يكون راكباً فينزل في مكان يؤتى اليه بضيافته فيه فسميت نزلا لاجل نزوله ونزل بني فلان ضيف ؛ ولهذا قال نوح عليه السلام : (رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) لأنه كان راكباً في السفينة ، وسميت المواضع التي ينزل بها المسافرون منازل لأنهم يكونون ركبانا فينزلون والمشاة تبع للركبان وتسمى المساكن منازل .

وجعل بعضهم نزول الحديد بمعنى الخلق لانه أخرجه من المعادن وعامهم صنعه . فان الحديد انما يخلق فى المعادن . والمعادن انما تكون فى الجبال ، فالحديد ينزله الله من معادنه التى فى الجبال لينتفع به بنو آدم وقال تعالى : (وانزل لكم من الانعام ثمانية أزواج) .

وهذا مما اشكل أيضا . فمنهم من قال : جعل ، ومنهم من قال : خلق لكونها تخلق من الماء فان به يكون النبات الذي ينزل أصله من السماء وهو الماء . وقال قطرب : جعلناه نزلا . ولا حاجة الى اخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة ؛ فان الأنعام تنزل من بطون أمهاتها ومن أصلاب آبائها تأتى بطون أمهاتها ، ويقال للرجل : قد أنزل الماء . واذا أنزل وجب عليه الغسل ، مع ان الرجل غالب انزاله وهو على جنب اما وقت الجماع ، واما بالاحتلام ، فكيف بالأنعام التى غالب انزالها مع قيامها على رجليها وارتفاعها على ظهور الاناث ؟ !

ومما يبين هذا أنه لم يستعمل النزول فيما خلق من السفليات ، فلم يقل أنزل النبات ولا أنزل المرعى وانما استعمل فيما يخلق فى محل عال وأنزله الله من ذلك المحل كالحديد والأنعام .

وقال تعالى (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سواكم وربشاً) الآية وفيها قراءتان احداها بالنصب فيكون لباس التقوى أيضاً

منزلاً . واما على قراءة الرفع فلا ، وكلاهما حق . وقد قيل فيه خلقناه
وقيل أنزلنا أسبابه وقيل ألهمناهم كيفية صنعه ، وهذه الأقوال ضعيفة ؛
فان النبات الذي ذكروا لم يجيء فيه لفظ أنزلنا ، ولم يستعمل في كل
ما يصنع أنزلنا فلم يقل : أنزلنا الدور وأنزلنا الطبخ ونحو ذلك : وهو
لم يقل انا أنزلنا كل لباس ورياش ، وقد قيل : ان الريش
والرياش المراد به اللباس الفاخر كلاهما بمعنى واحد مثل اللبس
واللباس ، وقد قيل : هما المال والخشب والمعاش ، وارتاش فلان
حسنت حالته .

والصحيح ان « الريش » هو الاثاث والمتاع ، قال ابو عمر
والعرب تقول : اعطاني فلان ريشه أي كسوته وجهازه . وقال غيره :
الرياش في كلام العرب الاثاث وما ظهر من المتاع والثياب والفرش
ونحوها وبعض المفسرين أطلق عليه لفظ المال ، والمراد به مال مخصوص ،
قال ابن زيد : جمالا ؛ وهذا لأنه مأخوذ من ريش الطائر وهو ما يروش
به ويدفع عنه الحر والبرد وجمال الطائر ريشه ، وكذلك ما يبيت فيه
الانسان من الفرش وما يبسطه تحته ونحو ذلك ، والقرآن مقصوده جنس
اللباس الذي يلبس على البدن وفي البيوت كما قال تعالى (والله جعل لكم
من بيوتكم سكناً) الآية ، فامتن سبحانه عليهم بما ينتفعون به من الانعام
في اللباس والاثاث ، وهذا — والله أعلم — معنى انزاله ؛ فانه ينزله

من ظهور الانعام ، وهو كسوة الانعام من الأصواف والابواب والاشعار ،
وينتفع به بنو آدم من اللباس والرياش . فقد أنزلها عليهم ، وأكثر أهل
الأرض كسوتهم من جلود الدواب فهي لدفع الحر والبرد ، وأعظم مما
يصنع من القطن والكتان . والله تعالى ذكر في سورة النحل انعامه
على عباده ، فذكر في اول السورة أصول النعم التي لا يعيش بنو آدم
إلا بها . وذكر في أثنائها تمام النعم التي لا يطيب عيشهم إلا بها ،
فذكر في أولها الرزق الذي لا بد لهم منه ، وذكر ما يدفع البرد من
الكسوة بقوله : (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون)
ثم في اثناء السورة ذكر لهم المساكن والمنافع التي يسكنونها : مساكن
الحاضرة والبادية ومساكن المسافرين فقال تعالى : (والله جعل لكم
من بيوتكم سكناً) الآية ، ثم ذكر انعامه بالظلال التي تقيهم الحر
والبأس فقال : (والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من
الجبال اكثانا) ، الى قوله : (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسامون) .

ولم يذكر هنا ما بقي من البرد ، لأنه قد ذكره في أول السورة ،
وذلك في اصول النعم : لان البرد يقتل فلا يقدر أحد ان يعيش في
البلاد الباردة بلا دفء بخلاف الحر فإنه أذى ، لكنه لا يقتل كما يقتل
البرد . فان الحر قد يتقى بالظلال واللباس وغيرها : وأهله أيضاً لا يحتاجون
إلى وقاية كما يحتاج اليه البرد : بل أدنى وقاية تكفيهم وهم في الليل وطرفي

النهار لا يتأذون به تأذيا كثيرا؛ بل لا يحتاجون اليه احيانا حاجة قوية
فجمع بينهما في قوله (سراييل تقيمكم الحر وسراييل تقيمكم بأسكم) . ولا حذف
في اللفظ ولا قصور في المعنى كما يظنه من لم يحسن حقائق معاني القرآن:
بل لفظه أتم لفظ ، ومعناه اكمل المعاني ؛ فاذا كان اللباس والرياش ينزل
من ظهور الانعام ، وكسوة الانعام منزلة من الاصلاب والبطون كما تقدم
فهو منزل من الجهتين ، فانه على ظهور الانعام لا ينتفع به بنوا آدم
حتى ينزل .

فقد تبين انه ليس في القرآن ولا في السنة لفظ نزول إلا وفيه
معنى النزول المعروف وهذا هو اللائق بالقرآن ، فانه نزل بلغة العرب ولا
تعرف العرب نزولا إلا بهذا المعنى ولو أريد غير هذا المعنى لكان
خطابا بغير لغتها ، ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى في معنى آخر
بلا بيان ، وهذا لا يجوز بما ذكرنا ؛ وبهذا يحصل مقصود القرآن واللغة
الذي أخبر الله تعالى انه بينه وجعله هدى للناس ، وليكن هذا آخره ،
والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
وسلم تسليما كثيرا .

وسئل شيخ الإسلام

رحمه الله

عن قوله تعالى : (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فسماء هنا كلام الله . وقال في مكان آخر : (انه لقول رسول كريم) فما معنى ذلك ؟ فان طائفة ممن يقول بالعبارة يدعون ان هذا حجة لهم ، ثم يقولون : انتم تعتقدون ان موسى - صلوات الله عليه - سمع كلام الله عز وجل حقيقة من الله من غير واسطة ، وتقولون : ان الذي تسمعون كلام الله حقيقة . وتسمعون من وسائط باصوات مختلفة ، فما الفرق بين هذا وهذا ؟ وتقولون : إن القرآن صفة لله تعالى . وان صفات الله تعالى قديمة : فان قلتم ان هذا نفس كلام الله تعالى فقد قلتم بالحلول وانتم تكفرون بالحولية والاتحادية ، وان قلتم : غير ذلك قلتم بمقالتنا . ونحن نطلب منكم في ذلك جوابا نعتمد عليه ان شاء الله تعالى .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . هذه الآية حق كما ذكر الله ، وليست

احدى الآيتين معارضة للأخرى بوجه من الوجوه ، ولا فى واحدة منها حجة لقول باطل ، وان كان كل من الآيتين قد يحتج بها بعض الناس على قول باطل ، وذلك ان قوله : (وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله) فيه دلالة على انه يسمع كلام الله من التالى المبلغ ، وان ما يقرؤه المسلمون هو كلام الله ، كما فى حديث جابر فى السنن : « ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على الناس فى الموقف ويقول : الارجل يحملني إلى قومه لا يبلغ كلام ربي ؟ فان قريشا منعوني ان بلغ كلام ربي » وفى حديث ابى بكر الصديق رضى الله عنه انه لما خرج على المشركين فقرأ عليهم : (الم غلبت الروم فى ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفعلون) قالوا له هذا كلامك ام كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي ؛ ولكنه كلام الله .

وقد قال تعالى : (ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا محمداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع ان ازيد ، كالا انه كان لآياتنا عنيداً ، سارهقه صعوداً ، انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم ادبر واستكبر ، فقال : ان هذا الاسحر يؤثر ، ان هذا الاقول البشر » فمن قال : ان هذا القرآن قول البشر كان قوله مضاهياً لقول الوحيد الذي أصلاه الله سقر . ومن المعلوم لعامة العقلاء أن من بلغ كلام غيره كالمبلغ لقول

النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » إذا سمعه الناس من المبلغ قالوا : هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو قال المبلغ هذا كلامي وقولي لكذبه الناس لعلمهم بأن الكلام كلام لمن قاله مبتدئاً منشئاً : لا لمن أداه راوياً مبلغاً . فاذا كان مثل هذا معلوماً في تبليغ كلام المخلوق فكيف لا يعقل في تبليغ كلام الخالق الذي هو أولى ان لا يجعل كلاماً لغير الخالق جل وعلا ؟!.

وقد أخبر تعالى بأنه منزل منه فقال : (والذين آتيناكم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) وقال : (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) . فجبريل رسول الله من الملائكة جاء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من البشر ، والله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ، وكلاهما مبلغ له ، كما قال : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) وقال : (إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم ان قد أبلغوا رسالات ربهم) وهو مع هذا كلام الله ليس لجبريل ولا لمحمد فيه إلا التبليغ والأداء ، كما ان المعلمين له في هذا الزمان والتالين له في الصلاة أو خارج الصلاة ليس لهم فيه إلا ذلك لم يحدثوا شيئاً من حروفه ولا معانيه قال الله تعالى : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من

الشيطان الرجيم) الى قوله : (واذا بدلنا آية مكان آية — والله أعلم بما ينزل — قالوا : إنما أنت مفتر ؛ بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ، ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين) .

كان بعض المشركين يزعم ان النبي صلى الله عليه وسلم تعلمه من بعض الأعاجم الذين بمكة اما عبد ابن الحضرمي واما غيره ، كما ذكر ذلك المفسرون فقال تعالى : (لسان الذي يلحدون إليه — أي يضيفون اليه التعليم لسان — أعجمي وهذا لسان عربي مبين) فكيف يتصور ان يعلمه أعجمي وهذا الكلام عربي ؟ وقد أخبر انه نزله روح القدس من ربك بالحق ، فهذا يبان ان هذا القرآن العربي الذي تعلمه من غيره لم يكن هو المحدث لحروفه ونظمه ؛ إذ يمكن لو كان كذلك ان يكون تلقى من الأعجمي معانيه وألف هو حروفه ، ويبان ان هذا الذي تعلمه من غيره نزل به روح القدس من ربك بالحق يدل على ان القرآن جميعه منزل من الرب سبحانه وتعالى لم ينزل معناه دون حروفه .

ومن المعلوم أن من بلغ كلام غيره كمن بلغ كلام النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من الناس أو أنشد شعر غيره كما لو أنشد منشدا قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

أو قول عبد الله بن رواحة حيث قال :

شهدت بأن وعد الله حق وإن النار مثوى الكافرينا

وإن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

أو قوله :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع

بيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

وهذا الشعر قاله منشئه لفظه ومعناه . وهو كلامه لا كلام غيره
بحركته وصوته ومعناه القائم بنفسه ، ثم إذا أنشده المنشد وبلغه عنه
علم أنه شعر ذلك المنشيء وكلامه ونظمه وقوله ، مع أن هذا الثاني أنشده
بحركة نفسه وصوت نفسه ، وقام بقلبه من المعنى نظير ما قام بقلب
الأول وليس الصوت المسموع من المنشد هو الصوت المسموع من
المنشيء والشعر شعر المنشيء لا شعر المنشد — والمحدث عن النبي صلى

الله عليه وسلم اذا روى قوله : « إنما الأعمال بالنيات » بلغه بحركته وصوته ، مع ان النبي صلى الله عليه وسلم تكلم به بحركته وصوته ، وليس صوت المبلغ صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا حركته كحركته ، والكلام كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لا كلام المبلغ له عنه .

فاذا كان هذا معلوماً معقولاً فكيف لا يعقل ان يكون ما يقرأ القارئ اذا قرأ (الحمد لله رب العالمين : الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين) ان يقال هذا الكلام كلام الباري وان كان الصوت صوت القارئ . فمن ظن ان الأصوات المسموعة من القراء صوت الله فهو ضال مفتر مخالف لصريح المعقول وصحيح المنقول قائل قولاً لم يقله أحد من أئمة المسلمين ؛ بل قد أنكر الامام أحمد وغيره على من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق وبدعوه ، كما جهلوا من قال : لفظي بالقرآن مخلوق . وقالوا القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف ، فكيف من قال لفظي به قديم أو صوتي به قديم ؟ فابتدع هذا وضلاله أوضح . فمن قال ان لفظه بالقرآن غير مخلوق أو صوته أو فعله أو شيئاً من ذلك فهو ضال مبتدع .

وهؤلاء قد يحتجون بقوله (حتى يسمع كلام الله) ويقولون هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق فهذا غير مخلوق ، ونحن لا نسمع

إلا صوت القارئ : وهذا جهل منهم ، فإن سماع كلام الله ، بل وسماع كل كلام يكون تارة من المتكلم به بلا واسطة ، ويكون بواسطة الرسول المبلغ له قال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب . أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء)

ومن قال : ان الله كلمنا بالقرآن كما كلم موسى بن عمران ، أو انا نسمع كلامه كما سمعه موسى بن عمران فهو من أعظم الناس جهلاً وضلالاً . ولو قال قائل : انا نسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم كما سمعه الصحابة منه لكان ضلاله واضحاً ، فكيف من يقول انا أسمع كلام الله منه كما سمعه موسى؟! وان كان الله كلم موسى تكليماً بصوت سمعه موسى فليس صوت المخلوقين صوتاً للخالق . وكذلك مناداته لعباده بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، وتكلمه بالوحي حتى يسمع أهل السموات والارض صوته كجر السلسلة على الصفا ، وامثال ذلك مما جاءت به النصوص والآثار كلها ليس فيها ان صفة المخلوق هي صفة الخالق ؛ بل ولامثلاً بل فيها الدلالة على الفرق بين صفة الخالق وبين صفة المخلوق فليس كلامه مثل كلامه ، ولا معناه مثل معناه ، ولا حرفه مثل حرفه ، ولا صوته مثل صوته ، كما انه ليس عامه مثل عامه ، ولا قدرته مثل قدرته ، ولا سمعه مثل سمعه ، ولا بصره مثل بصره ، فان الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

ولما استقر في فطر الخلق كلهم الفرق بين سماع الكلام من المتكلم به ابتداء وبين سماعه من المبلغ عنه كان ظهور هذا الفرق في سماع كلام الله من المبلغين عنه اوضح من ان يحتاج الى الاطنباب . وقد بين أئمة السنة والعلم — كالامام احمد والبخاري صاحب الصحيح في كتابه في خلق الافعال وغيرها من أئمة السنة — من الفرق بين صوت الله المسموع منه وصوت العباد بالقرآن وغيره مالا يخالفهم فيه أحد من العلماء اهل العقل والدين .

فصل

واما قوله تعالى (انه لقول رسول كريم) فهذا قد ذكره في موضعين . فقال في الحاقة (انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم وقال في التكويد : (انه لقول رسول كريم ، ذي قوة ، عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم امين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالافق المبين) فالرسول هنا جبريل فأضافه الى الرسول من البشر تارة ، والى الرسول من الملائكة تارة ، باسم الرسول ، ولم يقل : انه لقول ملك ولا نبي ، لان لفظ الرسول يبين انه مبلغ

عن غيره لا منشيء له من عنده (وما على الرسول الا البلاغ المبين)
فكان قوله : (انه لقول رسول كريم) بمنزلة قوله لتبليغ رسول ، او
مبلغ من رسول كريم . او جاء به رسول كريم ، او مسموع عن رسول
كريم ؛ وليس معناه انه انشاء او أحدثه او أنشأ شيئاً منه او أحدثه
رسول كريم إذ لو كان منشئاً لم يكن رسولا فيما أنشاء وابتدأه وإنما
يكون رسولا فيما بلغه وأداه ، ومعلوم أن الضمير عائد الى القرآن مطلقاً .

و (أيضاً) فلو كان احد الرسولين أنشأ حروفه ونظمه امتنع
ان يكون الرسول الآخر هو المنشيء المؤلف لها ، فبطل ان تكون
إضافته الى الرسول لاجل احداث لفظه ونظمه . ولو جاز ان تكون
الإضافة هنا لاجل احداث الرسول له أو لشيء منه لجاز ان نقول انه
قول البشر ، وهذا قول الوحيد الذي أصلاه الله سقر .

فان قال قائل : فالوحيد جعل الجميع قول البشر . ونحن نقول إن
الكلام العربي قول البشر ، وأما معناه فهو كلام الله .

فيقال لهم : هذا نصف قول الوحيد ، ثم هذا باطل من
وجه آخرى .

وهو ان معاني هذا النظم معان متعددة متنوعة ، وأنتم تجعلون

ذلك المعنى معنى واحداً هو الامر والهي والخبر والاستخبار . وتجعلون ذلك المعنى إذا عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإذا عبر عنه بالعبرانية كان تورا ، وإذا عبر عنه بالسريانية كان انجيلا ، وهذا مما يعم بطلانه بالضرورة من العقل والدين ؛ فان التوراة إذا عربناها لم يكن معناها معنى القرآن ، والقرآن إذا ترجمناه بالعبرانية لم يكن معناه معنى التوراة .

و (ايضاً) فان معنى آية الكرسي ليس هو معنى آية الدين ، وإنما يشتركان في مسمى الكلام ، ومسمى كلام الله ، كما تشترك الاعيان في مسمى النوع ، فهذا الكلام وهذا الكلام وهذا الكلام كله يشترك في انه كلام الله اشتراك الاشخاص في أنواعها ، كما ان الانسان وهذا الانسان وهذا الانسان يشتركون في مسمى الانسان وليس في الخارج شخص بعينه هو هذا وهذا وهذا ، وكذلك ليس في الخارج كلام واحد هو معنى التوراة والانجيل والقرآن وهو معنى آية الدين وآية الكرسي .

ومن خالف هذا كان في مخالفته لصريح المعقول من جنس من قال : إن اصوات العباد وفعالهم قديمة أزلية . فاضرب بكلام البدعتين رأس قائلها ، والزم الصراط المستقيم : صراط الذين انعم الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين .

وبسبب هاتين البدعتين المحقواين تارت الفتن وعظمت الاحن ،
وإن كان كل من أصحاب القولين قد يفسرونها بما قد يلتبس على كثير
من الناس كما فسر من قال : ان الصوت المسموع من العبد أو بعضه
قديم : أن القديم ظهر في المحدث من غير حلول فيه .

وأما « أفعال العباد » فرأيت بعض المتأخرين يزعم انها قديمة خيرها
وشرها ، وفسر ذلك بان الشرع قديم والقدر قديم ، وهي مشروعة مقدرة
ولم يفرق بين الشرع الذي هو كلام الله والمشروع الذي هو المأمور
به والمنهى عنه ، ولم يفرق بين القدر الذي هو علم الله وكلامه وبين
المقدور الذي هو مخلوقاته . والعقلاء كلهم يعلمون بالاضطرار ان الأمر
والخبر نوعان للكلام لفظه ومعناه ، ليس الأمر والخبر صفات لموصوف
واحد - فمن جعل الأمر والنهي والخبر صفات للكلام لا أنواعاً له فقد
خالف ضرورة العقل ؛ وهؤلاء في هذا بمنزلة من زعم ان الوجود واحد ؛
إذ لم يفرق بين الواحد بالتنوع والواحد بالعين ؛ فان انقسام « الموجود »
الى القديم . والمحدث ، والواجب والممكن ، والخالق والمخلوق ، والقائم بنفسه
والقائم بغيره ، كانقسام « الكلام » إلى الأمر والخبر ، او إلى الانشاء
والاخبار ، او إلى الأمر والنهي والخبر - فمن قال الكلام معنى واحد
هو الأمر والخبر فهو كمن قال الوجود واحد هو الخالق والمخلوق ، أو
الواجب والممكن . وكما ان حقيقة هذا تؤل إلى تعطيل الخالق فحقيقة

هذا تؤل إلى تعطيل كلامه وتكليمه .

وهذا حقيقة قول فرعون الذي انكر الخالق وتكليمه لموسى ؛ ولهذا آل الامر بمحقق هؤلاء الى تعظيم فرعون وتوليه وتصديقه في قوله : (أنا ربكم الأعلى) بل إلى تعظيمه على موسى وإلى الاستحقاق بتكليم الله لموسى كما قد بسط في غير هذا الموضع .

(وأيضاً) فيقال : ما تقول في كلام كل متكلم إذا نقله عنه غيره — كما قد ينقل كلام النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والعلماء والشعراء وغيرهم ويسمع من الرواة أو المبلغين — إن ذلك المسموع من المبلغ بصوت المبلغ هو كلام المبلغ أو كلام المبلغ عنه ؟ فان قال : كلام المبلغ لزم ان يكون القرآن كلاماً لكل من سمع منه فيكون القرآن المسموع كلام الف الف قارئ لا كلام الله تعالى ، وان يكون قوله : « إنما الأعمال بالنيات » ونظائره كلام كل من رواه لا كلام الرسول وحينئذ فلا فضيلة للقرآن في (إنه لقول رسول كريم) فانه على قول هؤلاء قول كل منافق قراء ، والقرآن بقرؤه المؤمن والمنافق كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ربح لها ؛ ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن

مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها « وعلى هذا التقدير فلا يكون القرآن قول بشر واحد بل قول ألف ألف بشر وأكثر من ذلك .
وفساد هذا في العقل والدين واضح .

وان قال : كلام المبلغ عنه علم ان الرسول المبلغ للقرآن ليس القرآن كلامه ولكنه كلام الله ؛ ولكن لما كان الرسول الملك قد يقال إنه شيطان بين الله انه تبليغ ملك كريم ؛ لا تبليغ شيطان رجيم ؛ ولهذا قال : (انه لقول رسول كريم ، ذي قوة . عند ذي العرش مكين) الى قوله : (وما هو بقول شيطان رجيم) . وبين في هذه الآية ان الرسول البشري الذي صحبناه وسمعناه منه ليس بمجنون . وما هو على الغيب بمتهم . وذكره باسم « صاحب » لما في ذلك من النعمة به علينا اذ كنا لا نطبق ان نتلقى إلا عن صحبناه وكان من جنسنا ، كما قال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) وقال (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا . وللبسنا عليهم ما يلبسون) كما قال في الآية الأخرى : (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى) وبين ان الرسول الذي من أنفسنا والرسول الملكي أنها مبلغان فكان في هذا تحقيق أنه كلام الله .

فلما كان الرسول البشري يقال : انه مجنون أو مفتر زهه عن هذا وهذا ، وكذلك في السورة الأخرى قال : (انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا

ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين) وهذا مما يبين أنه أضافه إليه لأنه بلغه وأدام لا لأنه أحدثه وأنشأه ، فانه قال : (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين) فجمع بين قوله : (انه لقول رسول كريم) وبين قوله : (وانه لتنزيل رب العالمين) والضميران عائدان الى واحد ، فلو كان الرسول أحدثه وأنشأه لم يكن تنزيلا من رب العالمين ؛ بل كان يكون تنزيلا من الرسول . ومن جعل الضمير في هذا عائدا إلى غير ما يعود اليه الضمير الآخر مع انه ليس في الكلام ما يقتضى اختلاف الضميرين ، ومن قال ان هذا عبارة عن كلام الله - فقل له : هذا الذي تقرأه أهو عبارة عن العبارة التي أحدثها الرسول الملك او البشر على زعمك ؟ أم هو نفس تلك العبارة ؟ فان جعلت هذا عبارة عن تلك العبارة جاز ان تكون عبارة جبريل او الرسول عبارة عن عبارة الله ، وحينئذ فيبقى النزاع لفظياً ؛ فانه متى قال ان محمدا سمعه من جبريل جميعه ، وجبريل سمعه من الله جميعه ، والمسلمون سمعوه من الرسول جميعه ، فقد قال الحق - وبعد هذا فقوله عبارة لأجل التفريق بين التبليغ والبلغ عنه كما سنبينه .

وان قلت : ليس هذا عبارة عن تلك العبارة ، بل هو نفس تلك العبارة فقد جعلت ما يسمع من المبلغ هو بعينه ما يسمع من المبلغ

عنه . إذ جعلت هذه العبارة هي بعينها عبارة جبريل فحينئذ هذا يبطل أصل قولك .

واعلم ان أصل القول بالعبارة « ان أبا محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب » هو أول من قال في الاسلام : ان معنى القرآن كلام الله . وحروفه ليست كلام الله ، فأخذ بنصف قول المعتزلة ونصف قول أهل السنة والجماعة . وكان قد ذهب إلى اثبات الصفات لله تعالى ، وخالف المعتزلة في ذلك ، وأثبت العلو لله على العرش ومباينته المخلوقات ، وقرر ذلك تقريراً هو أكمل من تقرير أتباعه بعده . وكان الناس قد تكلموا فيمن بلغ كلام غيره هل يقال له حكاية عنه أم لا ؟ وأكثر المعتزلة قالوا : هو حكاية عنه ، فقال ابن كلاب : القرآن العربي حكاية عن كلام الله : ليس بكلام الله .

فجاء بعده « أبو الحسن الأشعري » فسلك مسلكه في اثبات أكثر الصفات ، وفي مسألة القرآن أيضاً ، واستدرك عليه قوله ان هذا حكاية ، وقال : الحكاية إنما تكون مثل المحكي فهذا يناسب قول المعتزلة : وإنما يناسب قولنا أن نقول هو عبارة عن كلام الله ؛ لأن الكلام ليس من جنس العبارة : فانكر أهل السنة والجماعة عليهم عدة أمور .

(أحدها) قولهم : ان المعنى كلام الله وإن القرآن العربي ليس كلام الله ، وكانت المعتزلة تقول : هو كلام الله وهو مخلوق ، فقال : هؤلاء هو مخلوق وليس بكلام الله : لأن من أصول أهل السنة ان الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل ، فاذا قام الكلام بمحل كان هو المتكلم به كما ان العلم والقدرة اذا قاما بمحل كان هو العالم القادر وكذلك « الحركة » . وهذا مما احتجوا به على المعتزلة وغيرهم من الجهمية في قولهم : إن كلام الله مخلوق خلقه في بعض الأجسام — قالوا لهم لو كان كذلك لكان الكلام كلام ذلك الجسم الذي خلقه فيه فكانت الشجرة هي القائلة : (اني أنا الله رب العالمين) فقال أئمة الكلاية إذا كان القرآن العربي مخلوقاً لم يكن كلام الله ، فقال طائفة من متأخريهم : بل نقول الكلام مقول بالاشتراك بين المعنى المجرد وبين الحروف المنظومة ، فقال لهم المحققون : فهذا يبطل أصل حجتكم على المعتزلة ؛ فانكم إذا سلمتم أن ما هو كلام الله حقيقة لا يمكن قيامه به بل بغيره أمكن المعتزلة ان يقولوا ليس كلامه الا ما خلقه في غيره .

(الثانى) قولهم : ان ذلك المعنى هو الأمر والنهي والخبر ، وهو معنى التوراة . والإنجيل والقرآن ، وقال أكثر العقلاء : هذا الذى قالوه معلوم الفساد بضرورة العقل .

(الثالث) ان ما نزل به جبريل من المعنى واللفظ وما بلغه محمد لأئمة من المعنى واللفظ ليس هو كلام الله .

و « مسألة القرآن » لها طرفان (أحدهما) تكلم الله به وهو أعظم الطرفين (والثاني) تنزيله الى خلقه والكلام في هذا سهل بعد تحقيق الأول . وقد بسطنا الكلام في ذلك في عدة مواضع ، وبيننا مقالات أهل الأرض كلهم في هذه المسائل ، وما دخل في ذلك من الاشتباه ، ومأخذ كل طائفة ، ومعنى قول السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأنهم قصدوا به ابطال قول من يقول : ان الله لم يقم بذاته كلام ؛ ولهذا قال الأئمة كلام الله من الله ليس بباطن عنه ، وذكرنا اختلاف المنتسبين الى السنة هل يتعلق الكلام بمشيئته وقدرته ام لا ؟ وقول من قال من أئمة السنة لم يزل الله متكلماً إذا شاء ، وأن قول السلف منه بدأ لم يريدوا به انه فارق ذاته وحل في غيره ؛ فان كلام المخلوق ، بل وسائر صفاته لا تفارقه وتنتقل إلى غيره فكيف يجوز أن يفارق ذات الله كلامه أو غيره من صفاته ؟ ! بل قالوا : منه بدأ . أي : هو المتكلم به رداً على المعتزلة والجهمية وغيرهم الذين قالوا بدأ من المخلوق الذي خلق فيه . وقولهم : اليه يعود . أي : يسرى عليه فلا يبقى في المصاحف منه حرف ولا في الصدور منه آية .

والمقصود هنا الجواب عن مسائل السائل .

فصل

وأما قول القائل : أتم تعتقدون ان موسى سمع كلام الله منه حقيقة من غير واسطة ، وتقولون ان الذي تسمعون كلام الله حقيقة وتسمعون منه وسائط بأصوات مختلفة فما الفرق بين ذلك ؟

فيقال له بين هذا وهذا من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق . فان كل عاقل يفرق بين سماع كلام النبي صلى الله عليه وسلم منه بغير واسطة — كسماع الصحابة منه — وبين سماعه منه بواسطة المبلغين عنه كأبي هريرة وأبي سعيد وابن عمر وابن عباس . وكل من السامعين سمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة ، وكذلك من سمع شعر حسان بن ثابت أو عبد الله بن رواحة أو غيرها من الشعراء منه بلا واسطة ومن سمعه من الرواة عنه يعلم الفرق بين هذا وهذا ، وهو في الموضعين شعر حسان لا شعر غيره ، والانسان إذا تعلم شعر غيره فهو يعلم ان ذلك الشاعر انشأ معانيه ونظم حروفه بأصواته المقطعة وان كان المبلغ يرويّه بحركة نفسه وأصوات نفسه .

فاذا كان هذا الفرق معقولا في كلام المخلوقين بين سماع الكلام من المتكلم به ابتداء وسماعه بواسطة الراوي عنه أو المبلغ عنه فكيف لا يعقل ذلك في سماع كلام الله ؟ وقد تقدم أن من ظن أن المسموع من القراء هو صوت الرب فهو الى تأديب المجانين أقرب منه الى خطاب العقلاء ، وكذلك من توهم أن الصوت قديم أو ان المداد قديم فهذا لا يقوله ذو حس سليم ؛ بل ما بين لוחي المصحف كلام الله ، وكلام الله ثابت في مصاحف المسلمين لا كلام غيره ، فمن قال : ان الذي في المصحف ليس كلام الله بل كلام غيره فهو ملحد مارق .

ومن زعم ان كلام الله فارق ذاته وانتقل الى غيره كما كتب في المصاحف أو أن المداد قديم أزلي فهو أيضاً ملحد مارق ؛ بل كلام المخلوقين يكتب في الأوراق وهو لم يفارق ذواتهم ، فكيف لا يعقل مثل هذا في كلام الله تعالى ؟ !

و « الشبهة » تنشأ في مثل هذا من جهة ان بعض الناس لا يفرق بين المطلق من الكلام والمقيد . مثال ذلك ان الانسان يقول رأيت الشمس والقمر والهلال اذا رآه بغير واسطة « وهذه الرؤية المطلقة » وقد يراه في ماء أو مرآة فهذه « رؤية مقيدة » فاذا اطلق قوله رأيت أو ما رأيت حمل على مفهوم اللفظ المطلق ، واذا قال : لقد رأيت الشمس في الماء والمرآة فهو كلام صحيح مع التقييد ، واللفظ يختلف معناه بالاطلاق

والتقييد ، فاذا وصل بالكلام ما يغير معناه كالشرط والاستثناء ونحوهما من التخصيصات المتصلة كقوله : (ألف سنة الا خمسين عاما) كان هذا المجموع دالا على تسعمائة وخمسين سنة بطريق الحقيقة عند جماهير الناس .

ومن قال ان هذا مجاز فقد غلط ؛ فان هذا المجموع لم يستعمل في غير موضعه وما يقترب باللفظ من القرآن اللفظية الموضوعة هي من تمام الكلام ؛ ولهذا لا يحتمل الكلام معها معنيين ولا يجوز نفي مفهومها بخلاف استعمال لفظ الاسد في الرجل الشجاع مع ان قول القائل : هذا اللفظ حقيقة ، وهذا مجاز نزاع لفظي ، وهو مستند من انكر المجاز في اللغة أو في القرآن ، ولم ينطق بهذا أحد من السلف والأئمة ، ولم يعرف لفظ المجاز في كلام أحد من الأئمة إلا في كلام الامام أحمد فانه قال فيما كتبه من « الرد على الزنادقة والجهمية » هذا من مجاز القرآن . وأول من قال ذلك مطلقاً ابو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه الذي صنفه في « مجاز القرآن » ثم ان هذا كان معناه عند الأولين مما يجوز في اللغة وبسوغ فهو مشتق عندهم من الجواز كما يقول الفقهاء عقد لازم وجاز . وكثير من المتأخرين جعله من الجواز الذي هو العبور من معنى الحقيقة إلى معنى المجاز ، ثم انه لا ريب ان المجاز قد يشيع ويشتهر حتى يصير حقيقة .

والمقصود أن القائل إذا قال : رأيت الشمس أو القمر أو الهلال أو غير ذلك في الماء والمرآة فالحقلاء متفقون على الفرق بين هذه الرؤية وبين رؤية ذلك بلا واسطة ، وإذا قال قائل : ما رأى ذلك ؛ بل رأى مثاله أو خياله أو رأى الشعاع المنعكس أو نحو ذلك لم يكن هذا مانعاً لما يعلمه الناس ويقولونه من أنه رآه في الماء أو المرآة ، وهذه الرؤية في الماء أو المرآة حقيقة مقيدة ، وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من رآني في المنام فقد رآني حقاً فان الشيطان لا يتمثل في صورتني » هو كما قال صلى الله عليه وسلم رآه في المنام حقاً ، فمن قال : ما رآه في المنام حقاً فقد أخطأ ، ومن قال : ان رؤيته في اليقظة بلا واسطة كالرؤية بالواسطة المقيدة بالنوم فقد أخطأ ؛ ولهذا يكون لهذه تأويل وتعبير دون تلك .

وكذلك ما سمعه منه من الكلام في المنام هو سماع منه في المنام وليس هذا كالسمع منه في اليقظة وقد يرى الرائي في المنام أشخاصاً ويخاطبونه والمرئيون لا شعور لهم بذلك وإنما رأى مثاهم ، ولكن يقال : رآهم في المنام حقيقة ، فيحترز بذلك عن الرؤيا التي هي حديث النفس .

فان « الرؤيا ثلاثة أقسام » رؤيا بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه في اليقظة فيراه في المنام . وقد ثبت هذا التقسيم في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛

ولكن الرؤيا يظهر لكل احد من الفرق بينها وبين اليقظة مالا يظهر في غيرها ، فكما ان الرؤية تكون مطلقة وتكون مقيدة بواسطة المرآة والماء أو غير ذلك ، حتى ان المرئي يختلف باختلاف المرآة ، فاذا كانت كبيرة مستديرة رأى كذلك وان كانت صغيرة أو مستطيلة رأى كذلك ، فكذلك في « السماع » يفرق بين من سمع كلام غيره منه ومن سمعه بواسطة المبلغ ، ففي الموضوع المقصود سماع كلامه ، كما ان هناك في الموضوعين يقصد رؤية نفس النبي ؛ لكن اذا كان بواسطة اختلاف المرايا — قال تعالى : (وما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء) .

فجعل « التكليم ثلاثة انواع » الوحي المجرد ، والتكليم من وراء حجاب كما كلم موسى عليه السلام ، والتكليم بواسطة ارسال الرسول كما كلم الرسل بارسال الملائكة ، وكما نبأنا الله من أخبار المنافقين بارسال محمد صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون متفقون على ان الله امرهم بما امرهم به في القرآن ونهاهم عما نهاهم عنه في القرآن ، وأخبرهم بما أخبرهم به في القرآن فامره ونهيته واخباره بواسطة الرسول . فهذا تكليم مقيد بالارسال ، وسماعنا لكلامه سماع مقيد بسماعه من المبلغ لا منه . وهذا القرآن كلام الله مبلغاً عنه مؤدا عنه ، وموسى سمع كلامه مسموعاً منه لا مبلغاً

عنه ولا مؤدا عنه ، وإذا عرف هذا المعنى زاحت الشبهة .

والنبي صلى الله عليه وسلم يروى عن ربه : « ويخبر عن ربه » ،
ويحكي عن ربه ، فهذا يذكر ما يذكره عن ربه من كلامه الذي قاله
راويا حاكياً عنه . فلو قال من قال : إن القرآن « حكاية » : إن محمداً
حكاه عن الله كما يقال بلغه عن الله وأداه عن الله لكان قد قصد معنى
صحيحاً ؛ لكن يقصدون — ما يقصده القائل بقوله فلانا يحكي فلانا أي
يفعل مثل فعله وهو — انه يتكلم بمثل كلام الله فهذا باطل قال الله
تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن
لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

ونكتة الأمر أن العبرة بالحقيقة المقصودة لا بالوسائل المطلوبة لغيرها .
فلما كان مقصود الراي ان يرى الوجه مثلاً فرآه في المرآة حصل مقصوده
وقال رأيت الوجه ، وإن كان ذلك بواسطة انعكاس الشعاع في المرآة —
وكذلك من كان مقصوده ان يسمع القول الذي قاله غيره الذي ألف
الفاظه وقصد معانيه ، فإذا سمعه منه أو من غيره حصل هذا المقصود ،
وإن كان سماعه من غيره هو بواسطة صوت ذلك الغير الذي يختلف
 باختلاف الصائتين . والقلوب إنما تشير إلى المقصود لا إلى ما ظهر به
المقصود ، كما في « الاسم والمسمى » فإن القائل إذا قال جاء زيد
وذهب عمرو لم يكن مقصوده إلا الاخبار بالجيء عن « المسمى »

ولكن بذكر الاسم أظهر ذلك .

فمن ظن أن الموصوف بالحيء والانيان هو لفظ زيد أو لفظ عمرو كان مبطلا . فكذلك إذا قال القائل : هذا كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق . فالمقصود هنا الكلام نفسه من حيث هو هو . وإن كان إنما ظهر وسمع بواسطة حركة التالي وصوته ، فمن ظن أن المشار إليه هو صوت القارئ وحركته كان مبطلا ؛ ولهذا لما قرأ أبو طالب المكي على الامام أحمد رضى الله عنه : (قل هو الله أحد) وسأله هل هذا كلام الله ، وهل هو مخلوق ؟ فاجابه بأنه كلام الله وانه غير مخلوق ، فنقل عنه أبو طالب — خطأ منه — أنه قال لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فاستدعاه وغضب عليه وقال انا قلت لك : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ قال : لا ، ولكن قرأت عليك : (قل : هو الله أحد) وقلت لك : هذا غير مخلوق ، فقلت : نعم ، قال فلم تحك عنى ما لم أقل ؟ لا تقل هذا ؛ فان هذا لم يقله عالم — وقصته مشهورة حكايها عبد الله وصالح وحنبل والمروذي وفوران وبسطها الخلال في « كتاب السنة » وصنف المروذي في « مسألة اللفظ » مصنفاً ذكر فيه أقوال الأئمة .

وهذا الذي ذكره أحمد من أحسن الكلام وأدقه ؛ فان الإشارة اذا أطلقت انصرفت الى المقصود وهو كلام الله الذي تكلم به ؛ لا الى

ما وصل به إلينا من أفعال العباد واصواتهم . فاذا قيل : لفظي جعل
نفس الوسائط غير مخلوقة وهذا باطل ، كما ان من رأى وجهاً ، في
مرآة فقال اكرم الله هذا الوجه وحياء ، او قبحه ، كان دعاؤه على
الوجه الموجود في الحقيقة الذي رأى بواسطة المرآة لا على الشعاع
المنعكس فيها ، وكذلك اذا رأى القمر في الماء فقال : قد أبدر أو لم
يبدر فأنما مقصوده القمر الذي في السماء لا خياله ، وكذلك من سمعه
يذكر رجلاً فقال هذا رجل صالح أو رجل فاسق علم ان المشار اليه
هو الشخص المسمى بالاسم ؛ لا نفس الصوت المسموع من الناطق .
— فلو قال : هذا الصوت أو صوتي بفلان صالح أو فاسق فسد
المعنى ، وكان بعضهم يقول : لفظي بالقرآن مخلوق فرأى في منامه وضارب
يضربه وعليه فروة فأوجعه بالضرب ، فقال له : لا تضربني ، فقال :
انا ما أضربك ، وأنما اضرب الفروة ، فقال : انما يقع الضرب علي ،
فقال هكذا اذا قلت : لفظي بالقرآن مخلوق ، فالخلق انما يقع على القرآن .
يقول : كما ان المقصود بالضرب بدنك واللباس واسطة فهكذا المقصود
بالتلاوة كلام الله وصوتك واسطة ، فاذا قلت : مخلوق وقع ذلك على
المقصود ، كما اذا سمعت قائلاً يذكر رجلاً فقلت : انا أحب هذا وأنا
أبغض هذا انصرف الكلام إلى المسمى المقصود بالاسم لا إلى صوت
الذاكر ؛ ولهذا قال الأئمة : القرآن كلام الله غير مخلوق كيفما

تصرف ؛ بخلاف افعال العباد واصواتهم ؛ فانه من نفي عنها الخلق كان مبتدعا ضالا .

فصل

واما قول القائل : تقولون ان القرآن صفة الله وان صفات الله غير مخلوقة ، فان قلتم ان هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول وأتم تكفرون الحلولية والاتحادية ، وان قلتم غير ذلك قلتم بمقالتنا .

فمن تبين له ما نهينا عليه سهل عليه الجواب عن هذا وأمثاله ، فان منشأ الشبهة ان قول القائل : هذا كلام الله يجعل أحكامه واحدة ، سواء كان كلامه مسموعا منه أو كلامه مبلغاً عنه .

ومن هنا تختلف طوائف من الناس .

« طائفة » قالت هذا كلام الله وهذا حروف واصوات مخلوقة فكلام الله مخلوق .

و « طائفة » قالت هذا مخلوق وكلام الله ليس بمخلوق فهذا ليس كلام الله .

و « طائفة » قالت هذا كلام الله وكلام الله ليس بمخلوق وهذا الفاظنا وتلاوتنا ؛ فالفاظنا وتلاوتنا غير مخلوقة .

ومنشأ ضلال الجميع من عدم الفرق في المشار اليه في هذا .
فأنت تقول هذا الكلام الذي تسمعه من قائله صدق وحق
وصواب : وهو كلام حكيم ، وكذلك إذا سمعته من ناقله
تقول هذا الكلام صدق وحق وصواب وهو كلام حكيم ، فالمشار اليه
في الموضعين واحد ، وتقول أيضاً : ان هذا صوت حسن ، وهذا كلام
من وسط القلب ثم إذا سمعته من الناقل تقول : هذا صوت حسن ،
او كلام من وسط القلب فالمشار اليه هنا ليس هو المشار اليه هناك ، بل اشار
الى ما يختص به هذا من صوته وقلبه ، والى ما يختص به هذا من صوته وقلبه ،
واذا كتب الكلام في صفحتين كالمصحفين تقول في كل منها هذا قرآن كريم ،
وهذا كتاب مجيد ، وهذا كلام الله فالمشار اليه واحد ، ثم تقول هذا خط حسن
وهذا قلم النسخ او الثلث ، وهذا الخط أحمر أو أصفر والمشار اليه هنا
ما يختص به كل من المصحفين عن الآخر .

فاذا ميز الانسان في المشار اليه بهذا وهذا تبين المتفق والمفترق ،
وعلم ان من قال هذا القرآن كلام الله وكلام الله غير مخلوق ان المشار اليه
الكلام من حيث هو مع قطع النظر عما به وصل الينا من حركات
العباد وأصواتهم ، ومن قال : هذا مخلوق وأشار به الى مجرد صوت
العبد وحركته لم يكن له في هذا حجة على ان القرآن نفسه حروفه
يعانيه الذي تعلم هذا القارئ من غيره وبلغه بحركته وصوته مخلوق ،
نعتقد ذلك فقد اخطأ وضل .

ويقال لهذا : هذا الكلام الذي اشرت اليه كان موجوداً قبل ان يخلق هذا القارىء فهب ان القارىء لم تخلق نفسه ولا وجدت لا افعاله ولا أصواته فمن اين يلزم ان يكون الكلام نفسه الذي كان موجوداً قبله بعدم بعده ويحدث بحدوثه ؟ فاشارته بالخلق ان كانت الى ما يختص به هذا القارىء من افعاله وأصواته فالقرآن غني عن هذا القارىء وموجود قبله فلا يلزم من عدم هذا عدمه ، وان كانت الى الكلام الذي يتعلمه الناس بعضهم من بعض فهذا هو الكلام المنزل من الله الذي جاء به جبريل الى محمد ، وبلغه محمد لأمته ، وهو كلام الله الذي تكلم به فذاك يتمتع ان يكون مخلوقاً ، فانه لو كان مخلوقاً لكان كلاماً لمخلقه الذي خلق فيه ولم يكن كلاماً لله ، ولأنه لو كان سبحانه إذا خلق كلاماً كان كلامه كان ما أنطق به كل ناطق كلامه مثل تسبيح الجبال والحصى وشهادة الجلود ، بل كل كلام في الوجود وهذا قول الحلوية الذين يقولون :

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

ومن قال : القرآن مخلوق فهو بين أمرين — اما ان يجعل كل كلام في الوجود كلامه ، وبين ان يجعله غير متكلم بشيء أصلاً ، فيجعل العباد المتكلمين اكمل منه ، وشبهه بالأصنام والجمادات والموات : كالعجل الذي لا يكلمهم ولا يهديهم سيلاً ، فيكون قد فرعن اثبات

صفات الكمال له حذراً في زعمه من التشبيه فوصفه بالنقص وشبهه
بالجامد والموات .

وكذلك قول القائل : هذا نفس كلام الله ، وعين كلام الله ،
وهذا الذي في المصحف هو عين كلام الله ، ونفس كلام الله ، وأمثال
هذه العبارات . هذه مفهومها عند الاطلاق في فطر المسلمين أنه كلامه
لا كلام غيره ، وانه لا زيادة فيه ولا نقصان ؛ فان من ينقل كلام
غيره ويكتبه في كتاب قد يزيد فيه وينقص كما جرت عادة الناس في
كثير من مكاتبات الملوك وغيرها — فاذا جاء كتاب السلطان فقليل :
هذا الذي فيه كلام السلطان بعينه بلا زيادة ولا نقص : يعني لم يزد
فيه الكاتب ولا نقص . وكذلك من نقل كلام بعض الأئمة في مسألة
من تصنيفه قيل : هذا الكلام كلام فلان بعينه : يعني لم يزد فيه ولم
ينقص كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرأ سمع منا حديثاً
فبلغه كما سمعه » .

فقوله فبلغه كما سمعه لم يرد به انه يبلغه بحركاته وأصواته التي سمعه
بها ، ولكن أراد انه يأتي بالحديث على وجهه لا يزيد فيه ولا ينقص ،
فيكون قد بلغه كما سمعه . فالمستمع له من المبلغ يسمعه كما قاله صلى الله
عليه وسلم ، ويكون قد سمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم
كما قاله . وذلك معنى قولهم هذا كلامه بعينه وهذا نفس كلامه ،

لا يريدون أن هذا هو صوته وحركاته . وهذا لا يقوله عاقل ولا
يخطر ببال عاقل ابتداء ، ولكن اتباع الظن وما تهوى الأنفس بلبجيء
أصحابه الى « القرمطة » في السمعيات ، و « السفسطة » في العقليات .

ولو ترك الناس على فطرتهم لكانت صحيحة سليمة فاذا رأى الناس
كلاماً صحيحاً ، فإن من تكلم بكلام وسمع منه ونقل عنه أو كتبه في
كتاب لا يقول عاقل ان نفس ما قام بملئكم من المعاني التي في قلبه
والألفاظ القائمة بلسانه فارقت وانتقلت عنه الى المستمع والمبلغ عنه ، ولا
فارقت وحلت في الورق ؛ بل ولا يقول ان نفس ما قام به من المعاني
والألفاظ هو نفس المداد الذي في الورق ؛ بل ولا يقول ان نفس
ألفاظه التي هي أصواته هي أصوات المبلغ عنه ، فهذه الأمور كلها ظاهرة
لا يقولها عاقل في كلام المخلوق إذا سمع وبلغ أو كتب في كتاب ،
فكيف يقال ذلك في كلام الله الذي سمع منه وبلغ عنه أو كتبه سبحانه
كما كتب التوراة لموسى ، وكما كتب القرآن في اللوح المحفوظ ، وكما كتبه
المسلمون في مصاحفهم .

واذا كان من سمع كلام مخلوق فبلغه عنه بلفظه ومعناه ؛ بل شعر
مخلوق كما يبلغ شعر حسان وابن رواحة وليد وأمثالهم من الشعراء ،
ويقول الناس : هذا شعر حسان بعينه ، وهذا هو نفس شعر حسان ؛
وهذا شعر لبيد بعينه كقوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ومع هذا فيعلم كل عاقل ان رواة الشعر ومنشديه لم يسلبوا الشعراء
نفس صفاتهم حتى حلت بهم ، بل ولا نفس ما قام بأولئك من صفاتهم
وأفعالهم كأصواتهم وحركاتهم حلت بالرواة والمنشدين ، فكيف يتوهم
متوهم أن صفات الباري كلامه أو غير كلامه فارق ذاته وحل في مخلوقاته ،
وان ما قام بالمخلوق من صفاته وأفعاله كحركاته وأصواته هي صفات الباري
حلت فيه ؟ ! وهم لا يقولون مثل ذلك في المخلوق بل يمثلون العلم بنور
السراج يقتبس منه المتعلم ولا ينقص ما عند العالم ، كما يقتبس المقتبس
ضوء السراج فيحدث الله له ضوءاً كما يقال : ان الهوى ينقلب ناراً
بمجاورة الفتيلة للمصباح من غير ان تتغير تلك النار التي في المصباح ،
والمقرء والمعلم يقرء القرآن ويعلم العلم ولم ينقص مما عنده شيء ؛ بل
يصير عند المتعلم مثل ما عنده .

ولهذا يقال : فلان ينقل علم فلان ، وينقل كلامه ، ويقال : العلم
الذي كان عند فلان صار إلى فلان وامثال ذلك ، كما يقال : نقلت
ما في الكتاب ونسخت ما في الكتاب ، أو نقلت الكتاب أو نسخته ،
وهم لا يريدون أن نفس الحروف التي في الكتاب الاول عدت منه
وحلت في الثاني ؛ بل لما كان المقصود من نسخ الكتاب من الكتب
ونقلها من جنس نقل العلم والكلام ، وذلك يحصل بان يجعل في الثاني

مثل ما في الاول ، فيبقى المقصود بالاول منقولاً منسوخاً وان كان لم يتغير الاول ، بخلاف نقل الاجسام وتوابعها . فان ذلك اذا نقل من موضع الى موضع زال عن الاول .

وذلك لأن الاشياء لها وجود في انفسها وهو وجودها العيني ، ولها ثبوتها في العلم ، ثم في اللفظ المطابق للعلم ، ثم في الخط . وهذا الذي يقال : وجود في الأعيان ، ووجود في الالذهان ، ووجود في اللسان ووجود في البنان : وجود عيني ، ووجود علمي ، ولفظي ، ورسمي ؛ ولهذا افتتح الله كتابه بقوله تعالى : (اقرأ بسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم) فذكر الخلق عموماً وخصوصاً ، ثم ذكر التعليم عموماً وخصوصاً ، فالخط يطابق اللفظ ، واللفظ يطابق العلم ، والعلم هو المطابق للمعلوم .

ومن هنا غلط من غلط فظن ان القرآن في المصحف كالأعيان في الورق ، فظن ان قوله : (انه لقرآن كريم في كتاب مكنون) كقوله : (الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل) فجعل اثبات القرآن الذي هو كلام الله في المصاحف كاثبات الرسول في المصاحف وهذا غلط : إثبات القرآن كاثبات اسم الرسول هذا كلام وهذا كلام ، واما اثبات اسم الرسول فهذا كاثبات الاعمال ، او كاثبات القرآن في

زبر الأولين ، قال تعالى : (وكل شيء فعلوه في الزبر) وقال تعالى :
(وانه لفي زبر الأولين) فثبتت الاعمال في الزبر وثبت القرآن في زبر
الأولين هو مثل كون الرسول مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ؛ ولهذا
قيد سبحانه هذا بلفظ « الزبر » و « الكتب » زبر . يقال زبرت
الكتاب إذا كتبتة والزبور بمعنى الزبور أي المكتوب ، فالقرآن نفسه
ليس عند بني اسرائيل ولكن ذكره ، كما ان محمداً نفسه ليس عندهم
ولكن ذكره ، فثبت الرسول في كتبهم كثبت القرآن في كتبهم ؛
بخلاف ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ وفي المصاحف : فان نفس القرآن
اثبت فيها ، فمن جعل هذا مثل هذا كان ضلاله بينا ، وهذا مبسوط
في موضعه .

و (المقصود هنا) ان نفس الموجودات وصفاتها اذا انتقلت من
محل الى محل حلت في ذلك المحل الثاني ، واما العلم بها والخبر عنها فيأخذها الثاني
عن الأول مع بقاءه في الأول ، وان كان الذي عند الثاني هو نظير
ذلك ومثله ؛ لكن لما كان المقصود بالعلمين واحداً في نفسه صارت
وحدة المقصود توجب وحدة التابع له والدليل عليه ، ولم يكن للناس
غرض في تعدد التابع ، كما في الاسم مع المسمى : فان اسم الشخص
وان ذكره اناس متعددون ودعا به اناس متعددون فالناس يقولون انه
اسم واحد لمسمى واحد : فاذا قال المؤذن : اشهد ان لا إله إلا الله ،

أشهد أن محمداً رسول الله ، وقال ذلك هذا المؤذن وهذا المؤذن .
وقاله غير المؤذن فالناس يقولون ان هذا المكتوب هو اسم الله واسم
رسوله كما ان المسمى هو الله ورسوله .

واذا قال : (اقرأ باسم ربك) وقال : (اركبوا فيها بسم الله)
وقال : (سبح اسم ربك الأعلى) وقال : (بسم الله) ففي الجميع
المذكور هو اسم الله وان تعدد الذكر والذاكر ، فالخبر الواحد من
من الخبر الواحد من مخبره ، والأمر الواحد بالمأمور به من الأمر الواحد بمنزلة
الاسم الواحد لمساه ، هذا في المركب نظير هذا في المفرد ، وهذا هو
واحد باعتبار الحقيقة وباعتبار اتحاد المقصود وان تعدد من يذكر ذلك
الاسم والخبر ، وتعددت حركاتهم وأصواتهم وسائر صفاتهم .

واما قول القائل : ان قلتم : ان هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول
وانتم تكفرون بالحولية والاتحادية فهذا قياس فاسد . مثاله مثال رجل
ادعى ان النبي صلى الله عليه وسلم يحل بذاته في بدن الذي
يقرأ حديثه ، فانكر الناس ذلك عليه ، وقالوا ان النبي صلى الله عليه
وسلم لا يحل في بدن غيره ، فقال : انتم تقولون : ان المحدث يقرأ
كلامه ، وان ما يقرؤه هو كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فاذا قلتم
ذلك فقد قلتم بالحلول ، ومعلوم ان هذا في غاية الفساد .

والناس متفقون على اطلاق القول بان كلام زيد في هذا الكتاب
وهذا الذي سمعناه كلام زيد ، ولا يستجيز العاقل اطلاق القول بانه
هو نفسه في هذا المتكلم ، او في هذا الورق . وقد نطقت النصوص بان
القرآن في الصدور كقول النبي صلى الله عليه وسلم : « استذكروا
القرآن . فلهو اشد تغلثا من صدور الرجال من النعم في عقلها » وقوله :
« الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب » وامثال ذلك ،
وليس هذا عند عاقل مثل ان يقال الله في صدورنا واجوافنا ، ولهذا
لما ابتدع شخص يقال له الصوري بان من قال القرآن في صدورنا فقد
قال بقول النصارى فليل لأحمد قد جاءت جهمية رابعة أي : جهمية
الحلقية ، واللفظية : والواقفية ، وهذه الرابعة — اشد نكيره لذلك ،
وقال : هذا اعظم من الجهمية . وهو كما قال .

فان « الجهمية » ليس فيهم من ينكر أن يقال القرآن في الصدور ،
ولا يشبه هذا بقول النصارى بالحلول الامن هو في غاية الضلالة والجهالة ؛
فان النصارى يقولون : الأب والابن وروح القدس اله واحد ، وان
الكلمة التي هي اللاهوت تدرعت الناسوت : وهو عندهم إله يخلق
ويرزق ؛ ولهذا كانوا يقولون : ان الله هو المسيح بن مريم ، ويقولون :
المسيح بن الله ؛ ولهذا كانوا متناقضين : فان الذي تدرع المسيح إن
كان هو الاله الجامع للأقانيم فهو الأب نفسه ، وان كان هو صفة من

صفاته فالصفة لا تخلق ولا ترزق وليست إلهاً ، والمسيح عندهم إله ،
ولو قال النصارى ان كلام الله في صدر المسيح كما هو في صدور سائر
الأنبياء والمؤمنين لم يكن في قولهم ما ينكر .

فالحلولية المشهورون بهذا الاسم من يقول بحلول الله في البشر ،
كما قالت النصارى والغالية من الرافضة وغلاة اتباع المشايخ ، أو يقولون
بحلوله في كل شيء كما قالت الجهمية انه بذاته في كل مكان ، وهو سبحانه
ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وكذلك
من قال باتحاده بالمسيح أو غيره ، أو قال باتحاده بالمخلوقات كلها : أو
قال : وجوده وجود المخلوقات أو نحو ذلك .

فأما قول القائل : ان كلام الله في قلوب أنبيائه وعباده المؤمنين
وان الرسل بلغت كلام الله ، والذي بلغته هو كلام الله ، وان
الكلام في الصحيفة ونحو ذلك فهذا لا يسمى حلاً ، ومن سماه حلاً
لم يكن بتسميته لذلك مبطلاً للحقائق . وقد تقدم أن ذلك لا يقتضي
مفارقة صفة المخلوق له وانتقالها الى غيره ، فكيف صفة الخالق تبارك
وتعالى ؟ ! ولكن لما كان فيه شبهة الحلول تنازع الناس في اثبات لفظ
الحلول ونفيه عنه هل يقال : ان كلام الله حال في المصحف أو حال
في الصدور ؟ وهل يقال : كلام الناس المكتوب حال في المصحف أو
حال في قلوب حافظيه ونحو ذلك ؟ فمنهم طائفة نفت الحلول كلقاضي

أبي يعلى وأمثاله وقالوا : ظهر كلام الله في ذلك ولا نقول : حل ؛ لأن حلول صفة الخالق في المخلوق ، أو حلول القديم في المحدث ممتنع . وطائفة أطلقت القول بأن كلام الله حال في المصحف كأبي اسماعيل الانصاري الهروي — الملقب بشيخ الاسلام — وغيره وقالوا : ليس هذا هو الحلول المحذور الذي نفيه ؛ بل نطلق القول بأن الكلام في الصحيفة ولا يقال بأن الله في الصحيفة أو في صدر الانسان ، كذلك نطلق القول بأن كلامه حال في ذلك دون حلول ذاته ، وطائفة ثالثة كأبي علي بن أبي موسى وغيره قالوا : لا نطلق الحلول نفيًا ولا اثباتًا لأن اثبات ذلك يوم انتقال صفة الرب الى المخلوقات ونفي ذلك يوم نفي نزول القرآن الى الخلق فنطلق ما أطلقته النصوص ونمسك عما في اطلاقه محذور لما في ذلك من الاجمال .

وأما قول القائل ان قلتم [ان هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول . وان قلتم غير ذلك] قلتم بمقالتنا فجواب ذلك ان المقالة المنكرة هنا تتضمن ثلاثة أمور فاذا زالت لم يبق منكراً .

(أحدها) من يقول ان القرآن العربي لم يتكلم الله به وإنما أحدثه غير الله كجبريل ومحمد والله خلقه في غيره .

(الثاني) قول من يقول ان كلام الله ليس الا معنى واحداً هو

الأمر والنهي والخبر وان الكتب الالهية تختلف باختلاف العبارات لا باختلاف المعاني فيجعل معنى التوراة والانجيل والقرآن واحداً ، وكذلك معنى آية الدين وآية الكرسي ، كمن يقول ان معاني اسماء الله الحسنى بمعنى واحد فمعنى العليم والقدير والرحيم والحكيم معنى واحد فهذا إلحاد في أسمائه وصفاته وآياته .

(الثالث) قول من يقول ان ما بلغته الرسل عن الله من المعنى والألفاظ ليس هو كلام الله وان القرآن كلام التالين لا كلام رب العالمين . فهذه الأقوال الثلاثة باطلة بأي عبارة عبر عنها .

وأما قول من قال : ان القرآن العربي كلام الله بلغه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه تارة يسمع من الله ، وتارة من رسله مبلغين عنه ، وهو كلام الله حيث تصرف ، وكلام الله تكلم به لم يخلقه في غيره ، ولا يكون كلام الله مخلوقاً ، ولو قرأه الناس وكتبوه وسمعوه . وقال مع ذلك : ان أفعال العباد وأصواتهم وسائر صفاتهم مخلوقة فهذا لا ينكر عليه ، واذا نفى الحلول وأراد به ان صفة الموصوف لا تفارقه وتنتقل الى غيره فقد أصاب في هذا المعنى ؛ لكن عليه مع ذلك ان يؤمن ان القرآن العربي كلام الله تعالى ، وليس هو ولا شيء منه كلاماً لغيره ، ولكن بلغته عنه رسله . واذا كان كلام المخلوق يبلغ عنه مع العلم بأنه كلامه حروفه ومعانيه ، ومع العلم بأن شيئاً من صفاته لم تفارق ذاته فالعلم بمثل هذا في كلام الخالق أولى واظهر والله أعلم .

وقال ايضاً تبخ الروح

قدس الله روحه

فصل

قال تعالى : (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) . وهو منزل من الله ، كما قال تعالى : (أفغير الله أتبغي حكماً وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) . فأخبر سبحانه أنهم يعلمون ذلك والعلم لا يكون إلا حقاً .

وقال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) (حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) وقال تعالى : (ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقال تعالى : (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى) ونحو ذلك ، وقال تعالى : (قل نزله روح القدس

من ربك بالحق) . فأخبر سبحانه انه منزل من الله ، ولم يخبر عن شيء أنه منزل من الله الا كلامه ؛ بخلاف نزول الملائكة والمطر والحديد وغير ذلك .

ولهذا كان القول المشهور عن السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ؛ فان من قال انه مخلوق يقول انه خلق في بعض المخلوقات القائمة بنفسها . فمن ذلك المخلوق نزل وبدأ لم ينزل من الله ، فإخبار الله تعالى أنه منزل من الله يناقض أن يكون قد نزل من غير الله ؛ ولهذا فسر الامام احمد قوله « منه بدأ » أي هو المتكلم به ، وقال احمد : كلام الله من الله ليس بيبائن عنه .

و « أيضاً » فلو كان مخلوقاً في غيره لم يكن كلامه ؛ بل كان يكون كلاماً لذلك المخلوق فيه ، وكذلك سائر ما وصف به نفسه من الارادة والمحبة والمشية والرضى والغضب والمقت وغير ذلك من الأمور لو كان مخلوقاً في غيره لم يكن الرب تعالى متصفاً به ، بل كان يكون صفة لذلك المحل ؛ فان المعنى إذا قام بمحل كان صفة لذلك المحل ولم يكن صفة لغيره ، فيمتنع أن يكون المخلوق او الخالق موصوفاً بصفة موجودة قائمة بغيره ؛ لأن ذلك فطري ، فما وصف به نفسه من الأفعال اللازمة يمتنع أن يوصف الموصوف بأمر لم يقم به . وهذا مبسوط في مواضع آخر .

ولم يقل السلف : ان النبي سمعه من الله تعالى : كما يقول ذلك بعض المتأخرين ، قال الله تعالى : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته) وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم « اقرأ علي القرآن » قلت : اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال « اني احب ان أسمعه من غيري » فقرأت عليه سورة النساء ، حتى بلغت الى هذه الآية (فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ؟) قال : « حسبك » . فنظرت فاذا عيناه تذرفان من البكاء .

والنبي صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل ، وهو الذي نزل عليه به . وجبريل سمعه من الله تعالى . كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة : قال تعالى : (قل من كان عدواً لجبريل . فإنه نزل به على قلبك باذن الله) وقال تعالى : (نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين) وقال تعالى (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا : إنما أنت مفتر . بل أكثرهم لا يعلمون ، قل نزل به روح القدس من ربك بالحق) فأخبر سبحانه انه نزل به روح القدس — وهو الروح الأمين ، وهو جبريل — من الله بالحق : ولم يقل احد من السلف : ان النبي صلى الله عليه وسلم سمعه من الله . وإنما قال ذلك بعض المتأخرين .

وقوله تعالى : (ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ،
ثم ان علينا بيانه) هو كقوله تعالى : (نتلو عليك من نبأ موسى
وفرعون بالحق) وقوله : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا
إليك هذا القرآن) ونحو ذلك مما يكون الرب فعله بملائكته ؛ فان
لفظ (نحن) هو للواحد المطاع الذي له أعوان يطيعونه ، فالرب تعالى
خلق الملائكة وغيرها تطيعه الملائكة أعظم مما يطيع المخلوق أعوانه ،
فهو سبحانه أحق باسم « نحن » و « فعلنا » ونحو ذلك من كل
ما يستعمل .

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم
يعالج من التنزيل شدة وكان يحرك شفّيته ، فقال ابن عباس : أنا
أحركها لك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركها . وقال سعيد
ابن جبير : أنا أحركها كما رأيت ابن عباس يحركها ، فحرك شفّيته فانزل
الله (لا تحرك به لسانك لتعجل به : ان علينا جمعه وقرآنه) قال :
جمعه لك في صدرك وتقرأه (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) فاذا قرأه
رسولنا ، وفي لفظ : فاذا قرأه جبريل فاستمع له وأنصت (ثم ان
علينا بيانه) اي نقرؤه . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك
اذا أتاه جبريل استمع ، فاذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه
وسلم كما قرأه . »

وقد بين الله تعالى أنواع تكليمه لعباده في قوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء) فبين سبحانه ان التكليم تارة يكون وحياً . وتارة من وراء حجاب كما كلم موسى ، وتارة يرسل رسولا فيوحي الرسول بأذن الله ما يشاء ، وقال تعالى : (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) فاذا أرسل الله تعالى رسولا كان ذلك مما يكلم به عباده فيتلوه عليهم وينبئهم به كما قال تعالى : (قل لا تعتذروا لن تؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم) وإنما نبأهم بواسطة الرسول والرسول مبلغ به ، كما قال تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) وقال تعالى : (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) وقال تعالى : (وما على الرسول إلا البلاغ المبين)

والرسول أمر أُمته بالتبليغ عنه . ففي صحيح البخاري عن عبد الله ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي معتمداً فليتبوأ مقعده من النار » وقال صلى الله عليه وسلم لما خطب المسلمين : « ليلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع » وقال صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه الى من لم يسمعه ، فرب حامل غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه »

وفي السنن عن جابر قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول « ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي . فان قريشاً منعوني ان ابلغ كلام ربي »

وكما لم يقل أحد من السلف إنه مخلوق ، فلم يقل أحد منهم إنه قديم ، لم يقل واحداً من القولين أحد من الصحابة ولا التابعين لهم باحسان ولا من بعدهم من « الأئمة الأربعة » ولا غيرهم ؛ بل الآثار متواترة عنهم بأنهم كانوا يقولون القرآن كلام الله ، ولما ظهر من قال انه مخلوق قالوا رداً لكلامه : انه غير مخلوق ، ولم يريدوا بذلك انه مفترى كما ظنه بعض الناس ، فان احداً من المسلمين لم يقل انه مفترى ، بل هذا كفر ظاهر يعلمه كل مسلم ، وانما قالوا انه مخلوق خلقه الله في غيره ، فرد السلف هذا القول ، كما تواترت الآثار عنهم بذلك ، وصنف في ذلك مصنفات متعددة ، وقالوا : منه بدا واليه يعود .

وأول من عرف أنه قال مخلوق : الجعد بن درهم وصاحبه الجهم ابن صفوان ، وأول من عرف انه قال هو قديم عبد الله بن سعيد بن كلاب ، ثم افترق الذين شاركوه في هذا القول .

فمنهم من قال : الكلام معنى واحد قائم بذات الرب ، ومعنى القرآن كله والتوراة والانجيل وسائر كتب الله وكلامه هو ذلك المعنى الواحد الذي لا يتعدد ولا يتبعض ، والقرآن العربي لم يتكلم الله به ،

بل هو مخلوق خلقه في غيره . وقال جمهور العقلاء : هذا القول معلوم الفساد بالاضطرار ، فانه من المعلوم بصرح العقل ان معنى « آية الكرسي » ليس معنى « آية الدين » ولا معنى (قل هو الله أحد) معنى (تبت يدا أبي لهب) فكيف بمعاني كلام الله كله في الكتب المنزلة وخطابه للملائكته وحسابه لعباده يوم القيامة وغير ذلك من كلامه ؟!

وممنهم من قال : هو حروف أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته لم يزل ولا يزال موصوفا بها .

وكلا الحزبين يقول : ان الله تعالى لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وانه لم يزل ولا يزال يقول : يانوح ! يا ابراهيم ! يا أيها المزمّل ! يا أيها المدثر ! كما قد بسطت أقوالهم في غير هذا الموضع ، ولم يقل أحد من السلف بواحد من القولين ، ولم يقل أحد من السلف : ان هذا القرآن عبارة عن كلام الله ، ولا حكاية له ، ولا قال أحد منهم إن لفظي بالقرآن قديم أو غير مخلوق ، فضلا عن ان يقول : إن صوتي به قديم أو غير مخلوق ؛ بل كانوا يقولون بما دل عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله ، والناس يقرءونه بأصواتهم ويكتبونه بمدادهم وما بين اللوحين كلام الله وكلام الله غير مخلوق .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « لا تسافروا

بالقرآن إلى أرض العدو » وقال تعالى : (بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ) والمداد الذي يكتب به القرآن مخلوق ، والصوت الذي يقرأ به هو صوت العبد ، والعبد وصوته وحركاته وسائر صفاته مخلوقة فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الباري ، والصوت الذي يقرأ به العبد صوت القاريء ، كما قال تعالى : (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » فبين أن الاصوات التي يقرأ بها القرآن أصواتنا والقرآن كلام الله ، ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة : يحسنه الانسان بصوته كما قال ابو موسى الاشعري للنبي صلى الله عليه وسلم : « لو علمت انك تسمع لحبرته لك تحييراً » .

فكان ما قاله احمد وغيره من أئمة السنة من ان الصوت صوت العبد موافقاً للكتاب والسنة ، وقد قال تعالى : (واقصد في مشيك واغضض من صوتك) وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) وقال تعالى : (ان الذين بغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) وقال تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) ففرق سبحانه بين المداد الذي تكتب به كلماته وبين كلماته ، فالبحر وغيره من المداد الذي يكتب به الكلمات

مخلوق وكلمات الله غير مخلوقة . وقال تعالى : (ولولا أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) في الإنجيل إذا قدرت مداداً تنفذ كلمات الله لا تنفذ : ولهذا قال أئمة السنة لم ينزل الله متكلماً كيف شاء وبما شاء ، كما ذكرت الآثار بهذه المعاني عن إجماع المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما .

٦ هذا وقد أخبر سبحانه عن نفسه بالتداء في أكثر من عشرة مواضع . فقال تعالى : (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، ووطفقا مخضفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهيكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين ؟) وقال تعالى : (ويوم يناديهم أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟) (ويوم يناديهم فيقول ماذا اجتمعتم المرسلين ؟) وذكر سبحانه نداء موسى عليه السلام في سورة « طه » و « مريم » و « الطس » الثلاث ، وفي سورة « التازعات » واختبر أنه ناداه في وقت بعينه فقال تعالى (فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين) وقال تعالى : (هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى) وقال تعالى : (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا)

واستفاضت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة السنة أنه سبحانه ينادي بصوت : نادى موسى ،

وينادي عباده يوم القيامة بصوت ، ويتكلم بالوحي بصوت ، ولم ينقل
 عن أحد من السلف أنه قال : ان الله يتكلم بلا صوت أو بلا حرف ،
 ولا أنه أنكر ان يتكلم الله بصوت أو بحرف ، كما لم ينقل أحد منهم ان
 الصوت الذي سمعه موسى قديماً ، ولا ان ذلك النداء قديماً ، ولا قال
 أحد منهم : ان هذه الاصوات المسموعة من القراء هي بالصوت الذي
 تكلم الله به ، بل الآثار مستفوضة عنهم ، فالفرق بين الصوت الذي
 يتكلم الله به وبين اصوات العباد ،

وكان عامة السنة يعدون من أنكر تكلمه بصوت من الجهمية ، كما قال
 الامام أحمد لما سئل عن قال ان الله لا يتكلم بصوت ، فقال : هؤلاء
 جهمية ، إنما يدورون على التعطيل . وذكر بعض الآثار اللووية في انه
 سبحانه يتكلم بصوت . وقد ذكر من صنف في السنة (١) من ذلك قطعة ،
 وعلى ذلك ترجم عليه البخاري في صحيحه بقوله تعالى : (حتى إذا فرغ
 عن قلوبهم) وقد ذكر البخاري في « كتاب خلق الأفعال » مما روي
 به الفرق بين الصوتين آثاراً متعددة . وكانت محنة البخاري مع اصحابه
 محمد بن يحيى الذهلي وغيره بعد موت احمد بسنين ولم يتكلم أحمد في
 البخاري إلا بالثناء عليه . ومن نقل عن احمد انه تكلم في البخاري بسوء
 فقد افترى عليه .

(١) ياضر بالامل .

وقد ذكر الشيخ ابو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي في كتابه الذي سماه (الفصول في الأصول) قال سمعت الامام أبا منصور محمد بن أحمد يقول : سمعت أبا حامد الأسفرائيني يقول : مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الامصار ان القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال : مخلوق فهو كافر ، والقرآن حملاه جبريل مسموعا من الله ، والنبي صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل ، والصحابة سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي تتلوه نحن بالسنتنا ، وفيما بين الدفتين ، وما في صدورنا : مسموعا ، ومكتوبا ، ومحفوظا ، وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق ، ومن قال : مخلوق فهو كافر ، عليه لعائن الله والناس أجمعين .

وقد كان طائفة من أهل الحديث والمنتسبين الى السنة يتنازعوا في اللفظ بالقرآن هل يقال انه مخلوق ؟ ولما حدث الكلام في ذلك أنكرت أئمة السنة كاحمد بن حنبل وغيره أن يقال : لفظي بالقرآن مخلوق او غير مخلوق ، وقالوا : من قال : انه مخلوق فهو جهمي ، ومن قال انه غير مخلوق فهو مبتدع . وأما صوت العبد فلم يتنازعوا انه مخلوق ، فان المبلغ لكلام غيره بلفظ صاحب الكلام انما يبلغ غيره ، كما يقال : روى الحديث بلفظه وانما يبلغه بصوت نفسه لا بصوت صاحب الكلام .

و (اللفظ) في الأصل مصدر لفظ يلفظ لفظاً ، وكذلك « التلاوة »

والقراءة « مصدران ؛ لكن شاع استعمال ذلك في نفس الكلام الملفوظ المقروء المتلو ، وهو المراد باللفظ في اطلاقهم ، فاذا قيل : لفظي او اللفظ بالقرآن مخلوق أشعر ان هذا القرآن الذي يقرؤه ويلفظ به مخلوق ، واذا قيل : لفظي غير مخلوق أشعر ان شيئاً مما يضاف اليه غير مخلوق ، وصوته وحركته مخلوقان ، لكن كلام الله الذي يقرؤه غير مخلوق ، و « التلاوة » قد يراد بها نفس الكلام الذي يتلى وقد يراد بها نفس حركة العبد ، وقد يراد بها مجموعها . فاذا أريد بها الكلام نفسه الذي يتلى فالتلاوة هي المتلو ، وإذا أريد بها حركة العبد فالتلاوة ليست هي المتلو ، وإذا أريد بها المجموع فهي متأولة للفعل والكلام فلا يطلق عليها انها المتلو ولا انها غيره .

ولم يكن أحد من السلف يريد بالتلاوة مجرد قراءة العباد وبالتلو مجرد معنى واحد يقوم بذات البارئ تعالى : بل الذي كانوا عليه ان القرآن كلام الله تكلم الله به بحروفه ومعانيه ، ليس شيء منه كلاماً لغيره ، لا لجبريل ولا للحمد ولا لغيرها : بل قد كفر الله من جعله قول البشر ، مع انه سبحانه أضلّفه تارة إلى رسول من البشر وتارة إلى رسول من الملائكة ، فقال تعالى : (انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما يؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين) فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال تعالى :

(انه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالافق المبين . وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون ؟ إن هو إلا ذكر للعالمين) فالرسول هنا جبريل .

وأضافه سبحانه إلى كل منها باسم رسول لأن ذلك يدل على انه مبلغ له عن غيره ، وأنه رسول فيه لم يحدث هو شيئاً منه ؛ إذ لو كان قد أحدث منه شيئاً لم يكن رسولا فيما أحدثه بل كان منشئاً له من تلقاء نفسه ، وهو سبحانه يضيفه الى رسول من الملائكة تارة ومن البشر تارة ، فلو كانت الاضافة لكونه أنشأ حروفه لتناقض الخبران ، فان انشاء أحدهما له يناقض انشاء الآخر له . وقد كفر الله تعالى من قال : انه قول البشر ، فمن قال ان القرآن أو شيئاً منه قول بشر أو ملك فقد كذب ، ومن قال انه قول رسول من البشر ومن الملائكة بلغه عن مرسله ليس قولاً انشأه فقد صدق ، ولم يقل أحد من السلف : ان جبريل أحدث الفاظه ولا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولا ان الله تعالى خلقها في الهواء أو غيره من المخلوقات ، ولا ان جبريل أخذها من اللوح المحفوظ ، بل هذه الأقوال هي من أقوال بعض المتأخرين .

وقد بسط الكلام في غير هذا الموضع على تنازع المبتدعين الذين اختلفوا في الكتاب وبين فساد أقوالهم ، وان القول السديد هو قول

السلف وهو الذي يدل عليه النقل الصحيح والعقل الصريح وإن كان عامة هؤلاء المختلفين في الكتاب لم يعرفوا القول السديد قول السلف ؛ بل ولا سمعوه ، ولا وجدوه في كتاب من الكتب التي يتداولونها ؛ لأنهم لا يتداولون الآثار السلفية ولا معاني الكتاب والسنة إلا بتحريف بعض المحرفين لها ، ولهذا إنما يذكر أحدهم أقوالاً مبتدعة : إما قولين ، وإما ثلاثة ، وإما أربعة ، وإما خمسة ، والقول الذي كان عليه السلف ودل عليه الكتاب والسنة لا يذكره لأنه لا يعرفه ؛ ولهذا تجد الفاضل من هؤلاء حاراً مقراً بالحيرة على نفسه وعلى من سبقه من هؤلاء المختلفين لأنه لم يجد فيما قالوه قولاً صحيحاً .

وكان أول من ابتدع الأقوال « الجهمية المحضة النفاة » الذين لا يثبتون الأسماء والصفات ، فكانوا يقولون أولاً : ان الله تعالى لا يتكلم بل خلق كلاماً في غيره وجعل غيره يعبر عنه ، وان قوله تعالى : (وإذ نادى ربك موسى) وقول النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله ينزل الى السماء الدنيا كل ليلة إذا بقي ثلث الليل ، فيقول : من يدعوني فاستجب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » معناه ان ملكاً يقول ذلك عنه ، كما يقال : نادى السلطان : أي أمر منادياً ينادى عنه ، فإذا تلى عليهم ما أخبر الله تعالى به عن نفسه من انه يقول ويتكلم . قالوا هذا مجاز ؛ كقول العربي :

امتلاً الحوض وقال قطني .

وقالت (١) : اتساع بطنه ، ونحو ذلك .

فلما عرف السلف حقيقته وانه مضاه لقول المتفلسفة المعطلة الذين يقولون ان الله تعالى لم يتكلم . وانما أضافت الرسل اليه الكلام بلسان الحال كفروهم وينوا ضلالهم ، ومما قالوا لهم : ان المنادي عن غيره — كمنادي السلطان — يقول : أمر السلطان بكذا ، خرج مرسومه بكذا ، لا يقول اني أمركم بكذا وأمهاكم عن كذا ، والله تعالى يقول في تكليمه لموسى (انني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) ويقول تعالى إذا نزل ثلث الليل الغابر « من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له ؟ » وإذا كان القائل ملكا قال — كما في الحديث الذي في الصحيحين — « اذا أحب الله العبد نادى في السماء يا جبريل ! اني أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، وينادي في السماء ان الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض » فقال جبريل في ندائه عن الله تعالى : « ان الله يحب فلانا فأحبوه » ، وفي نداء الرب يقول « من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » .

(١) كذا بالأصل

فان قيل : فقد روى أنه يأمر مناديا فينادي ، قيل هذا ليس في الصحيح فان صح أمكن الجمع بين الخبرين بان ينادي هو ويأمر مناديا ينادي . أما أن يعارض بهذا النقل النقل الصحيح المستفيض الذي انفق اهل العلم بالحديث على صحته وتلقيه بالقبول مع أنه صريح في ان الله تعالى هو الذي يقول : « من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له ؟ » فلا يجوز .

وكذلك جهنم كان ينكر أسماء الله تعالى فلا يسميه شيئاً ولا حياً ولا غير ذلك إلا على سبيل المجاز . قال : لأنه إذا سمي باسم تسمى به المخلوق كان تشبيهاً ، وكان جهنم « مجبراً » يقول : ان العبد لا يفعل شيئاً ، فهذا نقل عنه أنه سمي الله قادراً : لأن العبد عنده ليس بقادر .

ثم ان المعتزلة الذين اتبعوا عمرو بن عبيد على قوله في القدر والوعيد دخلوا في مذهب جهنم ، فأثبتوا أسماء الله تعالى ولم يثبتوا صفاته ، وقالوا نقول ان الله متكلم حقيقة . وقد يذكرون إجماع المسلمين على أن الله متكلم حقيقة . لئلا يضاف اليهم بقولون انه غير متكلم . لكن معنى كونه سبحانه متكلماً عندهم انه خلق الكلام في غيره . فمذهبهم ومذهب الجهمية في المعنى سواء ، لكن هؤلاء يقولون هو متكلم حقيقة وأولئك ينفون أن يكون متكلماً حقيقة . وحقيقة قول الطائفتين أنه غير

متكلم ، فانه لا يعقل متكلم إلا من قام به الكلام ، ولا حريد الا من قامت به الارادة ، ولا محب ولا راض ولا مبغض ولا رحيم إلا من قامت به الارادة والمحبة والرضى والبغض والرحمة ، وقد وافقهم على ذلك كثير ممن انتسب في الفقه إلى أبي حنيفة من المعتزلة . وغيرهم من أئمة المسلمين ليس فيهم من يقول بقول المعتزلة لا في نفي الصفات ولا في القدر ولا المنزلة بين المنزلتين ولا انفاذ الوعيد .

ثم تنازع المعتزلة والكلابية في حقيقة « المتكلم » فقالت المعتزلة : المتكلم من فعل الكلام ولو أنه أحدثه في غيره ، ليقولوا ان الله يخلق الكلام في غيره وهو متكلم به . وقالت الكلابية : المتكلم من قام به الكلام وان لم يكن متكلماً بمشيئته وقدرته ولا فعل فعلاً أصلاً بل جعلوا المتكلم بمنزلة الحي الذي قامت به الحياة ، وان لم تكن حياته بمشيئته ولا قدرته ولا حاصلة بفعل من أفعاله .

وأما السلف واتباعهم وجمهور العقلاء فالتكلم المعروف عندهم من قام به الكلام ، وتكلم بمشيئته وقدرته . لا يعقل متكلم لم يقم به الكلام ، ولا يعقل متكلم بغير مشيئته وقدرته ، فكان كل من تينك الطائفتين المبتدعتين أخذت بعض وصف المتكلم : المعتزلة أخذوا انه فاعل ، والكلابية أخذوا انه محل الكلام ، ثم زعمت المعتزلة انه يكون فاعلاً للكلام في غيره وزعموا هم ومن وافقهم من اتباع الكلابية كابى الحسن

وغيره ان الفاعل لا يقوم به الفعل ، وكان هذا مما انكره السلف وجمهور العقلاء : وقالوا لا يكون الفاعل إلا من قام به الفعل ، وانه يفرق بين الفاعل والفعل والمفعول ، وذكر البخاري في « كتاب خلق أفعال العباد » اجماع العلماء على ذلك .

والذين قالوا ان الفاعل لا يقوم به الفعل . وقالوا مع ذلك ان الله فاعل أفعال العباد كابي الحسن وغيره ، وان العبد لم يفعل شيئاً وأن جميع ما يخلقه العبد فعل له ، وهم يصفونه بالصفات الفعلية المنفصلة عنه ويقسمون صفاته إلى صفات ذات وصفات افعال ، مع ان الافعال عندهم هي المفعولات المنفصلة عنه . فلزمهم ان يوصف بما خلقه من الظلم والقبائح مع قولهم انه لا يوصف بما خلقه من الكلام وغيره ، فكان هذا تناقضاً منهم تسلطت به عليهم المعتزلة . ولما قرروا ماهو من أصول اهل السنة وهو ان المعنى إذا قام بمحل اشتق له منه اسم ولم يشتق لغيره منه اسم كاسم المتكلم نقض عليهم المعتزلة ذلك باسم الخالق والعاقل فلم يجيبوا عن النقض بجواب سديد .

وأما السلف والأئمة فاصلهم مطرد . ومما احتجوا به على ان القرآن غير مخلوق ما احتج به الامام احمد وغيره من قول النبي صلى الله عليه وسلم « اعوذ بكلمات الله التامات » . قالوا والمخلوق لا يستعاذ به . فعورضوا بقوله « اعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك

منك « فطرد السلف والائمة اصلهم وقالوا معافاته فعله القائم به ، وأما العافية الموجودة في الناس فهي مفعوله .

وكذلك قالوا : ان الله خالق أفعال العباد ، فأفعال العباد القائمة بهم مفعولة له لا نفس فعله ، وهي نفس فعل العبد ، وكان حقيقة قول اولئك نفي فعل الرب ونفي فعل العبد . فتسلط عليهم المعتزلة في « مسألة الكلام والقدر » تسلطاً بينوا به تناقضهم كما بينوا هم تناقض المعتزلة .

وهذا أعظم ما يستفاد من أقوال المختلفين الذين أقوالهم باطلة ، فانه يستفاد من قول كل طائفة بيان فساد قول الطائفة الأخرى ، فيعرف الطالب فساد تلك الأقوال ، ويكون ذلك داعياً له إلى طلب الحق ، ولا تجد الحق إلا موافقاً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولا تجد ما جاء به الرسول إلا موافقاً لصريح العقول ، فيكون ممن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وممن له قلب يعقل به وأذن يسمع بها ، بخلاف الذين قالوا : (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) .

وقد وافق الكلبية على قولهم كثير من أهل الحديث والتصوف ، ومن أهل الفقه المنتسبين الى الأئمة الأربعة ، وليس من الأئمة الأربعة

وأماهم من أئمة المسلمين من يقول بقولهم .

وحدث مع الكلاية ونحوهم طوائف أخرى من الكرامية وغير الكرامية من أهل الفقه والحديث والكلام فقالوا : إنه سبحانه متكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته ، وهو يتكلم بحروف وأصوات بمشيئته وقدرته ، ليتخلصوا بذلك من بدعتي المعتزلة والكلاية ؛ لكن قالوا انه لم يكن يمكنه في الأزل أن يتكلم ؛ بل صار الكلام ممكناً له بعد ان كان ممتعاً عليه ، من غير حدوث سبب أوجب إمكان الكلام وقدرته عليه ، وهذا القول مما وافق الكرامية عليه كثير من أهل الكلام والفقه والحديث ؛ لكن ليس من الأئمة الأربعة ونحوهم من أئمة المسلمين من نقل عنه مثل قولهم . وهذا مما شاركوا فيه الجهمية والمعتزلة ؛ فان هؤلاء كلهم يقولون : انه لم يكن الكلام ممكناً له في الأزل ثم صار ممكناً له بعد أن كان ممتعاً عليه من غير حدوث سبب أوجب إمكانه ؛ لكن الجهمية والمعتزلة يقولون انه خلق كلاماً في غيره من غير أن يقوم به كلام ؛ لأنه لو قام به كلام بمشيئته وقدرته لقامت به الحوادث ، قالوا : ولا تقوم به الحوادث . قالت الجهمية والمعتزلة . لأن الحوادث هي من جملة الصفات التي يسمونها الأعراض . وعندهم لا يقوم به شيء من الصفات ، قالوا لأن الصفات أعراض والعرض لا يقوم إلا بجسم وليس هو بجسم ؛ لأن الجسم لا يخلو من الحوادث وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث .

وقالت الكلاية : بل تقوم به الصفات ولا تقوم به الحوادث ، ونحن لا نسمي الصفات اعراضاً ؛ لأن العرض عندنا لا يبقى زمانين ، وصفات الله تعالى باقية . وقالوا : وأما الحوادث فلو قامت به لم يخل منها ؛ لأن القابل للشيء لا يخلو منه ومن ضده ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث .

فقال الجمهور المنازعون للطائفتين : أما قول أولئك : انه لا تقوم به الصفات ؛ لأنها اعراض والعرض لا يقوم إلا بجسم وليس بجسم ، فتسمية ما يقوم بغيره عرضاً اصطلاح حادث ، وكذلك تسمية ما يشار اليه جسماً اصطلاح حادث أيضاً ، و « الجسم » في لغة العرب هو البدن وهو الجسد كما قال غير واحد من أهل اللغة منهم الأصمعي وأبو عمرو ، فلفظ الجسم يشبه لفظ الجسد وهو الغليظ الكثيف . والعرب تقول هذا جسيم وهذا أجسم من هذا أي أغلظ منه . قال تعالى (وزاده بسطة في العلم والجسم) وقال تعالى (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم) ثم قد يراد بالجسم نفس الغلظ والكثافة ، ويراد به الغليظ الكثيف .

وكذلك النظار يريدون بلفظ « الجسم » تارة المقدار ، وقد يسمونه الجسم التعليمي ، وتارة يريدون به الشيء المقدر ، وهو الجسمي الطبيعي والمقدار المجرد عن المقدر كالأعداد المجرد عن المعدود ، وذلك لا يوجد إلا

في الأذهان دون الاعيان . وكذلك السطح والخط والنقطة المجردة عن
الحل الذي تقوم به لا يوجد إلا في الذهن . قالوا وإذا كان هذا معنى
الجسم بلغة العرب فهو أخص من المشار إليه ، فإن الروح القائمة بنفسها
لا يسمونها جسماً ، بل يقولون خرجت روحه من جسمه ، ويقولون انه
جسم وروح ، ولا يسمون الروح جسماً ، ولا النفس الخارج من الانسان
جسماً ، لكن أهل الكلام اصطلاحوا على أن كل ما يشار إليه يسمى
جسماً ، كما اصطلاحوا على أن كل ما يقوم بنفسه يسمى جوهرأ . ثم
تنازعوا في ان كل ما يشار إليه هل هو مركب من الجواهر الفردة ،
أو من المادة والصورة ، او ليس مركبأ لا من هذا ولا من هذا على
اقوال ثلاثة قد بسطت في غير هذا الموضع ؛ ولهذا كان كثير منهم
يقولون الجسم عندنا هو القائم بنفسه ، او هو الموجود لا المركب .

قال اهل العلم والسنة فاذا قالت الجهمية وغيرهم من نفاة الصفات :
ان الصفات لا تقوم الا بجسم ، والله تعالى ليس بجسم ، قيل لهم : ان
اردتم بالجسم ما هو مركب من جواهر فردة أو ما هو مركب من المادة
والصورة لم نسلم لكم « المقدمة الاولى » وهي قولكم : إن الصفات
لا تقوم إلا بما هو كذلك ، قيل لكم ان الرب تعالى قائم بنفسه والعباد
يرفعون ايديهم إليه في الدعاء ويقصدونه بقلوبهم وهو العلي الأعلى
سبحانه ، ويراها المؤمنون بأبصارهم يوم القيامة عيانا كما يرون القمر ليلة

البدر : فان قلت : إن ما هو كذلك فهو جسم وهو محدث ، — كان هذا بدعة مخالفة للغة والشرع والعقل ، وإن قلت : نحن نسمي ما هو كذلك جسماً ونقول انه مركب ، قيل تسميتكم التي ابتدعوها هي من الاسماء التي ما انزل الله بها من سلطان ، ومن عمد إلى المعاني المعلومة بالشرع والعقل وسمّاها باسماء منكّرة لينفر الناس عنها قيل له النزاع في المعاني لا في الألفاظ ولو كانت الألفاظ موافقة للغة ، فكيف اذا كانت من ابتداعهم ؟ ومعلوم ان المعاني التي يعلم ثبوتها بالشرع والعقل لا تدفع بمثل هذا النزاع اللفظي الباطل . واما قولهم ان كل ما كان تقوم به الصفات وترفع الأيدي إليه ويمكن أن يراه الناس بإبصارهم فانه لابد ان يكون مركباً من الجواهر المفردة أو من المادة والصورة فهذا ممنوع ؛ بل هو باطل عند جمهور العقلاء : من النظار والفقهاء وغيرهم ، كما قد بسط في موضعه .

قال الجمهور : واما تفريق النكالية بين المعاني التي لا تتعلق بمشيئته وقدرته والمعاني التي تتعلق بمشيئته وقدرته — التي تسمى الحوادث ، ومنهم من يسمي الصفات اعراضاً ، لان العرض لا يبقى زمانين — فيقال : قول القائل : ان العرض الذي هو السواد والبياض والطول والقصر ونحو ذلك لا يبقى زمانين قول محدث في الاسلام ، لم يقاه احد من السلف والائمة ، وهو قول مخالف لما عليه جماهير العقلاء من جميع

الطوائف ؛ بل من الناس من يقول انه معلوم الفساد بالاضطرار ، كما قد بسط في موضع آخر .

وأما تسمية المسمي للصفات اعراضاً فهذا امر اصطلاحى لمن قاله من أهل الكلام ليس هو عرف أهل اللغة ولا عرف سائر أهل العلم ، والحقائق المعلومة بالسمع والعقل لا يؤثر فيها اختلاف الاصطلاحات ، بل يعد هذا من النزاعات اللفظية ، والنزاعات اللفظية اصولها ما وافق لغة القرآن والرسول والسلف ، فما نطق به الرسول والصحابة جاز النطق به باتفاق المسلمين ، وما لم ينطقوا به ففيه نزاع وتفصيل ليس هذا موضعه .

وأما قول « الكلاية » ما يقبل الحوادث لا يخلو منها وما لم يخل من الحوادث فهو حادث . فقد نازعهم جمهور العقلاء في كلا المقدمتين حتى أصحابهم المتأخرون نازعهم في ذلك ، واعترفوا بطلان الادلة العقلية التى ذكرها سلفهم على نفي حلول الحوادث به ، واعترف بذلك المتأخرون من أئمة الأشعرية والشيعة والمعتزلة وغيرهم كما قد بسط في غير هذا الموضع .

وحدثت طائفة اخرى من السالمية وغيرهم — ممن هو من اهل الكلام والفقه والحديث والتصوف ، ومنهم كثير ممن هو ينتسب الى

مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وكثر هذا في بعض المتأخرين
المنتسبين الى أحمد بن حنبل — فقالوا بقول المعتزلة وبقول الكلاية :
وافقوا هؤلاء في قولهم انه قديم ، ووافقوا أولئك في قولهم انه
حروف وأصوات ، وأحدثوا قولاً مبتدعاً — كما أحدث غيرهم —
فقالوا : القرآن قديم ، وهو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لنفس
الله تعالى أزلاً وأبداً .

واحتجوا على انه قديم بحجج الكلاية ، وعلى أنه حروف واصوات
بحجج المعتزلة . فلما قيل لهم : الحروف مسبوقة بعضها ببعض فالباء قبل
السين والسين قبل الميم ، والقديم لا يسبق بغيره ، والصوت لا يتصور
بقاؤه فضلا عن قدمه ، قالوا : الكلام له وجود وماهية ، كقول من
فرق بين الوجود والماهية من المعتزلة وغيرهم . قالوا : والكلام له ترتيب
في وجوده ، وترتيب ماهية الباء للسين بالزمان هي في وجوده وهي
مقارنة لها في ماهيتها لم تتقدم عليها بالزمان وان كانت متقدمة بالمرتبة
كتقدم بعض الحروف المكتوبة على بعض . فان الكاتب قد يكتب
آخر المصحف قبل أوله ومع هذا فاذا كتبه كان أوله متقدماً بالمرتبة
على آخره .

فقال لهم جمهور العقلاء هذا مما يعلم فسادُه بالاضطرار ؛ فان الصوت
لا يتصور بقاؤه ، ودعوى وجود ماهية غير الموجود في الخارج دعوى

فاسدة ، كما قد بسط في موضع آخر ، والترتيب الذي في المصحف هو ترتيب للحروف المدادية والمداد أجسام ، فهو كترتيب الدار والانسان ، وهذا امر يوجد الجزء الأول منه مع الثاني بخلاف الصوت فانه لا يوجد الجزء الثاني منه حتى بعدم الأول كالحركة ، فقياس هذا بهذا قياس باطل ، ومن هؤلاء من يطلق لفظ القديم ولا يتصور معناه ، ومنهم من يقول يعني بالقديم انه بدأ من الله وأنه غير مخلوق ، وهذا المعنى صحيح ؛ لكن الذين نازعوا هل هو قديم أو [ليس بقديم] لم يعنوا هذا المعنى ، فمن قال لهم : انه قديم وأراد هذا المعنى قد أراد معنى صحيحاً لكنه جاهل بمقاصد الناس مضل لمن خاطبه بهذا الكلام ، مبتدع في الشرع واللغة .

ثم كثير من هؤلاء يقولون : ان الحروف القديمة والأصوات ليست هي الاصوات المسموعة من القراء ولا المداد الذي في المصحف ، ومنهم من يقول بل الأصوات المسموعة من القراء هو الصوت القديم ، ومنهم من يقول بل يسمع من القاريء شيئان : الصوت القديم ، وهو مالا بد منه في وجود الكلام . والصوت المحدث ، وهو مازاد على ذلك ، وهؤلاء يقولون المداد الذي في المصحف مخلوق ؛ لكن الحروف القديمة ليست هي المداد ؛ بل الأشكال والمقادير التي تظهر بالمداد ، وقد تنقش في حجر وقد تخرق في ورق ، ومنهم من يمنع أن يقال في المداد انه قديم أو

مخلوق ، وقد يقول لا أُمْنَع عن ذلك بل أعلم انه مخلوق لكن أسد باب
الخوض في هذا ، وهو مع هذا يهجر من يتكلم بالحق ومن يبين
الصواب الموافق للكتاب والسنة واجماع سلف الأمة مع موافقته لصريح
المعقول ، ومع دفعه للشناعات التي يشنع بها بعضهم على بعض .

وخوض الناس وتنازعهم في هذا الباب كثير قد بسطناه في مواضع .
وإنما المقصود هنا ذكر قول مختصر جامع يبين الأقوال السديدة التي دل
عليها الكتاب والسنة وكان عليها سلف الأمة في مسألة الكلام ، التي
حيرت عقول الأنام والله تعالى أعلم .

سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامُ مَفْتَى الْإِسْلَامِ

تَقَى الدِّينَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ تَيْمِيَّةَ

عن قوم يقولون : كلام الناس وغيرهم قديم — سواء كان صدقاً أو كذباً ، فحشاً أو غير فحش ، نظماً أو نثراً — ولا فرق بين كلام الله وكلامهم في القدم إلا من جهة الثواب . وقال قوم منهم — بل أكثرهم — : أصوات الحمير والكلاب كذلك ، ولما قرئ عليهم ما نقل عن الإمام أحمد رداً على قولهم تأولوا ذلك ، وقالوا : بأن أحمد إنما قال ذلك خوفاً من الناس ، فهل هؤلاء مصيبون أو مخطئون ؟ وهل على ولي الأمر وفقه الله تعالى زجرهم عن ذلك أم لا ؟ وهل يكفرون بالاصرار على ذلك أم لا ؟ وهل الذي نقل عن أحمد حق كما زعموا أم لا (١) .

فَأَجَابَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

الحمد لله . بل هؤلاء مخطئون في ذلك خطأ محرماً باجماع المسلمين وقد قالوا منكراً من القول وزوراً : بل كفراً ومحالاً يجب نهيمهم عنه ويجب على ولاة الأمور عقوبة من لم ينته منهم عن ذلك ، جزاء بما

(١) تسمى : « الكيلانية » .

كسبوا نكالا من الله ؛ فان هذا القول مخالف للعقل والدين مناقض
للكتاب والسنة وإجماع المؤمنين . وهي « بدعة شنيعة » لم يقلها أحد
قط من علماء المسلمين : لا علماء السنة ولا علماء البدعة ، ولا يقولها
عقل يفهم ما يقول ؛ ولكن عرض لمن قالها شبهة ، ونحن نبينها إن شاء
الله تعالى .

ولا يحتاج في مثل هذا الكلام الذي فساده معلوم ببداية العقول
أن يحتج له بنقل عن إمام من الأئمة الا من جهة بيان أن رده وإنكاره
منقول عن الأئمة ، وأن قائله مخالف للأئمة مبتدع في الدين ؛ ولتزول
بذلك شبهة من يتوهم أن قولهم من لوازم قول أحد من السلف ، ويعلم
أنهم مخالفون لمذاهب الأئمة المقتدى بهم المعظمين ؛ ولتبين أن نقيض
قولهم منصوص ، عن الأئمة المتبعين في السنة ، وليس ذلك مما سكتوا
عنه نفياً وإثباتاً .

وانه لا ريب ان الامام « أحمد بن حنبل » ومن قبله وبعده من
الأئمة نصوا على أن كلام الآدميين مخلوق — نصاً مطلقاً — بل نص
أحمد وكثير من الأئمة على « أفعال العباد » عموماً وعلى « كلام
الآدميين » خصوصاً ، ولم يمتنعوا عن هذا الاطلاق لأجل الشبهة التي
عرضت لهؤلاء المبتدعة المخالفين ، حتى لا يقول قائل منهم أو من غيرهم :
إنه لا يقال مخلوق ولا غير مخلوق لأجل شبهتهم ، أو لكون الكلام في

ذلك بدعة ، بل القول بأن كلام الآدميين مخلوق غير قديم منصوص
عن الأئمة المتفق على إمامتهم في الدين والسنة .

فمنهم من نص عليه لما تكلم في « مسائل القدر » و « خلق
أفعال العباد » ومنهم من نص عليه لما تكلم في « مسألة تلاوة العباد
للقرآن واللفظ به »

ومنهم من نص عليه محتجاً به على الفرق بين كلام الخالق وكلام
المخلوق . فروى أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال — وهو الذي جمع
نصوص أحمد في أصول الدين وأصول الفقه وفي أبواب الفقه كلها وفي
الآداب والأخلاق والزهد والرقائق وفي علل الحديث وفي التاريخ وغير
ذلك من علوم الاسلام .

روي — في « كتاب السنة » في الكلام على اللفظية عن أبي بكر
ابن زنجويه ، قال : سمعت أحمد بن حنبل يقول : من قال لفظي بالقرآن
مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع ، لا يكلم . قال
الخلال : وأخبرنا أبو داود السجستاني قال : سمعت أبا عبد الله بتكلم
في « اللفظية » وينكر عليهم كلامهم ، وسمعت إسحاق بن راهويه ذكر
« اللفظية » وبدعهم ، وقال الخلال : سمعت ابن صدقة قال سمعت يحيى
ابن حبيب بن عربي قال سمعت رجلاً سأل معتمر بن سليمان ان لنا

إماماً قدرياً أصلي خلفه قال : من زعم أن لفظه غير مخلوق بمنزلة من زعم أن سماء الله غير مخلوقة ، قال الحلال : وأخبرني أبو بكر المروزي حدثنا محمد بن يحيى الأزدي حدثني مسدد قال : كنت عند يحيى القطان وجاء يحيى بن اسحق بن توبة الغنبري فقال له يحيى حدث هذا يعني مسدداً كيف قال حماد بن زيد فيها ؟ — أي « مسألتنا » — فقال سألت حماد بن زيد عمن قال : كلام الناس ليس بمخلوق ، فقال هذا كلام أهل الكفر ، وقال يحيى بن اسحق سألت معتمر بن سليمان عمن قال كلام الناس ليس بمخلوق فقال هذا كفر .

فهذه الآثار ونحوها مما اعتمد عليها المشهورون بالسنة كالمرودي والحلال وغيرها ، وكذلك الامام أبو عبد الله بن بطة يعتمد في كتابه « الإبانة الكبير » على هذه الآثار ونحوها .

قلت : « حماد بن زيد » أحد الأئمة الاعلام في السنة في طبقة مالك والثوري والأوزاعي وحماد بن سلمة والليث بن سعد في الزمان والامامة بل هو عند علماء السنة أقعد بالسنة من الثوري ، وإن كان الثوري أكثر علماً منه وزهداً ، وعند علماء الحديث أحفظ للحديث من حماد بن سلمة ، وإن كان حماد أشهر بالزهد وأكثر دعاء إلى السنة وهو إمام البصرة في ذلك الزمان الذي كانت البصرة فيه مجمع علم الاسلام ، وكان علماء الأمة وورثة الأنبياء وخلفاء الرسل في ذلك العصر

الذي هو عصر تابعي التابعين هؤلاء المسلمين ونحوهم وهم من الذين
الثالث المدوح .

و «المعتمر بن سليمان» أحد الأئمة الأعلام أيضاً ، وهو دون حماد
ابن زيد ، وقد أدركه الامام أحمد واسحق بن راهويه وغيرها وهو أحد
شيوخ الامام أحمد وأما « حماد بن زيد » ففات الامام أحمد فقال :
فاتي حماد بن زيد فعوضني الله بإسماعيل بن عيسى . وفاتي مالك بن
أنس فعوضني الله سفيان بن عيينة .

وأما « يحيى بن سعيد القطان » فهو أحد علماء السنة وهو إمام
أهل الحديث في معرفة صحته وعلمه ورجاله وضبطه حتى قال أحمد :
ما رأيت بعيني مثله ، يعني في ذلك الفن ، وعنه أخذ ذلك علي بن
المديني ، وعن علي أخذ ذلك البخاري صاحب الصحيح ، وقد ذكر
الترمذي أنه لم ير في معرفة علل الحديث مثل محمد بن اسماعيل البخاري .

وهؤلاء العلماء الأئمة أنكروا على من قال كلام الآدميين ولفظهم
غير مخلوق لما نبغت « القدريّة » المبتدعة ، وزعموا أن أفعال العباد
غير مخلوقة لله : لا أقوالهم ولا سائر أعمالهم : لا خيرها ولا شرها :
بل يقولون : هي محدثة أحدثها العبد ، وليست مخلوقة لأحد ، أو
يقولون : العبد خلقها ، كما أنه أحدثها : فانهم قد يتنازعون في إثبات

خلق لغير الله ، ومع هذا فلم يكن بين الأمة نزاع في أنها محدثة كائنة بعد أن لم تكن ، ولم يقل أحد : إنها قديمة ؛ ولكن « القدرية » من المعتزلة وغيرهم إعتقدوا أن الأفعال الاختيارية وما يتولد عنها من أفعال الملائكة والجن والانس — الطاعات والمعاصي — لم يخلقها الله . قالوا : لأنه لو خلقها للزم أن يكون العبد مجبوراً ، وأن يرتفع التكليف والوعد والوعيد والثواب والعقاب ؛ ولأن العبد يعلم أنه هو الذي يحدث أفعاله علماً ضرورياً وعللوا ذلك بأدلة نظرية .

فلما ابتدعوا هذه « المقالة » أنكرها أئمة السنة ، كما أنكر الصحابة رضوان الله عليهم أول هذه البدعة لما نبغت القدرية في أواخر عصر الصحابة فرد عليهم ابن عمر وابن عباس ووائل بن الأسقع وغيرهم من الصحابة .

وبين الأئمة أن من جعل شيئاً من المحدثات كأفعال العباد وغيرها ليس مخلوقاً لله فهو مثل من أنكر خلق الله لغير ذلك من المحدثات كالسما والأرض ؛ فإن الله رب العالمين ، ومالك الملك ، وخالق كل شيء . فليس شيء من العالمين خارجاً عن ربوبيته . ولا شيء من الملك خارجاً عن ملكه . ولا شيء من المحدثات خارجاً عن خلقه ، قال تعالى : (الله خالق كل شيء وهو على شيء وكيل . له مقاليد السموات والأرض) وقال تعالى : (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه

الخلق عليهم ، قل : الله خالق كل شيء) وقال تعالى : (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟! وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو ، خالق كل شيء ، فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) وقال تعالى : (ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ؟) وقال تعالى : (الذي له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شيء فقدره تقديراً) وقال تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) وقال تعالى : (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ؛ إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون)

ولهذا كان أهل السنة والجماعة والحديث هم المتبعين لكتاب الله للمعتقدين لموجب هذه النصوص حيث جعلوا كل محدث من الأعيان والصفات والأفعال المباشرة والمتولدة وكل حركة طبيعية أو إرادية أو قسرية فان الله خالق كل ذلك جميعه وربهم ومالكه ومليكه ووكيل عليه، وانه سبحانه على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم ، فآمنوا بعلمه المحيط ، وقدرته الكاملة ، ومشيتته الشاملة ، وربوبيته التامة ؛ ولهذا

قال ابن عباس : الايمان بالقدر نظام التوحيد فمن وحد الله وآمن بالقدر
تم توحيده ، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده .

وأما صفة الله تعالى فهي داخلة في مسمى أسمائه الظاهرة والمضمرة .
فاذا قلت : عبت الله ، ودعوت الله و (إياك نعبد) فهذا الاسم
لا يخرج عنه شيء من صفاته من علمه ورحمته وكلامه وسائر صفاته ؛
ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من كان حالفاً فليحلف بالله
أو ليصمت » وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » وقد ثبت
عنه : « الحلف بعزة الله » والحلف بقوله : « لعمر الله » فعلم ان ذلك
ليس حلفاً بغير الله فأعطوا هذه الآيات المنصوصة حقها في اتباع عمومها
الذي قد صرحت به في أن الله خالق كل شيء ؛ إذ قد علم ان الله
ليس هو داخلاً في المخلوق ، وعلم ان صفاته ليست خارجة عن مسمى اسمه .

وأما « المعتزلة » الذين جمعوا التجهيم والقدر فأخرجوا عنها
ما يتناوله الاسم يقيناً من أفعال الملائكة والجن والانس والبهائم :
طاعاتها وغير طاعاتها ، وذلك قسط كبير من ملك الله وآياته ؛ بل
هي من محاسن ملكه وأعظم آياته ومخلوقاته ، وأدخلوا في ذلك كلامه
لكونه يسمى « شيئاً » في مثل قوله : (إذ قالوا : ما أنزل الله على
بشر من شيء . قل : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ؟) ولم
ينظروا في أن ذلك مثل تسمية عامه « شيئاً » في قوله : (ولا يحيطون

بشيء من علمه إلا بما شاء) وتسمية نفسه شيئاً في قوله : (قل أني شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم) وأن قوله : (كل شيء) يعم بحسب ما اتصل به من الكلام .

فإن الاسم تنوع دلالاته بحسب قيوده . ففي قوله : (وهو بكل شيء عليم) دخل في ذلك نفسه لأنها تصلح أن تعلم ، وفي قوله : (وهو على كل شيء قدير) دخل في ذلك ما يصلح أن يكون مقدوراً وذلك يتناول كل ما كانت ذاته ممكنة الوجود ، وقد يقال : دخل في ذلك كل ما يسمى شيئاً بمعنى « شيئاً » فإن « الشيء » في الأصل مصدر وهو بمعنى المشي ، فكل ما يصلح أن يشاء فهو عليه قدير . وإن شئت قلت : قدير على كل ما يصلح أن يقدر عليه ، والمتع لذاته ليس شيئاً باتفاق العقلاء . وفي قوله : (الله خالق كل شيء) قد علم أن الخالق ليس هو المخلوق ، وأنه لا يتناوله الاسم ، وإنما دخل فيه كل شيء مخلوق : وهي الحادثات جميعها .

هذا مع أن أهل السنة يقولون إن العبد له مشيئة وقدرته وإرادة وهو فاعل لفعله حقيقة . وينهون عن إطلاق « الجبر » فإن لفظ « الجبر » يشعر أن الله أجبر العبد على خلاف مراد العبد ، كما تجبر المرأة على النكاح ؛ وليس كذلك : بل العبد مختار بفعله باختياره ومشيئته ورضاه ومحبه ليس مجبوراً عديم الإرادة . والله خالق هذا

كله ؛ فان هذه الأمور من المحدثات الممكنات ، فالدلالة على أن الله خالقها كالدلالة على أنه خالق غيرها من المحدثات وليس هذا موضع الكلام على هذا فان ذلك له موضع آخر .

وإنما الغرض هنا أن الأئمة ردوا على من جعل أقوال العباد وأفعالهم خارجة عن خلق الله وجعلوا ذلك بمنزلة من جعل السماء والأرض ليس مخلوقة لله . هذا مع أن أولئك المبتدعين كانوا يقولون إنها محدثة ليست قديمة ، فكيف إذا قيل : إنها قديمة ؟ ! فان ذلك يصير ضالالين بل ثلاث ضلالات .

(أحدها) جعل المحدث المصنوع صفة لله قديمة مضاهاة للنصارى ونحوهم .

و (الثاني) إخراج مخلوق الله ومقدوره من خلقه وقدرته كما قالته القدرية مضاهاة للمجوس ونحوهم .

و (الثالث) إخراج فعل العبد ومقدوره وكسبه عن أن يكون مقدوراً له وكسباً وفعلاً مضاهاة للجبرية القدرية المشركية ، فهذا كان وجه كلام أولئك الأئمة في هذا .

ثم لما حدثت بدعة « اللفظية » احتج أئمة ذلك العصر في جملة

ما احتجوا به بكلام أولئك السلف مثل البخاري الامام صاحب « الصحيح » ، ومثل أبي بكر المروزي الامام صاحب الامام أحمد بن حنبل ، وخلق كثير في زمنه ، ومثل أبي بكر الخلال ونحوه . فاستدل هؤلاء الأئمة وغيرهم على بطلان قول من يقول : ان فعل العبد أو صفاته المتعلقة بصفات الله غير مخلوقة بما دل على أن أفعال العباد وصفاتهم مخلوقة . فروى البخاري عن أبي قدامة عن يحيى بن سعيد القطان قال ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : أفعال العباد مخلوقة . وروى المروزي صاحب الامام أحمد والخلال ما تقدم ذكره من كلام الأئمة من النص على خلق كلام الآدميين وأفعالهم .

وسياتي إن شاء الله نصوص الامام أحمد في ذلك فان القصد هنا التنبيه على الأصل الذي تشعب منه تفرق الأمة في هذا الموضع وهو « مسألة اللفظ » .

فصل

و « مسألة اللفظ بالقرآن » قد اضطرب فيها أقوام لهم علم وفضل ودين وعقل ، وجرت بسببها مخاصمات ومهاجرات بين أهل الحديث والسنة حتى قال ابن قتيبة كلاماً معناه لم يختلف أهل الحديث في شيء من

مذاهبهم إلا في « مسألة اللفظ » . وبين أن سبب ذلك لما وقع فيها من الغموض : والنزاع بينهم في كثير من المواضع لفظي ، ولم يكن بين الناس نزاع في أن كلام العباد الذي لم ينزله الله تعالى أنه محدث مخلوق ، وإن كان الكلام في « حروف الهجاء » وفي « أسماء المحدثات » فيه نزاع هو الذي أوقع هؤلاء الجهال في ما ارتكبوه من المحال ، كما سننبه عليه إن شاء الله تعالى .

ولا يتسع هذا الجواب لشرح « مسألة اللفظ » مبسوطاً : ولكن ننبه عليه مختصراً فنقول : ان الله تعالى أرسل رسله وأنزل عليهم كتبه وأمرهم أن يبلغوا إلى الناس ما أنزل الله عليهم من وحيه وكلامه : فمن الناس من آمن بالله ورسله وصدقهم فيما جاءوا به من عند الله ، وأطاعهم فيما أمروا به . وهؤلاء هم المؤمنون في كل وقت وزمان ، وهم أهل الجنة والسعادة ، كما قال تعالى : (سابقوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) وقال تعالى : (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

ومن الناس من كفر بهم وكذب : مثل الأمم الذين قص الله علينا أخبارهم من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وفرعون

ومشركي العرب وكل من لم يؤمن بأصل الرسالة من الهند والبراهمة وغيرهم والترك والسودان وغيرهم من الأمم الأميين الذين لا كتاب لهم - سواء كانوا مكذبين للرسل أو معرضين عن اتباعهم ؛ فان الكفر عدم الايمان بالله ورساله ، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب بل شك وريب ، أو إعراض عن هذا كله حسداً أو كبراً ، أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة ، وإن كان الكافر المكذب أعظم كفراً وكذلك الجاحد المكذب حسداً مع استيقان صدق الرسل . والسور المكية كلها خطاب مع هؤلاء .

ولهذا يقول سبحانه : (كذبت قوم نوح المرسلين) لأنهم كذبوا جميع الرسل ولم يؤمنوا بأصل الرسالة ، وقد قال تعالى لما أهبط أبام آدم : (قال : اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لما حشرتي أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) .

فأخبر أنه إذا أتاكم هدى منه ، وهو ما أنزله على رسله من الذكر فمن اتبعه اهتدى وسعد في الدنيا والآخرة ، ومن أعرض عنه شقي وعمي

ولهذا قال في أوائل البقرة في نعت المؤمنين : (أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون) كما قال هنا : (فلا يضل ولا يشقى) ؛ فان الهدى ضد الضلال ، والفلاح ضد الشقاء ، وقال تعالى : (يا بني آدم إما بأئنيكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي : فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

ومن الناس من آمن ببعض ما جاءت به الرسل وكفر ببعض ، كمن آمن ببعض المرسلين دون بعض ، واليهود والنصارى حيث آمنوا بموسى ، أو موسى والمسيح معه دون محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا يخاطب الله في القرآن الأميين الذين لم يتبعوا رسولا وأهل الكتاب المصدقين ببعض الرسل ، كما في قوله : (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسأتم ؟) وفي قوله : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) .

وكمن آمن ببعض صفات الرسالة وكفر ببعض : من الصابئين الفلاسفة ونحوهم : الذين قد يقرون بأصل الرسالة ؛ لكن يجعلون الرسول بمنزلة الملك العادل : الذي قد وضع قانوناً لقومه ، أو يقولون : ان الرسالة للعامة دون الخاصة ، أو في الامور العملية دون العلمية ، أو في الامور التي يشترك فيها الناس دون الخصائص التي يمتاز بها الكمل ،

ويقرون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم من حيث الجملة ، ويعظمونه .
ويقولون : اتفق فلاسفة العالم على انه لم يرد إلى الارض ناموس أعظم
من ناموسه ؛ لكنهم مع هذا يكفرون ببعض ما جاء به : مثل ان
يسوغوا اتباع غير دينه من اليهودية والنصرانية ، وقد يسوغون الشرك
ايضاً للعامة أو للخاصة : مثل أن يسوغوا دعوة الكواكب وعبادتها
والسجود لها ، وقد يكذبون في الباطن بأشياء مما أخبر بها ، ويزعمون
أن ما أخبر به من أمور الايمان بالله واليوم الآخر إنما هي أمثال مضروبة
لتفهم العامة مالا يجوز إظهاره وإبانه حقيقته ؛ وذلك انهم يجوزون
كذبه لمصلحة العامة بزعمهم .

وقد يزعمون أن حقيقة العلم بالله تؤخذ من غير ما جاء به الرسول ،
وان من الناس من يكون أعلم بالله منه أو أفضل منه ، ونحو ذلك من
المقالات ، وهذا الضرب ما زال موجوداً لا سيما مع القرامطة الباطنية :
من الاسماعيلية والنصيرية والملوك العبيدية : الذين كانوا يدعون الخلافة ،
ومع الحرمية ، والمزدكية ، وأمثالهم من الطوائف ، وهؤلاء خواصهم
أكفر من اليهود والنصارى ومن الغالية الذين يقولون بالهية علي ونحوه
من البشر أو نبوته ، وهم منافقون زنادقة ؛ لكن في كثير من اتباعهم من
يظن أنه مؤمن بالكتب والرسل لما لبسوا عليه أصل قولهم ، أو وافقهم
في قول بعضهم دون بعض ، وأكثر هؤلاء يميلون إلى الرافضة ، ومنهم

من ينتسب إلى التصوف ، ومنهم من ينتسب إلى الكلام ، ومنهم من يدخل مع الفقهاء في مذاهبهم . وهذا الضرب يكثر في الدول الجاهلية البعيدين عن معرفة الاسلام والتزامه ، كما كانوا كثيرين في دولة الديلم والعبيديين ونحوهم ، وكما يكثر في دولة الجهال من الترك ونحوهم من الجهال الذين آمنوا بالرسالة من حيث الجملة من غير علم بتفاصيل ما جاء به الرسول ، لأن الجهال من الترك وغيرهم بهذا الضرب أشبه منهم بغيرهم ؛ فان هؤلاء لا يوجبون اتباع الرسول على جميع أهل الأرض ؛ لكنهم قديرون اتباعه أحسن من اتباع غيره فيتبعونه على سبيل الاستحباب أو يتبعون بعض ما جاء به ، أو لا يتبعونه بحال . وهم في ذلك مقرون له ولأتباعه .

والمؤمن ببعض الرسالة دون بعض كافر أيضاً ، كما قال تعالى : (ان الذين يكفرون بالله ورساله . ويريدون ان يفرقوا بين الله ورساله ، ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، أولئك هم الكافرون حقاً ، وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورساله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيماً) وقال تعالى — يخاطب أهل الكتاب — : (ثم أتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ،

وهو محرم عليكم إخراجهم ، أفْتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟
فما جزاء من يفعل ذلك منكم الاخرى في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة
يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون (وقال تعالى :
(ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من
قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ؟
ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ، وإذا قيل لهم : تعالوا إلى
ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) وقال
تعالى : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالحجت
والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ،
أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) .

فدم الذين أوتوا قسطاً من الكتاب لما آمنوا بما خرج عن الرسالة
وفضلوا الخارجين عن الرسالة على المؤمنين بها : كما يفضل ذلك بعض
من يفضل الصابئة من الفلاسفة والدول الجاهلية — جاهلية الترك والديلم
والعرب والفرس وغيرهم — على المؤمنين بالله وكتابه ورسوله ، وكما ذم
المدعين الايمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة ،
ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله كما يصيب ذلك
كثيراً ممن يدعي الاسلام وينتحلّه في تحاكمهم إلى مقالات الصابئة
الفلاسفة أو غيرهم . أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة

الاسلام من ملوك الترك وغيرهم : وإذا قيل لهم : تعالوا إلى كتاب الله
 وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضاً : وإذا أصابتهم مصيبة في عقولهم
 ودينهم وديارهم بالشبهات والشهوات أو في نفوسهم وأموالهم عقوبة على
 نفاقهم قالوا إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق ونوفق بين
 « الدلائل الشرعية » و « القواطع العقلية » التي هي في الحقيقة ظنون
 وشبهات ، أو « الذوقية » التي هي في الحقيقة أوهام وخيالات (أولئك
 الذين يعلم الله ما في قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظمهم ، وقل لهم في
 أنفسهم قولاً بليغاً) إلى قوله : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك
 فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا
 تسليماً) وقال تعالى : (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى
 فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، وإذا دعوا إلى الله
 ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون) إلى قوله : (إنما كان
 قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا)
 الآية ، وقال تعالى : (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل
 علينا ، ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق مصدقاً لما معهم) .

وقد ذم الله سبحانه أهل التفرق والاختلاف في الكتاب الذين
 يؤمن كل منهم ببعضه دون بعض كما قال تعالى : (كان الناس أمة واحدة
 فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم

بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد
ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه
من الحق باذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) وقال
تعالى : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء)
وقال تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وقال تعالى :
(ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك
لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) قال ابن عباس :
تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة .
وقال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها
لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ،
منيبين إليه ، واتقوه ، واقيموا الصلاة ، ولا تكونوا من المشركين ، من
الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون) وقال
تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ،
وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ،
كبر على المشركين ما تدعوم إليه . الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدي
إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ولولا
كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم ، وان الذين أورثوا
الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ، فلذلك فادع واستقم كما
أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ،

وأمرت لأعدل بينكم : الله ربنا وربكم) .

فأمر الله نبيه أن يؤمن بجميع الكتب المنزلة : وان يعدل بين الناس كلهم فيعطي كل ذي حق حقه ، وينزع كل مبطل عن باطله : فان القسط والعدل في جميع أمور الدين والدنيا فيما جاء به ، وهو المقصود بارسال الرسل . وإنزال الكتب ، كما قال تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وقال تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير) الخ السورة .

وهاتان الآيتان قد ثبت في الصحيح « أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطيهما من كنز تحت العرش ، وانه لم يقرأ بشيء منها إلا أعطيه » وقد ثبت في الصحيح « أنه من قرأها في ليلة كفتاه » وقال تعالى : (قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ، فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وان تولوا فاعلموا هم في شقاق فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم) .

فصل

فلما كان في الأمم كفار ومنافقون يكفرون ببعض الرسالة دون بعض إما في القدر وإما في الوصف ، كما أن فيهم كفار ومنافقون يكفرون بأصل الرسالة ، وكان في الكفار بأصل الرسالة من قال : ان الرسول شاعر ، وساحر ، وكاهن ، ومعلم ، ومجنون ، ومفتري : كما كان رئيس قريش وفيلسوفها وحكيمها الوليد بن المغيرة الوحيد المذكور في قوله تعالى : (ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مآلاً ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعوداً : إنه فمكر وقدر . فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : ان هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر) .

فانه صنع الفيلسوف المخالف للرسول في تفكيره أولاً : الذي هو طلب الانتقال من تصور طرفي القضية إلى المبادئ الموجبة للتصديق ليظفر بالحد الأوسط ، ثم قدر ثانياً ، والتقدير هو « القياس » وهو الانتقال من المبادئ إلى المطلوب بالقياس المنطقي الشمولي : ولعمري

إنه لصواب إذا صحت مقدماته . وإن كانت نتيجة في الأغلب أموراً كلية ذهنية ، ثبوتها في الأذهان لا في الأعيان . كالعلوم الرياضية من الأعداد والمقادير : فإن العدد المجرد عن المعدود والمقدار المجرد عن الأجسام إنما يوجد في الذهن . لكن أُنسى وأُكثِر مقدماته في الإلهيات دعاوي يدعى فيها بعموم ؟ وأن القضية من المسلمات بلا حجة ، ومتى لم يكن في القياس قضية كلية معلومة لم تفد المطلوب وهم يلبسون المهملات التي هي في معنى الجزئيات بالكليات العامة المسلمات أو يدعى فيها العموم بنوع من قياس التمثيل .

ومعلوم أنه لا بد في كل قياس من « قضية كلية » وعامة « القضايا الكلية » التي لهم فيها المطالب الإلهية لا يعلم كونها كلية عامة ؛ إذ عمومها لا يعلم إلا بمجرد قياس التمثيل الذي قد يكون من أفسد القياس المقتضى لتشبيه الله بخلقه ، كما يقولون : الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، وليس معهم إلا تشبيه خالق السموات والأرض ورب العالمين بالطبائع ، كطبيعة الماء والنار ، مع أن الواحد الذي يثبتونه في الإلهيات ، وفي المنطق أيضاً الذين يجعلون قضية الأنواع مركبة منه وهو « الجنس » و « الفصل » لا حقيقة لها ولا توجد إلا في الأذهان لا في الأعيان ، وقد بسطنا الكلام على ذلك في مواضع .

وبينا أن ما يثبتونه من العقليات التي هي « الجواهر العقلية » المجردة

عن المادة ، وهي العقل والنفس ، والمادة والصورة التي ليست
بجسم ولا عرض لا حقيقة لها في الخارج ، وإنما تقدر في الأذهان ، لا في
الأعيان ، وكذلك ما يثبتونه من الواحد الذي يصفون به واجب الوجود
ومن الواحد الذي يجعلون الأنواع تتركب منه إنما يوجد في الأذهان
لا في الأعيان « والقياس العقلي » الذي يحتجون به لا بد فيه من
قضية كلية .

والقياس نوعان « قياس الشمول » و « قياس التمثيل » .

والناس متنازعون في مسمى « القياس » ف قيل هو حقيقة في التمثيل
مجاز في الشمول ، كما ذكر ذلك أبو حامد ، وأبو محمد المقدسي وغيرها
وقيل : هو حقيقة في عكس ذلك ، كما قاله ابن حزم وغيره من نفاة
قياس التمثيل ، وقيل : بل اسم القياس يتناولهما وهذا قول
جمهور الناس .

واسم « القياس العقلي » يدخل فيه هذا وهذا ؛ لكن من الناس
من ظن ان « قياس التمثيل » لا يفيد اليقين ، ولا يستعمل في العقليات
كما ذهب إليه أبو المعالي ، وأبو حامد ، والرازي ، وأبو محمد ، والآمدي
وآخرون من أهل المنطق . وأما الجمهور فعندهم كلا القياسين سواء ، وهذا
هو الصواب ؛ فان مآل القياسين إلى شيء واحد وإنما يختلف بترتيب

الدليل ؛ فان القائل إذا قال : النبيذ المتنازع فيه حرام ؛ لأنه مسكر ، فكان حراماً قياساً على خمر العنب ، فلا بد له أن يثبت أن السكر هو مناط التحريم ، وهو الذي يسمى في قياس التمثيل «مناطاً» و «علة» و «أمانة» و «مشاركاً» و «وضعا» ونحو ذلك .

ولا بد في القياس الصحيح من أن يقيم دليلاً على أن السكر مناط التحريم بحيث إذا وجد السكر وجد التحريم ، فاذا صاغ الدليل بقياس الشمول ، فان النبيذ مسكر وكل مسكر حرام ، فالسكر في هذا النظم هو الحد الأوسط المكرر ، وهو العلة في قياس التمثيل ، ولا بد له في هذا القياس من أن يثبت هذه القضية الكلية الكبرى ، وهي قوله : كل مسكر حرام ، فما به ثبتت هذه القضية في هذا النظم يثبت به أنه مناط التحريم في ذلك النظم لا فرق بينها .

وإذا قال القائل : إثبات تأثير الوصف وكونه مناط الحكم هو عمدة القياس ، وهو جواب « سؤال المطالبة » وبيان كون الوصف بالشمول هو مناط الحكم وهذا لا يثبت إلا بأدلة ظنية .

قليل له : وإثبات عموم القضية الكبرى في قياس الشمول هو عمدة القياس ؛ فان الصغرى في الغالب تكون معلومة ، كما يكون ثبوت الوصف في الفرع معلوماً ، وإذا كان ثبوت الوصف في الفرع قد يحتاج الى دليل ، كما قيل تحتاج

المقدمة الصغرى الى دليل ، وإثبات المقدمة الكبرى لا يتأتى إلا بأدلة ظنية .
ونفس ما به يثبت عموم القضية يثبت تأثير الوصف المشترك لا فرق
بينها أصلا ، واستعمال كلا القياسين في الأمور الالهية لا يكون إلا على
وجه الأولى والأخرى .

وبهذه « الطريقة » جاء القرآن ، وهى طريقة سلف الأمة
وأئمتها ، فان الله سبحانه لا يماثله شيء من الموجودات في « قياس
التمثيل » ولا أن يدخل في « قياس شمول » تماثل أفرادها ، بل ما ثبت
لغيره من الكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه فهو أحق به ،
وما نزه عنه غيره من النقائص فهو أحق بالتنزيه منه ، كما قال تعالى : (للذين
لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ، والله المثل الأعلى) وقال تعالى : (ضرب
لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت إيمانكم من شركاء فيما
رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟) .

وقد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع ، وبيننا أن
ما يستفاد بـ « القياس الشمولي » في عامة الأمور قد يستفاد بدون
ذلك فتعلم أحكام الجزئيات الداخلة في القياس بدون معرفة حكم القضية
الكلية ، كما إذا قيل : الكل أعظم من الجزء ، والضدان لا يجتمعان
فما من كل معين وضدين معنيين إلا وإذا علم أن هذا جزء هذا وان
هذا ضد هذا علم أن هذا أعظم من هذا وان هذا لا يجمع هذا

بدون أن يخطر بالبال قضية كلية ان كل ضدين لا يجتمعان وان كل
كلّ فهو أعظم من جزء . وكذلك إذا قيل النقيضان لا يجتمعان ولا
يرتفعان ، فها من نقيضين يعرف أنها نقيضان إلا ويعرف أنها لا يجتمعان
ولا يرتفعان بدون أن يستحضر أن كل نقيضين لا يجتمعان ، [ولا
يرتفعان] .

فعامة المطالب يستغنى فيها عن القياس المنطقي المتضمن للكبرى
الذي لا بد فيه من قضية كلية ، [و] الأمور المعينات لا تعلم بمجرد
القياس العقلي ، وإنما يعلم بالقياس القدر المشترك بينها وبين غيرها وهم
يسلمون ذلك ، وبيننا أن الأدلة الدالة على الصانع هي آيات تدل بنفسها
على نفسه المقدسة ، وبيننا الفرق بين دلالة الآيات ودلالة القياس ، وان
الأدلة أكمل وأنفع ، وطريقة القياس تابعة لها ودونها في المنفعة والكمال ،
والقرآن جاء بهذه وهذه ، ومعرفة الالهيات ، والنبوات وغيرها ، فتلک
الطريقة أكمل وأتم .

وهؤلاء يزعمون أنه لا ينال مطلوب فطري إلا بطريقة القياس
الذي لا بد فيه من قضية كلية ، والقضية الكلية لا تفيد إلا أمراً كلياً
عقلياً ، لا تفيد معرفة شيء معين ، وكل موجود فهو معين ، فكيف
يقول عاقل مع هذا أنه لا ينال علم إلا بهذه الطريق ؟ ! ثم انهم في
ضلالهم يظنون ان علم الأنبياء ، بل وعلم الرب سبحانه إنما حصل

بواسطة القياس المنطقي ، وان النبي له قوة حدسية يظفر بالحد الأوسط في القياس المنطقي بدون معلم فيكون أكمل من غيره فيجعلون علمه بالغيب من هذا الباب ولم يدرك بمثل هذا القياس علوم طبيعية أو حسابية ونحو ذلك ، فمن أين أنه لا ينال علم إلا به ؟ ومن أين أنه لا مواد يقينية إلا ما يدعيه المدعي مما عنده من الحدسيات المعتادة الظاهرة والباطنة ، والبدسيات المعتادة ، والمتواترات ، والمجربات المعتادة . والحدسيات المعتادة ، والحس الباطن ، والظاهر ، والتجربة ، ونحو ذلك لا يعلم بمجردة إلا أمر معين جزئي ، وذلك لا يصلح أن يكون مقدمة في القياس ، ولكن يعلم في العموم إما بواسطة قياس تمثيل ، وإما يعلم ضروري يحدثه الله في القلب ابتداء ، وإذا أحدث علماً ضرورياً عاماً لأفراد فاحداث العلم ببعض تلك الأفراد سهل فقل أن يستفاد بطريقهم علم بنتيجة إلا والعلم بالنتيجة فيه ممكن بالطريق الذي به عرفت المقدمات أو أسهل فلا يكون في قياسهم إلا زيادة تطويل وتهويل وتضليل .

وقد بسطنا الكلام على « المنطق اليوناني » بما فيه من حق وباطل ونافع وضار في غير هذا الموضع . ونفي العلم إلا بهذا القياس ، ونفي كون القياس يقينياً إلا بهذه المقدمات قول بلا علم ، وتكذيب بما لم يحط المكذب بعلمه ؛ ولهذا كانت الطريقة النبوية السلفية أن يستعمل في العلوم الإلهية « قياس الأولى » كما قال الله تعالى : (والله

المثل الأعلى) إذ لا يدخل الخالق والمخلوق تحت قضية كلية تستوي أفرادها . ولا يتماثلان في شيء من الأشياء بل يعلم ان كل كمال — لانقص فيه بوجه — ثبت للمخلوق فالخالق أولى به ، وكل نقص وجب نفيه عن المخلوق فالخالق أولى بنفيه عنه . وأمثال هذه « الأقيسة العقلية » التي من نوع الأمثال المضروبة في القرآن ، والله المثل الأعلى ، وقد بسطنا هذا في غير هذا الموضع .

فلما كان الكفار بالرسالة على ما ذكر جاء في الكفار ببعضها من شاركهم في بعض ذلك : فأنكرت الجهمية أن يكون الله يتكلم أو يقول أو يحب أو يبغض ، وأنكروا سائر صفاته التي جاءت بها الرسل . فأنكروا بعض حقيقة الرسالة التي هي كلام الله ، وأنكروا بعض ما في الرسالة من صفات الله .

وأول من أظهر ذلك في الاسلام — وإن كان ذلك موجوداً قبل الاسلام في أُمم أخرى — الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان ، وكان على ما قيل من أهل حران ، وكان فيهم أئمة الفلاسفة ، ومنهم تعلم أبو نصر الفارابي كثيراً مما تعلم من الفلسفة على ما ذكره عبد اللطيف ابن يوسف البغدادي ، فضحى بالجعد خالد بن عبد الله القسري بواسطة على عهد علماء التابعين وغيرهم من علماء المسلمين ، وهم بقايا التابعين في وقته : مثل الحسن البصري وغيره الذين حمدوه على ما فعل ، وشكروا ذلك فقال : أيها الناس . ضحوا تقبل الله ضحاياكم ؛ فاني مضح بالجعد

ابن درهم : انه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً — تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً — ثم نزل فذبحه .

وبنوا ذلك على قاعدة مبتدعة الصابئين المكذبين ببعض ما جاءت به الرسل الذين لا يصفون الرب إلا بالصفات السلبية أو الاضافية أو المركبة منها ، وهم في هذا التعطيل موافقون في الحقيقة لفرعون رئيس الكفار الذي جحد الصانع بالكلية ؛ فان جحد صفاته مستلزم لجحود ذاته ؛ ولهذا وافقوا فرعون في تكذيبه لموسى بأن ربه فوق السموات حيث قال : (يا هامان ابن لي صرحاً لعلى أبلغ الأسباب : أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه كاذباً) بخلاف محمد صلى الله عليه وسلم الذي صدق موسى لما عرج به إلى ربه ، وأخبر أنه وجد موسى هناك ، وأنه جعل يختلف بين ربه وبين موسى ، فحمد صلى الله عليه وسلم صدق موسى في أن ربه فوق السموات ، وفرعون كذبه في ذلك . والناس إما محمدي موسوي ، وإما فرعوني ؛ إذ فرعون كذب موسى في أن الله فوق ، وكذبه في أن الله كلمه ، كما أنكر وجود الصانع ، ومحمد صدق موسى في هذا كله .

وهؤلاء الصابئة المحضة من المتفلسفة يقولون : ان الله ليس له كلام في الحقيقة ؛ لكن كلامه — عند من أظهر الاقرار بالرسل منهم — ما يفيض على نفوس الأنبياء ، وهو أنه يحدث في نفوسهم من غير أن

يكون في الخارج عن نفوسهم لله عندهم كلام ، وهكذا كان الجهم يقول
أولاً : ان الله لا كلام له ، ثم احتاج أن يطلق أن له كلاماً لأجل
المسلمين فيقول : هو مجاز ؛ ولهذا كان الامام أحمد وغيره من الأئمة
يعامون مقصودهم ، وأن غرضهم التعطيل ، وأنهم زنادقة و « الزنديق »
المنافق .

ولهذا تجد مصنفات الأئمة يصفونهم فيها بالزندقة ، كما صنف الامام
أحمد « الرد على الزنادقة والجهمية » وكما ترجم البخاري آخر كتاب
الصحيح بـ « كتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية » وكان عبد الله
ابن المبارك يقول : انا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن
نحكي كلام الجهمية .

وتقول الصابئة المحضة — الذين آمنوا في الظاهر وآمنوا في الباطن
ببعض الكتاب — كلام الله اسم لما يفيض على قلب النبي من « العقل
الفعال » أو غيره و « ملائكة الله » اسم لما يتشكل في نفسه من
الصور النورانية وقد يقولون : إن جبريل هو « العقل الفعال » أو
هو ما يتمثل في نفسه من الصور الخيالية كما يراه النائم ؛ ولهذا يقول
هؤلاء : ان خاصة النبي التخيل ، وأن الأنبياء أظهروا خلاف ما أبطنوه
لمصلحة العامة ، ولم يفيدوا بكلامهم علماً ؛ لكن تخيلاً ينتفع به العامة ،
ويجعلون هذا من أفضل الأمور ، ويمدحون الأنبياء بذلك ، ويعظمونهم

وقد بسطنا الكلام على هذا في مواضع آخر .

وعندهم ليس خارجاً عن نفس النبي كلام ولا ملك كما يزعمه من يزعمه من المتفلسفة والصابئة المشركين ، وزعموا أنهم مؤمنون وقالوا أنهم يجمعون بين النبوة والفلسفة كما يفعل القارابي وابن سينا وغيرها من المتفلسفة والقرامطة الباطنية من الاسماعيلية ونحوهم الذين اخذوا معاني المتفلسفة الروم والفرس فأخرجوها في قالب التشيع والرفض . والامامية والزيدية وغيرهم من الشيعة يعلمون أنهم كفار .

ومثل ابن سبعين وأمثاله ممن أظهر التصوف على طريقة هؤلاء فهو يأخذ معانيهم يكسوها عبارات الصوفية ، والصوفية العارفون يعلمون أنهم كفار ، وان شيوخ الصوفية الكبار كالفضيل بن عياض ، وابراهيم ابن آدم ، وأبي سليمان الداراني ، وعمرو بن عثمان الشبلي ، والجنيد ابن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري ، وأبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي ونحوهم — رضي الله عنهم — كانوا من أعظم الناس تكفيراً لهؤلاء ؛ فان قول هؤلاء الزنادقة — وإن كان فيه إيمان من وجه آخر — فهؤلاء موافقون في الحقيقة لمقدمهم الوحيد الذي قال : (إن هذا إلا قول البشر) لكن ذاك كفر به كله ظاهراً وباطناً ، وهؤلاء قد يؤمنون به ظاهراً ، وقد يؤمنون باطناً ببعض صفاته : من أنه مطاع عظيم ، وانه رئيس النوع الانساني ، وأن هذا الكلام الذي

جاء به كلام عظيم القدر ، صادر عن نفس صافية كاملة العلم والعمل ، لها ثلاث خصائص تتفرد بها عن غيرها .

خصيصة قوة الحدس والعلم ، وخصيصة قوة التأثير في العالم السفلي بنفسه ، وخصيصة قوة التخيل المطابق للحقائق بحيث يسمع في نفسه الأصوات ، ويرى من الصور ما يكون خيالا للحقائق ، وانه يجوز إضافة كلامه إلى الله ، وتسميته كلام الله حيث هو أمر به أمراً خيالياً . وفي الحقيقة عندهم ما يفيض على سائر النفوس الصافية من العلوم والتكلمات هي أيضاً كلام الله مثل ما أنه كلام الله : لكن هو أشرف وخطابه دل على أنه رسول الخلق تجب عليهم طاعته : التي أخبرت بها الرسل لكن يطلقون عليه انه متكلم ؛ ولهذا يقولون : ان « النبوة » مكتسبة فطمع غير واحد منهم أن يصير نبياً كما طمع السهروردي وابن سبعين وغيرها من الملحدين .

وقد بينا أصول أقوالهم وفسادها في غير هذا الموضع مثل كلامنا على إبطال قولهم : ان معجزات الأنبياء قوى نفسانية .

وأما « المعتزلة » ونحوهم فيوافقونهم في أن الله لا يتكلم في الحقيقة التي يعلم الناس أن صاحبها يتكلم [بل كلامه] منفصل عنه ، ويزعمون ان ذلك حقيقة ، وليس كلامه عندهم إلا أنه خلق في الهواء أو غيره

أصواتاً يسمعها من يشاء من ملائكته وأنبيائه من غير أن يقوم بنفسه
كلام لا معنى ولا حروف ، وهم يتنازعون في ذلك المخلوق هل هو جسم
أو عرض أو لا يوصف بواحد منها .

ولما ظهر هؤلاء تكلم السلف من التابعين وتابعيهم في تكفيرهم
والرد عليهم بما هو مشهور عند السلف ، واطلع الأئمة الحذاق من
العلماء على أن حقيقة قول هؤلاء هو التعطيل والزندقة ، وإن كان
عوامهم لا يفهمون ذلك ، كما اطلعوا على أن حقيقة قول القرامطة
والإسماعيلية هو التعطيل والزندقة ، وإن كان عوامهم إنما يدينون بالرفض ،
وجرت فتنة الجهمية ، كما امتحنت الأئمة ، وأقام « الإمام أحمد » إمام
السنة ، وصديق الأمة في وقته ، وخليفة المرسلين ، ووارث النبيين ،
فثبت الله به الإسلام والقرآن : وحفظ به على الأمة العلم والإيمان ،
ودفع به أهل الكفر والنفاق والطغيان الذين آمنوا ببعض الكتاب
وكفروا ببعض .

فاستقر أهل السنة وجهاهير الأمة وأهل الجماعة وأعلام الملة في
شرقها وغربها على الإيمان الذي جاءت به الرسل عن الله وجاء به خاتم
النبيين مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه ، وهو أن القرآن
والتوراة والإنجيل كلام الله ، وأن كلام الله لا يكون مخلوقاً منفصلاً عنه ،
كما لا يكون كلام المتكلم منفصلاً عنه ؛ فإن هذا نجحود لكلامه الذي

هو رسالته : ودفع لحقيقة ما أنبأت به الرسل وعلمته أمهم ، والحاد في أسماء الله وآياته وتمثيل له بالمعدوم والموات ؛ فان الحياة والعلم والقدرة والكلام ونحو ذلك صفات كمال ، والرب تعالى أحق بكل كمال ، فيمتنع أن يثبت للمخلوق كمال إلا والخالق أحق به ، كما يمتنع أن ينزله المخلوق عن نقص إلا والخالق أحق بنزله منه ، كيف وهو خالق الكمال للكاملين .

و « أيضا » فمن لم يتصف بصفات الكمال من الحياة والعلم والسمع والبصر والقدرة والكلام وغير ذلك فاما أن يكون قابلا للاتصاف بذلك ولم يتصف به ، أو غير قابل للاتصاف به . فان قبله ولم يتصف به كان موصوفا بصفات النقص : كاللوت والجهل والعمى والصمم والعجز والبكم باتفاق العقلاء ؛ فأنهم متفقون على ان القابل لهذا ولهذا متى لم يتصف بأحدهما اتصف بالآخر ، وان قيل : إنه لا يقبل الاتصاف بهذه الصفات كان أنقص من القابل الذي لم يتصف بها . فالحيوان الذي يكون تارة سمعاً وتارة أصم ، وتارة بصيراً وتارة أعمى ، وتارة متكلاً وتارة أخرس ، أكمل من الجماد الذي لا يقبل أن يكون لا هذا ولا هذا .

فمن لم يصفه بصفات الكمال لزمه إما أن يصفه بهذه النقائص ، أو يكون أنقص ممن وصف بهذه النقائص . وذلك أن « المتفلسفة »

أُصطلحوا على تقسيم « المتقابلين بالنفي والاثبات » إلى النقيضين : وإلى ما يسمونه « العدم والملكية » فـ « العدم » عندهم سلب الشيء عما من شأنه أن يكون متصفاً به كالعمى والخرس ؛ فانه عدم البصر والكلام عما من شأنه أن يكون بصيراً متكلماً . فأما الجماد فلا يسمونه لا بهذا ولا بهذا .

« وشبهتهم » لبست على طائفة من أهل النظر ، فظنوا أنه إذا لم يوصف بصفات الكمال من الحياة والعلم والسمع والبصر والكلام لم يلزم أن يتصف بصفات النقص لأنها متقابلان تقابل « العدم والملكية » ، لا تقابل النقيضين .

فيقال لهم : هذا أولاً اصطلاح لكم ، وإلا فغيركم يسمى الجماد ميتاً ومواتاً ونحو ذلك . كما في مثل قوله : (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، أموات غير أحياء) .

ويقال لهم : « ثانياً » النظر في المعاني العقلية : ومعلوم أن عدم هذه الصفات يستلزم النقص الثابت بعدمها .

ويقال لهم « ثالثاً » : إذا قلتم لا يتصف بواحد منها لكونه لا يقبل ذلك ، فهذا النقص أعظم من نقص العمى والصمم والبكم ؛ فأنما لا يقبل

الاتصاف بصفات الكمال أنقص ممن هو قابل لها يمكن اتصافه بها ؛
فانه منه بدأ ؛ لا كما يقوله الصابئة ومن وافقهم من الجهمية : انه ابتداءً
من نفس النبي أو من « العقل الفعال » أو من « الهواء » بل هو
تنزيل من حكيم حميد ، وانه إليه يعود إذا أسري به من المصاحف
والصدور .

وصار « الامام أحمد » علماً لأهل السنة الجائين بعده من جميع
الطوائف : كلهم يوافقونه في جمل أقواله ، وأصول مذاهبه ؛ لأنه حفظ
على الأمة الايمان الموروث ، والأصول النبوية — ممن أراد أن يحرفها
ويبدلها — ولم يشرع ديناً لم يأذن الله به ، والذي قاله هو الذي يقوله
سائر الأئمة الأعيان ، حتى إن أعيان أقواله منصوبة عن أعيانهم ؛
لكن جمع متفرقها ، وجاهد مخالفها . وأظهر دلالة الكتاب والسنة
عليها ، ومقالاته ومقالات الأئمة قبله وبعده في الجهمية كثيرة مشهورة .

و « الجهمية » هم نفاة صفات الله ، المتبعون للصابئة الضالة .
وصارت فروع التجهم تجول في نفوس كثير من الناس . فقال بعض
من كان معروفاً بالسنة والحديث : ولا نقول مخلوق ، ولا غير مخلوق
بل نقف ، وباطن أكثرهم موافق للمخلوقية ولكن كان المؤمنون أشد
رهبة في صدورهم من الله .

و « طائفة أخرى » قالت : نقول كلام الله الذي لم ينزله غير مخلوق ، وأما القرآن الذي أنزله على رسوله وتلاه جبريل ومحمد والمؤمنون فهو مخلوق ، وهؤلاء هم « اللفظية » . فصارت الأمة تفرع إلى إمامها إذ ذاك ، فيقول لهم أحمد : افرقت الجهمية على « ثلاث فرق » فرقة تقول : القرآن مخلوق ، وفرقة تقول كلام الله وتسكت ، وفرقة تقول : ألفاظنا وتلاوتنا للقرآن مخلوقة . فان حقيقة قول هؤلاء ان القرآن الذي نزل به جبريل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو قرآن مخلوق لم يتكلم الله به ، وكان لهؤلاء شبهة كون أفعالنا وأصواتنا مخلوقة ونحن إنما نقرأ بحركاتنا وأصواتنا ، وربما قال بعضهم ما عندنا إلا ألفاظنا وتلاوتنا ، وما في الأرض قرآن إلا هذا ، وهذا مخلوق .

فقابلهم قوم أرادوا تقويم السنة فوقعوا في البدعة ، وردوا باطلا بباطل ، وقابلوا الفاسد بالفاسد ، فقالوا : تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة ، وألفاظنا به غير مخلوقة ؛ لأن هذا هو القرآن ، والقرآن غير مخلوق ، ولم يفرقوا بين الاسم المطلق والاسم المقيد في الدلالة ، وبين حال المسمى إذا كان مجرداً وحاله إذا كان مقروناً مقيداً . فأنكر الإمام أحمد أيضاً على من قال : ان تلاوة العباد وقراءتهم وألفاظهم وأصواتهم غير مخلوقة ، وأمر بهجران هؤلاء ، كما جهم الأولين وبدعهم . والنقل عنه

بذلك من رواية ابنه عبد الله وصالح والمروزي وفوران وأبي طالب وأبي بكر بن صدقة وخلق كثير من أصحابه وأتباعه .

وقد قام أخص أتباعه « أبو بكر المروزي » بعد مماته في ذلك ، وجمع كلامه وكلام الأئمة من أصحابه وغيرهم : مثل عبد الوهاب الوراق ، والأثرم ، وأبي داود السجستاني ، والفضل بن زياد ، ومثنى بن جامع الأنباري ، ومحمد بن اسحاق الصنعاني ، ومحمد بن سهل بن عسكر ، وغير هؤلاء من علماء الاسلام . وبين بدعة هؤلاء الذين يقولون إن تلاوة العباد وألفاظهم بالقرآن غير مخلوقة .

وقد ذكر ذلك الخلال في « كتاب السنة » وبسط القول في ذلك . قال الخلال : أخبرني أبو بكر المروزي . قال : بلغ أبا عبد الله عن أبي طالب أنه كتب الى اهل نصيبين : ان لفظي بالقرآن غير مخلوق ، قال أبو بكر : فجاءنا صالح بن أحمد . فقال : قوموا الى أبي ، فجئنا فدخلنا على أبي عبد الله ، فاذا هو غضبان شديد الغضب ، قد تبين الغضب في وجهه ، فقال : اذهب فجئت بأبي طالب . فجئت به ، ففقد بين يدي أبي عبد الله : وهو يرعد . فقال : كتبت الى اهل نصيبين تخبرهم غي أبي قلت : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ !! فقال : إنما حكيت عن نفسي ، قال : فلا يحل هذا عنك ولا عن نفسي . فما سمعت عالماً قال هذا . قال أبو عبد الله : القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف ، فقل لأبي طالب : اخرج وأخبر

أن أبا عبد الله قد نهى أن يقال لفظي بالقرآن غير مخلوق . فخرج أبو طالب فلقى جماعة من المحدثين فأخبرهم : أن أبا عبد الله نهى أن يقول لفظي بالقرآن غير مخلوق .

ومع هذا فكل واحدة من « الطائفتين » الذين يقولون لفظنا بالقرآن غير مخلوق والذين يقولون لفظنا وتلاوتنا مخلوقة ينتحل أبا عبد الله وتحكى قولها عنه وتزعم أنه كان على مقالتها ، لأنه إمام مقبول عند الجميع ؛ ولأن الحق الذي مع كل طائفة يقوله أحمد ، والباطل الذي تنكره كل طائفة على الأخرى يرده أحمد . فمحمد بن داود المصيصي أحد علماء الحديث وأحد شيوخ أبي داود ، وجماعة في زمانه كأبي حاتم الرازي وغيره يقولون : لفظنا بالقرآن غير مخلوق ، وتبعهم طائفة على ذلك : كأبي عبد الله بن حامد ، وأبي نصر السجزي ، وأبي عبد الله بن منده ، وشيخ الاسلام أبي اسماعيل الانصاري ، وأبي العلاء الهمداني ، وأبي الفرج المقدسي ، وغير هؤلاء يقولون : ان ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة ، ويروون ذلك عن أحمد ، وأنه رجع إلى ذلك ، كما ذكره أبو نصر في كتابه « الابانة » وهي روايات ضعيفة بأسانيد مجهولة لا تعارض ما تواتر عنه عند خواص أصحابه ، وأهل بيته ، والعلماء الثقات لاسيما وقد علم أنه في حياته خطأ أبا طالب في النقل عنه حتى رده أحمد عن ذلك وغضب عليه غضباً شديداً .

وقد رأيت بعض هؤلاء طعن في تلك النقول الثابتة عنه . ومنهم من حرفها لفظاً ، وأما تحريف معانيها فذهب إليه طوائف فأما الذين ثبتوا النقل عنه ووافقوه على إنكاره الأمرين وهم جمهور أهل السنة ومن انتسب إليهم من أهل الكلام كأبي الحسن الأشعري وأمثاله فانه ذكر في « مقالات أهل السنة والحديث » انهم ينكرون على من قال : لفظي بالقرآن مخلوق ، ومن قال : لفظي به غير مخلوق ، وأنه يقول بذلك .

لكن من هؤلاء من تأول كلام أحمد وغيره في ذلك بأنه منع أن يقال : ان القرآن يلفظ به ، وهذا قاله الأشعري وابن الباقلاني والقاضي أبو يعلى وأتباعه ، كأبي الحسن بن الزاغوني وأمثاله .

ثم هؤلاء الذين تأولوا كلامه على ذلك منهم من قال : المعنى الذي أنكره أحمد على من قال لفظي بالقرآن مخلوق كما فعل ذلك الأشعري وأتباعه . ومنهم من قال : بل المعنى الذي أنكره أحمد على من قال لفظي به غير مخلوق كما فعل ذلك القاضي وابن الزاغوني وأمثاله ؛ فان أحمد وسائر الأئمة ينكرون أن يكون شيء من كلام الله مخلوقاً حروفاً أو معانيه ، أو أن يكون معنى التوراة هو معنى القرآن ، وأن كلام الله إذا عبر عنه بالعربية يكون قرآناً ، وإذا عبر عنه بالعبرانية يكون هو التوراة . وينكرون أن يكون القرآن المنزل ليس هو كلام الله ، أو ان يطلق

القول على ما هو كلام الله بأنه مخلوق : وأحمد والأئمة ينكرون على من يجعل شيئاً من أفعال العباد أو اصواتهم غير مخلوق ؛ فضلاً عن أن يكون قديماً ! وكلام أحمد في « مسألة التلاوة والايان والقرآن » من نمط واحد منع إطلاق القول بأن ذلك مخلوق ؛ لأنه يتضمن القول بأن من صفات الله ما هو مخلوق ، ولما فيه من الذريعة ، ومنع أيضاً إطلاق القول بأنه غير مخلوق لما في ذلك من البدعة والضلال .

ولما كان أحمد قد صار هو إمام السنة كان من جاء بعده ممن ينتسب إلى السنة يتحله إماماً كما ذكر ذلك الأشعري في « كتاب الإبانة » وغيره فقال إن قال قائل : قد انكرتم قول « الجهمية » و « المعتزلة » و « الخوارج » و « الروافض » و « المرجئة » فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون .

قيل له : قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا وسنة نبينا ، وما روي عن الصحابة والتابعين ، وبما كان يقول به أبو عبد الله « أحمد بن حنبل » قائلون ، ولما خالفه مجانبون ؛ فانه الامام الكامل ، والرئيس الفاضل الذي أبان الله به الحق ، وأوضح به المنهاج ، وقع به بدع المبتدعين ، وزيف الزائعين ، وشك الشاكين ، وذكر جملا من المقالات .

فلهذا صار من بعده متنازعين في هذا الباب . « فالتائفة » الذين يقولون لفظنا وتلاوتنا غير مخلوقة ينتسبون إليه ، ويزعمون ان هذا آخر قوله . أو يطعنون فيها يناقض ذلك عنه . أو يتأولون كلامه بما لم يردده .

و « الطائفة » الذين يقولون ان التلاوة مخلوقة ، والقرآن المنزل الذي نزل به جبريل مخلوق ، وان الله لم يتكلم بحروف القرآن : يقولون : ان هذا قول أحمد ، وأنهم موافقوه ، كما فعل ذلك أبو الحسن الأشعري . فيما ذكره عن أحمد ، وفسر به كلامه ، وذكر انه موافقه ، وكما ذكر القاضي أبو بكر الباقلاني في تنزيه أصحابه من مخالفة السنة وأئمتها كالامام أحمد ، وكما فعله أبو نعيم الاصبهاني في كتابه المعروف في ذلك ، وكما فعله أبو ذر المروزي ، والقاضي عبد الوهاب المالكي ، وكما فعله أبو بكر البيهقي في الاعتقاد في مناقب الامام أحمد . وروى عنه أنه قال لفظي بالقرآن مخلوق وتأول ما استفاد عنه من الإنكار على من قال لفظي بالقرآن [غير] مخلوق على أنه أراد الجهمي المحض الذي يزعم أن القرآن الذي لم ينزل مخلوق .

وكذلك أيضا افتري بعض الناس على البخاري الامام صاحب « الصحيح » أنه كان يقول : لفظي بالقرآن مخلوق ، وجعلوه من « اللفظية » . حتى وقع بينه وبين أصحابه : مثل محمد بن يحيى الذهلي .

وأبي زرعة ، وأبي حاتم ، وغيرهم بسبب ذلك . وكان في القضية أهواء وظنون : حتى صنف « كتاب خلق الأفعال » وذكر فيه ما رواه عن أبي قدامة ، عن يحيى بن سعيد القطان أنه قال : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : أفعال العباد مخلوقة . وذكر فيه ما يوافق ما ذكره في آخر كتابه « الصحيح » من أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وإن الله يتكلم بصوت ، وينادي بصوت . وساق في ذلك من الأحاديث الصحيحة والآثار ما ليس هذا موضع بسطه ، وبين الفرق بين الصوت الذي ينادي الله به وبين الصوت الذي يسمع من العباد ، وإن الصوت الذي تكلم الله به ليس هو الصوت المسموع من القارئ ، وبين دلائل ذلك ، وأن أفعال العباد وأصواتهم مخلوقة ، والله تعالى بفعله وكلامه غير مخلوق .

وقال في قوله : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) إن حديثه ليس كحدث المخلوقين . وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحدث من أمره ما شاء ، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة » وذكر عن علماء السلف : أن خلق الرب للعالم ليس هو المخلوق : بل فعله القائم به غير مخلوق ، وذكر عن نعيم بن حماد الخزازي : أن الفعل من لوازم الحياة ، وإن الحي لا يكون إلا فعلا . إلى غير ذلك من المعاني التي تدل على علمه وعلم السلف بالحق الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول .

وذكر أن كل واحدة من طائفتي « اللفظية المثبتة والنافية » تنتحل أبا عبد الله ، وأن أحمد بن حنبل كثير مما ينقل عنه كذب ، وأنهم لم يفهموا بعض كلامه لدقته وغموضه ، وأن الذي قاله وقاله الإمام أحمد هو قول الأئمة والعلماء ، وهو الذي دل عليه الكتاب والسنة .

ورأيت بخط القاضي أبي يعلى — رحمه الله — على ظهر « كتاب العدة » بخطه ، قال : نقلت من آخر « كتاب الرسالة » للبخاري في ان القراءة غير المقروء . وقال : وقع عندي عن أحمد بن حنبل على اثنين وعشرين وجها كلها يخالف بعضها بعضا ، والصحيح عندي أنه قال ما سمعت علما يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، قال واftرق اصحاب أحمد ابن حنبل على نحو من خمسين . قال أبو عبد الله البخاري قال ابن حنبل « اللفظي » الذي يقول : القرآن بألفاظنا مخلوق .

وكان « ايضاً » قد نبغ في أواخر عصر أبي عبد الله من الكلاية ونحوهم — أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري : الذي صنف مصنفات رد فيها على الجهمية والمعتزلة وغيرهم ، وهو من متكلمة الصفاتية . وطريقته يميل فيها الى مذهب أهل الحديث والسنة : لكن فيها نوع من البدعة : لكونه أثبت قيام الصفات بذات الله ولم يثبت قيام الامور الاختيارية بذاته : ولكن له في الرد على الجهمية — نفاة الصفات والعلو — من الدلائل والحجج وبسط القول ما بين به فضله

في هذا الباب ، وافساده لمذاهب نفاة الصفات بأنواع من الأدلة والخطاب .
وصار مذكروه معونة ونصيراً وتخليصاً من شبههم لكثير من أولى الألباب .
حتى صار قدوة وإماماً لمن جاء بعده من هذا الصنف الذين أثبتوا
الصفات ، وناقضوا نفاتها ؛ وإن كانوا قد شركوهم في بعض أصولهم
الفاسدة : التي أوجبت فساد بعض مآلوه من جهة المعقول ، ومخالفته
لسنة الرسول .

وكان ممن اتبعه الحارث المحاسبي ، وأبو العباس القلانسي ، ثم أبو
الحسن الأشعري ، وأبو الحسن بن مهدي الطبري ، وأبو العباس الضبي ،
وأبو سليمان الدمشقي ، وأبو حاتم البستي ، وغير هؤلاء : المثبتين للصفات ،
المنتسبين إلى السنة والحديث ، المتلقين بنظار أهل الحديث .

وسلك طريقة ابن كلاب - في الفرق بين « الصفات اللازمة » كالحياة
و « الصفات الاختيارية » وإن الرب يقوم به الأول دون الثاني - كثير
من المتأخرين : من أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد : كالتميمين أبي
الحسن التميمي ، وابنه أبي الفضل التميمي ، وابن ابنه رزق الله التميمي ،
وعلى عقيدة الفضل التي ذكر أنها عقيدة أحمد اعتمد أبو بكر البيهقي
فيما ذكره من مناقب أحمد من الاعتقاد .

وكذلك سلك طريقة ابن كلاب هذه أبو الحسن بن سالم واتباعه

« السالمية » والقاضي أبو يعلى وأتباعه : كابن عقيل ، وأبي الحسن بن الزاغوني ، وهي طريقة أبي المعالي الجويني . وأبي الوليد الباجي ، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم ؛ لكنهم اختلفوا في القرآن : وفي بعض المسائل على قولين — بعد اشتراكهم في الفرق الذي قرره ابن كلاب — كما قد بسط كلام هؤلاء في مواضع آخر .

والامام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة كانوا يحذرون عن هذا الأصل الذي أحدثه ابن كلاب ، ويحذرون عن أصحابه ، وهذا هو سبب تحذير الامام أحمد عن الحارث المحاسبي ونحوه من الكلاية .

ولما ظهر هؤلاء ظهر حينئذ من المنتسبين إلى إثبات الصفات من يقول : إن الله لم يتكلم بصوت ، فانكر أحمد ذلك ، وجهم من يقوله ، وقال : هؤلاء الزنادقة إنما يدورون على التعطيل ، وروى الآثار في أن الله يتكلم بصوت ، وكذلك انكر على من يقول إن الحروف مخلوقة ، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل في « كتاب السنة » : قلت لأبي : إن هنا من يقول إن الله لا يتكلم بصوت ، فقال : يابني ! هؤلاء جهمية زنادقة . إنما يدورون على التعطيل ، وذكر الآثار في خلاف قولهم .

وكذلك البخاري صاحب « الصحيح » وسائر الأئمة أنكروا ذلك أيضاً ، وروى البخاري في آخر « الصحيح » وفي « كتاب خلق الأفعال » ما جاء في ذلك من الآثار . وبين الفرق بين صوت الله الذي يتكلم به وبين أصوات العباد بالقرآن . موافقة منه للإمام أحمد وغيره من الأئمة ، حيث بين أن الله يتكلم بصوت كما جاءت به الآثار ، وأن ذلك ليس صوت العبد بالقراءة ؛ بل ذلك هو صوت العبد ، كما قد نص على ذلك كله في مواضع ، وعامة أئمة السنة والحديث على هذا الإثبات والتفريق : لا يوافقون قول من يزعم أن الكلام ليس فيه حرف ولا صوت ، ولا يوافقون قول من يزعم أن الصوت المسموع من القراءة والفاظهم قديمة ، ولا يقولون : أن القرآن ليس إلا الحروف والأصوات .

وقد كتبت كلام « الإمام أحمد » ونصوحه ، وكلام الأئمة قبله وبعده في غير هذا الموضع : فإن جواب هذه « المسألة » لا يحتمل البسط الكثير ؛ ولم يكن في كلام الإمام أحمد ولا الأئمة أن الصوت الذي تكلم الله به قديم ؛ بل يقولون لم يزل الله متكلماً ، وقد يقولون لم يزل الله متكلماً إذا شاء بما شاء ، كما يقول ذلك الإمام أحمد ، وابن المبارك ، وغيرها .

وكذلك قد تنازع الناس في زمنهم وبعده - من أصحابهم وغيرهم - في معنى كون القرآن غير مخلوق هل المراد به أن نفس الكلام قديم

أزلي كالعلم ؟ أو أن الله لم يزل موصوفاً بأنه متكلم يتكلم إذا شاء ؟
على قولين . ذكرها الحارث المحاسبي عن أهل السنة ، وأبو بكر عبد
العزيز في « كتاب الشافي » عن أصحاب الامام أحمد ، وذكرها أبو عبد الله
ابن حامد في كتابه « أصول الدين » . والنزاع في ذلك بين سائر طوائف
السنة والحديث ، وهذا مبني على أصل « الصفات الفعلية الاختيارية »
والنزاع فيه بين جميع الطوائف من أهل الحديث والسنة والفقهاء والتصوف
ومن دخل معهم من أهل المذاهب الأربعة وبين سائر الفرق ، حتى بين
الفلاسفة أيضاً . وقد حققت ذلك في غير هذا الموضع .

وهذا منشأ نزاع الذين وافقوا السلف على أن القرآن كلام الله
غير مخلوق ؛ فإن هؤلاء تنازعوا في أن الرب هل يتكلم بمشيئته
وقدرته ؟ على قولين . فالذين وافقوا ابن كلاب قالوا : إنه لا يتكلم
بمشيئته وقدرته ؛ بل كلامه لازم لذاته كحياته ، ثم من هؤلاء من عرف
أن الحروف والأصوات لا تكون قديمة العين فلم يمكنه أن يقول : القديم
هو الحروف والأصوات ؛ لأنها لا تكون إلا متعاقبة ، والصوت لا يبقى
زمانين ، فضلاً عن أن يكون قديماً . فقال : القديم هو معنى واحد ، لا متنازع
معاني لانتهاء لها ، وامتناع التخصيص بعدد دون عدد . فقالوا : هو
معنى واحد . وقالوا : إن الله لا يتكلم بالكلام العربي والعبري ،
وقالوا : إن معنى التوراة والإنجيل والقرآن وسائر كلام الله معنى واحد ،

ومعنى آية الكرسي وآية الدين معنى واحد . إلى غير ذلك من اللوازم التي يقول جمهور العقلاء إنها معلومة الفساد بضرورة العقل ، ومن هؤلاء من عرف ان الله تكلم بالقرآن العربى والتوراة العبرية ، وانه نادى موسى بصوت وينادى عباده بصوت ، وان القرآن كلام الله حروفه ومعانيه : لكن اعتقدوا مع ذلك انه قديم العين ، وان الله لم يتكلم بمشيئته وقدرته . فالتزموا انه حروف واصوات قديمة الأعيان لم تزل ولا تزال ، وقالوا : إن الباء لم تسبق السين ، والسين لم تسبق الميم : وان جميع الحروف مقترنة بعضها ببعض اقتراناً قديماً أزلياً لم يزل ولا يزال ، وقالوا : هي مترتبة فى حقيقتها وماهيتها غير مترتبة فى وجودها . وقال كثير منهم : انها مع ذلك شيء واحد ، الى غير ذلك من « اللوازم » التي يقول جمهور العقلاء انها معلومة الفساد بضرورة العقل .

ومن هؤلاء من يقول : هو قديم ، ولا يفهم معنى القديم . فاذا سئل عن ذلك قال : هي قديمة فى العلم ، ولا يعلم ان المخلوقات كالسما والأرض بهذه المثابة مع أنها مخلوقة . ومنهم من يقول : قديم بمعنى أنه متقدم على غيره ، ولا يعرف ان الذين قالوا : انه مخلوق لا ينازعون فى أنه قديم بهذا المعنى ، ومنهم من يقول : ان مرادنا بأنه قديم أنه غير مخلوق ، ولا يفهم انه مع ذلك يكون أزلياً لم يزل . وهؤلاء ستمعروا

ممن يوافقهم على أنه غير مخلوق : قالوا هو قديم . فوافقوا على أنه قديم . ولم يتصوروا ما يقولونه .

كما أن من الناس من قال : هو غير مخلوق . وأراد بذلك أنه غير مكذوب ، وهذا مما لم يتنازع فيه الناس ، كما لم يتنازعوا في أنه قديم بمعنى أنه متقدم على غيره .

و « القول الثاني » قول من يقول إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته مع أن كلامه غير مخلوق . وهذا قول جماهير أهل السنة والنظر ، وأئمة السنة والحديث ، لكن من هؤلاء من اعتقد أن الله لم يكن يمكنه أن يتكلم في الأزل بمشيئته ، كما لم يكن يمكنه عندهم ان يفعل في الأزل شيئاً ، فالتزموا أنه تكلم بمشيئته بعد أن لم يكن متكلماً ، كما أنه فعل بعد أن لم يكن فاعلاً ، وهذا قول كثير من أهل الكلام والحديث والسنة .

وأما السلف والأئمة فقالوا : ان الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، وإن كان مع ذلك قديم النوع — بمعنى أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ؛ فان الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يكون متكلماً بمشيئته وقدرته ، ومن لا يزال متكلماً بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام ممكناً له بعد ان يكون ممتنعاً منه ، او قدر أن ذلك ممكن : فكيف إذا

كان ممتعا؟ لامتناع ان يصير الرب قادراً بعد ان لم يكن ، وأن يكون التكلم والفعل ممكنا بعد أن كان غير ممكن؟ كما قد بسط هذا في مواضع آخر.

وكانت « اللفظية الخلقية » من أهل الحديث يقولون : نقول : ان ألفاظنا بالقرآن مخلوقة ، وان التلاوة غير المتلو . والقراءة غير المقروء . و « اللفظية المثبتة » يقولون : نقول : ان الفاظنا بالقرآن غير مخلوقة . والتلاوة هي المتلو ، والقراءة هي المقروء .

وأما المنصوص الصريح عن الامام أحمد ، وأعيان أصحابه ، وسائر أئمة السنة والحديث فلا يقولون مخلوقة ولا غير مخلوقة ، ولا يقولون التلاوة هي المتلو مطلقاً ، ولا غير المتلو مطلقاً كما لا يقولون : الاسم هو المسمى ، ولا غير المسمى .

وذلك أن « التلاوة ، والقراءة » كاللفظ قد يراد به مصدر تلى يتلو تلاوة ، وقرأ يقرأ قراءة ، ولفظ يلفظ لفظاً ، ومسمى المصدر هو فعل العبد وحركاته ، وهذا المراد باسم التلاوة والقراءة ، واللفظ مخلوق ، وليس ذلك هو القول المسموع : الذي هو المتلو . وقد يراد باللفظ الملفوظ ، وبالتلاوة المتلو ، وبالقراءة المقروء ، وهو القول المسموع . وذلك هو المتلو ، ومعلوم ان القرآن المتلو : الذي يتلوه العبد . ويلفظ

به غير مخلوق ، وقد يراد بذلك مجموع الأمرين . فلا يجوز إطلاق
الخلق على الجميع ولا نفي الخلق عن الجميع .

وصار « ابن كلاب » يريد بالتلاوة القرآن العربي ، وبالتلو المعنى
القائم بالذات ، وهؤلاء إذا قالوا : التلاوة غير المتلو ، وهي مخلوقة : كان
مرادهم ان الله لم يتكلم بالقرآن العربي ، بل عندهم أن القرآن العربي
مخلوق . وهذا لم يقله أحد من أئمة السنة والحديث . ويظن هؤلاء أنهم
يوافقون البخاري او غيره ممن قد يفرق بين التلاوة والمتلو ، وليس
الأمر كذلك .

ومن الآخرين من يقول : « التلاوة » هي المتلو ، ويريد بذلك ان
نفس ما تكلم الله به من الحروف والأصوات هو الأصوات المسموعة من
القراء ، حتى يجعل الصوت المسموع من العبد هو صوت الرب ، وهؤلاء
يقولون : نفس صوت المخلوق وصفته هي عين صفة الخالق ، وهؤلاء
« اتحادية ، حلولية في الصفات » يشبهون النصارى من بعض الوجوه ،
وهذا لم يقله أحد من أئمة السنة .

ويظن هؤلاء أنهم يوافقون أحمد واسحق وغيرها ممن ينكر على
« اللفظية » وليس الأمر كذلك : فلهذا كان المنصوص عن الامام احمد
وأئمة السنة والحديث انه لا يقال : ألفاظنا بالقرآن مخلوقة ، ولا غير

مخلوقة . ولا ان التلاوة هي المتلو مطلقاً ، ولا غير المتلو مطلقاً ؛ فان اسم القول والكلام قد يتناول هذا وهذا : ولهذا يجعل الكلام قسماً للعمل ليس قسماً منه في مثل قوله تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب . والعمل الصالح يرفعه) . وقد يجعل قسماً منه كما في قوله : (فوركب لنساءهم أجمعين عما كانوا يعملون) . قال طائفة من السلف عن قول لا إله إلا الله ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والليل فقال رجل لو أن لي مثل مالفلان لعملت فيه مثل ما يعمل » ولهذا تنازع أصحاب أحمد فيمن حلف لا يعمل اليوم عملاً هل يحث بالكلام ؟ على قولين . ذكرها القاضي أبو يعلى وغيره .

ولم تكن « اللفظية الخلقية » ينكرون كون القرآن كلام الله حروفه ومعانيه وان الله يتكلم بصوت : بل قد يقولون : القرآن كله كلام الله حروفه ومعانيه ؛ فان الله يتكلم بصوت ، كما نص عليه أحمد والبخاري وغيرهما من الأئمة ، وكما جاءت به الآثار ؛ ولكن يقولون المنزل إلى الأرض من الحروف والمعاني ليس هو نفس كلام الله الذي ليس بمخلوق ؛ بل ربما سموها حكاية عن كلام الله ، كما يقوله ابن كلاب ، أو عبارة عن كلام الله كما يقوله الأشعري ، وربما سموها كلام الله ؛ لأن المعنى مفهوم عندهم .

ولكن لما حدث أبو محمد بن كلاب وناظر المعتزلة بطريق قياسية سلم لهم فيها أصولاً — هم واضعوها : من امتناع تكلمه تعالى بالحروف ، وامتناع قيام « الصفات الاختيارية » بذاته مما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال والكلام وغير ذلك ؛ لأن ذلك يستلزم أنه لم يخل من الحوادث ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث — اضطره ذلك إلى ان يقول : ليس كلام الله إلا مجرد المعنى ، وإن الحروف ليست من كلام الله ، وتابعه على ذلك أبو الحسن الأشعري ؛ وإن تنازعا في أن الرب كان في الأزل أحراً ناهياً ، أو صار أحراً ناهياً بعد أن لم يكن . وفي أن « الكلام » هل هو صفة واحدة كما يقوله الأشعري ، أو خمس صفات كما يقوله ابن كلاب .

وصار هؤلاء مخالفين لأئمة السنة والحديث في شيئين .

(أحدهما) أن نصف القرآن من كلام الله ، والنصف الآخر ليس كلام الله عندهم ؛ بل خلقه الله في الهواء ، أو في اللوح المحفوظ ، أو أحدثه جبريل ، أو محمد صلى الله عليه وسلم . وهؤلاء في كونهم جعلوا نصف القرآن مخلوقاً موافقين لمن قال بخلقها ؛ لكن هؤلاء يقولون : أن هذا النصف المخلوق كلام الله ، وأولئك يقولون : هـو مخلوق منفصل عن الله ، وهو كلامه ؛ لكن أولئك لا يجعلون لله كلاماً متصلاً به قائماً بنفسه ، ولا معاني ولا حروفاً . وهؤلاء يقولون : لله كلام قائم به

متصل به هو معنى . فصار أولئك أشد بدعة في نفهم حقيقة الكلام عن الله ، وفي جعلهم كلام الله مخلوقاً . وهؤلاء أشد بدعة في إخراجهم ما هو من كلام الله عن أن يكون من كلام الله ، وضاروا في هذا موافقين الوحيد في بعض قوله لا في كله ، وهو قولهم : ان نصف القرآن ليس قول الله : بل قول البشر .

وربما استدل بعضهم بأنه مضاف إلى الرسول فيكون هو أحدث حروفه ولم يتأمل هذا القائل فيرى أنه أضافه تارة إلى رسول هو جبريل ، وتارة إلى رسول هو محمد بقوله في الآية الأولى : (انه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين) فهذا جبريل [وقال في الآية الأخرى] : (انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) وهذا محمد ، فلو كانت إضافته إليه لأنه ابتداء حروفه وأحدثها لم يصلح أن يضاف إلى كل منها ؛ لا متناع أن يكون كل منها هو أحدث حروفه ؛ ولأنه قال : (انه لقول رسول) وهذا إخبار عن القرآن الذي هو بالمعنى أحق عندهم وعند أهل السنة أيضاً . فلو كان الرسول ابتداء لكان القرآن من عنده لا من عند الله ، وإنما أضافه الله إلى الرسول لأنه بلغه وأداه وجاء به من عند الله ؛ ولهذا قال : (لقول رسول) ولم يقل لقول ملك ولا نبي ؛ بل جاء باسم الرسول ليتبين

أنه واسطة فيه وسفير . والكلام كلام لمن اتصف به مبتدئاً منشئاً :
لا لمن تكلم به مبلغاً مؤدياً ، كما يقال مثل ذلك في جميع كلام الناس
فكيف بكلام الله ؟ وهذا على القول المشهور في التفسير المطابق لظاهر
القرآن : ان الرسول في أحد الموضعين محمد صلى الله عليه وسلم .
وفي الآخر جبريل عليه السلام .

وأما على قول طائفة جعلته في الموضعين جبريل فيكون الجواب هو
الثاني ، والاثبات في الحقيقة حجة لمن يقول إنما يتكلم بكلام الله ويقول
قوله : لأنه جعل الرسول يقول قول الله الذي أرسله به ، والمعنى
يراد من هذا قطعاً كما أريد منه اللفظ أيضاً .

وأيضاً فان هؤلاء جعلوا الكلام الذي يتصف الله به معنى واحداً
وهو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وانه إن عبر عنه بالعربية كان
هو القرآن ، وإن عبر عنه بالعبرية كان هو التوراة ، وإن عبر عنه
بالسريانية كان هو الإنجيل ، وهذا مما أجمع جمهور العقلاء على ان
فساده معلوم بالضرورة .

و « المعنى الثاني » الذي خالفوا فيه أهل السنة والجماعة قولهم إن
القرآن المنزل إلى الأرض ليس هو كلام الله لا حروفه ولا معانيه بل
هو مخلوق عندهم ، ويقولون : هو عبارة عن المعنى القائم بالنفس ؛ لأن

العبارة لا تشبه المعبر عنه ؛ بخلاف الحكاية والمحكى . وهذا فيه من زيادة البدع ما لم يكن في قول « اللفظية » من أهل الحديث الذين أنكر عليهم أئمة السنة وقالوا هم « جهمية » إذ جعلوا الحروف من إحداث الرسول . وليست مما تكلم الله به بحال ، وقالوا : انه ليس لله في الأرض كلام ، ولم يكن أيضاً في « اللفظية » القدماء الذين يقولون : لفظنا بالقرآن غير مخلوق من يقول إن صوت العبد غير مخلوق . أو أن الصوت القديم يسمع من العبد ، أو ان هذا الصوت صوت الله . أو يسمع معه صوت الله ؛ وإنما أحدث هذا أيضاً المتطرفون منهم ، كما أحدث المتطرفون من أولئك ان حروف القرآن ليست كلام الله ؛ فان هاتين « البدعتين » الشنيعتين لم نكوننا بعدظهرتا في أولئك المنحرفين الذين أنكر الامام أحمد وغيره قولهم من الطائفتين ، وان القرآن ليس إلا مجرد معنى قائم بالنفس ، وذلك المعنى إليه يعود كلام الله من التوراة والانجيل والقرآن .

و « الأخرى » قد رأت حروف القرآن من كلام الله ، وان القرآن كلام الله حروفه ومعانيه ، وان المعنى الواحد يمتنع أن يكون هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وانه يمتنع أن يكون مدلول التوراة والانجيل والقرآن واحداً ، وعلموا أننا إذا ترجمنا التوراة بالعربية لم يصر معناها معنى القرآن ، وان هذه الأقوال معلومة الفساد

بالضرورة ، عارضها بعضها : لأن القرآن حرف وصوت ، واعتقد بعضهم انه ليس القرآن والكلام إلا مجرد الحروف والأصوات ، وأولئك يقولون ليس الكلام إلا مجرد المعنى القائم بالنفس .

وكلا هذين السليين الجحودين الحادئين خلاف ما كان عليه الأئمة كالامام أحمد وغيره من الأئمة ، وأعيان العلماء من سائر الطوائف . فان الكلام عندهم إسم للحروف والمعاني جميعاً ، كما ان « الانسان » الناطق المتكلم اسم للجسد والروح جميعاً ، ومن قال : ان الانسان ليس إلا هذه الجملة المشاهدة فهو بمنزلة من قال ليس الكلام إلا الأصوات المقطعة ، ومن قال : ان الانسان ليس إلا لطيفة وراء هذا الجسد فهو بمنزلة من قال : ان الكلام ليس إلا معنى وراء هذه الحروف والأصوات ، وكلاهما جحد لبعض حقائق مسميات الاسماء وإنكار لحدود ما أنزل الله على رسوله .

فصل

ثم إن فروخ « اللفظية النافية » الذين يقولون بأن حروف القرآن ليست من كلام الله تروي عن منازعيها أنهم يقولون : القرآن ليس هو إلا الأصوات المسموعة من العبد ، وإلا المداد المكتوب في الورق

وان هذه الاصوات وهذا المداد قديمان ، وهذا القول ما قاله أحد ممن يقول ان القرآن ليس إلا الحروف والأصوات : بل أنكروا ذلك وردوه . وكذبوا من نقل عنهم : أن المداد قديم ، ولكن هذا القول قد يقوله الجاهل المتطرفون ، كما يحكى عن أعيانهم مثل سكان بعض الجبال : ان الورق والجلد والوتد وما أحاط به من الحائط كلام الله ، أو ما يشبه هذا اللغو من القول الذي لا يقوله مسلم ولا عاقل .

وفروخ « اللفظية المثبتة » الذين يقولون ان القرآن ليس إلا الحروف والصوت : تحكى عن منازعها : ان القرآن ليس محفوظاً في القلوب ، ولا متلوا بالألسن ، ولا مكتوباً في المصاحف ، وهذا أيضاً ليس قولاً لأولئك : بل هم متفقون على أن القرآن محفوظ في القلوب متلو بالألسنة ، مكتوب في المصاحف ، لكن جهالهم وغاليتهم إذا تدبروا حقيقة قول مقصديهم — ان القرآن العربي لم يتكلم الله به ، وانه ليس إلا معنى واحد قائم بالذات ، وأصوات العباد ومداد المصحف يدل على ذلك المعنى ، وانه ليس لله في الأرض كلام في الحقيقة ، وليس في الأرض إلا ما هو دال على كلام الله ، ولم يقل إلا ما هو دال على كلام الله ، وكلام الله إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرية كان تورا ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً ، وهو معنى واحد لا يتعدد ، ولا يتبعض ، ولا يتكلم الرب بمشيئته وقدرته : إلى

أمثال ذلك من حقائق قول المقتصدين — أسقطوا حرمة المصحف ،
وربما داسوه ووطؤه ، وربما كتبوه بالعدرة أو غيرها .

وهؤلاء أشد كفراً ونفاقاً ممن يقول الجسد والورق كلام الله :
فإن أولئك آمنوا بالحق وبزيادة من الباطل ، وهؤلاء كذبوا بالكتاب
وبما أرسل الله به رسوله ، فسوف يعامون ؛ إذ الأغلال في أعناقهم
والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون .

وأما أهل العلم بالمقالة وأهل الإيمان بالشرعة فيعظمون المصحف
ويعرفون حرمة ويوجبون له ما أوجبه الشرعة من الأحكام ، فانه كان في
قولهم نوع من الخطأ والبدعة ، وفي مذهبهم من التجهم والضلال
ما أنكروا به بعض صفات الله وبعض صفات كلامه ورساله ، وجحدوا
بعض ما أنزل الله على رسوله ، وصاروا مخانثاً للجهمية المذكور المنكرين
لجميع الصفات ، لكنهم مع ذلك متأولون قاصدون الحق .

وهم مع تجهمهم هذا يقولون : ان القرآن مكتوب في المصحف مثل
ما أن الله مكتوب في المصحف ، وانه متلو بالألسن مثل ما أن الله
مذكور بالألسن ، ومحفوظ في القلوب مثل ما أن الله معلوم بالقلوب ،
وهذا القول فيه نوع من الضلال والنفاق والجهل بحدود ما أنزل الله
على رسوله [ما فيه] ، وهو الذي أوقع الجهال في الاستخفاف بحرمة

آيات الله وأسمائه حتى أُلحدوا في أسمائه وآياته .

كما ان اطلاق الأولين : أنه ليس للقرآن حقيقة إلا الحروف والأصوات ، ولا يفرق بين صوت الله المسموع منه وصوت القارئ ، وإن القرآن قديم أوقع الجبال منهم والكاذبين عليهم في نقلهم عنهم : أن أصوات العباد والمداد الذي في المصحف قديم . وان الحروف التي هي كلام الله هي المداد ، وان كانوا لم يقولوا ذلك : بل أنكروه ؛ كما فرق الله بين الكلمات والمداد في قوله : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي) فان هؤلاء غلطوا « غلطين » غلطاً في مذهبهم وغلطاً في الشريعة .

أما الغلط في « تصوير مذهبهم » فكان الواجب أن يقولوا : ان القرآن في المصحف مثل ما ان العلم والمعاني في الورق ، فكما يقال : العلم في هذا الكتاب يقال : الكلام في هذا الكتاب ؛ لأن الكلام عندم هو المعنى القائم بالذات فيصور له المثل بالعلم القائم بالذات لا بالذات نفسها .

وأما الغلط في « الشريعة » فيقال لهم : ان القرآن في المصاحف مثل ما أن اسم الله في المصاحف ؛ فان القرآن كلام : فهو محفوظ بالقلوب كما يحفظ الكلام بالقلوب ، وهو مذكور بالألسنة كما يذكر

الكلام بالألسنة ، وهو مكتوب في المصاحف والأوراق كما ان الكلام يكتب في المصاحف والأوراق ، والكلام الذي هو اللفظ يطابق المعنى ويدل عليه . والمعنى يطابق الحقائق الموجودة . فمن قال : ان القرآن محفوظ كما ان الله معلوم . وهو متلو كما ان الله مذكور ، ومكتوب كما ان الرسول مكتوب ، فقد أخطأ القياس والتثيل بدرجتين :

فانه جعل وجود الموجودات القائمة بأنفسها بمنزلة وجود العبارة الدالة على المعنى المطابق لها . والمسامون يعلمون الفرق بين قوله تعالى : (انه لقرآن كريم ، في كتاب مكنون) وبين قوله تعالى : (وانه لفي زبر الأولين) . فان القرآن لم ينزل على احد قبل محمد : لا لفظه ، ولا جميع معانيه ، ولكن أنزل الله ذكره والخبر عنه ، كما أنزل ذكر محمد والخبر عنه ، فذكر القرآن في زبر الأولين كما أن ذكر محمد في زبر الأولين . وهو مكتوب عندم في التوراة والانجيل . فالله ورسوله معلوم بالقلوب ، مذكور بالألسن ، مكتوب في المصحف ، كما ان القرآن معلوم لمن قبلنا مذكور لهم مكتوب عندم ، وإنما ذاك ذكره والخبر عنه ، وأما نحن فنفس القرآن أنزل إلينا ونفس القرآن مكتوب في مصحفنا ، كما أن نفس القرآن في الكتاب المكنون وهو في الصحف المطهرة .

ولهذا يجب الفرق بين قوله تعالى : (وكل شيء فعلوه في الزبر)

وبين قوله تعالى : (وكتاب مسطور : في رق منشور) : فان الأعمال في الزبر كالرسول وكالقرآن في زبر الأولين ، وأما « الكتاب المسطور في الرق المنشور » فهو كما يكتب الكلام نفسه والصحيفة ، فأين هذا من هذا ؟

وذلك أن كل شيء فله « أربع مراتب » في الوجود : وجود في الأعيان ، ووجود في الأذهان . ووجود في اللسان ، ووجود في البنان : وجود عيني ، وعلمي ، ولفظي . ورسمي . ولهذا كان أول ما أنزل الله من القرآن : (اقرأ باسم ربك الذي خلق) وذكر فيها انه سبحانه معطي الوجودين فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق) فهذا الوجود العيني . ثم قال : (اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم) فذكر أنه أعطى الوجود العلمي الذهني ، وذكر التعليم بالقلم : لأنه مستلزم لتعليم اللفظ والعبارة ، وتعليم اللفظ والعبارة مستلزم لتعليم المعنى ، فدل بذكره آخر المراتب على أولها [لأنه] لو ذكر أولها أو أطلق التعليم لم يدل ذلك على العموم والاستغراق .

وإذا كان كذلك فالقرآن كلام . والكلام له « المرتبة الثالثة » ليس بينه وبين الورق مرتبة أخرى متوسطة : بل نفس الكلام ثبت في الكتاب ، كما قال الله تعالى : (انه لقرآن كريم . في كتاب

مكنون (وقال تعالى : (بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ)
وقال : (يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة) وقال : (كلا إنها
تذكرة فمن شاء ذكره ، في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة) وقال :
(ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس) .

وقد يقال : إنه مكتوب فيها ، كما يطلق القول : أنه فيها ، كما
قال تعالى : (والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور) وأما الرب
سبحانه أو رسوله أو غير ذلك من الأعيان قائماً في الصحف اسمه ،
وهو من الكلام ؛ ولهذا قال : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ،
الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) وإنما في التوراة
كتابه وذكره وصفته واسمه وهي « المرتبة الرابعة » منه ، فكيف
يجوز تشبيه كون القرآن أو الكلام في الصحف أو الورق بكون الله
أو رسوله أو السماء أو الأرض في الصحف أو الورق ؟!

ولو قال قائل : الله أو رسوله في الصحف أو الورق لأنكر ذلك ؛
إلا مع قرائن تبين المراد ، كما في قوله : (وكل شيء فعلوه في
الزبر) وفي قوله : (وانه لفي زبر الأولين) فان المراد بذلك ذكره
وكتابه . و « الزبر » جمع زبور ، والزبور فعول بمعنى مفعول أي
مزبور أي : مكتوب فلفظ الزبور يدل على الكتابة ، وهذا مثل
ما في الحديث المعروف عن ميسرة الفجر : « قال قلت : يا رسول الله !

متى كنت نبياً — وفي رواية متى كتبت نبياً — ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد » رواه أحمد . فهذا الكون هو كتابته وتقديره ، وهو « المرتبة الرابعة » كما تقدم .

فان هذه المرتبة تتقدم وجود المخلوقات عند الله ، وعند من شاء من خلقه ؛ وإن كانت قد تتأخر أيضاً ؛ فـ « إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا قال ابن عباس في قوله : (انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) : ان الله يأمر الملائكة بأن تنسخ من اللوح المحفوظ ما كتبه من القدر ، ويأمر الحفظة أن تكتب أعمال بني آدم فتقابل بين النسختين فتكونان سواء ، ثم يقول ابن عباس : الستم قوماً عرباً ؟ وهل تكون النسخة إلا من أصل ؟ .

والتقدير والكتابة تكون تفصيلاً بعد جملة . فالله تعالى لما قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة لم يظهر ذلك التقدير للملائكة . ولما خلق آدم قبل أن ينفخ فيه الروح أظهر لهم ما قدره ، كما يظهر لهم ذلك من كل مولود ، كما في الصحيح عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يجمع خلق أحدهم في بطن أمه أربعين يوماً نطفة . ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم

يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح ،
ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد »
وفي طريق آخر وفي رواية « ثم يبعث إليه الملك ، فيؤمر بأربع كلمات ،
فيقال : اكتب رزقه ، وعمله ، وأجله ، وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ
فيه الروح » .

فأخبر صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح : ان الملك
يؤمر بكتابة رزقه . وأجله . وعمله . وشقي أو سعيد . بعد خلق جسد
ابن آدم وقبل نفخ الروح فيه . فكان ما كتبه الله من نبوة محمد صلى
الله عليه وسلم الذي هو سيد ولد آدم بعد خلق جسد آدم وقبل نفخ
الروح فيه من هذا الجنس ، كما في الحديث الآخر الذي في المسند
وغیره عن العرياض بن سارية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« اني عند الله مكتوب خاتم النبيين . وان آدم لمنجدل في طينته » وهذا
وأمثاله من وجود الأعيان في الصحف .

وأما وجود الكلام في الصحف فنوع آخر ؛ ولهذا حكى ابن قتيبة
من مذهب أهل الحديث والسنة : ان القرآن في المصحف حقيقة لا مجازاً ،
كما يقوله بعض المتكلمة ، وإحدى « الجهميات » التي أنكرها أحمد
وأعظمها قول من زعم ان القرآن ليس في الصدور ولا في المصاحف ،
وان من قال ذلك فقد قال بقول النصارى ، كما حكى له ذلك عن موسى

ابن عقبة الصوري — احد كتبة الحديث إذ ذاك ؛ ليس هو صاحب المغازي ؛ فان ذلك قديم من أصحاب التابعين — فأعظم ذلك احمد ، وذكر النصوص والآثار الواردة وذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « استذكروا القرآن فلهو اشد تفصيلاً من صدور الرجال من النعم من عقلها » ، ومثل قوله : « الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الحرب » وغير ذلك .

وليس الغرض هنا الا التبيه اللطيف .

ومن قال : ان هذا شبه قول النصارى فلم يعرف قول النصارى ، ولا قول المسلمين ، أو علم وجحد ؛ وذلك ان النصارى تقول : ان الكلمة وهي جوهر إله عندهم ورب معبود تدرع الناسوت واتحد به كاتحاد الماء واللبن ، أو حل فيه حلول الماء في الظرف ، أو اختلط به اختلاط النار والحديد ، والمسلمون لا يقولون ان القرآن جوهر قائم بنفسه معبود ، وإنما هو كلام الله الذي تكلم به ، ولا يقولون اتحد بالبشر .

وأما اطلاق حلوله في المصاحف والصدور فكثير من المنتسبين الى السنة الخراسانيين وغيرهم يطلق ذلك ومنهم من العراقيين وغيرهم من ينفي ذلك ويقول : هو فيه على وجه الظهور لا على وجه الحلول .

ومنهم من لا يثبت ولا ينفيه ، بل يقول : القرآن في القلوب والمصاحف لا يقال هو حال ولا غير حال ؛ لما في النفي والاثبات من إيهام معنى فاسد . وكما يقول ذلك طوائف من الشاميين وغيرهم ، ولا نزاع بينهم : ان كلام الله لا يفارق ذات الله ، وانه لا يباينه كلامه ولا شيء من صفاته ؛ بل ليس شيء من صفة موصوف تباين موصوفها وتنتقل الى غيره . فكيف يتوهم عاقل ان كلام الله يباينه وينتقل الى غيره ؟

ولهذا قال الامام احمد : كلام الله من الله ، ليس ببائن منه وقد جاء في الأحاديث والآثار : « انه منه بدأ ، ومنه خرج » ومعنى ذلك انه هو المتكلم به لم يخرج من غيره ، ولا يقتضى ذلك انه باينه وانتقل عنه . فقد قال سبحانه في حق المخلوقين : (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذباً) ومعلوم ان كلام المخلوق لا يباين محله ، وقد علم الناس جميعهم أن نقل الكلام وتحويله هو معنى تبليغه ، كما قال : (بلغ ما أنزل إليك من ربك) ، وقال تعالى : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه) وقال تعالى : (ليعلم ان قد ابلاغوا رسالات ربهم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه الى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو افقه منه » ، وقال : « بلغوا غني ولو آية » .

والكلام في الورق ليس هو فيه كما تكون الصفة بالموصوف

والعرض بالجوهر . بحيث تصير صفة له . ولا هو فيه كما يكون الجسم في الحيز الذي انتقل اليه من حيز آخر ، ولا هو فيه كمجرد الدليل المحض بمنزلة العالم الذي هو دليل على الصانع ؛ بل هو قسم آخر معقول بنفسه ، ولا يجب ان يكون لكل موجود نظير يطابقه من كل وجه ؛ بل الناس بفطرتهم يفهمون معنى كلام المتكلم في الصحيفة ، ويعلمون ان كلامه الذي قام به لم يفارق ذاته ويحل في غيره ، ويعلمون أن ما في الصحيفة ليس مجرد دليل على معنى في نفسه ابتداء ، بل ما في الصحيفة مطابق للفظه ، ولفظه مطابق لمعناه ، ومعناه مطابق للخارج ، وقد يعلم ما في نفسه بأدلة طبيعية ، وبحركات ارادية لم يقصد بها الدلالة ، ولا يقول أحد ان ذلك الكلام للمتكلم مثل كلامه المسموع منه ، فلو كان الكلام إنما سمي بذلك لمجرد الدلالة لشاركه كل دليل ، وسنتكلم انشاء الله تعالى على ذلك .

ولو كان ما في المصحف وجب احترامه لمجرد الدلالة وجب احترام كل دليل ؛ بل الدال على الصانع وصفاته أعظم من الدال على كلامه ، وليست له حرمة كحرمة المصحف ، والدال على المعنى القائم بنفس الانسان قد يعلم تارة بغير اختياره ، وقد يعلم بأصوات طبيعية ، كالنبكاء ، وقد يعلم بحركات لم يقصد بها الدلالة . وقد يعلم بحركات يقصد بها الدلالة كالإشارة . وقد يعلم باللفظ الذي تقصد به الدلالة .

فصل

وصار هؤلاء الذين غلطوا مذهب « اللفظية » وزادوا فيه شراً كثيراً إذ قالوا : « القراءة » غير المقروء و « التلاوة » غير المتلو و « الكتابة » غير المكتوب إنما يعنون بالقراءة أصوات القارئين و بـ « الكتابة » مداد الكاتبين . ويعنون أن هذا غير المعنى القائم بالذات الذي هو كلام الله . وإنما هو دلالة عليه . وعبارة عنه : وليس عندهم إلا قراءة ومقروء ، فلم يبق إلا صوت ، ومداد ، ومعنى قائم بالذات ؛ ليس ثم قرآن غير ذلك .

وأسقطوا حروف كلام الله التي تكلم بها ، وحقيقة معاني القرآن التي في نفس الله تعالى ، وأسقطوا أيضاً معاني القرآن التي في نفوس القارئین والمستمعين ؛ فانه لا ريب أن القرآن الذي نقرأه فيه حروف ومعاني حروف منطوقة ومسطورة ؛ فاذا لم يكن عندهم إلا صوت العبد و حبر المصحف فأين المعاني ؟ وأين حروف القرآن التي أنزلها الله ؛ وإن كانت عندهم مخلوقة . وكيف يتصور ان لا يكون لجميع ما أنزل الله تعالى من الكتب إلا معنى واحد يكون أحراً ونهياً ووعداً ووعيداً .

وتكون هذه أوصافه لا أقسامه ؟ فان هؤلاء يقولون : ان معاني جميع كلام الله معنى واحد . فمعنى : (تبت يدا أبي لهب) هو معنى (قل : هو الله أحد) ومعنى التوراة هو معنى القرآن والإنجيل . ثم قد يجعلون معاني الكلام كلها الخبر . وقد يجعلون معنى الخبر العلم ، ويجعلون العلم بهذا غير العلم بهذا .

ولهذا كان أكثر العقلاء يقولون : فساد هذا معلوم بالاضطرار ، ويقولون : الامر والهي والخبر صفات اضافية للكلام ، وليست هي أنواع الكلام وأقسامه ، وكلام الله شأنه اعظم من شأن كلام المخلوقين ، والكلام الذي في المصحف هو من هذا القسم الاخير دون الأقسام المتقدمة ، فكيف إذا كان لذلك اللفظ من الخصائص ما قيل فيه : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

لكن من الاشياء ما يدل على غيره بقصد منه [ومنها ما يدل على] غيره [بغيره قصد منه] للدلالة كالجامدات فان فيها مقاصد غير دلالتها على [الخالق] ومن الأشياء ما لا يقصد به إلا الدلالة . بحيث إذا ذكر ما يقصد بذكره ذكر مدلوله كالاسم مع مسماه . فالمقصود من الاسم هو المسمى ؛ فلهذا إذا ذكر الاسم كان المقصود به المسمى ، وكذلك « اللفظ » مع المعنى الذي هو مدلوله وكذلك « الخط » مع اللفظ . فالمقصود من الخط

إنما هو اللفظ ، والمقصود من الحروف المرسومة هو الحروف المنطوقة ؛
ولهذا كان لفظ الحرف مقولا عليها جميعاً . فاذا قيل : الكلام من
الكتاب عرف ان المقصود مما في الكتاب هو الكلام دون غيره ،
ولهذا كان لهذا من الاختصاص بالحرمة ما ليس لما يقصد منه الدلالة
وغير الدلالة والله اعلم .

فصل

وصار أولئك الذين غلطوا مذهب « اللفظية المثبتة » الذي يقولون :
لفظنا بالقرآن غير مخلوق ، ويقولون : « التلاوة » هي المتلو ، و
« الكتابة » هي المكتوب ، وما عندهم من القرآن إلا ما توهموا من
الحروف والأصوات يلتزم أحدهم : ان الصوت القديم يسمع من القارئ ،
ويوهمون المخالف لهم ان عين الصوت المسموع من العبد هو عين الصوت
الذي تكلم الله به . وينكرون معاني حقائق القرآن ان تكون من كلام
الله ولا يجعلون المعنى من كلام الله ، وكان السلف يقولون : القرآن
كلام الله غير مخلوق ، والقرآن حيث تصرف فهو كلام الله
غير مخلوق .

و « اللفظية المبتدعة المثبتة » الذين انكر عليهم الامام احمد وغيره

إنما قالوا لفظنا به غير مخلوق ؛ ولم يقولوا قديم . فجاءت المغلطة لمذهبهم . فقالوا : لفظنا به قديم ، ولفظنا به أصواتنا ، فأصواتنا به قديمة . والامام احمد وسائر الأئمة من أصحابه الذين صحبوه وغيرهم ومن بعدهم من الأئمة ينكرون هذه « المراتب الأربع » فانهم ينكرون أن يقال : لفظي به غير مخلوق : فكيف لفظي به قديم ؟ فكيف صوتي به غير مخلوق ؟ فكيف صوتي به قديم ؟ أو بعض الصوت المسموع قديم ؟ ونحو ذلك .

فصل

ومن تأمل نصوص « الامام أحمد » في هذا الباب وجدها من أسد الكلام وأتم البيان ، ووجد كل طائفة منتسبة إلى السنة قد تمسكت منها بما تمسكت ، ثم قد يخفى عليها من السنة في موضع آخر ما ظهر لبعضها فتكره .

ومنشأ النزاع بين أهل الأرض ، والاضطراب العظيم الذي لا يكاد ينضبط في هذا الباب يعود الى « أصلين » .

« مسألة » تكلم الله بالقرآن وسائر كلامه .

و « مسألة » تكلم العباد بكلام الله .

وسبب ذلك ان التكلم والتكليم له مراتب ودرجات ، وكذلك تبليغ المبلغ لكلام غيره له وجوه وصفات ، ومن الناس من يدرك من هذه الدرجات والصفات بعضها ، وربما لم يدرك إلا أدناها : ثم يكذب بأعلاها ، فيصيرون مؤمنين ببعض الرسالة ، كافرين ببعضها ، وبصير كل من الطائفتين صدقة بما أدركته ، مكذبة بما مع الآخرين من الحق .

وقد بين الله في كتابه وسنة رسوله ذلك فقال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء) وقال تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحق ويعقوب ، والاسباط ، وعيسى ، وأيوب ، ويونس ، وهارون ، وسليمان ، وآتيناه داود زبوراً ، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً) ، وقال : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات ، وآتيناه عيسى بن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس) .

ففي هذه الآية خص بالتكليم بعضهم ، وقد صرح في الآية الأخرى بأنه كلم موسى تكليماً ، واستفاضت الآثار بتخصيص موسى بالتكليم ، فهذا التكليم الذي خص به موسى على نوح وعيسى ونحوها ليس هو

التكليم العام الذي قال فيه : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء) فإن هذه الآية قد جمع فيها جميع درجات التكليم ، كما ذكر ذلك السلف .

فروينا في كتاب « الإبانة » لأبي نصر السجزي ، وكتاب البيهقي ، وغيرها عن عقبة ، قال : سئل ابن شهاب عن هذه الآية : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء ، إنه علي حكيم) قال ابن شهاب : نزلت هذه الآية تعم من أوحى الله إليه من البشر . فكلام الله الذي كلم به موسى من وراء حجاب ، والوحي ما يوحى الله إلى النبي من أنبيائه عليهم السلام ، ليثبت الله عز وجل ما أراد من وحيه في قلب النبي ، ويكتبه ، وهو كلام الله ، ووحيه ، ومنه ما يكون بين الله وبين رسوله ، ومنه ما يتكلم به الأنبياء ولا يكتبونه لأحد ، ولا يأخرون بكتابته ، ولكنهم يحدثون به الناس حديثاً ، ويبينونه لهم ؛ لأن الله أحرم أن يبينوه للناس ، ويبلغهم إياه ، ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء ممن اصطفاه من ملائكته فيكلمون به انبياءه من الناس ، ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء من الملائكة فيوحيه وحيا في قلب من يشاء من رسوله .

قلت : فالأول الوحي وهو الاعلام السريع الخفي : إما في اليقظة ،

وإما في المنام ، فإن رؤيا الأنبياء وحي : ورؤيا المؤمنين جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح ، وقال عبادة بن الصامت — ويروى مرفوعاً — : رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام » وكذلك في « اليقظة » فقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي فعمر » وفي رواية في الصحيح « مكلمون » وقد قال تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولي) وقال تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) . بل قد قال تعالى : (وأوحى في كل سماء أمرها) وقال تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل)

فهذا الوحي يكون لغير الأنبياء ، ويكون يقظة ، ومناما . وقد يكون بصوت هاتف ، يكون الصوت فى نفس الانسان ، ليس خارجاً عن نفسه يقظة ومناما ، كما قد يكون النور الذي يراه ايضاً فى نفسه .

فهذه « الدرجة » من الوحي التى تكون فى نفسه من غير ان يسمع صوت ملك فى أذنى المراتب وآخرها ، وهى أولها باعتبار السالك ، وهى التى أدركتها عقول الالهيين من فلاسفة الاسلام الذين فيهم اسلام وصبوء ، فأمنوا ببعض صفات الأنبياء والرسل — وهو قدر مشترك بينهم وبين غيرهم — ولكن كفروا ببعض ، فتجد بعض

هؤلاء يزعم أن النبوة مكتسبة ، أو أنه قد استغنى عن الرسول ، أو
ان غير الرسول قد يكون أفضل منه ، وقد يزعمون : ان كلام الله
لموسى كان من هذا النمط ، وأنه إنما كلمه من سماء عقله ، وان الصوت
الذي سمعه كان في نفسه ، أو أنه سمع المعنى فائضاً من العقل الفعال ،
أو أن احدهم قد يصل إلى مقام موسى .

ومنهم من يزعم أنه يرتفع فوق موسى ، ويقولون : إن موسى سمع
الكلام بواسطة ما في نفسه من الأصوات ونحن نسمعه مجرداً عن ذلك .
ومن هؤلاء من يزعم ان جبريل الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم
هو الخيال الثوراني : الذي يتمثل في نفسه ، كما يتمثل في نفس النائم ،
ويزعمون ان القرآن أخذه محمد عن هذا الخيال المسمى بجبريل
عندم : ولهذا قال ابن عربى صاحب « القصوص » و « الفتوحات
المكية » : انه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك : الذي يوحى
به إلى الرسول . وزعم ان مقام « النبوة » دون الولاية ، وفوق
« الرسالة » فان محمداً - بزعمهم الكاذب - يأخذ عن هذا الخيال النفساني -
الذي سماه ملكا - وهو يأخذ عن العقل المجرد الذي أخذ منه
هذا الخيال .

ثم هؤلاء لا يثبتون لله كلاماً اتصف به في الحقيقة ولا يثبتون انه
قصد إفهام أحد بعينه : بل قد يقولون لا يعلم أحداً بعينه : إذ علمه

وقصده عندهم إذا اثبتوه لم يثبتوه إلا كلياً لا يعين احداً . بناء على أنه يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات إلا على وجه كلي . وقد يقرب أو يقرب من مذهبهم من قال باسترسال علمه على أعيان الأعراض ، وهذا الكلام — مع أنه كفر باتفاق المسلمين — فقد وقع في كثير منه من له فضل في الكلام والتصوف ونحو ذلك . ولولا أنني أكره التعيين في هذا الجواب لعنت أ كابر من المتأخرين .

وقد يكون الصوت الذي يسمعه خارجاً عن نفسه من جهة الحق تعالى على لسان ملك من ملائكته أو غير ملك ، وهو الذي أدركته الجهمية من المعتزلة ونحوهم ، واعتقدوا أنه ليس لله تكليم إلا ذلك ، وهو لا يخرج عن قسم الوحي الذي هو أحد أقسام التكليم ، أو قسم التكليم بالرسول . وهو « القسم الثاني » حيث قال تعالى : (أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء) فهذا إحياء الرسول : وهو غير الوحي الأول من الله الذي هو أحد أقسام التكليم العام .

وإحياء الرسول ايضاً « انواع » ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها : « ان الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ؟ قال : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته

ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا .

فأخبر صلى الله عليه وسلم : ان نزول الملك عليه تارة يكون في الباطن بصوت مثل صلصلة الجرس . وتارة يكون متمثلا بصورة رجل يكلمه ، كما كان جبريل يأتي في صورة دحية الكلبي ، وكما تمثل لمريم بشراً سوياً ، وكما جاءت الملائكة لإبراهيم وللوط في صورة الآدميين ، كما أخبر الله بذلك في غير موضع وقد سمي الله كلا النوعين إلقاء الملك ، وخطابه وحياً ؛ لما في ذلك من الخفاء ؛ فانه إذا رآه يحتاج أن يعلم انه ملك ، وإذا جاء في مثل صلصلة الجرس يحتاج إلى فهم ما في الصوت .

و« القسم الثالث » التكليم من وراء حجاب ، كما كلم موسى عليه السلام ؛ ولهذا سمي الله هذا « نداء » و « نجاه » فقال تعالى : (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً) وقال تعالى : (فلما أتاهَا نُودِي يَا مُوسَى ! إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ، فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ؛ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى ، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى) وهذا التكليم مختص ببعض الرسل ، كما قال تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله) وقال تعالى : (ولما جاء موسى لميقاتنا ، وكلمه ربه) وقال بعد ذكر إيجائه إلى الأنبياء : (وكلم الله موسى تكليماً) فمن جعل هذا من جنس الوحي الأول — كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة

ومن تكلم في التصوف على طريقةهم كما في «مشكاة الأنوار» وكما في «كتاب خلع التعلين» وكما في كلام الاتحادية كصاحب «الفصوص» وأمثاله — فضلاله ومخالفته للكتاب والسنة والاجماع ؛ بل وصريح العقول من أئمة الأمور .

وكذلك من زعم : أن تكليم الله لموسى إنما هو من جنس الإلهام والوحي ؛ وإن الواحد منا قد يسمع كلام الله كما سمعه موسى — كما يوجد مثل ذلك في كلام طائفة من فروخ الجهمية الكلائية ونحوهم — فهذا أيضاً من أعظم الناس ضلالاً .

وقد دل كتاب الله على أن اسم الوحي والكلام في كتاب الله فيها عموم وخصوص . فإذا كان أحدهما عاماً اندرج فيه الآخر ، كما اندرج الوحي في التكليم العام في هذه الآية ، واندرج التكليم في الوحي العام حيث قال تعالى : (فاستمع لما يوحى) وأما التكليم الخاص الكامل فلا يدخل فيه الوحي الخاص الخفي : الذي يشترك فيه الأنبياء وغيرهم ، كما أن الوحي المشترك الخاص لا يدخل فيه التكليم الخاص الكامل ؛ كما قال تعالى لذكريا : (آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويًا) ثم قال تعالى : (فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم) « فالأصحاح » ليس بتكليم ، ولا يناقض الكلام ، وقوله تعالى في الآية الأخرى : (ان لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا) ان جعل

معنى الاستثناء منقطعاً اتفق معنى التكليم فى الآيتين ، وان جعل متصلاً كان التكليم مثل التكليم فى سورة الشورى ، وهو التكليم العام ؛ وقد تبين أنه إنما كلم موسى تكليماً خاصاً كاملاً بقوله : (منهم من كلم الله) مع العلم بأن الجميع أوحى إليهم : وكلمهم التكليم العام ، وبأنه فرق بين تكليمه وبين الإيحاء إلى النبيين ، وكذا التكليم بالمصدر وبأنه جعل التكليم من وراء حجاب قسماً غير إيحائه ، وبما تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من تكليمه الخاص لموسى منه إليه . وقد ثبت أنه كلمه بصوت سمعه موسى ، كما جاءت الآثار بذلك عن سلف الأمة وأئمتها موافقة لما دل عليه الكتاب والسنة .

وغلطت هنا « الطائفة الثالثة » الكلامية . فاعتقدت أنه إنما أوحى إلى موسى عليه السلام معنى مجرداً عن صوت .

واختلفت هل يسمع ذلك ؟ فقال بعضهم يسمع ذلك المعنى بلطفية خلقها فيه ، قالوا : ان السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس معان تتعلق بكل موجود ، كما قال ذلك الأشعري ، وطائفة ، وقال بعضهم لم يسمع موسى كلام الله ، فانه عنده معنى ، والمعنى لا يسمع ، كما قال ذلك القاضي أبو بكر وطائفة .

وهذا الذى أثبتوه فى جنس الوحي العام الذى فرق الله عز وجل

بينه وبين تكليمه لموسى عليه السلام حيث قال : (إنا أوحينا إليك .
كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) إلى قوله : (وكلم الله موسى
تكليماً) وفرق بين إيحائه وبين تكليمه من وراء حجاب حيث قال :
(إلا وحيًا ، أو من وراء حجاب) وحيث فرق بين الرسول المكلم
وغيره بقوله تعالى : (منهم من كلم الله) .

لكن هؤلاء يثبتون أن الله كلاماً هو معنى قائم بنفسه هو متكلم به ،
وبهذا صاروا خيراً ممن لا يثبت له كلاماً إلا ما أوحى في نفس النبي
من المعنى : أو ما سمعه من الصوت المحدث ، ولكن لفرط ردهم على هؤلاء
زعموا : أنه لا يكون كلاماً لله بحال إلا ما قام به : فانه لا يقوم به إلا
المعنى . فانكروا أن تكون الحروف كلام الله ، وأن يكون القرآن العربي
كلام الله .

وجاءت « الطائفة الرابعة » فردوا على هؤلاء دعواهم أن يكون
الكلام مجرد ، المعنى فزعم بعضهم أن الكلام ليس إلا الحرف أو الصوت
فقط وإن المعاني المجردة لا تسمى كلاماً أصلاً : وليس كذلك ؛ بل الكلام
المطلق اسم للمعاني والحروف جميعاً ، وقد يسمى أحدها كلاماً مع التقيد
كما يقول النحاة : « الكلام » اسم ، وفعل ، وحرف . فالمقسوم هنا
اللفظ ، وكما قال الحسن البصري : ما زال أهل العلم يعودون بالتكلم على
التفكر ، وبالتفكر على التدبر . ويناطقون القلوب حتى نطقت . وكما قال

الجنيد : « التوحيد » قول القلب « والتوكل » عمل القلب . فجعلوا للقلب نطقاً ، وقوة : كما جعل النبي صلى الله عليه وسلم للنفس حديثاً في قوله : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها - ثم قال - : ما لم تتكلم به ، أو تعمل به » .

فعلم ان « الكلام المطلق » هو ما كان بالحروف المطابقة للمعنى : وإن كان مع التقييد قد يقع بغير ذلك ، حتى إنهم قد يسمون كل إفهام ودلالة يقصدها الدال قولاً . سواء كانت باللفظ أو الإشارة ، أو العقد - عقد الاصابع - وقد يسمون أيضاً الدلالة قولاً : وإن لم تكن بقصد من الدال مثل دلالة الجامدات كما يقولون : قالت : « انساع بطنه » .

وامتلاً الحوض وقال قطنى قطنى رويداً قد ملأت بطني

وقالت له العينان سمعا وطاعة

ويسمى هذا لسان الحال ودلالة الحال ومنه قولهم : سل الأرض من فجر أنهارك ، وسقى ثمارك ، وغرس أشجارك ؟ فان لم تجبك حواراً أجبتك اعتباراً . ومنه قولهم :

تخبرني العينان ما للقلب كاتم ولاخير في الحيا والنظر الشر

ومنه قولهم :

سألت الدار تخبرني عن الأحباب ما فعلوا

فقلت لي أناخ القوم أيما وقد رحلوا

وقد يسمى شهادة ، وقد زعم طائفة ان ما ذكر في القرآن من تسبيح المخلوقات هو من هذا الباب ، وهو دلالتها على الخالق تعالى ؛ ولكن الصواب ان ثم تسبيحاً آخر زائداً على ما فيها من الدلالة كما قد سبق في موضع آخر ؛ لكن هذا كله يكون مع التقييد والقرينة ؛ ولهذا يصح سلب الكلام والقول عن هذه الأشياء كما قال تعالى : (لم يروا انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً) وقال تعالى : (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً) وقال الخليل عليه السلام : (فاسألوهم ان كانوا ينطقون) وقال تعالى : (هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون) وقال تعالى : (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) وقال تعالى : (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وهذا معلوم بالضرورة والتواتر ، وهو سلب القول والكلام عن الحي الساكت والعاجز ، فكيف عن الموات ؟ !

وقد علم ان الله تعالى موصوف بغاية صفات الكمال ، وان الرسل قد أثبتوا أنه متكلم بالكلام الكامل التام في غاية الكمال ، فمن لم يجعل كلامه إلا مجرد معنى ، أو مجرد حروف ، أو مجرد حروف وأصوات ، فما قدر الله حق قدره ، ومن لم يجعل كلامه إلا ما يقوم

بغيره فقد سلبه الكمال ، وشبهه بالموات ، وكذلك من لم يجعله يتكلم بمشيئته ، أو جعله يتكلم بمشيئته وقدرته ولكن جعل الكلام من جملة المخلوقات وجعله يوصف بمخلوقاته : أو جعله يتكلم بعد أن لم يكن متكلماً فكل من هذه الأقوال وإن كان فيه إثبات بعض الحق ففيه رد لبعض الحق ونقص لما يستحقه الله من الكمال .

فصل

وكل من هؤلاء أدرك من درجات الكلام وأنواعه بعض الحق .

وكذلك « الأصل الثاني » وهو تكلمنا بكلام الله : فان الكتاب والسنة والاجماع دل على أن هذا الذي يقرأه المسلمون هو كلام الله لا كلام غيره ، ولو قال أحد : إن حرفاً منه . أو معنى ليس هو من كلام الله ، أو أنه كلام غير الله وسمع ذلك منه النبي صلى الله عليه وسلم : أو أحد من أصحابه لعلم بالاضطرار انهم كانوا يقابلونه بما يقابلون أهل الجحود والضلال : بل قد أجمع الخلائق على نحو ذلك في كل كلام . فجميع الخلق الذين يعلمون ان قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

من شعر لبيد يعلمون ان هذا كلام لبيد وأن قوله :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

هو من كلام امرئ القيس ، مع علمهم انهم إنما سمعوها من غيره بصوت ذلك الغير ، فجاء المؤمنون ببعض الحق دون بعض فقالوا : ليس هذا ، أو لا نسمع إلا صوت العبد ولفظه : ثم قال « النفاة » : ولفظ العبد محدث ، وليس هو كلام الله ، فهذا المسموع محدث ، وليس هو كلام الله . وقالت « المثبتة » : بل هذا كلام الله وليس إلا لفظه أو صوته فيكون لفظه أو [صوته] كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق : أو قديم ، فيكون لفظه أو صوته غير مخلوق أو قديم .

وكل من الفريقين قد علم الناس بالضرورة من دين الأمة ؛ بل وبالعقل انه مخطيء في بعض ما قاله . مبتدع فيه : ولهذا أنكر الأئمة ذلك ، وإذا رجع أحدهم الى فطرته وجد الفرق بين أن يشير إلى الكلام المسموع فيقال : هذا كلام زيد ، وبين أن يقول هذا صوت زيد ، وينجد فطرته تصدق بالأول وتكذب بالثاني ، قال الله تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » .

وكل أحد يعلم بفطرته ما دل عليه الكتاب والسنة من أن الكلام

كلام الباري والصوت صوت القاري : ولهذا قال « الامام أحمد »
لأبي طالب لما قرأ عليه : (قل هو الله أحد) وقال له : هذا غير
مخلوق فحكى عنه أنه قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق : قال له : أنا
قلت لك لفظي غير مخلوق ؟ قال : لا . ولكن قرأت عليك : (قل هو
الله أحد) فقلت : هذا غير مخلوق .

فبين أحمد الفرق بين أن يقول : هذا الكلام غير مخلوق ، أو
يقول : لفظ هذا المتكلم غير مخلوق : لأن قوله لفظي « محمل » يدخل
فيه فعله ، ويدخل فيه صوته . فاذا قيل : لفظي ، أو تلاوتي ، أو
قراءتي غير مخلوقة . أو هي المتلو اشعر ذلك ان فعل العبد وصوته
قديم ، وان ما قام به من المعنى والصوت هو عين ما قام بالله من
المعنى والصوت ، وإذا قال : لفظي بالقرآن ، أو تلاوتي للقرآن ، أو
لفظ القرآن ، أو تلاوته مخلوقة ، أو التلاوة غير المتلو ، أو القراءة غير
المقروء أفهم ذلك أن حروف القرآن ليست من كلام الله بحال ، وان
نصف القرآن كلام الله ونصفه كلام غيره ، وأفهم ذلك ان قراءة الله
للقرآن مبينة لمقروئه ، وتلاوته للقرآن مبينة لمتلوه : وان قراءة العبد
للقرآن مبينة لمقروء العبد ، وتلاوته له مبينة لمتلوه ، وأفهم ذلك أنما
نزل إلينا ليس هو كلام الله : لأن المقروء والمتلو هو كلام الله ، والمغايرة
عند هؤلاء تقتضي المبينة ، فما بين كلامه لم يكن كلاماً له فلا يكون
هذا الذي أنزله كلامه .

ولما كان الكلام إنما يكون بحركة وفعل تنشأ عنه حروف ومعان
صار الكلام يدخل في اسم الفعل والعمل : تارة باعتبار الحركة والفعل ،
ويخرج عنه تارة باعتبار الحروف والمعاني : ولهذا يجيء في الكتاب
والسنة قسما منه تارة كما في قوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة
إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا
أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة)
وقسماً له أخرى كما في قوله تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب ،
والعمل الصالح يرفعه) .

ولهذا تنازع العلماء فيما إذا حلف لا يعمل عملاً في هذا المكان
ولم يكن له نية ولا سبب يفيد ، هل يحث بالكلام ؟ على قولين في
مذهب الامام أحمد وغيره ، وذكروها روايتين عن أحمد : ولهذا قال
أبو محمد ابن قتيبة في كتابه الذي ألفه في بيان « اللفظ » ان القراءة
قرآن وعمل لا يتميز أحدهما عن الآخر ، فمن قال : انها قرآن فهو
صديق ، ومن حلف انها عمل فهو بار ، وخطأ من أطلق : ان
القراءة مخلوقة ، وخطأ من زعم انها غير مخلوقة ، ونسبها جميعاً الى
قلة العلم ، وقصور الفهم ؛ فان هذه المسألة خفيت على الطائفتين
لغموضها ؛ فان احدى الطائفتين وجدت القراءة تسمى قرآناً فنفت الخلق
عنها ، والأخرى وجدت القراءة فعلاً يثاب صاحبه عليه فأثبتت حدثه .

قلت : والخطأ في هذا الأصل في طرفين ، كما أنه في الأصل الأول في طرفين . ففي الأصل الأول من قال : إنه ليس له كلام قائم به ومن قال : ليس كلامه إلا معنى مجرد أو صوت مجرد . وفي هذا الأصل من قال : كلامه لا يقوله غيره ، أو لا يسمع من غيره ، ومن قال : كلامه إذا أبلغه غيره وأداه فحاله كحاله إذا سمعه منه وتلاه بل كلامه يقوله : رساله وعباده ، ويتكلمون به ، ويتلونه ، ويقرأونه فهو كلامه حيث تصرف ، وحيث تلي ، وحيث كتب ، وكلامه ليس بمخلوق حيث تصرف : وهو مع هذا فليس حاله إذا قرأ العباد وكتبوه كحاله إذا قرأ الله وسمعوه منه ، ولا من يسمعه من القارئ بمنزلة موسى بن عمران الذي سمع كلام رب العالمين منه : كما جاء في الحديث : « إذا سمع الخلائق القرآن يوم القيامة من الله فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك » بل ولا تلاوة الرسول وسمعوه منه كتلاوة غيره وسمعوه منه : بل ولا تلاوة بعض الناس والسمع منه كتلاوة بعض الناس والسمع منه ، وهو كلام الله تعالى الذي ليس بمخلوق في جميع أحواله ، وإن اختلفت أحواله .

ومما يجب أن يعرف ان قول الله ورسوله والمؤمنين لما أنزله الله : هذا كلام الله : بل وقول الناس لما يسمعونه من كلام الناس : هذا كلام فلان ، كقولهم لمثل قوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل

أمرىء مانوى « هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومثل قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

هذا شعر لبيد .

فليس قولهم : هذا هو هذا ؛ لأنه مساو له في النوع ، كما يقال : هذا السواد هو هذا السواد ؛ فإن هذا يقولونه لما اتفق من الكلامين ، والعلمين ؛ والقدرتين ، والشخصين . ويقولون في مثل ذلك : وقع الخاطر على الخاطر ، كوقع الحافر على الحافر . وفي الحقيقة فهو إنما هو مثله ، كما قال تعالى : (كذلك قال الذين من قبلهم : مثل قولهم) وهم يقولون : هذا هو هذا مع اتفاقها في الصفات ، وقد يكون مع اختلافها اختلافا غير مقصود ، كما أنهم يقولون للعين الواحدة إذا اختلفت صفتها هذه [عين (١)] هذه ، ولا هو أيضاً بمنزلة من تمثل بكلام لغيره سواء كان نظماً أو نثراً مثل أن يتمثل الرجل بقول لغيره فيصير متكلماً به متشبهاً بالتكلم به أولاً ، وهذا مثل أن نقول قولاً قاله غيرنا موافقين لذلك القائل في صحة القول .

ولهذا قال الفقهاء : إن من قال ما يوافق لفظ القرآن على وجه

(١) بالاصل غير .

الذكر والدعاء مثل أن يقول عند ابتداء الفعل بسم الله : وعند الأكل الحمد لله ، ونحو ذلك لم يكن قارئاً ، وجاز له ذلك مع الجنبات : ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أفضل الكلام بعد القرآن » أربع « وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » رواد مسلم . فجعلها أفضل الكلام بعد القرآن ، وأخبر أنها من القرآن فهي من القرآن . وإذا قالها على وجه الذكر لم يكن قارئاً .

لكن هذا الوجه قد يضاف فيه الكلام إلى الأول وإن لم يقصد الثاني تبليغ كلامه ؛ لأنه هو الذي أنشأ الحقيقة ابتداء ، والثاني قالها احتذاء فاذا تمثل الرجل بقول الشاعر وإن لم يقصد تبليغ شعره :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قيل له هذا كلام لييد ؛ لكن الثاني قد لا يقصد إلا أن يتكلم به ابتداء لاعتقاده صحة معناه .

ومن هنا تنازع أهل العلم في « حروف الهجاء » وفي « الأسماء » المنزلة في القرآن وفي « كلمات » في القرآن إذا تمثل الرجل بها ولم يقصد بها القراءة ، هل يقال : ليست مخلوقة لأنها من القرآن ؟ أو يقال : إذا لم يقصد بها القرآن وكلام الله فليست من كلام الله فتكون

مخلوقة ، على قولين لأهل السنة .

وأما الانسان إذا قال ما هو كلام لغيره يقصد تبليغه وتأديته ، أو التكلم به معتقداً أنه إنما قصد التكلم بكلام غيره الذي هو الأمر بأمره ، المخبر بخبره ، المتكلم ابتداء بحروفه ومعانيه ، فهذا الكلام كلام الأول قطعاً ، ليس كلاماً للثاني بوجه من الوجود ، وإنما وصل إلى الناس بواسطة الثاني .

وليس للكلام نظير من كل وجه فيشبهه به ، وإنما هو أمر معقول بنفسه ، فإن كلام زيد المخلوق وإن كان قد عدم مثلاً ، وعدم أيضاً ما قام به من الصفة ، فإذا رواه عنه راو آخر ، وقلنا : هذا كلام زيد ، فأنما نشير إلى الحقيقة التي ابتداء بها زيد وانصف بها ، وهذه هي تلك بعينها : أعني الحقيقة الصورية ؛ لا المادة ؛ فإن الصوت المطلق بالنسبة إلى الحروف الصوتية المقطعة بمنزلة المادة والصورة ، وهو لم يكن كلاماً للمتكلم الأول ؛ لأجل الصوت المطلق الذي يشترك فيه صوت الآدميين والبهائم العجم والجمادات ، وإنما هو لأجل الصورة التي ألفها زيد مع تأليفه لمعانيها .

ووجود هذه الصورة في المادتين ليس بمنزلة وجود الأنواع والأشخاص في الأعيان ، ولا بمنزلة وجود الأعراض في الجواهر ، ولا

هو بمنزلة سائر الصور في موادها الجوهرية ؛ بل هو حقيقة قائمة بنفسها وليس لكل حقيقة نظير مطابق من كل وجه .

وإذا قالوا : هذا شعر لبيد . فأنما يشيرون إلى اللفظ والمعنى جميعاً .
ثم مع هذا لو قال القائل : أنا أنشأت لفظ هذا الشعر . أو هذا اللفظ من انشائي ، أو لفظي بهذا الشعر من إنشائي لكذبه الناس كلهم ، وقالوا له : بل أنت رويته ، وأنشدته . أما أن تكون أحدثت لفظه ، أو هو محدث البارحة بلفظك ؛ أو لفظك به محدث البارحة فكذب ؛ لأن لفظ هذا الشعر موجود من دهر طويل . وإن كنت أنت أدبته بحركتك وصوتك ؛ فالحركة والصوت أمر طبيعي يشركك فيه الحيوان ، ناطقه وأعجمه ، فليس لك فيه حظ من حيث هو كلام . ولا من حيث هو كلام ذلك الشاعر ؛ إذ كونه كلاماً ، أو كلاماً لتكلم هو مما يختص به التكلم ؛ إنما أدبته بآلة يشركك فيها العجاوات ، والجمادات ؛ لكن الحمد لله الذي جعل لك من العقل والتمييز ما تهتدى به ويسير به لسانك ولم يجعل ذلك للعجاوات ؛ فجعل فعلك وصفتك تعينك على عقل الكلام والتكلم به ولم يجعل فعل العجم وصفتها كذلك .

فإذا كان هذا في مخلوق بلغ كلام مخلوق مثله ، فكيف الظن بكلام الخالق جل جلاله الذي فضاه على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ؟!

فان له شأنًا آخر يختص به لا يشبهه بتبليغ سائر الكلام . كما أنه في نفسه لا يشبه سائر الكلام . وليس له مثل يقدر عليه أحد من الخلق ؛ بخلاف سائر ما يبلغ من كلام البشر ؛ فان مثله مقدور فلا يجوز اضافة هذا الكلام المسموع الذي هو القرآن إلى غير الله بوجه من الوجوه ؛ إلا على سبيل التبليغ . كقوله تعالى : (انه لقول رسول كريم) ، والله سبحانه قد خاطبنا به بواسطة الرسول كما تقدم .

وقد بسطت الكلام في هذه المواضع التي هي محارات العقول التي اضطربت فيها الخلائق في الموضع الذي يليق به ؛ فان هذا جواب فتيا لا يليق به إلا التنبيه على جمل الأمور ، واثبات وجوب نسبة الكلام الى من بدأ منه لفظه ومعناه دون من بلغه عنه وأداه ، وانه كلام المتصف به مبتدئاً حقيقة ، سواء سمع منه أو سمع ممن بلغه وأداه بفعله وصوته ، مع العلم بأن أفعال العباد وصفاتهم مخلوقة وان قول الله ورسوله والمؤمنين : هذا كلام الله ، وما بين اللوحين كلام الله حقيقة لا ريب فيه ، وان « القرآن » الذي يقرأه المسلمون ويكتبونه ويحفظونه هو كلام الله تعالى ، وكلام الله حيث تصرف غير مخلوق . وأما ما اقترن بتبليغه وقراءته من أفعال العباد وصفاتهم فانه مخلوق .

لكن هذا الموضع فيه اشتباه واشكال لا تحمل تحريره وبسطه هذه الفتوى ؛ لأن صاحبها مستوفز عجلان يريد أخذها ؛ ولأن في

ذلك من الدقة والغموض ما يحتاج إلى ذكر النصوص . وبيان معانيها ،
وضرب الامثال التي توضح حقيقة الأمر . وليس هذا موضعه .

بل الذي يعلم من حيث « الجملة » أن الامام أحمد والأئمة . الكبار
الذين لهم في الأمة لسان صدق عام لم يتنازعوا في شيء من هذا الباب ؛
بل كان بعضهم أعظم علماً به وقياماً بواجبه من بعض . وقد غلط في
بعض ذلك من أكبر الناس جماعات . وقد رد الامام أحمد عامة البدع
في هذا الباب هو والأئمة .

فأول ما ابتدع الجهمية القول « بخلق القرآن » و « نفي الصفات »
فأنكرها من كان في ذلك الوقت من التابعين ثم تابعي التابعين ومن
بعدهم من الأئمة وكفروا قائلها . ثم ابتدع بعض أهل الحديث والكلام
الذين ناظروا الجهمية : القول بأن القرآن المنزل مخلوق : أو أنه ليس
بكلام الله ، أو أنه ليس في المصاحف ولا في الصدور . وانكر بعضهم
أن تكون حروف القرآن كلام الله ، أو أن يكون الله تكلم بالصوت .
وانكر الامام أحمد وأئمة وقته ذلك .

وقابلهم قوم من أهل الكلام والحديث : فزعموا أن ألفاظ العباد
وأصوات العباد غير مخلوقة . أو ادعوا أن بعض أفعال العباد أو صفاتهم
غير مخلوقة . أو أن ما يسمع من الناس من القرآن هو مثل ما يسمع

من الله تعالى من كل وجه ، ونحو ذلك . فأنكر الامام أحمد وعامة
أئمة وقته وأصحابه وغيرهم من العلماء ذلك .

وإنكار جميع هذه البدع وردّها موجود عن الامام أحمد وغيره
من الأئمة في الكتب الثابتة مثل « كتاب السنة » للخلال و « الابانة »
لابن بطة و « كتب المحنة » التي رواها حنبل وصالح و « كتاب السنة »
لعبد الله بن أحمد و « السنة » للالكائي ، و « السنة » لابن أبي حاتم
وما شاء الله من الكتب .

فأما الرد على « الجهمية » القائلين بنفي الصفات وخلق القرآن
ففي كلام التابعين وتابعيهم والأئمة المشاهير من ذلك شيء كثير ، وفي
« مسألة القرآن » من ذلك آثار كثيرة جداً . مثل ما روى ابن أبي
حاتم وابن شاهين واللالكائي وغيرهم من غير وجه عن علي بن أبي
طالب — رضي الله عنه — انه قيل له يوم صفين : حكمت رجلين ، فقال :
ما حكمت مخلوقا ، ما حكمت الا القرآن ، وعن عكرمة قال : كان ابن
عباس في جنازة . فلما وضع الميت في لحده قام رجل فقال : اللهم رب
القرآن اغفر له ، فوثب إليه ابن عباس فقال له : مه ! القرآن منه .
وفي رواية : القرآن كلام الله . وليس بمربوب ، منه خرج ، وإليه
يعود . وعن عبد الله بن مسعود قال : من حلف بالقرآن فعليه بكل
آية كفارة ، فمن كفر بحرف منه فقد كفر به أجمع .

ومن المستفيض عن سفيان بن عيينة . عن عمرو بن دينار :
— وربما وقفه بعضهم على سفيان والأول هو المشهور — قال :
أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون : القرآن كلام الله غير
مخلوق ، منه بدأ ، وإليه يعود . ومشايخ عمرو من لقي عمرو من
الصحابة والتابعين . وعن علي بن الحسين زين العابدين ، وابنه جعفر
ابن محمد : ليس القرآن بخالق ولا مخلوق ، ولكنه كلام الله .

ومثل هذا مأثور عن الحسن البصري ، وأيوب السختياني ، وحامد
ابن أبي سليمان ، وابن أبي ليلى . وأبي حنيفة . وابن أبي ذئب . وابن
الماجشون ، والأوزاعي ، والشافعي ، وأبي بكر بن عياش ، وهشيم ،
وعلي بن عاصم . وعبد الله بن المبارك ، وأبي اسحق الفزاري ، ووكيع
ابن الجراح . والوليد بن مسلم ، وعبد الرحمن بن مهدي ، ويحيى بن
سعيد القطان ، ومعاذ بن معاذ . وأبي يوسف ، ومحمد ، والامام احمد
ابن حنبل . واسحق بن راهويه . وبشر بن الحارث . ومعروف الكرخي
وأبي عبيد القاسم بن سلام ، وأبي ثور ، والبخاري ، ومسلم ، وأبي
زرعة . وأبي حاتم ، ومن لا يحصى كثرة .

قال أبو القاسم اللالكائي — وقد سمي علماء القرون الفاضلة ومن
يليههم الذين نقل عنهم في كتابه أن القرآن كلام الله غير مخلوق —
فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفساً من التابعين ، وأتباع التابعين ، والأئمة

المرضىين — سوى الصحابة — على اختلاف الاعصار ومضي السنين والأعوام ، وفيهم نحو من مائة إمام ممن أخذ الناس بقولهم وتمذهبوا بمذاهبهم ، ولو اشتغلت بنقل قول المحدثين لبلغت أسماؤهم ألفاً كثيرة ، فنقلت عن هؤلاء عصاراً بعد عصر لا ينكر عليهم المنكر ، ومن انكر قولهم استتابوه ، أو أحرروا بقتله ، أو نفيه ، أو صلبه . قال : ولا خلاف بين الأمة أن أول من قال : القرآن مخلوق « الجعد بن درهم » ثم « الجهم بن صفوان » وكلاهما قتله المسلمون ، وممن أفتى بقتل هؤلاء : مالك بن أنس ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وسفيان ابن عيينة ، وأبو جعفر المنصور الخليفة ، ومعتمر بن سليمان ، ويحيى ابن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدي ، ومعاذ بن معاذ ، ووكيع بن الجراح ، وأبو عوف ، وعبد الله بن داود الحريبي ، وبشر بن الوليد — صاحب أبي يوسف — وأبو مصعب الزهري ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو ثور ، وأحمد بن حنبل ، وغير هؤلاء من الأئمة .

وكذلك ذم « الواقفة » وتضليلهم — الذين لا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق — مأثور عن جمهور هؤلاء الأئمة مثل ابن الماجشون وأبي مصعب ، ووكيع بن الجراح ، وأبي الوليد ، وأبي [الوليد] الجارودي صاحب الشافعي ، والإمام أحمد بن حنبل ، وأبي ثور ، وإسحق بن راهويه ،

ومن لا يحصى عدده إلا الله .

وأما البدعة الثانية — المتعلقة بالقرآن المنزل تلاوة العباد له — وهي « مسألة اللفظية » فقد أنكر بدعة « اللفظية » الذين يقولون : إن تلاوة القرآن وقراءته واللفظ به مخلوق أئمة زمانهم ، جعلوهم من الجهمية ، وبينوا أن قولهم : يقتضى القول بخلق القرآن ، وفي كثير من كلامهم تكفيرهم .

وكذلك من يقول : أن هذا القرآن ليس هو كلام الله ، وإنما هو حكاية عنه ، أو عبارة عنه . أو أنه ليس في المصحف والصدور إلا كما أن الله ورسوله في المصاحف والصدور ، ونحو ذلك ، وهذا محفوظ عن الامام احمد ، واسحق ، وأبي عبيد ، وأبي مصعب الزهري وأبي ثور ، وأبي الوليد الجارودي ، ومحمد بن بشار ، ويعقوب بن ابراهيم الدورقي ، ومحمد بن يحيى بن أبي عمرو العدني ، ومحمد بن يحيى الذهلي : ومحمد بن أسلم الطوسي ، وعدد كثير لا يحصيهم إلا الله من أئمة الاسلام وهداته .

وكذلك أنكر بدعة « اللفظية المثبتة » — الذين يقولون : أن لفظ العباد ، أو صوت العباد به غير مخلوق ، أو يقولون ، أن التلاوة التي هي فعل العبد وصوته غير مخلوقة — الأئمة الذين بلغتهم هذه

البدعة : مثل الامام أحمد بن حنبل ، وأبي عبد الله البخاري صاحب الصحيح ، وأبي بكر المروزي أخص اصحاب الامام أحمد بن حنبل به ، واخذ في ذلك اجوبة علماء الاسلام إذ ذاك : ببغداد ، والبصرة ، والكوفة ، والحرين ، والشام ، وخراسان ، وغيرهم : مثل عبد الوهاب الوراق ، وأبي بكر الأثرم ، ومحمد بن بشار بن دار ، وأبي الحسين علي ابن مسلم الطوسي ، ويعقوب الدورقي ، ومحمد بن سهل بن عسكر ، ومحمد بن عبد الله الحرمي الحافظ ، ومحمد بن اسحق الصاغانى ، والعباس بن محمد الدوري ، وعلي بن داود القنطري ، ومثنى بن جامع الأنباري ، واسحق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، ومحمد بن يحيى الأزدي ، والحسن بن عبد العزيز الجروي ، وعبد الكريم بن الهيثم العاقولي ، وأبي موسى بن أبي علقمة النفروني ، وغيره من علماء المدينة ومحمد بن عبد الرحمن المقرئ ، وأبي الوليد بن أبي الجارود ، وأحمد ابن محمد بن القاسم بن أبي مرة ، وغيرهم من اهل مكة ، وأحمد بن سنان الواسطي ، وعلي بن حرب الموصلي ، ومن شاء الله تعالى من أئمة اهل السنة واهل الحديث من اصحاب الامام احمد بن حنبل وغيرهم ينكرون على من يجعل لفظ العبد بالقرآن او صوته به او غير ذلك من صفات العباد المتعلقة بالقرآن غير مخلوقة ، ويأمرون بعقوبته بالمعبر وغيره ، وقد جمع بعض كلامهم في ذلك ابو بكر الخلال في « كتاب السنة »

ومن المشهور في « كتاب صريح السنة » لمحمد بن جرير الطبري وهو متواتر عنه ، لما ذكر الكلام في أبواب السنة . قال : وأما القول في « ألفاظ العباد بالقرآن » فلا اثر فيه نعلمه عن صحابي مضى ، ولا عن تابعي قفا ، إلا عمن في قوله الشفاء والعفاء ، وفي اتباعه الرشد والهدى . ومن يقوم لدينا مقام الأئمة الأولى : ابي عبد الله احمد بن محمد بن حنبل ، فان ابا اسماعيل الترمذي حدثني قال سمعت أبا عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل يقول « اللفظية » جهمية ، يقول الله : (حتى يسمع كلام الله) ممن يسمع ؟ قال ابن جرير : وسمعت جماعة من أصحابنا — لا أحفظ اسماءهم — يحكون عنه انه كان يقول : من قال : لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي . ومن قال : غير مخلوق فهو مبتدع . قال ابن جرير : ولا قول في ذلك عندنا يجوز ان نقوله ، غير قوله . إذ لم يكن لنا إمام نأتم به سواه . وفيه الكفاية والمقنع . وهو الامام المتبع .

وقال ابو الفضل صالح بن احمد بن حنبل في « كتاب المحنة » تناهى إلي ان ابا طالب حكى عن ابي انه يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق . فأخبرت ابي بذلك . فقال : من اخبرك . فقلت : فلان . فقال : ابعث إلي ابي طالب . فوجهت إليه ، فجاء . وجاء فوران . فقال له ابي : انا قلت لك : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ وغضب ،

وجعل يرتعد . فقال له : قرأت عليك : (قل هو الله احد) فقلت لي : هذا ليس بمخلوق . قال له : فلم حكيت غني اني قلت : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ وبلغني : انك وضعت ذلك في كتابك ، وكتبت به إلى قوم . فان كان في كتابك فاحمه اشد المحر . واكتب الى القوم الذين كتبت إليهم : أني لم اقل هذا . وغضب . واقبل عليه ، فقال : تحكى غني ما لم اقل لك ؟ فجعل فوران يعتذر له . وانصرف من عنده وهو مرعوب . فعاد أبو طالب . فذكر انه حك ذلك من كتابه ، وانه كتب إلى القوم يخبرهم : انه وهم على ابي عبد الله في الحكاية . قال الفضل بن زياد : كنت انا والبستي عند ابي طالب ، قال : فاخرج إلينا كتابه وقد ضرب على المسألة . وقال : كان الخطأ من قبلي ، وانا استغفر الله . وإنما قرأت على ابي عبد الله القرآن . فقال : هذا غير مخلوق ، كان الوهم من قبلي يا ابا العباس !

وقال الخلال في : « السنة » حدثنا المروزي ، قال لي أبو عبد الله قد غيض قلبي على ابن شداد . قلت : أي شيء حكى عنك ؟ قال : حكى غني في اللفظ . فبلغ ابن شداد ان أبا عبد الله قد أنكر عليه ، فجاءنا حمدون بن شداد بالرقعة فيها مسائل ، فأدخلتها على أبي عبد الله ، فنظر فرأى فيها : ان لفظي بالقرآن غير مخلوق — مع مسائل فيها — فقال أبو عبد الله : فيها كلام ما تكلمت به . فقام من الدهليز فدخل

فأخرج المحبرة والقلم ، وضرب أبو عبد الله على موضع : لفظي بالقرآن
غير مخلوق ، وكتب أبو عبد الله بخطه بين السطرين : القرآن حيث
تصرف غير مخلوق . وقال : ما سمعت أحداً تكلم في هذا بشيء ،
وأنكر على من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق .

وقال الحلال في « كتاب السنة » : أخبرني زكريا بن الفرج
الوراق ، قال حدثنا أبو محمد فوران ، قال جاءني صالح — وأبو بكر
المروذي عندي — فدعاني إلى أبي عبد الله . وقال : إنه قد بلغ أبي
أن أبا طالب قد حكى عنه أنه يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ،
فقلت إليه ، فتبعني صالح . فدار صالح من بابي . فدخلنا على أبي
عبد الله ، فإذا أبو عبد الله غضبان شديد الغضب . بين الغضب في
وجهه ! ! فقال لأبي بكر : اذهب فحجني بأبي طالب . فجاء أبو طالب
وجعلت أسكن أبا عبد الله قبل مجيء أبي طالب . وأقول : له حرمة ،
فقعد بين يديه — وهو متغير اللون — فقال له أبو عبد الله :
حكيت عني أني قلت : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ فقال : إنما حكيت
عن نفسي ، فقال : لا تحك هذا عنك ولا عني . فما سمعت عالماً يقول
هذا — أو العلماء شك فوران — وقال له : القرآن كلام الله غير
مخلوق حيث تصرف . فقلت لأبي طالب — وأبو عبد الله يسمع —
إن كنت حكيت هذا لأحد فاذهب حتى تخبره أن أبا عبد الله نهى عن

هذا ؟ فخرج أبو طالب فأخبر غير واحد — بنهي أبي عبد الله —
منهم أبو بكر بن زنجويه ، والفضل بن زياد القطان ، وحمدان بن علي
الوراق ، وأبو عبيد ، وأبو عامر ، وكتب أبو طالب بخطه الى أهل
نصيبين — بعد موت أبي عبد الله — يخبرهم أن أبا عبد الله نهى أن
يقال : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وجاءني أبو طالب بكتابه وقد ضرب
على المسألة من كتابه ، قال زكريا بن الفرغ : فمضيت الى عبد
الوهاب الوراق ، فأخذ الرقعة فقرأها ، فقال لي : من أخبرك بهذا
عن أحمد . فقلت له : فوران بن محمد ، فقال : الثقة المأمون على أحمد
قال زكريا : وكان قبل ذلك قد أخبر أبو بكر المروزي لعبد الوهاب :
فصار عند عبد الوهاب شاهدان . قال زكريا وسمعت عبد الوهاب ،
قال : من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق يهجر ولا يكلم ويحذر
عنه : وكان قبل ذلك قال : هو مبتدع .

وروى الخلال عن أبي الحارث قال سمعت رجلا يقول لأبي عبد الله
يا أبا عبد الله ! أليس نقول : القرآن كلام الله ليس بمخلوق بمعنى من
المعاني ، وعلى كل حال وجهة ؟ فقال أبو عبد الله : نعم .

واستيعاب هذا بطول .

وكذلك في كلام الامام أحمد وأئمة أصحابه وغيرهم من اضافة صوت

العبد بالقرآن اليه ما يطول كما جاء الحديث النبوي بذلك : مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقوله : « لله أشد أذنا الى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة الى قينته » فذكر الخلال في (كتاب القرآن) عن اسحاق بن ابراهيم ، قال قال لي أبو عبد الله يوماً — وكنت سألته عنه — : تدري ما معنى من لم يتغن بالقرآن ؟ قلت : لا . قال : هو الرجل يرفع صوته ، فهذا معناه إذا رفع صوته فقد تغنى به ، وعن منصور بن صالح انه قال لأبيه : يرفع صوته بالقرآن بالليل ؟ قال : نعم ! إن شاء رفعه » ثم ذكر حديث أم هانئ : « كنت أسمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم . وأنا على عريش من الليل » وعن صالح بن أحمد أنه قال لأبيه : « زينوا القرآن بأصواتكم » فقال : « التزيين » ان تحسنه . وعن الفضل بن زياد . قال سمعت أبا عبد الله يسئل عن القراءة : فقال يحسنه بصوته من غير تكلف . وقال أبو بكر الأثرم سألت أبا عبد الله عن القراءة بالألحان ؟ فقال : كل شيء محدث : فانه لا يعجبني . الا أن يكون صوت الرجل لا يتكلفه . . قال القاضي أبو يعلى فيما علقه بخطه على « جامع الخلال » : هذا يدل من كلامه على أن صوت القارئ ليس هو الصوت القديم : لأنه أضافه الى القاري الذي هو طبعه من غير أن يتعلم الألحان .

وأما ما في كلام أحمد والأئمة من إنكارهم على من يقول ان هذا القرآن مخلوق ، وان القراءة مخلوقة ، وتعظيمهم لقول من يقول : انه ليس في الصدور قرآن ولا في المصاحف قرآن ، وزعم من زعم ان من قال ذلك فقد قال بقول النصارى والحلولية ، فانكار أحمد وغيره هذه المقالات كثير شائع موجود في كتب كثيرة ، ولم تكن هذه الفتيا محتاجة الى تقرير هذا الأصل . فلم يحتج الى تفصيل الكلام فيه ؛ بخلاف الأصل الآخر ، وقد ذكرنا من ذلك ما يسره الله في غير هذا الموضع ولو ذكرت ما في كلام أحمد وأئمة أصحابه وغيرهم : من الرد على من يقول : لفظ العبد أو صوته غير مخلوق ، او يقول : ان الصوت المسموع من القاري قديم لطال .

وهذا أبو نصر السجزي قد صنف « الابانة » المشهورة ، وهو من أعظم القائلين : بان التلاوة هي المتلو ، واللفظ بالقرآن هو القرآن وهو غير مخلوق . وأنكر ما سوى ذلك عن أحمد ، ومع هذا فقد قال : فان اعترض خصومنا فقالوا : اتم وإن قلتم : القراءة قرآن وكلام الله فلا تطلقون ان الصوت المسموع من القاري صوت الله ؛ بل تنسبونه الى القاري ، وإذا لم يمكنكم إطلاق ذلك دل على أنه غير القرآن ؟ ! ،

قال أبو نصر : فالجواب ان اعتصامنا في هذا الباب بظاهر الشرع

وقولنا في القراءة والصوت غير مختلف . وإذا قرأ القارئ القرآن لا يقول : ان هذه قراءة الله ، ولا يجيز ذلك بوجه : بل ينسب القراءة الى القارئ توسعاً لوجود التحويل منه ، وإنما يقول ان قراءة القارئ قرآن ، وقد ثبت ذلك في الشرع باتفاق الكل ؛ فان الأشعري مع مخالفته لنا يقول : المسموع من القاري قرآن ، وقد بينا : ان التمييز بين القراءة والقرآن في هذا الموضع الذي اختلفنا فيه غير ممكن وكذلك يقول : ان الصوت المسموع من قارئ القرآن قراءة وقرآن ، والشرع يوجب ما قلناه لا أعلم خلافاً بين المسلمين في ذلك .

فصل

وأما نصوص الامام احمد على « خنق كلام الآدميين » و « خلق أفعال العباد » فموجودة في مواضع كثيرة : كما نص على ذلك سائر الأئمة . وليس بين أهل السنة في ذلك اختلاف ؛ ولهذا قال يحيى بن سعيد القطان شيخ الامام أحمد : ما زلت أسمع اصحابنا يقولون : أفعال العباد مخلوقة . وقد سئل الامام احمد عن أفعال العباد مخلوقة هي ؟ فقال نعم . ونص على كلام الآدميين في رواية أحمد بن الحسن الترمذي ، كما سيأتي ، وفيما خرجه على « الزنادقة والجهمية » وهو

مروي من طريق ابنه عبد الله (وحاده ^(١)) ، وقد ذكره الخلال أيضاً في « كتاب السنة » ونقل منه القاضي ابو يعلى وغيره ، وقد حكي اجماع الخلق على ذلك غير واحد منهم أبو نصر السجزي في « الابانة » وهو من أشد الناس إنكاراً على من يقول : ان الفاظ العباد بالقرآن مخلوقة ، أو يقول : ان المسموع من القارئ ليس هو القرآن .

قال أبو نصر : وأما نسبة الأصوات الى القراء — فيما ذكرنا في هذا الباب وفي غيره من كتابنا هذا — ونسبة القراءة اليهم ، وان فرح بها الزائغون فلا حجة لهم فيها ؛ وذلك انا لم نختلف في اضافة الصوت الى الانسان ، وانه إذا صاح ، أو تكلم بكلام الناس ، أو ندى إنساناً فصوته مخلوق . قال : وهذا لا يشتهه : وإنما وقع الاختلاف في ان المستمع من قارئ القرآن ماذا يستمع ؟ وساق الكلام : إلى آخره . وذكر في موضع آخر « الاجماع » أيضاً على ذلك .

فصل

وإنما نهت على أصل مقالة الامام أحمد وسائر أئمة السنة وأهل الحديث في « مسألة تلاوتنا للقرآن » لأنها اصل ما وقع من الاضطراب

(١) كذا بالأصل

والتنازع في هذا الباب مثل « مسألة الايمان » هل هو مخلوق أو غير مخلوق ؟ و « مسألة نور الايمان » و « الهدى » ونحو ذلك من المسائل التي يكثر تنازع أهل الحديث والسنة فيها ، ويتمسك كل فريق ببعض من الحق ، فيصرون بمنزلة الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، مختلفين في الكتاب ، كل منهم بمنزلة الذي يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، وهم عامتهم في جهل وظلم : جهل بحقيقة الايمان والحق ، وظلم الخلق ، ويقع بسببها بين الأمة من التكفير والتسارع ما يفرح به الشيطان ، ويغضب له الرحمن ، ويدخل به من فعل ذلك فيها نهى الله عنه من التفرق والاختلاف ، ويخرج عما أمر الله به من الاجتماع والاتلاف .

وأصل ذلك القرب والاتصال الحاصل بين ما أنزله الله تعالى من القرآن والايمان الذي هو من صفاته ، وبين افعال العباد وصفاتهم ؛ فلعمر الفرق والتمييز يميل قوم إلى زيادة في الاثبات ، وآخرون إلى زيادة في النفي ؛ ولهذا كان مذهب الامام احمد والأئمة الكبار : التهي عن الاثبات العام ، والنفي العام ؛ بل إمساكها عنها — وهو الأصلح للعموم وهو جمل الاعتقاد . واما التفصيل المحقق فهو لدى العلم من أهل الايمان ، كما أن الأول للعموم أهل الايمان .

وهذه المسألة لها أصلان .

(احدها) أن « أفعال العباد مخلوقة » . وقد نص عليها الأئمة أحمد وغيره . وسائر أئمة أهل السنة والجماعة المخالفين للقدرية : واتفقت الأمة على أن أفعال العباد محدثة .

و (الاصل الثاني) مسألة « تلاوة القرآن وقراءته واللفظ به » هل يقال انه مخلوق أو غير مخلوق ؟ والامام أحمد قد نص على رد المقاتلين هو وسائر أئمة السنة من المستقدمين والمستأخرين ؛ لكن كان رده على « اللفظية النافية » أكثر وأشهر وأغلظ لوجهين .

(احدها) ان قولهم بفضي الى زيادة التعطيل والنفي ، وجانب النفي — أبداً — شر من جانب الاثبات ؛ فان الرسل جاءوا بالاثبات المفصل في صفات الله ، و بالنفي الجمل : فوصفوه بالعلم ، والرحمة ، والقدرة والحكمة ، والكلام ، والعلو ، وغير ذلك من الصفات ، وفي النفي : (ليس كمثله شيء) (ولم يكن له كفواً احد) . وأما الخارجون عن حقيقة الرسالة : من الصابئة ، والفلاسفة ، والمشركين ، وغيرهم ، ومن تجهم من اتباع الأنبياء ، فطريقتهم « النفي المفصل » ليس كذا ليس كذا ، وفي الاثبات أمر مجمل ، ولهذا يقال : المعطل أعمى ، والمشبّه اعشى . فأهل التشبيه مع ضلالهم خير من أهل التعطيل .

(الوجه الثاني) ان احمد إنما ابتلى بالجهمية المعطلة فيهم خصومه .

فكان همه منصرفا إلى رد مقالاتهم : دون أهل الاثبات : فانه لم يكن في ذلك الوقت والمكان من هو داع إلى زيادة في الاثبات : كما ظهر من كان يدعو إلى زيادة في النفي . والانكار يقع بحسب الحاجة ، والبخاري لما ابتلى « باللفظية المثبتة » ظهر انكاره عليهم كما في تراجم آخر « كتاب الصحيح » وكما في « كتاب خلق الافعال » مع انه كذب من نقل عنه أنه قال : لفظي بالقرآن مخلوق من جميع أهل الأمصار ، وأظنه حلف على ذلك ، وهو الصادق البار .

فصل

وقد نص أحمد على نفس هذه « المسألة » في غير موضع فروى أبو القاسم اللالكائي في « أصول السنة » قال : أخبرنا الحسن بن عثمان قال ، حدثنا عمرو بن جعفر قال : حدثنا أحمد بن الحسن الترمذي قال : قلت لأحمد بن حنبل : ان الناس قد وقصوا في القرآن فكيف أقول ؟ فقال أليس أنت مخلوقا ؟ قلت : نعم ! قال : فكلامك منك مخلوق ؟ قلت : نعم ! قال : أفليس القرآن من كلام الله ؟ قلت : نعم ! قال : وكلام الله من الله ؟ قلت : نعم ! قال : فيكون من الله شيء مخلوق ؟!

بين أحد للسائل : ان الكلام من المتكلم وقائم به ؛ لا يجوز ان يكون الكلام غير متصل بالمتكلم ، ولا قائم به ؛ بدليل ان كلامك أيها المخلوق منك ؛ لا من غيرك ، فاذا كنت انت مخلوقا وجب ان يكون كلامك ايضاً مخلوقا . وإذا كان الله تعالى غير مخلوق امتنع ان يكون ماهو منه وبه مخلوقا .

وقصده بذلك الرد على « الجهمية » الذين يزعمون ان كلام الله ليس من الله ولا متصل به . فبين أن هذا الكلام ليس هو معنى كون المتكلم متكلماً ، ولا هو حقيقة ذلك ، ولا هو مراد الرسل والمؤمنين ، من الاخبار عن ان الله قال ، ويقول ، وتكلم بالقرآن ، ونادى ، وناجى ، ودعا ، ونحو ذلك مما اخبرت به عن الله رسله ، واتفق عليه المؤمنون به من جميع الأمم ؛ ولهذا قال تعالى : (ولكن حق القول مني) : وقال : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) ، وقال تعالى : (وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) ، وقال تعالى : (الركتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) .

وليس القرآن عينا من الأعيان القائمة بنفسها حتى يقال : هذا مثل قوله : (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه) وإنما هو صفة كالعلم ، والقدرة ، والرحمة ، والغضب ، والارادة ، والنظر ، والسمع ونحو ذلك ؛ وذلك لا يقوم إلا بموصوف ، وكل معنى له اسم

وهو قائم بمحل وجب أن يشتق لمحله منه اسم . وان لا يشتق لغير محله منه اسم .

فكما ان الحياة ، والعلم ، والقدرة إذا قام بموصوف وجب أن يشتق له منه اسم الحي ، والعالم ، والقادر : ولا يشتق الحي ، والعالم ، والقادر لغير من قام به العلم ، والقدرة . فكذلك القول ، والكلام ، والحب ، والبغض ، والرضا ، والرحمة ، والغضب ، والارادة ، والمشيشة إذا قام بمحل وجب أن يشتق لذلك الموصوف منه الاسم والفعل ، فيقال : هو الصادق ، والشهيد ، والحكيم ، والودود ، والرحيم ، والآمر ، ولا يشتق لغيره منه اسم .

فلو لم يكن الله سبحانه وتعالى هو القائل بنفسه : (أنا الله لا إله إلا أنا) بل أحدث ذلك في غيره لم يكن هو الأمر بهذه الأمور ، ولا الخبر بهذا الخبر . ولكن ذلك المحل هو الأمر بهذا الأمر ، الخبر بهذا الخبر ، وذلك المحل : اما الهواء ، وإما غيره فيكون ذلك المحل المخلوق هو القائل لموسى : (إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) ولهذا كان السلف يقولون في هذه الآية وأمثالها : من قال : إنه مخلوق فقد كفر . ويستعظمون القول بخلق هذه الآية وأمثالها أكثر من غيرها يعظم عليهم أن تقوم دعوى الالهية والربوبية لغير الله تعالى .

ولهذا كان مذهب جماهير « أهل السنة والعرفة » - وهو المشهور عند أصحاب الامام أحمد ، وأبي حنيفة . وغيرهم : من المالكية . والشافعية ،

والمصوفية ، وأهل الحديث ، وطوائف من أهل الكلام : من الكرامية وغيرهم
— ان كون الله سبحانه وتعالى خالقا ، ورازقا . ومحيا . ومميتا ، وباعثا ، ووارثا .
وغير ذلك من صفات فعله : وهو من صفات ذاته : ليس من يخلق كمن لا يخلق .
ومذهب الجمهور ان الخلق غير المخلوق ، فالخلق فعل الله القائم به
والمخلوق هو المخلوقات المنفصلة عنه .

وذهب طوائف من « أهل الكلام » من المعتزلة والأشعرية ومن
وافقهم : من الفقهاء الحنبلية ، والشافعية ، والمالكية . وغيرهم إلى أنه ليس
لله صفة ذاتية من أفعاله ، وإنما الخلق هو المخلوق . أو مجرد نسبة وإضافة
وهذا اختيار ابن عقيل . وأول قولي القاضي أبي يعلى . وهؤلاء عندهم
حال الذات التي تخلق وترزق أو لا تخلق ولا ترزق سواء .

وبهذا نقضت المعتزلة على من ناظرها من الصفاتية الأشعرية ونحوهم :
لما استدلت الصفاتية بما تقدم من « القاعدة الشريفة » فقالوا : ينتقض
عليكم بالخالق . والرازق . وغير ذلك من أسماء الأفعال : فان الخلق
والرزق قائم بغيره ، وقد اشتق له منه اسم الخالق والرازق ، ولم يقم به
صفة فعل أصلا : فكذلك الصادق ، والحكيم . والمتكلم ، والرحيم ، والودود
وهذا النقض لا يلزم جماهير الأمة وعامة أهل السنة والجماعة : فان
الباب عندهم واحد . وليس هذا قولا بقديم مخلوقاته أو مفعولاته . سواء
قيل : ان نفس فعله القائم به قديم فقط ، كما يقوله كثير من هؤلاء

— الخفية ، والمالكية ، والشافعية : والحنبلية ، وأهل الحديث ، والكلام ،
والصوفية — أو يقولون له عند أحداث المخلوقات أحوال ونسب كما يقوله كثير
من هؤلاء : الفقهاء ، وأهل الحديث ، والصوفية ، وأهل الكلام من
الطوائف كلها .

وذلك لأن القول في ذلك كالقول في مشيئته وإرادته ، فانه وإن
كان مذهب أهل السنة وسائر الصفاتية انها قديمة ، فليست مراداته
قديمة ، وكذلك صفة الخلق والتكوين ؛ وذلك لأن الشرع والعقل
يدل على ان حال الخالق : والرازق ، الفاطر ، المحيي ، المميت ،
الهادي ، النصير ليس حاله في نفسه كحاله لو لم يبدع هذه الأمور ؛
ولهذا قال سبحانه وتعالى : (أفمن يخلق كمن لا يخلق) . فالفرق بين
الخالق وغير الخالق كالفرق بين القادر وغير القادر .

والمخالف يقول إنما هو موصوف بالقدرة التي تتناول ما يخلقه
وما لا يخلقه ، سواء في نفسه كان خالقا او لم يكن خالقا ، ليس له من
كونه خالقا « صفة ثبوتية » لا صفة كمال ، ولا صفة وجود مطلق ، كما
له بكونه قادرا . ونصوص الكتاب والسنة توجب أن تكون أسماء أفعاله
من أسمائه الحسنى التي تقتضي أن يكون بها محموداً مثى عليه مجدا ؛
وذلك يقتضي أنها من صفات الكمال ،

وليس الغرض هنا ذكر هذه « المسألة » وإنما هي طرد حجة

الامام حمد وغيره من أئمة السلف الثقات . وسأر الصفاتية ؛ ولهذا قال
الامام احمد في رواية حنبل في « كتاب المحنة » : لم يزل الله عالما متكلماً
غفوراً . فبين اتصافه بالعلم - وهو صفة ذاتية محضة - و « بالمغفرة »
وهي من « الصفات الفعلية » والكلام الذي يشبه هذا وهذا ، وذكر
انه لم يزل متصفا بهذه الصفات والاسماء ، وقال الامام أحمد فيما خرجته
في « الرد على الزنادقة والجهمية » لما ذكر قول جهم : انه يتكلم ؛
ولكن كلامه مخلوق . قال أحمد قلنا له : وكذلك بنوا آدم كلامهم مخلوق
ففي مذهبكم كان الله في وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق
الكلام ، وكذلك بنوا آدم لا يتكلمون حتى خلق لهم كلاما ، فقد جمعتم
بين كفر وتشبيه ، وكذلك ذكروا في « المحنة » فيما استدل به الامام
أحمد في المناظرة واستدل بقوله : (ولكن حق القول مني) قال : فان
يكن القول من غير الله فهو مخلوق .

فصل

وأما قول القائل : إن أحمد إنما قال ذلك خوفا من الناس ،
فبطلان هذا يعلمه كل عاقل بلغه شيء من اخبار أحمد ، وقائل هذا إلى
العقوبة البليغة التي يفترى بها على الأئمة أحوج منه إلى جوابه ؛ فان

الامام احمد صار مثلاً سائراً يضرب به المثل في المحنة والصبر على الحق
وانه لم تكن تأخذه في الله لومة لأثم ، حتى صار اسم الامام مقروناً باسمه
في لسان كل أحد ، فيقال : قال الامام احمد . هذا مذهب الامام احمد .
لقوله تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا
يوقنون) : فانه أعطى من الصبر واليقين ما يستحق به الامامة
في الدين .

وقد تداوله « ثلاثة خلفاء » مسلطون من شرق الأرض الى
غربها ، ومعهم من العلماء المتكلمين ، والقضاة ، والوزراء ، والسعاة ،
والأمراء ، والولاة من لا يحصيهم إلا الله . فبعضهم بالحبس ، وبعضهم
بالتهديد الشديد بالقتل وبغيره ، وبالترغيب في الرياسة والمال ما شاء الله ،
وبالضرب ، وبعضهم بالتشريد والنفي ، وقد خذله في ذلك عامة أهل
الأرض — حتى أصحابه العلماء ، والصالحون والأبرار ، وهو مع ذلك
لم يعطهم كلمة واحدة مما طلبوه منه ، وما رجع عما جاء به الكتاب
والسنة ، ولا كتم العلم ، ولا استعمل التقية ؛ بل قد أظهر من سنة
رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثاره ، ودفع من البدع المخالفة لذلك
ما لم يتأت مثله لعالم : من نظرائه ، وإخوانه المتقدمين والمتأخرين ؛
ولهذا قال بعض شيوخ الشام : لم يظهر أحد ما جاء به الرسول صلى
الله عليه وسلم كما أظهره أحمد بن حنبل ، فكيف يظن به انه كان يخاف
في هذه الكلمة التي لا قدر لها ؟ !

و « أيضاً » فمن أصوله انه لا يقول في الدين قولاً مبتدعاً ، وقد جعلوا يطالبونه بما ابتدعوه ، فيقول لهم : كيف أقول ما لم يقل ؟ ! فكيف يكتبكم كلمة ما قالها أحد قبله من خلق الله .

و « أيضاً » فان أحمد بن الحسن الترمذي من خواص أصحابه وأعيانهم فما الموجب لأن يستعمل التقية معه .

و « أيضاً » فلم يكن به حاجة الى أن يقول : كلام الآدمي مخلوق ، وإنما هو ذكر ذلك مستدلاً به ضارباً به المثل . فكيف يتبدي بكلام هو عنده باطل لم يسأله عنه أحد ؟ !

و « أيضاً » فقد كان يسعه أن يسكت عن هذا ؛ فان الانسان إذا خاف من إظهار قول كتبه . اما اظهاره لقول لم يطلب منه ، وهو باطل عنده . فهذا لا يفعله أقل الناس عقلاً وعلماً وديناً .

فمن يسب « الامام أحمد » الذي موقفه من الاسلام وأهله فوق ما يصفه الواصف ؛ ويعرفه العارف . فقد استوجب من غليظ العقوبة ما يكون نكالا لكل مفتر كاذب راجم بالظن قاذف ، قائل على الله ورسوله والمؤمنين وأئمتهم ما لا يقوله العدو المنافق .

و « أيضاً » فقد ذكر ذلك فيما صنفه من « الرد على الزنادقة

والجهمية « وهو في الحبس ، وكتبه بخطه ، ولم يكن ذلك مما أظهره
لأعدائه : الذين يحتاج غيره إلى أن يستعمل معهم التقية .

وهذا القول أقبح من قول الروافض فيما ثبت عن أمير المؤمنين
علي رضي الله عنه انه قاله وفعله على وجه التقية : فان الامام أحمد
صنف الرد عليهم وبين أنهم زنادقة فأبي تقية تكون لهم مع هذا
وهو يجاهدكم ببيانه وبنانه ، وقلمه ولسانه ؟ .

فصل

شبهة هؤلاء أنهم وجدوا الناس قد تكلموا في « حروف المعجم »
و « أسماء المخلوقات » . فان المنتسبين إلى السنة تكلموا في حروف
المعجم في غير القرآن والكتب الالهية ، وقال طوائف منهم : كابن
حامد ، وأبي نصر السجزي ، والقاضي في أشهر قوايه ، وابن عقيل
وغيرهم : إنها مخلوقة ، وقالوا : الحروف حرفان . وقال طوائف وهم
كثير من أهل الشام ، والعراق ، وخراسان : كالقاضي يعقوب البرزيني
والشريف أبي الفضائل الزيدى الحرائي ، ويروى ذلك عن الشيخ أبي
الحسين بن سمعون ، وهو قول القاضي أبي الحسين ، وحكاه عن أبيه
في آخر قوايه ، وهو قول الشيخ أبي الفرج الأنصاري ، والشيخ عبد

القادر ، وابن الزاغوني وغيرهم : الحرف حرف واحد ، وحروف المعجم غير مخلوقة حيث تصرفت : لأنها من كلام الله ، وحقيقة الحرف واحدة لا تختلف .

وقد نقل عن الامام أحمد رضي الله عنه الانكار على من قال : بخلق الحروف ، وانه لما حكى له ان بعض الناس قال : لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف ، فقال الامام أحمد : هذا كفر . وروى انكار ذلك عن غيره من الأئمة .

والأولون لا ينازعون في هذا ؛ فانهم ينكرون على من يقول : ان الحروف مخلوقة ؛ فانه إذا قال ذلك دخل فيه حروف كلام الله تعالى من القرآن وغيره ، وهم يخصصون الكلام في الحروف الموجودة في كلام المخلوق ، دون الحروف الموجودة في كلام الله ، ويقولون : حقيقة الحروف والاسم وان كانت واحدة فذلك بمنزلة كلمات موجودة في القرآن وقد تكلم بها بعض المخلوقين . فالتكلم تارة بقصد ان يتكلم بكلام غيره ، وان وافقه في لفظه بالنسبة إلينا ، وهذا لا يتأتى إلا في الشيء اليسير ، وهو مادون السورة القصيرة ؛ فان الله قد تحدى الخلق أن يأتوا بسورة مثله ، وأخبر انهم لن يفعلوا .

قال الأولون : فموافقة لفظ الكلام لفظ الكلام لا يوجب ان

يكون لأحدها حكم الآخر في النسبة إلى المتكلم المخلوق : بحيث ينسب أحدها إلى من ينسب إليه الآخر ، فكيف بالنسبة إلى الخالق ؟ بل لما كتب مسيعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم : من مسيعة رسول الله . إلى محمد رسول الله ، رد عليه النبي صلى الله عليه وسلم : « من محمد رسول الله ، إلى مسيعة الكذاب » كان اللفظ برسول الله من المتكلمين سواء : من أحدها صدق — ومن أعظم الصدق — ، ومن الآخر كذب — ومن أقبح الكذب .

وقد ذكر الله عن الكفار مقالات سوء في كتابه مثل قولهم : (اتخذ الله ولداً ، ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذبا) وقولهم : (عزيز بن الله) (والمسيح ابن الله) وغير ذلك من الأقوال الباطلة وقد حكاه الله عنهم ، فإذا تكلمنا بما حكاه الله عنهم كنا متكلمين بكلام الله ، ولو حكيناها عنهم ابتداء لكنا قد حكينا كلامهم الكذب المذموم .

ولهذا قال الفقهاء : من ذكر الله أو دعاه جاز له ذلك مع الجنبات وإن وافق لفظ القرآن ، إذا لم يقصد القراءة . وقالوا : لو تكلم بلفظ القرآن في الصلاة يقصد مجرد خطاب الآدمي بطلت صلاته : لأن ذلك من كلام الآدميين ، والصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الآدميين . وإن قصد مع تنبيه الغير القراءة صحت صلاته عند الجمهور ، كما لو لم

يقصد إلا القراءة . وعند بعضهم تبطل ، كقول أبي حنيفة . ومن هذا الباب مسألة الفتح على الامام وتنبيه الداخل بآية من القرآن وغير ذلك .

وسبب ذلك ان معنى الكلام داخل في مسماء ليس هو اسماً لمجرد اللفظ والمعنى : هو إنشاء وإخبار ، والانشاء فيه الأمر والنهي ، ومعلوم ان أمر زيد ليس هو أمر عمرو ، ولا حكمه حكمه ، وإن اتفق اللفظ وكذلك اختيار زيد ليس هو اختيار عمرو ، ولا حكمه حكمه ، وإن اتفق اللفظ . فالأمر المطاع الحكيم إذا أمر بأمر كان له حكم خلاف ما إذا أمر به الجاهل العاجز وإن اتفق لفظها ، وكذلك الشاهد العالم الصادق إذا أخبر بنحو كان حكمه خلاف ما إذا أخبر به الجاهل الكاذب وإن اتفق لفظها .

وإذا كان كذلك فمن أدخل في كلام له بعض لفظ أدخله غيره في كلامه لم يوجب ذلك ان يكون هذا اللفظ من كلام ذلك المتكلم ، وإن كان أحد اللفظين شبيهاً بالآخر ، وهو بمنزلة من كتب حروفاً تشبه حروف المصحف . كتبها كلاماً آخر لم يكن ذلك مما يوجب أن يكون من حروف المصحف .

وقال الآخرون مجرد الموافقة في اللفظ لا يوجب أن يجعل حكم

أحد اللفظين حكم الآخر ، لكن إذا كان أحدهما أصلاً سابقاً إلى ذلك الكلام ، والآخر إنما احتذى فيه حذوه ومثاله : كان اللفظ والكلام منسوباً إلى الأول ؛ بمنزلة من تمثل بقول لبيد :

الا كل شيء ما خلا الله باطل

أو بقوله :

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

او يمثل من الأمثال السائرة كقوله : « عسى الغويرى بؤساً » و « يداك أوكتا ، وفوك نفخ » و « كل الصيد في جوف الفراء » ونحو ذلك . فهذا الكلام هو تكلم به في المعنى الذي أراده : لا على سبيل التبليغ عن غيره ، ومع هذا فهو منسوب إلى قائله الأول ، فهكذا الحروف الموجودة في كلام الله وإن أدخلها الناس في كلامهم الذي هو كلامهم فأصلها مأخوذ من كلام الله تعالى .

قال الأولون : هنا مقامان .

(أحدهما) : ان كل من انطقه الله بهذه الحروف فانما كان ذلك بطريق الاستفادة من كلام الله ، أو ممن استفادها من كلام الله . وهذه الدعوى العامة تحتاج الى دليل : فان تعليم الله لآدم الأسماء أو إنزاله كتبه بهذه الحروف لا يوجب أن يكون لم ينطق غير آدم ممن لم يسمع

الكتب المنزلة بهذه الحروف ، كما كانت العرب تتطق بهذه الحروف
والأسماء قبل نزول القرآن ، والله تعالى أنزله بلسانهم الذي كانوا
يتكلمون به قبل نزول القرآن .

(المقام الثاني) : انه لو لم يكن أحد نطق بها إلا مستفيداً لها
من كلام الله ؛ لكن إذا أنشأ بها كلاماً لنفسه ولم يقصد بها قراءة
كلام الله لم تكن في هذه الحال من كلام الله ، كما لو فعل ذلك في
بعض الجمل المركبة وأولى . ويدل على ذلك الأحكام الشرعية .

قال الآخرون — القائلون بأن حروف المعجم غير مخلوقة مطلقاً —
لنا في الأسماء الموجودة في غير القرآن قولان . منهم من يقول بأن
جميع الأسماء غير مخلوقة ، كما يقول ذلك في الحروف . ومنهم من
لا يقول ذلك ، وقد حكى القولين ابن حامد وغيره عمن ينتسب الى
مذهب الإمام أحمد وغيره من القائلين بأن حروف المعجم غير مخلوقة
فمن عمم ذلك استدلل بقوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها) وهذه الحجة
مبنية على مقدمتين .

(إحداها) أن مبدأ اللغات توقيفية ، وان المراد بالتوقيف
خطاب الله بها ، لا تعريفه بعلم ضروري ، وهذا الموضع قد تنازع فيه
الناس من أصحاب الإمام أحمد وسائر الفقهاء وأهل الحديث والأصول .

فقال قوم : إنها توقيفية . وهو قول أبي بكر عبد العزيز ، والشيخ أبي محمد المقدسي ، وطوائف من أصحاب الامام أحمد : وهو قول الأشعري ، وابن فورك ، وغيرها . وقال قوم : بعضها توقيفي . وبعضها اصطلاحي . وهذا قول طوائف : منهم ابن عقيل ، وغيره . وقال قوم : يجوز فيها هذا وهذا . ولا نجزم بشيء . وهذا قول القاضي أبي يعلى ، والقاضي أبي بكر بن الباقلاني ، وغيرها . ولم يقل : إنها كلها اصطلاحية إلا طوائف من المعتزلة ومن اتبعهم — ورأس هذه المقالة أبو هاشم ابن الجبائي .

والذين قالوا انها « توقيفية » تنازعوا : هل التوقيف بالخطاب ، أو بتعريف ضروري ، أو كليهما ؟ فمن قال : انها توقيفية . وان التوقيف بالخطاب ، فانه ينبنى على ذلك أن يقال : انها غير مخلوقة ؛ لأنها كلها من كلام الله تعالى ؛ لكن نحن نعلم قطعاً ان في أسماء الأعلام ما هو مرتجل وضعه الناس ابتداء فيكون التردد في أسماء الأجناس .

و « أيضاً » فان تعليم الله لآدم بالخطاب لا يوجب بقاء تلك الأسماء بألفاظها في ذريته ؛ بل المأثور أن أهل سفينة نوح لما خرجوا من السفينة أعطي كل قوم لغة ، وتبلبت ألسنتهم . وهذه المسألة فيها تجاذب . والنزاع فيها بين أصحابنا وسائر أهل السنة يعود الى نزاع

لفظي فيما يتحقق فيه النزاع ، وليس بينهم والحمد لله خلاف محقق معنوي .

وذلك ان الذي قال الحرف حرف واحد ، وان حروف المعجم ليست مخلوقة : إنما مقصوده بذلك أنها داخلة في كلام الله ، وانها منتزعة من كلام الله . وانها مادة لفظ كلام الله ، وذلك غير مخلوق ، وهذا لا نزاع فيه . فأما حرف مجرد فلا يوجد لا في القرآن ولا في غيره ، ولا ينطق بالحرف إلا في ضمن ما يأتلف من الأسماء والأفعال وحروف المعاني ، وأما الحروف التي ينطق بها مفردة مثل : الف ، لام ، ميم ، ونحو ذلك فهذه في الحقيقة أسماء الحروف ، وإنما سميت حروفا باسم مسماها ، كما يسمى ضرب فعل ماض باعتبار مسماه ؛ ولهذا لما سأل الخليل أصحابه كيف تنطقون بالزاء من زيد ؟ قالوا : نقول « ز ا » قال : جئتم بالاسم ؛ وإنما يقال « زه » .

وليس في القرآن من حروف الهجاء — التي هي أسماء الحروف — إلا نصفها ، وهي أربعة عشر حرفا ، وهي نصف أجناس الحروف : نصف المجهورة ، والمهموسة ، والمستعلية ، والمطبقة ، والشديدة ، والرخوة ، وغير ذلك من أجناس الحروف . وهو أشرف النصفين . والنصف الآخر لا يوجد في القرآن إلا في ضمن الأسماء ، أو الأفعال ، أو حروف المعاني — التي ليست باسم ولا فعل . فلا يجوز أن نعتقد ان حروف المعجم بأسمائها جميعها موجودة في القرآن ؛ لكن نفس حروف المعجم التي

هي أبعاد الكلام موجودة في القرآن ؛ بل قد اجتمعت في آيتين :
« إحداهما » في آل عمران و « الثانية » في سورة الفتح : (ثم أنزل
عليكم من بعد الغم) الآية ، و (محمد رسول الله) الآية .

وإذا كان كذلك فمن تكلم بكلام آخر مؤلف من حروف اضجاء
فلم ينطق بنفس الحروف التي في لفظ القرآن ، وإنما نطق بمثلها ، وذلك
الذي نطق به قد يكون هو أخذه وإذا ابتداء من لفظ كلام الله تعالى
وقد لا يكون حقيقة .

قيل : الحرف من حيث هو هو شيء واحد له الحقيقة المطلقة التي
لا تأليف فيها لا توجد لا في كلام الله تعالى ولا في كلام عباده ، وإنما
الموجود الحرف الذي هو جزء من اللفظ أو اسمه إذا لم يوجد إلا حرف ؛
ولكن هذا المطلق ؛ بل الأعيان الموجودة في الخارج قائمة بأنفسها ،
كالإنسان لا يوجد مجرداً عن الأعيان في الأعيان ، لا يوجد مجرداً عن
الأعيان إلا في الذهن ، لا في الخارج . فكيف بالحرف الذي لا يوجد في
الخارج إلا مؤلفاً ؟ ! فلو قدر أنه يوجد في الخارج غير مؤلف متعدد
الأعيان كما يوجد الإنسان لم تكن حقيقته المطلقة من حيث هي موجودة
إلا في الأذهان لا في الأعيان .

فتبين ان الحروف تختلف أحكامها باختلاف معانيها واختلاف المتكلم

بها . وهذا أوجب تعظيم حروف القرآن المنطوقة والمسطورة ، وكان لها من الأحكام الشرعية ما امتازت به عما سواها ، واختلاف الأحكام إنما كان لاختلاف صفاتها واحوالها .

فتبين ان الواجب ان يقال ما قاله الأئمة كاحمد وغيره : ان كلام الانسان كله مخلوق حروفه ومعانيه . والقرآن غير مخلوق حروفه ومعانيه . وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يقول الله : أنا الرحمن خلقت الرحم ، وشققت لها من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » وروى الريـع بن انس عن المسيح انه قال : « عجا لهم كيف يكفرون به وهم يتقلبون في نعمائه ويتكلمون باسمائه ؟ ! » .

وذكر في معظم حروف المعجم انها مباني اسماء الله الحسنى ، وكتبه المنزلة من السماء ، وهذا مما يحتاج به من قال : ليست مخلوقة ، وليس بحجة ؛ فان اسماء الله من كلامه وكلامه غير مخلوق ، وما اشتقه هو من أسمائه فتكلم به فكلامه به غير مخلوق . وأما إذا اشتقوا اسما أحدثوه فذلك الاسم هم أحدثوه ولا يلزم إذا كان المشتق منه غير مخلوق ، ان يكون المشتق كذلك . وما يروى عن المسيح فلا يعرف ثبوته عنه ، وبتقدير ثبوته فاذا كان قد ألهم عباده أن يتكلموا بالحروف

التي هي مباني أسمائه التي تكلم بها لم يلزم أن يكون ما أحدثوه هم غير مخلوق .

« وبالجملة » فمن نظر إلى أن حقيقة الحرف التي لا تختلف موجودة في كلام الله وكلام الله غير مخلوق ، قال انها مخلوقة إشارة إلى نفس حقيقة الحرف : لا إلى عين جزء اللفظ الذي به ينطق الكفار والمشركون : فان ذلك الحرف الذي هو صوت لمقدر أو تقدير صوت قائم بالكافر والمشرك لا يقول عاقل : انه غير مخلوق : مع انه ليس مضافا الى الله بوجه من الوجوه : وإنما يضاف إلى الله ما شاركه في اسمه مما كان متعلقاً بالمعنى المضاف إلى الله .

وهذا بخلاف الحروف التي في كلام الله : فان تلك كلام الله كيف ما تصرفت : ونحن لما يسر الله كلامه بالسنتنا أمكننا أن نتكلم بكلامه : لكن بأدواتنا وأصواتنا : وليس تكلمنا به وسمعنا منا كتكلم الله به وسمعنا منه كما تقدمت الإشارة إلى هذا ، كما ان الله ليس كمثله شيء فكذلك سائر ما يضاف إليه : ولكن لما انطقنا الله بأدواتنا وحركاتنا وأصواتنا صار بين بعض لفظنا به ولفظنا بغيره نوع من الشبه : فاذا تكلمنا بكلام آخر فهو يشبه من بعض الوجوه لفظنا وصوتنا بالقرآن لا يشبه تكلم الله به وقراءته إياه فاذا كان وجود هذه الحروف في كلام الآدميين ليس بمنزلة تكلم الله بالقرآن : وإنما يشبه من بعض الوجوه تكلمنا به

من جهة ما يضاف اليها لا من جهة ما يضاف إلى الله امتنع حينئذ أن يقال : عين الحرف الذي هو جزء لفظة من الاسم الذي ينطق به الناس هو عين الحرف الذي هو جزء لفظ من كلام الله تعالى . وإنما يشبهه ويقاربه ، فهو هو باعتبار النوع ؛ وليس هو إياه باعتبار العين والشخص ، خلاف حروف كلام الله القرآن : فانها كلام الله حيث تصرفت وفيها دقة وشبهة أشرنا إليها في هذا الجواب ، وشرحناها في موضعها .

فمن قال : ان الحروف حرفان أراد به أنهما عينان وشخصان وهذا حق . ومن قال : الحرف حرف واحد أراد به : أن الحقيقة النوعية واحدة في الموضعين ، وهذا حق . ومن قال : ان حروف الهجاء من كلام الآدميين غير مخلوقة فقد صدق باعتبار الحقيقة النوعية . ومن قال : انها مخلوقة باعتبار العين الشخصية فقد صدق .

ونظير هذا كثير يوجد في كلام اهل العلم وأهل السنة من النفي والاثبات ، ويكون النزاع في معنيين متوعين نزاعاً لفظياً اعتبارياً ، وقد قال بعض الفضلاء : أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الاسماء ؛ لكن وقوع الاشتراك والاجمال يضل به كثير من الخلق ، كما يهتدي به كثير من الخلق ، وهو سبب ضلال هؤلاء الجهال المسؤولين عنهم ، فان حجتهم : ان الله علم آدم الاسماء كلها ، وعلمه البيان ، وهو مبني على

أن « اللغات توقيفية » كقول كثير من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم :
كابي بكر عبد العزيز ، وأبي محمد المقدسي ، وهو قول الأشعري : وابن
فورك وغيرهما .

لكن « التوقيف » هل المراد به التوكليم ، أو التعريف . أو كلاهما ؟
هذا فيه نزاع أيضاً ، كما تقدم . فالذين قالوا : إنها غير مخلوقة ،
يقولون : إنها « توقيفية » ، وإن التعليم هو بالخطاب ، فيكون الله قد
تكلم بالأسماء كلها ، وكلام الله غير مخلوق . قال هؤلاء الجهال
الضالون : وكلام الآدميين ليس إلا ما يأتلف من الحروف والأسماء وتلك
غير مخلوقة . فهذا أيضاً غير مخلوق .

فبنوا قولهم على أن حروف المعجم غير مخلوقة ، وإن الأسماء المؤلفة
من الحروف غير مخلوقة ، واعتقدوا مع ذلك أن كلام الآدميين ليس
إلا ما يأتلف من الأسماء والحروف وتلك غير مخلوقة ، فقالوا : كلام
الآدميين غير مخلوق ؛ لأن مفرداته غير مخلوقة . وإذا ضويقوا . فقد
يقولون النظم والتأليف مخلوق ، وأما نفس المنظوم المؤلف فهو قديم ،
ثم يحسبون أن المواد المنظومة المؤلفة هي أدخل في الكلام من نفس
التأليف والنظم ، كما أن أجزاء البيت هي أدخل في مساهمة تأليفه
وإن كان البيت إسماً للأجزاء ولتأليفها .

وربما طرد بعضهم هذه « المقالة » في سائر اصوات الآدميين . ولما ألزمهم من خاطبهم بأصوات العباد : التي ليست بكلام طرد بعضهم ذلك في الاصوات ، ثم طرد ذلك في أصوات البهائم : من الحمير وغيرها ، ويلزمهم طرد ذلك في جميع الأصوات ، حتى أصوات العيدان والمزامير ؛ إذ لا فرق بينها وبين اصوات البهائم .

واعلم ان الجهالة إذا انتهت إلى هذا الحد صارت بمنزلة من يقول : ان الوند ، والحائط ، والعجل الذي يعمل منه الجسد كلام الله ، او يقول : ان يزيد بن معاوية كان من الأنبياء الكبار ، أو يقول : ان الله ينزل عشية عرفة على جمل أوراق يعانق المشاة ويصافح الركبان . أو يقول : إن ابا بكر وعمر ليسا مدفونين بالحجرة ، أو أنهما فرعون وهامان ، وانهما كانا كافرين عدوين للنبي صلى الله عليه وسلم : مثل أبي جهل وأبي لهب ، أو يقول : ان علي بن أبي طالب هو العلي الأعلى رب السموات والأرض ، أو يقول : ان الذي صفته اليهود وصلبته ووضعت الشوك على رأسه هو الذي خلق السموات والارض ، وان اليدنين المسمرتين هما اللتان خلقتا السموات والارض ، او يقول : ان الله قعد في بيت المقدس يبكي وينوح حتى جاء بعض مشايخ اليهود فبرك عليه ، أو أنه بكى حتى رمدت عيناه وعادته الملائكة ، وانه ندم على الطوفان ، وعض يديه من الندم حتى جرى الدم ، أو يقول : ان

الشيخ فلان والشيخ فلان يخلق ويرزق ، وكل رزق لا يرزقنيه ما أريده ، أو يقول ان عليا هو الذي كان يعلم القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو يقول : ان صانع العالم لما صنعه غلبت عليه الطبيعة حتى أهلك نفسه ، أو يقول : ان وجوده ووجود هذا وهذا هو عين وجود الحق ، وان الله هو عين السموات والأرض والنبات والحيوان . وان كل صوت ونطق في العالم فهو صوته وكلامه . وكل حركة في العالم وسكون فهو حركته وسكونه . وان الحق المنزه هو الخلق المشبه ، وانه لو زالت السموات والأرض لزال حقيقة الله . وانه من حيث ذاته لا اسم له ولا صفة ، وانه لا وجود له إلا في الأعيان الممكنات . وانه الوجود المطلق الساري في المخلوقات : الذي لا يتميز ولا ينفصل عن المخلوقات . الى أمثال هذه المقالات التي يقولها الغلاة من المشركين والكتابين . ومن اشبههم من غالية هذه الامة .

فان المنتسبين إلى السنة والحديث — وان كانوا أصلح من غيرهم من أشباههم ، فالسنة في الاسلام كالاسلام في الملل . كما انه يوجد في المنتسبين إلى الاسلام ما يوجد في غيرهم ، وان كان كل خير في غير المسلمين فهو في المسلمين أكثر ، وكل شر في المسلمين فهو في غيرهم أكثر ، فكذلك المنتسبة الى السنة — قد يوجد فيهم ما يوجد في غيرهم ، وان كان كل خير في غير أهل السنة فهو فيهم أكثر ، وكل

شر فيهم فهو في غيرهم أكثر : إذ قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال : « لتبعن سنن من كان قبلكم : حذو القذة بالقذة ، حتى لو
دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ »
وقال : « لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم : شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ،
قالوا : فارس والروم ؟ قال : ومن الناس إلا هؤلاء ؟! » .

وإزالة شبهة هؤلاء تحتاج إلى الكلام في « الحروف ، والأسماء »
هل هي مخلوقة أم غير مخلوقة . وإن كنا قد أشرنا إلى ذلك ؛ بل
تتكلم على تقدير أنها غير مخلوقة . ونقول مع هذا : يجب القطع
بأن كلام الآدميين مخلوق . ويطلق القول بذلك إطلاقا لا يحتاج إلى
تفصيل : بأن يقال نظمه وتأليفه مخلوق . وحروفه وأسماءه غير مخلوقة
أو تركيبه مخلوق ومفرداته غير مخلوقة ، فإن هذا التفصيل
لا يحتاج إليه .

وذلك لأن كلام المتكلم هو عبارة عن الفاظه ومعانيه ، كما قدمناه .
ليس الكلام اسما لمجرد الالفاظ ، ولا لمجرد المعاني .

وعامة ما يوجد في الكتاب والسنة ، وكلام السلف والأئمة : بل
وسائر الأمم عربهم وعجمهم من لفظ الكلام ، والقول ، وهذا كلام
فلان . أو كلام فلان : فانه عند إطلاقه يتناول اللفظ والمعنى جميعا

لشموله لها ؛ ليس حقيقة في اللفظ فقط ، كما يقوله قوم . ولا في المعنى فقط ، كما يقوله قوم . ولا مشترك بينهما ، كما يقوله قوم . ولا مشترك في كلام الآدميين وحقيقة في المعنى في كلام الله كما يقوله قوم .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الله تجاوز لأمتي عما حدثت به انفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به » وقول معاذ له : « وانا لمؤاخذون بما تتكلم ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ! وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟ ! » وقوله : « كلمتان ثقيلتان في الميزان : خفيفتان على اللسان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » وقوله : « ان اصدق كلمة قالها الشاعر : كلمة لبيد :

الا كل شيء ما خلا الله باطل »

وقوله : « إني لأعلم كلمة لا يقولها أحد عند الموت إلا وجد روحه لها روحا » . « فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » وما في القرآن : مثل قوله : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) وقوله : (وإذا قلتم فاعدلوا . ولو كان ذا قربى) . ونحو ذلك من أسماء القول والكلام جميعاً ونحوها فإنه يدخل فيه اللفظ والمعنى جميعاً عند الإطلاق .

وإذا كان كذلك فالتكلم بالكلام المبتدئ له ، سواء كان نظماً أو
نثراً لا ريب أنه هو الذي ألف معانيه وألف ألفاظه ؛ وأما مفردات
« الأسماء والحروف » فلا ريب أنه تعلمها من غيره ، سواء كانت مخلوقة
أو غير مخلوقة ؛ فإن « اللغات » سابقة لكلام عامة المتكلمين . ونطق
الناطقين من البشر ، وهم تلقوا الأسماء ، وحروف الأسماء الموجودة في
لغاتهم عن قبلهم إلى أن ينتهي الأمر إلى أول متكلم بتلك
الأسماء المفردة .

ثم انه مما علم بالاضطرار واتفق عليه اهل الارض جميعهم : ان الكلام
هو كلام من ألف معانيه وألفاظه ، وان كان جميع ما فيه من الاسماء
والحروف إنما تعلمها من غيره ، فالناس مطبقون على أن هذه القصائد
كلام منشئها : مثل شعر امرئ القيس ، والنابغة الذبياني : كقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فجميع الأمم يعلمون ويقولون ان هذا شعر امرئ القيس وكلامه
وإن كانت الأسماء المفردة فيه إنما تعلمها من غيره ؛ فإن العرب نطقت
قبله بلفظ « قفا » ولفظ « نبك » ولفظ « من ذكرى » « حبيب » « ومنزل »

وجميع المسلمين إذا سمعوا قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما

الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى » أو « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ انقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » وقوله : « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » قالوا : هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا حديثه ، وهذا قوله . مع علمهم ، أن جميع مفردات هذا الكلام قد كانت موجودة في كلام العرب قبله : مثل لفظ « إنما » ولفظ « الأعمال » ولفظ « النية » و « النيات » ولفظ « كل امرئ » ولفظ « ما نوى » وغير ذلك .

وهكذا كلام الصحابة والتابعين وكلام مصنفى الكتب والرسائل والخطب كلهم يقول : هذه الرسالة كلام فلان ، وهذه الخطبة كلام فلان ، وهذه المسألة من كلام فلان ، مع علمهم بأنه مسبوق بمفردات الكلام : اسمائه ، وحروف هجائه ، وذلك لان الكلام لم يكن كلاماً باعتبار الالفاظ المفردة ، ولا باعتبار أجزائها — وهي حروف الهجاء — ولا كان المقصود بوضع اللفظ للمعنى الدلالة على المعانى المفردة ، فان المعانى المفردة لا يعلم وضع اللفظ لها إلا بعد العلم بها ، فلو كان العلم بها لا يستفاد إلا من اللفظ لزم الدور .

ولهذا يقول اهل العريضة — وهم اخبر بمشبهات الالفاظ من

غيرهم — : ان اسم الكلام لا يقال إلا على الجملة المفيدة كالركبة من اسمين ، او اسم وفعل . وقد ذكر ذلك « سيويه » حكيم لسان العرب في (باب الحكاية بالقول) حيث ذكر ان القول يحكى به ما كان كلاما ، ولا يحكى به ما كان قولا ، والقول انما تحكى به الجمل المفيدة . فعلم انها هي الكلام في لغة العرب .

وحيث اطلق الفقهاء اسم « الكلام » على حرفين فصاعدا في (باب الصلاة) فانما غرضهم ما يبطل الصلاة ، سواء كان مفيداً او غير مفيد . وموضوعا ، أو مهملا . حتى لو صوت تصويتاً طويلاً ، ولحن لحون الغناء ابطال الصلاة ، وان لم يكن ذلك في اللغة كلاما . وم فيما إذا حلف لا يتكلم أو ليتكلمن لا يعلقون البر والحنث الا بما هو في عرف الحالف كلام ، وإن كان اخص من الكلام الذي يبطل الصلاة ولهذا لو حلف لا يتكلم واطلق يمينه حنث بكلام المخلوقين ، وهل يحنث بتكلمه بالقرآن ؟ من العلماء من قال : لا يحنث بحال . ومنهم من قال : لا يحنث بتلاوته في الصلاة . ومنهم من توقف : لان اليمين مرجعها الى عرف الحالف ، فعموم اسم الكلام وخصوصه عندم بحسب الاحكام المتعلقة به .

والسلف إذا ذموا اهل الكلام وقالوا : علماء الكلام زنادقة ، وما ارتدى احد بالكلام فافلح ، فلم يريدوا به مطلق الكلام ،

وإنما هو حقيقة عرفية فيمن يتكلم في الدين بغير طريقة المرسلين .

والخائضون في « اصول الفقه » وإن قالوا : ان الكلام ما تألف من حرفين فصاعدا ، او ما انتظم من « الحروف » وهي الاصوات المقطعة المتواضع عليها . وتنازعوا في الحرف الواحد المؤلف مع غيره هل يسمى كلاما ؟ على قولين ؛ كما قال اكثر متكلميهم : ان الجسم هو المؤلف ، واقل التركيب من جوهرين ، وتنازعوا في الجوهر الواحد المؤلف هل يسمى جسما ؟ على قولين ؛ فهذا اصطلاح خاص لهم .

كما اصطلاح (النحاة) على ان (المفرد) مثل الاسم وحرف المعنى يسمى كلمة ، وان كانت الكلمة في لغة العرب العرياء لا توجد الا اسما للجملة التامة إلا ان يكون شيئا لا يحضرني الآن .

وإذا كان الناس متفقين على ان الكلام هو كلام من ألف ألفاظه ومعانيه ، وإن كان قد تعلم اسماء من غيره زالت كل شبهة في المسألة ، ووجب اطلاق القول بأن كلام الآدميين مخلوق ، كما يطلق القول بأن هذا الشعر من كلام فلان وهذا الكلام كلام فلان ؛ لا كلام الذين تكلموا قبلهم بتلك الاسماء وحروفها ؛ فان كلام الآدميين هو الكلام الذين انشؤه وابتدأوه فألفوا ألفاظه ومعانيه . وإن كان بعضهم قد تعلم اسماء وحروفه من بعض . ولو كانت اسماءه قد سمعوها من الله تعالى .

واعلم ان هنا امراً عجيباً وهو ان هؤلاء القوم ضد الذين يجعلون القرآن الذي يقرؤونه كلام الآدميين ، لا كلام الله . فان اولئك عمدوا إلى كلام الله الذي يتلونه ويبلغونه ويؤدونه — فجعلوه كلام انفسهم ، وهؤلاء عمدوا إلى كلامهم — المتضمن الكفر والفسوق والعصيان والكذب والبطلان — فجعلوه كلام الله الذي ليس بمخلوق . فأولئك لم ينظروا إلا إلى من سمع منه الكلام ، وهؤلاء لم ينظروا إلا إلى من اعتقدوا انه تكلم أولاً بمفردات الكلام .

وأما « الاممة الوسط » الباقون على الفطرة . وجميع بني آدم فيقولون لما بلغه المبلغ عن غيره وأداد ولما قرأه من كلام غيره وتلاه . هذا كلام ذاك . وإنما بلغته بقواك . كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما خرج على قريش فقرأ عليهم : (ألم غلبت الروم في ادنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون) فقالوا : هذا كلامك ، أم كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ، ولكن كلام الله .

وهذا كما قال الله تعالى : (فأجره حتى يسمع كلام الله) وفي سنن أبي داود عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « انه كان يعرض نفسه على الناس في الموقف فيقول : ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ؟ فان قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي » فبين صلى

الله عليه وسلم إنما يبلغه ويتلوه هو كلام الله لا كلامه ، وإن كان يبلغه بأفعاله وصوته كما قال : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال : « لله أشد أذنًا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته »

والأمم متفقون على هذا إذا سمعوا من يروي قصيدة من شعر مثل « قفا نبك » والا « وهل غادر الشعراء » أو « خطبة » مثل خطب علي ، وزيد ، أو « رسالة » كرسالة عبد الحميد ونحوه ، أو سجعا من سجع الكهان ، أو قرآنًا مفترى كقرآن مسيلمة الكذاب قالوا : هذا شعر امرئ القيس . وكلام علي ، وكلام عبد الحميد : وقرآن مسيلمة ، وهو كلامه ، ولم يجعلوه كلاما للمبلغ المؤدي بالواسطة ، وإن كان بلغه بفعاله وصوته ، وإذا انشأ رجل قصيدة . أو خطبة ، أو رسالة ، أو سجعا ، أو تكلم بكلام منشور : آحراً أو مخبراً قالوا : هذا كلام فلان ، وقوله ، وإن كان قد تعلم مفرداته من غيره ، وتلقاها من أحد .

فمن قال : ان الكلام هو كلام لمن تعلم منه المفردات فهو أبعد عن العقل والدين ممن قال : ان الكلام لمن بلغه وأداه . وانما الكلام كلام من اتصل به : واتصف به . وألفه . وأنشأه ، وكان مخبراً بنخبره . وآمرأ بأمره ، وناهياً عن نهيه .

فصل

وأما سؤال السائل : هل يجب على ولي الأمر زجرهم وردعهم ؟
فنعم ! يجب ذلك في هؤلاء ، وفي كل من أظهر مقالة تخالف الكتاب
والسنة : فان ذلك من « المنكر » الذي أمر الله بالتهبي عنه ، كما قال
تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ،
وينهون عن المنكر) وهو من « الآثم » الذي قال الله فيه : (لو
لا ينههم الربانيون والأحبار عن قولهم الآثم وأكلهم السحت) .

وكل من أثبت لله ما نفاه عن نفسه أو نفى عن الله ما أثبتته لنفسه
من المعطاة والمثلة فانه قال على الله غير الحق ، وذلك مما زجر الله
عنه بقوله للنصارى : (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا
على الله إلا الحق) وبقوله : (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم
غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً
وضلوا عن سواء السبيل) وقال عن الشيطان : (إنما يأمركم بالسوء
والفحشاء ، وان تقولوا على الله ما لا تعلمون) وقال : (قل إنما
حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والآثم ، والبغي بغير الحق

وَأَنْ تَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ) .

فَإِنْ مَنْ قَالَ غَيْرَ الْحَقِّ فَقَدْ قَالَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُ : فَإِنَّ الْبَاطِلَ
لَا يَعْلَمُ إِلَّا إِذَا عِلْمٌ بَطُلَانَهُ . فَأَمَّا اعْتِقَادُ أَنَّهُ الْحَقُّ فَهُوَ جَهْلٌ لَا عِلْمَ ، فَمَنْ
قَالَهِ : فَقَدْ قَالَ مَا لَا يَعْلَمُ : وَكَذَلِكَ مَنْ تَبَعَ فِي هَذِهِ الْأَبْوَابِ وَغَيْرِهَا
مِنْ أَبْوَابِ الدِّينِ آبَاءَهُ وَأَسْلَافَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِصَامٍ مِنْهُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ
وَالِإِجْمَاعِ فَإِنَّهُ مِمَّنْ ذَمَّهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ : مِثْلُ قَوْلِهِ : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ :
تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا : حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا
أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) وَقَوْلِهِ : (يَوْمَ تَقْلُبُ
وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ : يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ، وَقَالُوا
رَبَّنَا ! إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ، رَبَّنَا ! آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ
مِنَ الْعَذَابِ وَالْغَنَمَ لَعْنَا كَبِيرًا) .

وَكَذَلِكَ مَنْ اتَّبَعَ الظُّنُونَ وَالْأَهْوَاءَ مَعْتَقِدًا أَنَّهَا « عَقْلِيَّاتٌ »
و « ذَوْقِيَّاتٌ » فَهُوَ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِ : (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى
الْأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى) وَأَمَّا يَفْصِلُ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا
تَنَازَعُوا فِيهِ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ . وَالرَّسُولُ الْمَوْجُودُ بِالْأَنْبِيَاءِ ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى : (ابْتَوْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ اثَّارَةٌ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ) وَقَالَ تَعَالَى : (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً . فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ

مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما
اختلفوا فيه) وقال تعالى : (فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله
والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن
تأويلاً) وقال تعالى : (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله) :
بل على الناس أن يلتزموا الأصول الجامعة الكلية التي اتفق عليها سلف
الامة وأئمتها : فيؤمنون بما وصف الله به نفسه : وبما وصفه به رسوله :
من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

وليس لأحد ان يكفر أحداً من المسلمين وان أخطأ وغلط حتى
تقام عليه الحجة : وتبين له المحجة . ومن ثبت إسلامه يقين لم يزل
ذلك عنه بالشك : بل لا يزول الا بعد اقامة الحجة ، وازالة الشبهة .

فصل

وأما تكفير قائل هذا القول فهو مبنى على أصل لا بد من التنبيه
عليه : فانه بسبب عدم ضبطه اضطربت الامة اضطراباً كثيراً في تكفير
أهل البدع والأهواء ، كما اضطربوا قديماً وحديثاً في سلب الايمان عن
أهل الفجور والكبائر . وصار كثير من أهل البدع مثل الخوارج .
والروافض ، والقدرية ، والجهمية ، والمثلة : يعتقدون اعتقاداً هو ضلال

يرونه هو الحق ، ويرون كفر من خالفهم في ذلك ، فيصير فيهم شوب قوي من أهل الكتاب في كفرهم بالحق وظلمهم للخلق . ولعل أكثر هؤلاء المكفرين يكفر بـ « المقالة » التي لا تفهم حقيقتها ولا تعرف حجتها .

وبازاء هؤلاء المكفرين بالباطل أقوام لا يعرفون اعتقاد أهل السنة والجماعة ، كما يجب . أو يعرفون بعضه ويجهلون بعضه ، وما عرفوه منه قد لا يبينونه للناس بل يكتُمونه ، ولا ينهون عن البدع المخالفة للكتاب والسنة ، ولا يذمون أهل البدع وبعاقبونهم ؛ بل لعلمهم يذمون الكلام في السنة وأصول الدين ذماً مطلقاً ؛ لا يفرقون فيه بين ما دل عليه الكتاب والسنة والاجماع ، وما يقوله أهل البدعة والفرقة ، أو يقرّون الجميع على مذاهبهم المختلفة ، كما يقر العلماء في مواضع الاجتهاد التي يسوغ فيها النزاع ، وهذه الطريقة قد تغلب على كثير من المرجئة ، وبعض المتفكّهة ، والمتصوفة ، والمتفلسفة ، كما تغلب الأولى على كثير من أهل الأهواء والكلام ، وكلا هاتين الطريقتين منحرفة خارجة عن الكتاب والسنة .

وإنما الواجب بيان ما بعث الله به رساله وأنزل به كتبه ، وتبليغ ما جاءت به الرسل عن الله ، والوفاء بميثاق الله الذي أخذ من العلماء فيجب أن يعلم ما جاءت به الرسل ، ويؤمن به ، ويبلغه ، ويدعو اليه ،

ويجاهد عليه ، ويزن جميع ما خاض الناس فيه من أقوال وأعمال في الأصول والفروع الباطنة والظاهرة بكتاب الله وسنة رسوله ، غير متبعين لهوى : من عادة ، أو مذهب ، أو طريقة ، أو رئاسة ، أو سلف ؛ ولا متبعين لظن : من حديث ضعيف ، أو قياس فاسد — سواء كان قياس شمول أو قياس تمثيل — أو تقليد لمن لا يجب اتباع قوله وعمله ؛ فان الله ذم في كتابه الذين يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ويتركون اتباع ما جاءهم من ربهم من الهدى .

فصل

إذا تبين ذلك فاعلم ان « مسائل التكفير ، والتفسيق » هي من مسائل « الأسماء والأحكام » التي تتعلق بها الوعد والوعيد في الدار الآخرة ، وتتعلق بها الموالاة والمعاداة والقتل والعصمة وغير ذلك في الدار الدنيا ؛ فان الله سبحانه أوجب الجنة للمؤمنين ، وحرّم الجنة على الكافرين ، وهذا من الأحكام الكلية في كل وقت ومكان ، قال الله تعالى : (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال تعالى — لما ذكر قول اليهود والنصارى — :

(لن يدخل الجنة الا من كان هوداً او نصارى ، تلك امانتهم ، قل :
هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) . فأمر أن يطالبهم بالبرهان على
هذا النفي العام ، وما فيه من الاثبات الباطل ، ثم قال : (بلى من
أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم
ولا هم يحزنون) .

فأخبر سبحانه عمن مضى ممن كان متمسكا بدين حق من اليهود
والنصارى والصابئين ، وعن المؤمنين بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم
أنه من جمع « الخصال الثلاث » التي هي جماع الصلاح وهي الايمان
بالحلق ، والبعث : بالمبدأ والمعاد : الايمان بالله . واليوم الآخر : والعمل
الصالح : وهو أداء الأمور به ، وترك المنهي عنه . فان له حصول
اثواب وهو أجره عند ربه ، واندفاع العقاب . فلا خوف عليه مما
أمامه ، ولا يحزن على ما وراءه : ولذلك قال : (بلى من أسلم وجهه
لله وهو محسن) اخلاص الدين لله ، وهو عبادته وحده لا شريك له ،
وهو حقيقة قوله : (إياك نعبد ، وإياك نستعين) وهو محسن .

ف « الأول » وهو إسلام الوجه هو النية : وهذا « الثاني » - وهو
الاحسان - هو العمل . وهذا الذي ذكره في هاتين الآيتين هو الايمان
العام . والاسلام العام ، الذي أوجبه الله على جميع عباده ، من
الأولين والآخرين .

وهو «دين الله العام» الذي لا يقبل من أحد سواه ، وبه بعث جميع الرسل : كما قال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟) وقال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك : وما وصينا به إبراهيم ، وموسى وعيسى ؛ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وقال تعالى لبني آدم جميعاً : (فاما يأتينكم مني هدى ، فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى) ، وقال في الآية الأخرى (فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

فكان من أول البدع والتفرق الذي وقع في هذه الأمة « بدعة الخوارج » المكفرة بالذنوب ، فانهم تكلموا في الفاسق الملي ، فزعمت الخوارج والمعتزلة أن الذنوب الكبيرة ، ومنهم من قال : والصغيرة لا تجماع الايمان أبداً ، بل تنافيه وتفسده كما يفسد الأكل والشرب الصيام ، قالوا : لأن الايمان هو فعل المأمور ، وترك المحذور ، فمتى بطل بعضه بطل كله كسائر المركبات .

ثم قالت « الخوارج » : فيكون العاصي كافراً ؛ لأنه ليس إلا مؤمن وكافر ، ثم اعتقدوا أن عثمان وعلياً وغيرها عصوا ، ومن عصى فقد كفر فكفروا هذين الخليفين وجمهور الأمة . وقالت المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين انه يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر .

وقابلتهم « المرجئة » ، و « الجهمية » ومن اتبعهم من الأشعرية والكرامية . فقالوا : ليس من الايمان فعل الأعمال الواجبة ، ولا ترك المحظورات البدنية ، والايمان لا يقبل الزيادة والنقصان ؛ بل هو شيء واحد ، يستوي فيه جميع المؤمنين : من الملائكة . والنبين ، والمقربين ، والمقتصدين ، والظالمين .

ثم قال فقهاء المرجئة : هو التصديق بالقلب واللسان ، وقال أكثر متكلميهم : هو التصديق بالقلب . وقال بعضهم : التصديق باللسان . قالوا : لأنه لو دخلت فيه الواجبات العملية لخرج منه من لم يأت بها كما قالت الخوارج ، ونكتة هؤلاء جميعهم توهمهم أن من ترك بعض الايمان فقد تركه كله .

وأما « أهل السنة والجماعة » من الصحابة جميعهم والتابعين ، وأئمة أهل السنة وأهل الحديث ، وجماهير الفقهاء والصوفية ، مثل مالك والثوري ، والأوزاعي ، وحمد بن زيد ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل

وغيرهم . ومحققى أهل الكلام . فاتفقوا على أن الإيمان والدين قول وعمل . هذا لفظ السلف من الصحابة وغيرهم ، وإن كان قد يعنى بالإيمان فى بعض المواضع ما يغير العمل ؛ لكن الأعمال الصالحة كلها تدخل أيضاً فى معنى الدين . والإيمان ، ويدخل فى القول قول القلب واللسان ، وفى العمل عمل القلب والجوارح .

وقال المفسرون لمذهبهم : إن له أصولاً وفروعاً ، وهو مشتمل على أركان وواجبات - ليست بأركان - ومستحبات : بمنزلة اسم الحج والصلاة وغيرها من العبادات ؛ فإن اسم الحج يتناول كل ما يشرع فيه من فعل وترك ؛ مثل الإحرام وترك محظوراته ، والوقوف بعرفة ومزدلفة ومنى ، والطواف ببيت الله الحرام ، وبين الجبلين المكتفين به ، وهما الصفا والمروة .

ثم الحج مع هذا مشتمل على أركان متى تركت لم يصح الحج ، كالوقوف بعرفة . وعلى ترك محظور متى فعله فسد الحج ، وهو الوطء ، ومشتمل على واجبات : من فعل وترك ، يأثم بتركها عمداً ، ويجب مع تركها - لعذر أو غيره - الجبران بدم ، كالأحرام من المواقيت المكانية والجمع بين الليل والنهار بعرفة . وكرمي الجمار ونحو ذلك ، وترك اللباس المعتاد ، والتطيب والصيد وغير ذلك . ومشتمل على مستحبات من فعل وترك بكمل الحج بها ؛ فلا يأثم بتركها ، ولا يجب دم ، مثل رفع الصوت بالأهلال والاكتثار منه ، وسوق الهدي ، وذكر الله .

ودعائه في الطواف ، والوقوف وغيرها . وقلة الكلام إلا في أمر
بمعروف ، ونهي عن منكر ، أو ذكر الله تعالى ، فمن فعل الواجب ،
وترك المحذور ، فقد أتم الحج والعمرة لله ، وهو مقتصد من أصحاب
اليمين في هذا العمل .

لكن من أتى بالمستحب فهو أكمل منه وأتم منه حجا ، وهو سابق
مقرب ، ومن ترك المأمور ، وفعل المحذور ، لكنه أتى بركنه ، وترك
مفسده فهو حاج حجا ناقصا ، يثاب على ما فعله من الحج ، ويعاقب على
ما تركه ، وقد سقط عنه أصل الفرض بذلك ، مع عقوبته على ما تركه
ومن أخل بركن الحج أو فعل مفسده فحجه فاسد لا يسقط به فرض ؛
بل عليه اعادته ، مع أنه قد يتنازع في إثباته على ما فعله ، وإن لم يسقط
به الفرض ، والأشبه أنه يثاب عليه .

فصار « الحج ثلاثة أقسام » كاملا بالمستحبات ، وتاما بالواجبات فقط ،
وناقصا عن الواجب .

والفقهاء يقسمون الوضوء والغسل الى كامل ومجزئ : لكن يريدون
بالكامل ما أتى بمفروضه ومسنونه ، وبالمجزئ ما اقتصر على واجبه . فهذا
في « الأعمال المشروعة » . وكذلك في « الأعيان المشهودة » فإن الشجرة
مثلا اسم لمجموع الجذع والورق والأغصان ، وهي بعد ذهاب الورق

شجرة ، وبعد ذهاب الأغصان شجرة ؛ لكن كاملة وناقصة ، فليفل مثل ذلك في مسمى الايمان والدين ، أن « الايمان ثلاث درجات » : إيمان السابقين المقربين . وهو ما أتى فيه بالواجبات والمستحبات : من فعل وترك . وإيمان المقتصدین أصحاب اليمين . وهو ما أتى فيه بالواجبات من فعل وترك . وإيمان الظالمين . وهو ما يترك فيه بعض الواجبات . او يفعل فيه بعض المحظورات .

ولهذا قال علماء السنة في وصفهم « اعتقاد أهل السنة والجماعة » : انهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب . اشارة الى بدعة الخوارج المكفرة بمطلق الذنوب ، فأما أصل الايمان الذي هو الاقرار بما جاءت به الرسل عن الله تصديقاً به وانقياداً له : فهذا أصل الايمان الذي من لم يأت به فليس بمؤمن ؛ ولهذا تواتر في الأحاديث « أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان » « مثقال حبة من إيمان » . وفي رواية الصحيح أيضاً « مثقال حبة من خير » « مثقال ذرة من خير » وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة « الايمان بضع وستون — أو بضع وستون ، أو بضع وسبعون شعبة — أعلاها قول لا إله الا الله . وأدناها إمطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الايمان » فعلم ان الايمان يقبل التبعض والتجزئة . وان قليله يخرج الله به من النار من دخلها . ليس هو كما يقوله الخارجون عن مقالة أهل

السنة : انه لا يقبل التبعض والتجزئة ؛ بل هو شيء واحد : اما ان يحصل كله ، أو لا يحصل منه شيء .

ومما يتصل به أن يعرف ان الايمان هو من الأسماء الكتابية ، القرآنية ، النبوية ، الدينية ، الشرعية ؛ فيتنوع مساهها قدراً ووصفاً بتنوع الكتب الالهية ؛ فمنه ما هو متفق عليه بين جميع المؤمنين ، من الأولين والآخرين ، وجميع الكتب الالهية : مثل الاقرار بالله ، واليوم الآخر ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، والصدق والعدل . واعلم ان عامة السور المنكية التي أنزلها الله بمكة هي في هذا الايمان العام المشترك بين الأنبياء جميعهم ، والمؤمنين جميعهم . وهذا القدر المشترك هو في بعض الملل أعظم قدراً ووصفاً ، فان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من أسماء الله وصفاته ، ووصف اليوم الآخر اكمل مما جاء به سائر الأنبياء .

ومنه ما تختلف فيه الشرائع والمناهج ، كالقبلة والمنسك ، ومقادير العبادات ، وأوقاتها وصفاتها ، والسنن والأحكام وغير ذلك ، فسمى الايمان والدين في أول الاسلام ليس هو مسماء في آخر زمان النبوة ؛ بل مسماء في الآخر اكمل ، كما قال تعالى : (اليوم اكملت لكم دينكم) وقال في السورة : (ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله) ؛ ولهذا قال الامام أحمد كان بدء الايمان في أول الاسلام ناقصاً فجعل يتم ، وهكذا

مسمى الايمان والدين ، قد شرع في حق الأشخاص بحسب ما أمر الله به كلاً منهم . وبحسب ما فعله مما أمر الله به .

ولهذا كان المؤمنون من الأولين والآخرين ؛ من الذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين ، والمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، مشتركين في الايمان بالله ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح . كما دل عليه القرآن .

مع أن اليهود كان يجب عليهم الاقرار بما لا يجب علينا الاقرار به ؛ مثل إقرارهم بواجبات التوراة ، وبمحرماتها ، مثل السبت ، وشحم الثرب والسكيتين . ولا يجب عليهم التصديق المفصل بما لم ينزل عليهم من أسماء الله وصفاته ، وصفات اليوم الآخر . ونحن يجب علينا من الايمان بذلك ما لم يجب عليهم ، ويجب علينا من الاقرار بالصلوات الخمس ، والزكاة المفروضة ، وحج البيت ، وغير ذلك مما هو داخل في إيماننا وليس داخلًا في إيمانهم ؛ فان الاقرار بهذه الأشياء داخل في الايمان باتفاق الأمة . وكذلك الاقرار بأعيان الأنبياء كان الاقرار بأعيانهم داخلًا في إيماننا من قبلنا ، ونحن إنما بدخل في إيماننا الاقرار بهم من حيث الجملة .

والمنازعون لأهل السنة منهم من يقول : الايمان في الشرع مبقى على ما كان عليه في اللغة . وهو التصديق . ومنهم من يقول : هو

منقول الى معنى آخر . وهو أداء الواجبات .

وأما أهل السنة فقد يقول بعضهم : هو منقول كالأسماء الشرعية : من الصلاة ، والزكاة . وقد يقول بعضهم : بل هو متروك على ما كان وزادت عليه الشريعة أشياء . ومنهم من يقول : بل هو باق على أصله من التصديق مع دخول الأعمال فيه ، فان الأعمال داخلة في التصديق ، فالمؤمن بصدق قوله بعمله ، كما قال الحسن البصري : ليس الايمان بالتمني ولا بالتحلي ؛ ولكن ما وقر في القلب ، وصدقه العمل . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » . ومنهم من يقول : ليس الايمان في اللغة هو التصديق ؛ بل هو الاقرار ، وهو في الشرع الاقرار أيضاً ، والاقرار يتناول القول والعمل . وليس هذا موضع بسط ذلك ، فقد بسطته في غير هذا الموضع .

وإذا عرف مسمى الايمان ، فعند ذكر استحقاق الجنة والنجاة من النار ، وذم من ترك بعضه ونحو ذلك — يراد به الايمان الواجب ، كقوله : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله . ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . أولئك هم الصادقون) وقوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) الآية . وقوله : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله

ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه) .
وقوله في الجنة : (أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله) .

وقوله صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني حين يزني وهو
مؤمن : ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن : ولا يشرب
الخمر حين يشربها وهو مؤمن » فنفي عنه الايمان الواجب الذي
يستحق به الجنة ، ولا يستلزم ذلك نفي أصل الايمان ، وسائر أجزائه
وشعبه . وهذا معنى قولهم : نفي كمال الايمان لا حقيقته ، أي الكمال
الواجب ، ليس هو الكمال المستحب ، المذكور في قول الفقهاء :
الفصل كامل ومجزئ .

ومن هذا الباب : قوله صلى الله عليه وسلم : « من غشنا فليس
منا » ليس المراد به أنه كافر . كما تأولته الخوارج ، ولا أنه ليس من
خيارنا . كما تأولته المرجئة : ولكن المضمربطابق المظهر ، والمظهر هو
المؤمنون المستحقون للثواب ، السالمون من العذاب ، والغاش ليس منا
لأنه متعرض لسخط الله وعذابه .

وإذا تبين هذا فمن ترك بعض الايمان الواجب لعجزه عنه ، إما
لعدم تمكنه من العلم : مثل أن لا تبلغه الرسالة ، أو لعدم تمكنه من
العمل ، لم يكن مأموراً بما يعجز عنه ، ولم يكن ذلك من الايمان

والدين الواجب في حقه ، وإن كان من الدين والايمان الواجب في الأصل ؛ بمنزلة صلاة المريض ، والخائف والمستحاضة وسائر اهل الاعذار الذين يعجزون عن إتمام الصلاة ، فان صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه ، وبه أحرروا إذ ذاك ، وإن كانت صلاة القادر على الإتمام أكل وأفضل ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير » رواه مسلم عن أبي هريرة في حديث حسن السياق . وقوله : « صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم ، وصلاة النائم على النصف من صلاة القاعد » ولو أمكنه العلم به دون العمل لوجب الايمان به ، علماً واعتقاداً دون العمل .

فصل

فهذا أصل مختصر في « مسألة الاسماء » ، وأما « مسألة الاحكام » وحكمه في الدار الآخرة فالذي عليه الصحابة ومن اتبعهم باحسان ، وسائر أهل السنة والجماعة . أنه لا يخلد في النار من معه شيء من الايمان ؛ بل يخرج منها من معه مثقال حبة ، أو مثقال ذرة من إيمان .

وأما « الخوارج » ومن وافقهم من المعتزلة فيوجبون خلود من

دخل النار ، وعندهم من دخلها خلد فيها ، ولا يجتمع في حق الشخص الواحد العذاب والثواب ، وأهل السنة والجماعة ، وسائر من اتبعهم متفقون على اجتماع الأمرين ، في حق خلق كثير . كما جاءت به السنن المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

و « أيضاً » : فأهل السنة والجماعة لا يوجبون العذاب في حق كل من أتى كبيرة ، ولا يشهدون لمسلم بعينه بالنار لأجل كبيرة واحدة عملها : بل يجوز عندهم ان صاحب الكبيرة يدخله الله الجنة بلا عذاب اما لحسنات تمحووا كبيرته منه أو من غيره : واما لمصائب كفرتها عنه ، واما لدعاء مستجاب منه أو من غيره فيه ، وإما لغير ذلك .

و « الوعيدية » من الخوارج والمعتزلة : يوجبون العذاب في حق اهل الكبار : لشمول نصوص الوعيد لهم . مثل قوله : (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً) ، وتجعل المعتزلة إنفاذ الوعيد أحد « الأصول الخمسة » التي يكفرون من خالفها ، ويخالفون أهل السنة والجماعة في وجوب نفوذ الوعيد فيهم ، وفي تخليدهم ؛ ولهذا منعت الخوارج والمعتزلة أن يكون لبنينا صلى الله عليه وسلم شفاعة في أهل الكبار في اخراج أهل الكبار من النار . وهذا مردود بما تواتر عنه من السنن في ذلك ، كقوله صلى الله عليه وسلم :

« شفاعتي لأهل الكبائر من امتي » وأحدثته في إخراجهم من النار من قد دخلها .

وليس الغرض هنا تحرير هذه الأصول . وإنما الغرض التنبيه عليها ، وكان ما أوقعهم في ذلك أنهم سمعوا نصوص الوعيد فأروها عامة ، فقالوا : يجب أن يدخل فيها كل من شملته . وهو خبر . وخبر الله صدق . فلو أخلف وعيده كان كاخلاف وعده . والكذب على الله محال ، فعارضهم غالية المرجئة بنصوص الوعد . فانها قد تناول كثيراً من أهل الكبائر ، فعاد كل فريق الى أصله الفاسد .

فقال الأولون : نصوص الوعد لا تناول الا مؤمننا ، وهؤلاء ليسوا مؤمنين . وقال الآخرون : نصوص الوعيد لا تناول الا كافرين ، وكل من القولين خطأ . فان النصوص — مثل قوله : (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظالما) — لم يشترط فيها الكفر ؛ بل هي في حق المتدين بالاسلام . وقوله : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » لم يشترط فيه فعل الواجبات ؛ بل قد ثبت في الصحيح « وان زنى ، وان سرق ، وان شرب الخمر » .

فهنا اضطرب الناس : فأنكر قوم من المرجئة العموم . وقالوا : ليس في اللغة عموم ، وهم الواقفية في العموم من المرجئة . وبعض

الأشعرية والشيعة ، وإنما التزموا ذلك لئلا يدخل جميع المؤمنين في نصوص الوعيد .

وقالت المقصدة : بل العموم صحيح . والصيغ صيغ عموم ؛ لكن العام يقبل التخصيص ؛ وهذا مذهب جميع الخلائق ، من الأولين والآخرين ، إلا هذه الشذمة . قالوا : فمن عفى عنه كان مستثنى من العموم . وقال قوم آخرون : بل اخلاف الوعيد ليس بكذب ، وإن العرب لا تعد عاراً أو شئناً أن يوعد الرجل شراً ثم لا ينجزه ، كما تعد عاراً أو شئناً أن يعد خيراً ثم لا ينجزه ، وهذا قول طوائف من المتقدمين والمتأخرين ، وقد احتجوا بقول كعب بن زهير يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم :

نبئت أن رسول الله أوعدني

والعفو عند رسول الله مأمول

قالوا : فهذا وعيد خاص ، وقد رجا فيه العفو ، مخاطباً للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فعلم أن العفو عن المتوعد جائز ، وإن لم يكن من باب تخصيص العام .

والتحقيق أن يقال : الكتاب والسنة مشتمل على نصوص الوعد

والوعيد ، كما ذلك مشتمل على نصوص الأمر والنهي ، وكل من النصوص يفسر الآخر ويبينه ، فكما أن نصوص الوعد على الأعمال الصالحة مشروطة بعدم الكفر المحبط ؛ لأن القرآن قد دل على أن من ارتد فقد حبط عمله ، فكذلك نصوص الوعيد للكفار والفساق مشروطة بعدم التوبة ؛ لأن القرآن قد دل على أن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ، فكذلك في موارد النزاع .

فإن الله قد بين بنصوص معروفة أن الحسنات يذهبن السيئات ، وأن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وأنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، وأن مصائب الدنيا تكفر الذنوب ، وأنه يقبل شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر ، وأنه لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، كما بين أن الصدقة يبطلها المن والأذى . وأن الربا يبطل العمل ، وأنه إنما يتقبل الله من المتقين ؛ أي في ذلك العمل ونحو ذلك .

فجعل للسيئات ما يوجب رفع عقابها ، كما جعل للحسنات ما قد يبطل ثوابها ، لكن ليس شيء يبطل جميع السيئات إلا التوبة ، كما أنه ليس شيء يبطل جميع الحسنات إلا الردة .

وبهذا تبين أنا نشهد بأن (الذين يأكلون أموال اليتامى ظالماً ؛

إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) على الإطلاق والعموم ،
ولا نشهد لمعين أنه في النار : لأننا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه ؛ لأن
لحوق الوعيد بالمعين مشروط بشروط وانتفاء موانع ، ونحن لا نعلم
ثبوت الشروط وانتفاء الموانع في حقه ، وفائدة الوعيد بيان أن هذا
الذنب سبب مقتض لهذا العذاب ، والسبب قد يقف تأثيره على وجود
شرطه . وانتفاء مانعه .

يبين هذا : أنه قد ثبت : « أن النبي صلى الله عليه وسلم
لعن الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وشاربها
وساقها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وآكل ثمنها » . وثبت عنه في صحيح
البخاري عن عمر أن رجلاً كان يكثر شرب الخمر ، فلغنه رجل فقال
النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تلغنه ؛ فإنه يحب الله ورسوله » فنهى عن
لعن هذا المعين ، وهو مدمن خمر ؛ لأنه يحب الله ورسوله ، وقد لعن
شارب الخمر على العموم .

فصل

إذا ظهرت هذه المقدمات في اسم المؤمن والكافر ، والفاسق الملي
وفي حكم الوعد والوعيد ، والفرق بين المطلق والمعين ، وما وقع في

ذلك من الاضطراب . فـ «مسألة تكفير أهل البدع والأهواء»
متفرعة على هذا الأصل .

ونحن نبدأ بمذهب أئمة السنة فيها قبل التنبيه على الحجة . فنقول :

المشهور من مذهب الامام أحمد : وعامة أئمة السنة تكفير الجهمية
وهم المعطلة لصفات الرحمن : فان قولهم صريح في مناقضة ما جاءت
به الرسل من الكتاب ، وحقيقة قولهم جحود الصانع ، ففيه جحود
الرب ، وجحود ما أخبر به عن نفسه على لسان رسوله ؛ ولهذا قال
عبد الله بن المبارك : انا لنحكي كلام اليهود والنصارى ، ولا نستطيع
أن نحكي كلام الجهمية ، وقال غير واحد من الأئمة انهم اكفر من
اليهود والنصارى ، يغنون من هذه الجهة ، ولهذا كفروا من يقول :
ان القرآن مخلوق ، وان الله لا يرى في الآخرة ، وان الله ليس على
العرش ، وان الله ليس له علم : ولا قدرة ولا رحمة ، ولا غضب ، ونحو
ذلك من صفاته .

واما « المرجئة » : فلا تختلف نصوصه انه لا يكفرهم ؛ فان
بدعتهم من جنس اختلاف الفقهاء في الفروع ، وكثير من كلامهم يعود
النزاع فيه الى نزاع في الألفاظ والأسماء ؛ ولهذا يسمى الكلام في
مسائلهم « باب الأسماء » وهذا من نزاع الفقهاء ، لكن يتعلق بأصل

الدين : فكان المنازع فيه مبتدعاً .

وكذلك « الشيعة » المفضلون لعلّي على أبي بكر ، لا يختلف قوله انهم لا يكفرون ؛ فان ذلك قول طائفة من الفقهاء أيضاً ، وإن كانوا يدعون .

وأما « القدرية » المقرون بالعلم ، و « الروافض » الذين ليسوا من الغالية ، والجهمية ، والخواارج : فيذكر عنه في تكفيرهم روايتان هذا حقيقة قوله المطلق ، مع أن الغالب عليه التوقف عن تكفير القدرية المقرين بالعلم ، والخواارج ، مع قوله : ما أعلم قوماً شراً من الخوارج .

ثم طائفة من أصحابه يحكون عنه في تكفير أهل البدع مطلقاً روايتين ، حتى يجعلوا المرجئة داخلين في ذلك . وليس الأمر كذلك وعنه في تكفير من لا يكفر روايتان ، أصحابها لا يكفر . وربما جعل بعضهم الخلاف في تكفير من لا يكفر مطلقاً ، وهو خطأ محض . والجهمية — عند كثير من السلف : مثل عبد الله بن المبارك ، ويوسف ابن أسباط ، وطائفة من أصحاب الامام أحمد وغيرهم — ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة ، التي افرقت عليها هذه الأمة ؛ بل أصول هذه عند هؤلاء : هم الخوارج والشيعة ، والمرجئة والقدرية ، وهذا المأثور

عن أحمد ، وهو المأثور عن عامة أئمة السنة . والحديث انهم كانوا يقولون : من قال : القرآن مخلوق فهو كافر . ومن قال : ان الله لا يرى في الآخرة فهو كافر ، ونحو ذلك .

ثم حكى أبو نصر السجزي عنهم في هذا قولين : « أحدها » أنه كفر ينقل عن الملة . قال : وهو قول الأكثرين . و « الثاني » انه كفر لا ينقل . ولذلك قال الخطابي : ان هذا قالوه على سبيل التخليط ، وكذلك تنازع المتأخرون من أصحابنا في تخليد المكفر من هؤلاء ؛ فأطلق أكثرهم عليه التخليد . كما نقل ذلك عن طائفة من متقدمي علماء الحديث : كأبي حاتم ، وأبي زرعة وغيرهم . وامتنع بعضهم من القول بالتخليد .

وسبب هذا التنازع تعارض الأدلة . فانهم يرون أدلة توجب إلحاق أحكام الكفر بهم . ثم انهم يرون من الأعيان . الذين قالوا تلك المقالات من قام به من الإيمان ما يمتنع ان يكون كافراً ، فيتعارض عندهم الدليلان ، وحقيقة الأمر انهم أصابهم في ألفاظ العموم في كلام الأئمة ما أصاب الأولين في ألفاظ العموم في نصوص الشارع . كلما رأوهم قالوا : من قال كذا فهو كافر . اعتقد المستمع ان هذا اللفظ شامل لكل من قاله . ولم يتدبروا ان التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين . وان تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين .

إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع ، بين هذا أن الامام أحمد وعامة الأئمة : الذين أطلقوا هذه العمومات ، لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه .

فان الامام أحمد — مثلاً — قد باشر « الجهمية » الذين دعوه الى خلق القرآن . ونفى الصفات ، وامتنعوا وسائر علماء وقته ، وفتوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم بالضرب والحبس ، والقتل والعزل عن الولايات ، وقطع الأرزاق ، ورد الشهادة ، وترك تخليصهم من أيدي العدو . بحيث كان كثير من أولي الأمر إذ ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة وغيرهم : يكفرون كل من لم يكن جهمياً موافقاً لهم على نفي الصفات ، مثل القول بخلق القرآن . ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر ، فلا يولونه ولاية ، ولا يفتكونه من عدو ، ولا يعطونه شيئاً من بيت المال ، ولا يقبلون له شهادة . ولا فتياً ، ولا رواية ويمتنعون الناس عند الولاية والشهادة ، والافتكاك من الأسر وغير ذلك . فمن أقر بخلق القرآن حكموا له بالإيمان ، ومن لم يقر به لم يحكموا له بحكم أهل الإيمان ، ومن كان داعياً الى غير التجهم قتلوه أو ضربوه وحبسوه .

ومعلوم ان هذا من أغلظ التجهم . فان الدعاء إلى المقالة أعظم من

قولها ، وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها ، والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب .

ثم إن الامام أحمد دعا للخليفة وغيره . ممن ضربه وحبسه ، واستغفر لهم ، وحملهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر ، ولو كانوا مرتدين عن الاسلام لم يجز الاستغفار لهم ؛ فان الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والاجماع ، وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعينين من الجهمية ، الذين كانوا يقولون : القرآن مخلوق ، وان الله لا يرى في الآخرة ، وقد نقل عن أحمد ما يدل على أنه كفر به قوماً معينين فأما أن يذكر عنه في المسألة روايتان ففيه نظر : أو يحمل الأمر على التفصيل . فيقال : من كفر بعينه ؛ فلقيام الدليل على أنه وجدت فيه شروط التكفير ، وانتفت موانعه ، ومن لم يكفر بعينه ؛ فلتفتاء ذلك في حقه ، هذا مع اطلاق قوله بالتكفير على سبيل العموم .

والدليل على هذا الأصل : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والاعتبار .

اما الكتاب : فقوله سبحانه وتعالى : (ولا جناح عليكم فيما اخطأتم به) وقوله تعالى : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو اخطأنا) .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله تعالى قال : قد فعلت » لما دعا النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بهذا الدعاء . وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش » و « انه لم يقرأ بحرف منها الا أعطيه » .

وإذا ثبت بالكتاب المفسر بالسنة ان الله قد غفر لهذه الأمة الخطأ والنسيان فهذا عام عموماً محفوظاً ، وليس في الدلالة الشرعية ما يوجب ان الله يعذب من هذه الأمة مخطئاً على خطئه ، وان عذب المخطيء من غير هذه الأمة .

و « أيضاً » قد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن رجلاً لم يعمل خيراً قط فقال لأهله : إذا مات فأحرقوه ، ثم اذروا نصفه في البر ، ونصفه في البحر فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبه عذاباً لا يعذبه احداً من العالمين ، فلما مات الرجل فعلوا به كما أمرهم ، فأمر الله البر فجمع ما فيه . وأمر البحر فجمع ما فيه . فاذا هو قائم بين يديه . ثم قال : لم فعلت هذا ؟ قال من خشيتك يارب وأنت أعلم : فغفر الله له » .

وهذا الحديث متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، رواه أصحاب الحديث والأسانيد من حديث أبي سعيد ، وحذيفة وعقبة بن عمرو ، وغيرهم عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه متعددة ، يعلم أهل الحديث أنها تفيد العلم اليقيني ، وإن لم يحصل ذلك لغيرهم ممن لم يشركهم في أسباب العلم . فهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل في قدرة الله تعالى على إعادة ابن آدم ، بعد ما أحرق وذري ، وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك ، وهذان أصلان عظيمان :

« أحدهما » متعلق بالله تعالى ، وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير .

و « الثاني » متعلق باليوم الآخر . وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت ، ويجزيه على أعماله ، ومع هذا فلما كان مؤمناً بالله في الجملة ، ومؤمناً باليوم الآخر في الجملة ، وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت ، وقد عمل عملاً صالحاً — وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه — غفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله ، واليوم الآخر والعمل الصالح .

وأيضاً : فقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان »

وفي رواية : « مثقال دينار من خير ، ثم يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » وفي رواية « من خير » ويخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، أو خير » وهذا وأمثاله من النصوص المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، يدل انه لا يخلد في النار من معه شيء من الإيمان والخير وإن كان قليلا ، وإن الإيمان مما يتبعض ويتجزأ . ومعلوم قطعاً أن كثيراً من هؤلاء المخطئين منهم مقدار ما من الإيمان بالله ورسوله ، إذ الكلام فيمن يكون كذلك .

وأيضاً فإن السلف اخطأ كثير منهم في كثير من هذه المسائل ، واتفقوا على عدم التكفير بذلك ، مثل ما أنكر بعض الصحابة أن يكون الميت يسمع نداء الحي ، وأنكر بعضهم أن يكون المعراج بقطة ، وأنكر بعضهم رؤية محمد ربه . ولبعضهم في الخلافة ، والتفضيل كلام معروف ، وكذلك لبعثهم في قتال بعض ، ولعن بعض ، وإطلاق تكفير بعض ، أقوال معروفة .

وكان القاضي شريح ينكر قراءة من قرأ : (بل عجب) ويقول : إن الله لا يعجب ؛ فبلغ ذلك إبراهيم النخعي فقال : إنما شريح شاعر يعجبه عامه . كان عبد الله أفقه منه ، فكان يقول : (بل عجب) فهذا قد أنكر قراءة ثابتة ، وأنكر صفة دل عليها الكتاب والسنة ، واتفقت الأمة على انه إمام من الأئمة ، وكذلك بعض السلف أنكر

بعضهم حروف القرآن ، مثل إنكار بعضهم قوله : (أفلم يئس الذين آمنوا) وقال : إنما هي : أو لم يتبين الذين آمنوا ، وإنكار الآخر قراءة قوله : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) وقال : إنما هي : ووصى ربك . وبعضهم كان حذف المعوذتين ، وآخر يكتب سورة القنوت . وهذا خطأ معلوم بالاجماع والنقل المتواتر ، ومع هذا فلما لم يكن قد تواتر النقل عندهم بذلك لم يكفروا ، وإن كان يكفر بذلك من قامت عليه الحجة بالنقل المتواتر .

وأيضاً فإن الكتاب والسنة قد دل على أن الله لا يعذب أحداً ، إلا بعد إبلاغ الرسالة ، فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأساً ، ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية .

وذلك مثل قوله تعالى : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقوله : (يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي) الآية . وقوله : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) وقولهم : (وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ؟) الآية . وقوله : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقوله : (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا) وقوله : (كلما ألقى فيها فوج سألهم

خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا
ما نزل الله من شيء (وقوله : (ولو أنا أهلكنام بعذاب من قبله
لقالوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل
ونخزي) وقوله : (ولولا أن تصيهم مصيبة بما قدمت أيديهم :
فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من
المؤمنين) ونحو هذا في القرآن في مواضع متعددة .

فمن كان قد آمن بالله ورسوله : ولم يعلم بعض ما جاء به
الرسول ، فلم يؤمن به تفصيلا : أما أنه لم يسمعه . أو سمعه من طريق
لا يجب التصديق بها ، أو اعتقد معنى آخر لنوع من التأويل الذي
يعذر به . فهذا قد جعل فيه من الإيمان بالله ورسوله ما يوجب أن
يثيبه الله عليه ، ومالم يؤمن به فلم تقم عليه به الحجة التي
يكفر مخالفها .

وأيضاً فقد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع أن من الخطأ في الدين
مالا يكفر مخالفه ؛ بل ولا يفسق ؛ بل ولا يآثم ؛ مثل الخطأ في
الفروع العمالية ؛ وإن كان بعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن المخطيء فيها
آثم . وبعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن كل مجتهد فيها مصيب .
فهذان القولان شاذان ، ومع ذلك فلم يقل أحد بتكفير المجتهدين
المتنازعين فيها ، ومع ذلك فبعض هذه المسائل قد ثبت خطأ المنازع

فيها بالنصوص والاجماع القديم . مثل استحلال بعض السلف والخلف
لبعض أنواع الربا ، واستحلال آخرين لبعض أنواع الخمر . واستحلال
آخرين للقتال في الفتنة .

وأهل السنة والجماعة متفقون على أن المعروفين بالخير . كالصحابة
المعروفين ، وغيرهم من أهل الجمل وصفين من الجانبين ، لا يفسق أحد
منهم ، فضلا عن أن يكفر . حتى عدى ذلك من عداة من الفقهاء
الى سائر أهل البغي ، فانهم مع إيجابهم لقتالهم منعوا أن يحكم بفسقهم
لأجل التأويل ، كما يقول هؤلاء الأئمة : إن شارب النبيذ المتنازع فيه
متأولا لا يجلد ولا يفسق . وقد قال تعالى : (وداود وسليمان إذ
يحكمان في الحرث ، إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ،
ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) وقال تعالى : (ما قطعتم من
لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) .

وثبت في الصحيح من حديث عمرو بن العاص وأبي هريرة عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله
أجران . وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » . وثبت في الصحيح عن بريدة
ابن الحصيب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا حاصرت أهل
حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن
أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك ، فانك لاتدري ما حكم الله فيهم »

وأدلة هذا الاصل كثيرة لها موضع آخر .

وقد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع أن من بلغته رسالة النبي صلى الله عليه وسلم فلم يؤمن به فهو كافر ، لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد ، لظهور أدلة الرسالة ، واعلام النبوة ؛ ولأن العذر بالخطأ حكم شرعي ، فكما ان الذنوب تنقسم الى كبار وصغار ، والواجبات تنقسم إلى اركان وواجبات ليست أركاناً : فكذلك الخطأ ينقسم إلى مغفور وغير مغفور ، والنصوص إنما أوجبت رفع المؤاخذه بالخطأ لهذه الأمة ، وإذا كان كذلك فالخطيء في بعض هذه المسائل : إما ان يلحق بالكفار ، من المشركين وأهل الكتاب مع مباينته لهم في عامة اصول الايمان . وإما ان يلحق بالخطئين في مسائل الايجاب والتحريم ، مع أنها ايضا من أصول الايمان .

فان الايمان بوجوب الواجبات الظاهرة المتواترة ، وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة : هو من أعظم أصول الايمان ، وقواعد الدين والجاهد لها كافر بالاتفاق ، مع ان المجتهد في بعضها ليس بكافر بالاتفاق مع خطئه .

وإذا كان لابد من الحاقه بأحد الصنفين : فمعلوم ان الخطئين من المؤمنين بالله ورسوله ، أشد شبيهاً منه بالمشركين وأهل الكتاب ،

فوجب ان يلحق بهم ، وعلى هذا مضى عمل الأمة قديماً وحديثاً ، في ان عامة المخطئين من هؤلاء تجري عليهم احكام الاسلام التي تجري على غيرهم ، هذا مع العلم بأن كثيراً من المبتدعة منافقون النفاق الاكبر ، وأولئك كفار في الدرك الأسفل من النار . فما اكثر ما يوجد في الرافضة والجهمية ونحوهم زنادقة منافقون . بل اصل هذه البدع هو من المنافقين الزنادقة ، ممن يكون اصل زندقته عن الصابئين والمشركين ، فهؤلاء كفار في الباطن ، ومن علم حاله فهو كافر في الظاهر ايضاً .

وأصل ضلال هؤلاء الاعراض عما جاء به الرسول من الكتاب والحكمة ، وابتغاء الهدى في خلاف ذلك ، فمن كان هذا أصله فهو بعد بلاغ الرسالة كافر لا ريب فيه ، مثل من يرى ان الرسالة للعامة دون الخاصة ، كما يقوله قوم من المتفلسفة ، وغالية المتكلمة والمتصوفة ، أو يرى أنه رسول الى بعض الناس دون بعض ، كما يقوله كثير من اليهود والنصارى .

فهذا الكلام يمهّد أصليين عظيمين :

« احدهما » ان العلم والايمان والهدى فيما جاء به الرسول ، وان خلاف ذلك كفر على الاطلاق ، فنفي الصفات كفر ، والتكذيب بأن الله يرى في الآخرة ، أو أنه على العرش ، أو أن القرآن كلامه : أو

أنه كلم موسى ، أو أنه آخذ إبراهيم خيلاً كافر ، وكذلك ما كان في معنى ذلك ، وهذا معنى كلام أئمة السنة وأهل الحديث .

و « الأصل الثاني » ان التكفير العام — كالوعيد العام — يجب القول بإطلاقه وعمومه .

واما الحكم على المعين بأنه كافر ، أو مشهود له بالنار : فهذا يقف على الدليل المعين ، فان الحكم يقف على ثبوت شروطه . وانتفاء موانعه .

ومما ينبغي ان يعلم في هذا الموضع ان الشريعة قد تأمرنا باقامة الحد على شخص في الدنيا : إما بقتل أو جلد أو غير ذلك ، ويكون في الآخرة غير معذب ، مثل قتال البغاة والمتأولين . مع بقائهم على العدالة ، ومثل اقامة الحد على من تاب بعد القدرة عليه توبة صحيحة . فانا نقيم الحد عليه مع ذلك كما أقامه النبي صلى الله عليه وسلم على ماعز ابن مالك ، وعلى الغامدية ، مع قوله : « لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » ومثل اقامة الحد على من شرب النبيذ المتنازع فيه متأولاً . مع العلم بأنه باق على العدالة .

بخلاف من لا تأويل له . فانه لما شرب الخمر بعض الضحابة

واعتقدوا انها تحمل للخاصة تأول قوله : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات : ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا) اتفق الصحابة مثل عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب وغيرها ، على انهم ان أقروا بالتحريم جلدوا وإن أصرروا على الاستحلال قتلوا .

وكذلك نعلم ان خلقاً لا يعاقبون في الدنيا مع انهم كفار في الآخرة ، مثل أهل الذمة المقرين بالجزية على كفرهم . ومثل المنافقين المظهرين الاسلام ، فانهم تجري عليهم أحكام الاسلام ، وهم في الآخرة ككفرون ، كما دل عليه القرآن في آيات متعددة ، كقوله : (ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً) الآية . وقوله : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ! ولكنكم فتنتم انفسكم ، وتربصتم ، وارتبتم ، وغرتكم الأمانى ، حتى جاء أحر الله ، وغرکم بالله الغرور ، فالیوم لا یؤخذ منکم فدیة ، ولا من الذین کفروا) الآية .

وهذا لأن الجزاء في الحقيقة انما هو في الدار الآخرة ، التي هي دار الثواب والعقاب . وأما الدنيا فانما يشرع فيها من العقاب ما يدفع

به الظلم والعدوان ، كما قال تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ،
ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) وقال
تعالى : (انما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض
بغير الحق) وهذا لأن المقصود بارسال الرسل ، وإنزال الكتب ، هو
إقامة القسط ، كما قال تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا
معهم الكتاب والميزان : ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس
شديد ، ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسوله بالغيب ، ان الله
قوي عزيز) .

وإذا كان الأمر كذلك فعقوبة الدنيا غير مستلزمة لعقوبة الآخرة ،
ولا بالعكس . ولهذا أكثر السلف بأمرهم بقتل الداعي الى البدعة ،
الذي يضل الناس لأجل افساده في الدين ، سواء قالوا : هو كافر ، أو
ليس بكافر .

وإذا عرف هذا فتكفير « المعين » من هؤلاء الجهال وأمثالهم
— بحيث يحكم عليه بأنه من الكفار — لا يجوز الاقدام عليه ، الا بعد
ان تقوم على أحدهم الحجة الرسالية ، التي يتبين بها أنهم مخالفون
للسل ، وان كانت هذه المقالة لا ريب انها كفر .

وهكذا الكلام في تكفير جميع « المعينين » مع ان بعض هذه

البدعة أشد من بعض ، وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان ما ليس في بعض ، فليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين ، وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة ، وتبين له المحجة .

ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك ؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة ، وإزالة الشبهة .

وهذا الجواب لا يحتمل أكثر من هذا . والله المسؤول أن يوفقنا وسائر اخواننا لما يحبه ويرضاه ، والله سبحانه أعلم .

وسئل سبغ الاسلام

رحمة الله

فى رجل قال : ان الله لم يكلم موسى تكليما ، وانما خلق الكلام والصوت فى الشجرة ، وموسى عليه السلام سمع من الشجرة لا من الله ، وان الله عز وجل لم يكلم جبريل بالقرآن وإنما أخذه من اللوح المحفوظ . فهل هو على الصواب أم لا ؟

فأجاب : الحمد لله ، ليس هذا على الصواب : بل هذا ضال مفتر كاذب باتفاق سلف الامة وأئمتها ؛ بل هو كافر يجب ان يستتاب فان تاب والا قتل : واذا قال : لا أكذب بلفظ القرآن — وهو قوله : (وكلم الله موسى تكليما) — بل أقر بأن هذا اللفظ حق ، لكن أنفى معناه وحقيقته ؛ فان هؤلاء هم الجهمية الذين اتفق السلف والأئمة على أنهم من شراهل الأهواء والبدع ، حتى أخرجهم كثير من الأئمة عن الثنتين والسبعين فرقة .

وأول من قال هذه المقالة فى الاسلام كان يقال له الجعد بن درهم ،

فضحى به خالد بن عبد الله القسري يوم اضحى : فانه خطب الناس فقال فى خطبته : ضحوا ايها الناس ! تقبل الله ضحاياكم ، فانى مضح بالجعد بن درهم ، انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم نزل فذبجه . وكان ذلك فى زمن التابعين فشكروا ذلك : وأخذ هذه المقالة عنه جهم ابن صفوان ، وقتله بخراسان سلمة بن أحوز ، واليه نسبت هذه المقالة التى تسمى « مقالة الجهمية » وهى نفي صفات الله تعالى ، فانهم يقولون : ان الله لا يرى فى الآخرة ، ولا يكلم عباده ، وانه ليس له علم ولا حياة ولا قدرة ونحو ذلك من الصفات ، ويقولون : القرآن مخلوق .

ووافق الجهم على ذلك « المعتزلة » أصحاب عمرو بن عبيد ، وضموها اليها بدعا أخرى فى القدر وغيره : لكن المعتزلة يقولون ان الله كلم موسى حقيقة وتكلم حقيقة : لكن حقيقة ذلك عندهم انه خلق كلاماً فى غيره ، إما فى شجرة وإما فى هواء ، وأما فى غير ذلك ، من غير أن يقوم بذات الله عندهم كلام ولا علم ، ولا قدرة ولا رحمة ، ولا مشيئة ولا حياة : ولا شيء من الصفات .

والجهمية تارة يبوحون بحقيقة القول ، فيقولون : ان الله لم يكلم موسى تكليماً ، ولا يتكلم . وتارة لا يظهرون هذا اللفظ : لما فيه من الشناعة المخالفة لدين الاسلام واليهود والنصارى ، فيقرون باللفظ ،

ولكن يقرنونه بأنه خلق في غيره كلاما .

وأئمة الدين كلهم متفقون على ما جاء به الكتاب والسنة ، واتفق عليه سلف الأمة ، من أن الله كلم موسى تكليما ، وإن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وإن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة ، كما تواترت به الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن لله علماً وقدره ونحو ذلك .

ونصوص الأئمة في ذلك مشهورة متواترة . حتى أن أبا القاسم الطبري الحافظ لما ذكر في كتابه في « شرح أصول السنة » مقالات السلف والأئمة في الأصول : ذكر من قال : القرآن كلام الله غير مخلوق . وقال : فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفسا أو أكثر من التابعين والأئمة المرضيين سوى الصحابة ، على اختلاف الأعصار ومضي السنين والأعوام ، وفيهم نحو من مائة إمام ممن أخذ الناس بقولهم . وندبنوا بمذاهبهم . ولو اشتغلت بنقل قول أهل الحديث لبلغت أسماؤهم ألوفا : لكنني اختصرت فنقلت عن هؤلاء عصراً بعد عصر لا ينكر عليهم منكر . ومن أنكر قولهم استتابوه أو أمروا بقتله أو نفيه أو صلبه . قال : ولا خلاف بين الأمة أن أول من قال القرآن مخلوق جعد بن درهم في سني نيف وعشرين ومائة ، ثم جهنم بن صفوان . فاما جعد فقتله خالد بن عبد الله القسري . وأما جهنم فقتل بمرور في خلافة هشام بن عبد الملك .

وروى بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من وجهين
أنهم قالوا له يوم صفين : حكمت رجلين ؟ فقال : ما حكمت مخلوقا
ما حكمت إلا القرآن ، وعن عكرمة قال كان ابن عباس في جنازة ، فلما
وضع الميت في لحده قام رجل وقال : اللهم رب القرآن اغفر له ، فوثب
إليه ابن عباس فقال : مه ؟ ! القرآن منه . وعن عبد الله بن مسعود قال :
من حلف بالقرآن فعليه بكل آية يمين . وهذا ثابت عن ابن مسعود ،
وعن سفيان بن عيينة قال : سمعت عمرو بن دينار يقول : أدركت مشايخنا
والناس منذ سبعين سنة يقولون : القرآن كلام الله ، منه بدا وإليه يعود ،
وفي لفظ يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وقال حرب الكرماني
ثنا اسحق بن إبراهيم يعني ابن راهويه عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن
دينار قال : أدركت الناس منذ سبعين سنة أدركت أصحاب النبي صلى
الله عليه وسلم فمن دونهم يقولون : الله الخالق وما سواه مخلوق : إلا
القرآن فإنه كلام الله ، منه خرج وإليه يعود .

وهذا قد رواه عن ابن عيينة اسحق ، واسحق أما أن يكون سمعه
منه أو من بعض أصحابه عنه ، وعن جعفر بن محمد الصادق — وهو
مشهور عنه — أنهم سألوه عن القرآن أخلق هو أم مخلوق ؟ فقال :
ليس بخالق ولا مخلوق ولكنه كلام الله .

وهكذا روى عن الحسن البصري ، وأيوب السختياني ، وسليمان

التيامي ، وخلق من التابعين . وعن مالك بن أنس ، والليث بن سعد وسفيان الثوري ، وابن أبي ليلي ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، واحمد بن حنبل ، واسحق بن راهويه ، وأمثال هؤلاء من الأئمة ، وكلام هؤلاء الأئمة واتباعهم في ذلك كثير مشهور ، بل اشتهر عن أئمة السلف تكفير من قال : القرآن مخلوق ، وانه يستتاب فان تاب والا قتل ، كما ذكروا ذلك عن مالك بن أنس وغيره ، ولذلك قال الشافعي لحفص الفرد — وكان من اصحاب ضرار بن عمرو ممن يقول : القرآن مخلوق ، فلما ناظر الشافعي ، وقال له : القرآن مخلوق ، قال له الشافعي — كفرت بالله العظيم : ذكره ابن أبي حاتم في الرد على الجهمية ، قال : كان في كتابي عن الربيع بن سليمان قال : حضرت الشافعي ، أو حدثني ابو شعيب ، الا أنني أعلم أنه حضر عبد الله بن عبد الحكم ، ويوسف بن عمرو بن يزيد ، فسأل حفص عبد الله قال : ما تقول في القرآن ؟ فأبى أن يجيبه ، فسأل يوسف بن عمرو فلم يجبه ، وكلاهما أشار إلى الشافعي فسأل الشافعي فاحتج عليه وطالت فيه المناظرة ، فقام الشافعي بالحجة بان القرآن كلام الله غير مخلوق ، وكفر حفصا الفرد . قال الربيع : فلقيت حفصا في المسجد بعد هذا فقال : أراد الشافعي قتلي .

وأما مالك بن أنس فنقل عنه من غير وجه الرد على من يقول القرآن مخلوق واستتابته . وهذا المشهور عنه متفق عليه بين أصحابه .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فقد ذكر أبو جعفر الطحاوي في الاعتقاد الذي قال في أوله : « ذكر بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة » : أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني قال فيه : « وان القرآن كلام الله ، منه بدأ بلا كيفية قولاً ، وأنزله على نبيه وحياً ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً ، وأثبتوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق كلام البرية ، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر ، وقد ذمه الله وعابه وأوعده عذابه وتوعده حيث قال : (سأصليه سقر) فلما أوعده الله سقر لمن قال : (ان هذا إلا قول البشر) علمنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر » .

وأما أحمد بن حنبل فكلامه في مثل هذا مشهور متواتر ، وهو الذي اشتهر بمحنة هؤلاء الجهمية ، فانهم أظهروا القول بانكار صفات الله تعالى ، وحقائق اسمائه ، وان القرآن مخلوق ، حتى صار حقيقة قولهم تعطيل الخالق سبحانه وتعالى ، ودعوا الناس الى ذلك ، وعاقبوا من لم يجبههم إما بالقتل وإما بقطع الرزق وإما بالعزل عن الولاية ، وإما بالحبس أو بالضرب ، وكفروا من خالفهم ، فثبت الله تعالى الامام احمد حتى أخدم الله به باطلهم ، ونصر أهل الايمان والسنة عليهم ، وأذلهم بعد الغز ، وأخلمهم بعد الشهرة ، واشتهر عند خواص الأمة وعوامها ان القرآن كلام

الله غير مخلوق . وإطلاق القول ان من قال انه مخلوق فقد كفر .

وأما إطلاق القول بان الله لم يكلم موسى فهذه مناقضة لنص القرآن . فهو أعظم من القول بان القرآن مخلوق ، وهذا بلا ريب يستتاب فان تاب وإلا قتل ، فانه أنكر نص القرآن ، وبذلك أفتى الأئمة والسلف في مثله ، والذي يقول القرآن مخلوق هو في المعنى موافق له ، فإذلك كفره السلف .

قال البخاري في كتاب « خلق الأفعال » قال سفيان الثوري : من قال القرآن مخلوق فهو كافر ، قال : وقال عبد الله بن المبارك : من قال (إني أنا الله لا إله إلا أنا) مخلوق ، فهو كافر ، ولا ينبغي لمخلوق أن يقول ذلك ، قال وقال ابن المبارك : لا نقول كما قالت الجهمية انه في الأرض ههنا ، بل على العرش استوى ، وقيل له : كيف نعرف ربنا ؟ قال فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه .

وقال : من قال « لا إله إلا الله » مخلوق فهو كافر ، وانا نحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية . قال وقال علي بن عاصم : ما الذين قالوا ان لله ولداً أ كفر من الذين قالوا ان الله لا يتكلم .

قال البخاري : وكان اسماعيل بن أبي ادريس يسميهم زنادقة العراق .

وقيل له : سمعت أحداً يقول القرآن مخلوق ؟ فقال : هؤلاء الزنادقة .
قال : وقال أبو الوليد سمعت يحيى بن سعيد — وذكر له أن قوماً
يقولون القرآن مخلوق — فقال كيف يصنعون به (قل هو الله أحد)
كيف يصنعون بقوله : (اني انا الله لا إله الا انا) ؟ قال : وقال أبو
عبيد القاسم بن سلام نظرت في كلام اليهود والمجوس فما رأيت قوماً
أضل في كفرهم منهم ، واني لأستجهل من لا يكفرهم الا من لا يعرف
كفرهم . قال : وقال سليمان بن داود الهاشمي : من قال القرآن مخلوق
فهو كافر . وان كان القرآن مخلوقاً كما زعموا فلم صار فرعون اولى بان
يخلد في النار إذ قال (أنا ربكم الأعلى) ؟ وزعموا ان هذا مخلوق
والذي قال : (اني انا الله لا إله الا انا فاعبدني) هذا أيضاً قد ادعى
ما ادعى فرعون ، فلم صار فرعون اولى أن يخلد في النار من هذا ؟
وكلاهما عنده مخلوق . فأخبر بذلك أبو عبيد فاستحسنه وأعجبه .

ومعنى كلام هؤلاء السلف رضي الله عنهم : ان من قال ان كلام
الله مخلوق خلقه في الشجرة أو غيرها — كما قال هذا الجهمي المعتزلي
المسؤول عنه — كان حقيقة قوله : ان الشجرة هي التي قالت لموسى
(اني انا الله لا إله الا انا فاعبدني) ومن قال : هذا مخلوق قال ذلك ،
فهذا المخلوق عنده كفرعون الذي قال : (أنا ربكم الأعلى) كلاهما مخلوق
وكلاهما قال ذلك . فان كان قول فرعون كفراً فقول هؤلاء أيضاً كفر .

ولا ريب أن قول هؤلاء يؤول الى قول فرعون : وان كانوا لا يفهمون ذلك : فان فرعون كذب موسى فيها أخبر به : من أن ربه هو الاعلى وانه كلمه كما قال تعالى : (وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي ابلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع الى إله موسى واني لأظنه كاذبا) وهو قد كذب موسى في ان الله كلمه .

ولكن هؤلاء يقولون إذا خلق كلاماً في غيره صار هو المتكلم به وذلك باطل وضلال من وجوه كثيرة :

(أحدها) ان الله سبحانه انطق الأشياء كلها نطقاً معتاداً ونطقاً خارجاً عن المعتاد : قال تعالى : (اليوم أنختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وقال تعالى : (حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي انطق كل شيء) وقال تعالى : (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) وقد قال تعالى : (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق) ، وقد ثبت ان الحصى كان يسبح في يد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الحجر كان يسلم عليه وامثال ذلك من انطاق الجمادات : فلو كان إذا خلق كلاماً في غيره كان هو المتكلم به كان هذا كله كلام الله تعالى : ويكون قد كلم من سمع هذا الكلام كما كلم موسى بن عمران : بل قد ثبت ان الله خالق

أفعال العباد . فكل ناطق فאלله خالق نطقه وكلامه فلو كان متكلماً بما خلقه من الكلام لكان كل كلام في الوجود كلامه حتى كلام إبليس والكفار وغيرهم ، وهذا تقوله غلاة الجهمية كابن عربى وأمثاله يقولون :

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهكذا أشباه هؤلاء من غلاة المشبهة الذين يقولون : ان كلام الآدميين غير مخلوق ؛ فان كل واحدة من الطائفتين يجعلون كلام المخلوق بمنزلة كلام الخالق فاولئك يجعلون الجميع مخلوقا وان الجميع كلام الله . وهؤلاء يجعلون الجميع كلام الله وهو غير مخلوق . ولهذا كان قد حصل اتصال بين شيخ الجهمية الحلولية وشيخ المشبهة الحلولية .

وبسبب هذه البدع وأمثالها من المنكرات المخالفة الدين الاسلام سلط الله أعداء الدين فان الله يقول (ولينصرون الله من ينصره ان الله لقوي عزيز ، الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الامور) ، وأي معروف أعظم من الايمان بالله واسمائه وآياته ؟ واي منكر اعظم من الالحاد في اسماء الله وآياته ؟

(الوجه الثاني) أن يقال لهؤلاء الضالين : ما خلقه الله في غيره

من الكلام وسائر الصفات فانما يعود حكمه على ذلك المحل لا على غيره
فاذا خلق الله في بعض الاجسام حركة أو طعماً أو لوناً أو ريحاً كان
ذلك الجسم هو المتحرك المتلون المتروح المطعوم . وإذا خلق بمحل حياة
أو علماً أو قدرة أو إرادة أو كلاماً كان ذلك المحل هو الحي العالم
القادر المريد المتكلم . فاذا خلق كلاماً في الشجرة أو في غيرها من
الأجسام كان ذلك الجسم هو المتكلم بذلك الكلام ، كما لو خلق فيه
إرادة أو حياة أو علماً ، ولا يكون الله هو المتكلم به ، كما إذا خلق
فيه حياة أو قدرة أو سمعاً أو بصرًا كان ذلك المحل هو الحي به
والقادر به والسميع به والبصير به ، فكما أنه سبحانه لا يجوز أن
يكون متصفاً بما خلقه من الصفات المشروطة بالحياة وغير المشروطة
بالحياة ، فلا يكون هو المتحرك بما خلقه في غيره من الحركات ، ولا
المصوت بما خلقه في غيره من الأصوات ، ولا سمعه ولا بصره وقدرته
ما خلقه في غيره من السمع والبصر والقدرة ، فكذلك لا يكون
كلامه ما خلقه في غيره من الكلام ولا يكون متكلماً
بذلك الكلام .

(الوجه الثالث) ان الاسم المشتق من معنى لا يتحقق بدون
ذلك المعنى ، فاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعال التفضيل
يتمتع ثبوت معناها دون معنى المصدر التي هي مشتقة منه ، والناس

متفقون على انه لا يكون متحرك ولا متكلم الا بحركة وكلام ، فلا يكون حرید إلا بإرادة ، وكذلك لا يكون عالم الا بعلم ولا قادر الا بقدرة ونحو ذلك .

ثم هذه الأسماء المشتقة من المصدر انما يسمى بها من قام به مسمى المصدر ، فانما يسمى بالحی من قامت به الحیاة . وبالتحرك من قامت به الحركة ، وبالعالم من قام به العلم ، وبالقادر من قامت به القدرة . فأما من لم یقم به مسمى المصدر فیمتنع أن یسمى باسم الفاعل ونحوه من الصفات . وهذا معلوم بالاعتبار في جميع النظائر .

وذلك لأن اسم الفاعل ونحوه من المشتقات هو مركب يدل على الذات وعلى الصفة . والمركب یمتنع تحققه بدون تحقق مفرداته . وهذا كما انه ثابت في الأسماء المشتقة ، فكذلك في الأفعال : مثل تكلم وكلم ویتكلم ویکلم وعلم وبعلم وسمع وسمع ورأى ویرى ونحو ذلك . سواء قيل : ان الفعل المشتق من المصدر : أو المصدر مشتق من الفعل . لانزع بين الناس ان فاعل الفعل هو فاعل المصدر . فاذا قيل كلم أو علم أو تكلم أو تعلم ففاعل التكلم والتعليم هو المكلم والمعلم . وكذلك التعلم والتكلم . والفاعل هو الذي قام به المصدر الذي هو التكلم والتعليم والتعلم فاذا قيل : تكلم فلان أو كلم فلان فلاناً فلان هو المتكلم والمكلم ، فقواه تعالى : (وكلم الله موسى

تكليماً) وقوله : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم
الله ، ورفع بعضهم درجات) وقوله : (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه
ربه) يقتضي ان الله هو المكلّم ، فكما يتمتع ان يقال : هو متكلّم
بكلام قائم بغيره يتمتع أن يقال كلم بكلام قائم بغيره .

فهذه خمسة أوجه :

(أحدها) انه يلزم الجهمية على قولهم ان يكون كل كلام خلقه
الله كلاماً له : إذ لا معنى لكون القرآن كلام الله إلا كونه خلقه ، وكل
من فعل كلاماً ولو في غيره كان متكلماً به عندهم . وليس للكلام عندهم
مدلول يقوم بذات الرب تعالى لو كان مدلول «قائماً» يدل كونه خلق صوتاً
في محل والدليل يجب طرده فيجب ان يكون كل صوت يخلقه له
كذلك ، وهم يجوزون أن يكون الصوت المخلوق على جميع الصفات ،
فلا يبقى فرق بين الصوت الذي هو كلام الله تعالى على قولهم والصوت
الذي هو ليس بكلام .

(الثاني) ان الصفة إذا قامت بمحل كالعلم والقدرة والكلام
والحركة عاد حكمها الى ذلك المحل ولا يعود حكمها الى غيره .

(الثالث) ان يشتق منه المصدر واسم الفاعل والصفة المشبهة به

ونحو ذلك ولا يشتق ذلك لغيره . وهذا كله بين ظاهر وهو ما بين
قول السلف والأئمة ان من قال ان الله خلق كلاماً في غيره لزمه أن
يكون حكم التكلم عائداً الى ذلك المحل لا الى الله .

(الرابع) ان الله أكد تكليم موسى بالمصدر فقال (تكليماً)
قال غير واحد من العلماء : التوكيد بالمصدر ينفي المجاز ، لئلا يظن
انه ارسل إليه رسولا أو كتب إليه كتاباً بل كله منه إليه .

(والخامس) ان الله فضل موسى بتكليمه إياه على غيره ممن لم
يكلمه وقال : (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً أو من وراء
حجاب أو يرسل رسولا) الآية ، فكان تكليم موسى من وراء
الحجاب ، وقال : (يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي)
وقال (انا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده — الى
قوله — وكلم الله موسى تكليماً) والوحي هو ما نزل الله على قلوب
الأنبياء بلا واسطة ، فلو كان تكليمه لموسى إنما هو صوت خلقه في
الهواء لكان وحي الأنبياء أفضل منه : لأن أولئك عرفوا المعنى المقصود
بلا واسطة . وموسى إنما عرفه بواسطة ، ولهذا كان غلاة الجهمية من
الأتحادية ونحوهم يدعون أن ما يحصل لهم من الإلهام أفضل مما حصل لموسى
ابن عمران ، وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين .

ولما فهم السلف حقيقة مذهب هؤلاء وأنه يقتضي تعطيل الرسالة
فان الرسل إنما بعثوا ليبلغوا كلام الله : بل يقتضي تعطيل التوحيد ،
فان من لا يتكلم ولا يقوم به علم ولا حياة هو كالموات ، بل من
لا تقوم به الصفات فهو عدم محض اذ ذات لا صفة لها إنما يمكن تقديرها
في الذهن لا في الخارج كتقدير وجود مطلق لا يتعين ولا يتخصص .

فكان قول هؤلاء مضاهياً لقول « المتفلسفة الدهرية » الذين
يجعلون وجود الرب وجوداً مطلقاً بشرط الاطلاق لا صفة له . وقد
علم ان المطلق بشرط الاطلاق لا يوجد إلا في الذهن . وهؤلاء
الدهرية ينكرون أيضاً حقيقة تكليمه لموسى ويقولون إنما هو فيض
فاض عليه من العقل الفعال ، وهكذا يقولون في الوحي إلى جميع
الأنبياء ، وحقيقة قولهم : ان القرآن قول البشر لكنه صدر عن نفس
صافية شريفة . وإذا كانت المعتزلة خيراً من هؤلاء وقد كفر السلف
من يقول بقولهم فكيف هؤلاء ؟!

وكلام السلف والأئمة في مثل هؤلاء لا يحصى قال حرب بن
اسماعيل الكرمانى : سمعت اسحاق بن راهويه يقول : ليس بين أهل
العلم اختلاف أن القرآن كلام الله وليس بمخلوق ، وكيف يكون شيء
من الرب عز ذكره مخلوقاً ؟ ولو كان كما قالوا لزمهم أن يقولوا : علم
الله وقدرته ومشيتته مخلوقة . فان قالوا ذلك لزمهم أن يقولوا كان الله

— تبارك اسمه — ولا علم ولا قدرة ولا مشيئة ، وهو الكفر المحض الواضح ؛
لم يزل الله عالماً متكلماً له المشيئة والقدرة في خلقه ، والقرآن كلام
الله وليس بمخلوق ، فمن زعم أنه مخلوق فهو كافر .

وقال وكيع بن الجراح : من زعم أن القرآن مخلوق فقد زعم
أن شيئاً من الله مخلوق . ف قيل له : من أين قلت هذا ؟ قال لان
الله يقول (ولكن حق القول مني) ولا يكون من الله شيء مخلوق .
وهذا القول قاله غير واحد من السلف .

وقال أحمد بن حنبل : كلام الله من الله ليس ببيان منه ، وهذا
معنى قول السلف : القرآن كلام الله منه بدا ومنه خرج وإليه ، يعود كما
في الحديث الذي رواه أحمد وغيره عن جبير بن نفير قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم « انكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما
خرج منه » يعنى القرآن وقد روي أيضاً عن أبي أمامة مرفوعاً .
وقال أبو بكر الصديق لأصحاب مسيلة الكذاب لما سمع قرآن مسيلة
« ويحكم ! أين يذهب بعقولكم ؟ إن هذا كلاماً لم يخرج من إل »
أي من رب .

وليس معنى قول السلف والأئمة : إنه منه خرج ومنه بدا . انه
فارق ذاته وحل بغيره فان كلام المخلوق إذا تكلم به لا يفارق ذاته

ويحل بغيره ، فكيف يكون كلام الله ؟ قال تعالى : (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذبا) فقد أخبر أن الكلمة تخرج من أفواههم . ومع هذا فلم تفارق ذاتهم .

و « أيضاً » فالصفة لا تفارق الموصوف وتحل بغيره ، لا صفة الخالق ولا صفة المخلوق ، والناس إذا سمعوا كلام النبي صلى الله عليه وسلم ثم بلغوه عنه كان الكلام الذي بلغوه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بلغوه بحركاتهم وأصواتهم فالقرآن أولى بذلك ، قال كلام الباري والصوت صوت القارئ قال تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) وقال صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم »

ولكن مقصود السلف الرد على هؤلاء الجهمية فانهم زعموا ان القرآن خلقه الله في غيره فيكون قد ابتداءً وخرج من ذلك المحل الذي خلق فيه لا من الله ، كما يقولون : كلامه لموسى خرج من الشجرة فبين السلف والأئمة ان القرآن من الله ابتداءً وخرج ، وذكروا قوله (ولكن حق القول مني) فأخبر ان القول منه لا من غيره من المخلوقات .

و « من » هي لا ابتداء الغاية ، فان كان المجرور بها عينا يقوم بنفسه لم

يكن صفة لله كقوله : (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض
جميعاً منه) وقوله فى المسيح : (وروح منه) وكذلك ما يقوم بالاعيان
كقوله : (وما بكم من نعمة فمن الله) .

واما إذا كان المجرور بها صفة ولم يذكر لها محل كان صفة لله
كقوله (ولكن حق القول منى) . وكذلك قد اخبر فى غير موضع من
القرآن ان القرآن نزل منه وانه نزل به جبريل منه رداً على هذا المبتدع
المفتري وأمثاله ممن يقول : انه لم ينزل منه ، قال تعالى : (أفغير الله
أبتغي حكماً ، وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً ؟ ! والذين آتيناهم
الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى : (قل نزله
روح القدس من ربك بالحق) وروح القدس هو جبريل ، كما قال فى
الآية الأخرى (نزل به الروح الامين على قلبك) وقال (من كان
عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله) وقال هنا (نزله روح
القدس من ربك) فبين ان جبريل نزله من الله لا من هواء ولا من
لوح ولا غير ذلك ، وكذلك سائر آيات القرآن كقوله : (تنزيل الكتاب
من الله العزيز الحكيم) وقوله (حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز
العليم) وقوله (حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم) وقوله (ألم ، تنزيل
الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) وقوله (يا أيها الرسول بلغ ما
أنزل اليك من ربك) .

فقد بين في غير موضع أنه منزل من الله ، فمن قال : انه منزل من بعض المخلوقات كاللوح والهواء فهو مفتر على الله ، مكذب لكتاب الله . متبع لغير سبيل المؤمنين ، ألا ترى ان الله فرق بين ما نزل منه وما نزل من بعض المخلوقات كاللطر بأن قال : (أنزل من السماء ماء) ؟ فذكر المطر في غير موضع وأخبر أنه نزل من السماء ، والقرآن أخبر أنه منزل منه ، وأخبر بتنزيل مطلق في مثل قوله (وأنزلنا الحديد) لأن الحديد ينزل من رؤوس الجبال لا ينزل من السماء ، وكذلك الحيوان : فان الذكر ينزل الماء في الاناث . فلم يقل فيه من السماء ، ولو كان جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ لكان اليهود اكرم على الله من أمة محمد . لأنه قد ثبت بالنقل الصحيح ان الله كتب لموسى التوراة بيده وأنزلها مكتوبة . فيكون بنو اسرائيل قد قرأوا الألواح التي كتبها الله ، وأما المسلمون فأخذوه عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ومحمد أخذه عن جبريل وجبريل عن اللوح ، فيكون بنو اسرائيل بمنزلة جبريل ، وتكون منزلة بني اسرائيل أرفع من منزلة محمد صلى الله عليه وسلم على قول هؤلاء الجهمية : والله سبحانه جعل من فضائل أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه أنزل عليهم كتابا لا يغسله الماء وانه أنزل عليهم تلاوة لا كتابة ، وفرقه عليهم لأجل ذلك . فقال : (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) وقال تعالى : (وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) .

ثم ان كان جبريل لم يسمعه من الله وانما وجدته مكتوباً كانت العبارة عبارة جبريل ، وكان القرآن كلام جبريل ترجم به عن الله ، كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاماً ولم يقدر ان يتكلم به . وهذا خلاف دين المسلمين .

وإن احتج محتج بقوله : (انه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين) قيل له فقد قال في الآية الأخرى : (انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما يؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون) فالرسول في هذه الآية محمد صلى الله عليه وسلم والرسول في الأخرى جبريل : فلو اريد به ان الرسول احدث عبارته لتناقض الخبران . فلم انه أضافه اليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث ولهذا قال : (لقول رسول) ولم يقل ملك ولا نبي ، ولا ريب ان الرسول بلغه ، كما قال تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) فكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول : « ألا رجل يحملي الى قومه لأبلغ كلام ربي ، فان قريشاً قد منعوني أن ابلغ كلام ربي ؟ » ولما أنزل الله : (الم غلبت الروم) خرج ابو بكر الصديق فقرأها على الناس فقالوا : هذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ولكنه كلام الله .

وان احتج بقوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) قيل له

هذه الآية حجة عليك ، فانه لما قال (ما يأتيهم من ذكر من ربهم
محدث) علم ان الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث ؛ لأن النكرة
اذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره ، كما لو قال : ما يأتيني من
رجل مسلم إلا اكرمه ، وما آكل إلا طعاما حلالا ونحو ذلك ،
ويعلم ان المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ولكنه الذي
أنزل جديداً ، فان الله كان ينزل القرآن شيئاً بعد شيء ، فالمنزل أولاً
هو قديم بالنسبة الى المنزل آخرأ . وكل ما تقدم على غيره فهو قديم
في لغة العرب . كما قال : (كالعرجون القديم) وقال : (تالله انك لفي
ضلالك القديم) وقال : (واذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم)
وقال : (أفرايتم ما كنتم تعبدون أئتم وآباؤكم الأقدمون) وكذلك قوله :
(جعلناه قرآناً عريياً) لم يقل جعلناه فقط حتى يظن انه بمعنى خلقناه ؛
ولكن قال : (جعلناه قرآناً عريياً) أي صيرناه عريياً لانه قد كان
قادراً على ان ينزله عجمياً ، فلما أنزله عريياً كان قد جعله عريياً دون
عجمي . وهذه المسئلة من اصول أهل الإيمان والسنة التي فارقوا بها
الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم ، والكلام عليها مبسوط في غير
هذا الموضع والله أعلم .

وسئل شيخ الإسلام

رحمه الله

عمن قال : ان الله لم يكلم موسى تكليماً ، فقال له آخر : بل كلمه تكليماً ، فقال : ان قلت كلمه فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ، والحرف والصوت محدث ، ومن قال : ان الله كلم موسى بحرف وصوت فهو كافر ، فهل هو كما قال او لا ؟

فأجاب : الحمد لله ، اما من قال ان الله لم يكلم موسى تكليماً فهذا ان كان لم يسمع القرآن فانه يعرف ان هذا نص القرآن ، فان أنكره بعد ذلك استتيب فان تاب والا قتل ، ولا يقبل منه ان كان كلامه بعد ان يجحد نص القرآن ، بل لو قال : ان معنى كلامي انه خلق صوتاً في الهواء فأسمعه موسى كان كلامه أيضاً كفراً ، وهو قول الجهمية الذين كفرهم السلف وقالوا : يستتابون فان تابوا والا قتلوا ؛ لكن من كان مؤمناً بالله ورسوله مطلقاً ولم يبلغه من العلم ما يبين له الصواب فانه لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي من خالفها كفر . إذ كثير من الناس

يخطيء فيها بتأوله من القرآن ويجهل كثيراً مما يرد من معاني الكتاب والسنة ، والخطأ والنسيان مرفوعان عن هذه الأمة ، والكفر لا يكون إلا بعد البيان .

والأئمة الذين احرروا بقتل مثل هؤلاء الذين ينكرون رؤية الله في الآخرة ويقولون : القرآن مخلوق ونحو ذلك ، قيل انهم احرروا بقتلهم لكفرهم ، وقيل لأنهم إذا دعوا الناس إلى بدعتهم أضلوا الناس فقتلوا لاجل الفساد في الارض وحفظا لدين الناس ان يضلوم .

وبالجملة فقد اتفق سلف الامة وأئمتها على ان الجهمية من شر طوائف أهل البدع ، حتى أخرجهم كثير عن الثنتين والسبعين فرقة .

ومن الجهمية : المتفلسفة والمعتزلة الذين يقولون : ان كلام الله مخلوق وان الله إنما كلم موسى بكلام مخلوق خلقه في الهواء ، وانه لا يرى في الآخرة . وانه ليس مبيناً لخلقه ، وأمثال هذه المقالات التي تستلزم تعطيل الخالق وتكذيب رساله وإبطال دينه .

وأما قول الجهمي : ان قلت كلمه فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ، والحرف والصوت محدث ، ومن قال ان الله كلم موسى بحرف وصوت فهو كافر . فيقال لهذا الملحد : أنت تقول انه كلمه بحرف وصوت

لكن نقول بحرف وصوت خلقه في الهواء وتقول : انه لا يجوز أن تقوم به الحروف والاصوات لانها لا تقوم الا بمتحيز ، والباري ليس بمتحيز ، ومن قال انه متحيز فقد كفر . ومن المعلوم ان من جحد ما نطق به الكتاب والسنة كان أولى بالكفر ممن أقر بما جاء به الكتاب والسنة .

وان قال الجاحد لنص الكتاب والسنة ان العقل معه قال له الموافق للنصوص : بل العقل معي وهو موافق للكتاب والسنة ، فهذا يقول إن معه السمع والعقل ، وذلك انما يحتاج لقوله بما يدعيه من العقل الذي بين منازعه فساد ، ولو قدر أن العقل معه .

« والكفر » هو من الأحكام الشرعية وليس كل من خالف شيئاً علم بنظر العقل يكون كافراً ، ولو قدر انه جحد بعض صرائح العقول لم يحكم بكفره حتى يكون قوله كفراً في الشريعة .

وأما من خالف ما علم أن الرسول جاء به فهو كافر بلا نزاع ؛ وذلك أنه ليس في الكتاب والسنة ولا في قول أحد من سلف الامة وأئمتها الاخبار عن الله بانه متحيز أو انه ليس بمتحيز ، ولا في الكتاب والسنة ان من قال هذا وهذا يكفر . وهذا اللفظ مبتدع والكفر لا يتعلق بمجرد اسماء مبتدعة لا أصل لها في الكتاب والسنة ؛ بل يستفسر هذا القائل إذا قال : إن الله متحيز أو ليس بمتحيز . فان قال : أغني بقولي انه متحيز

انه دخل في المخلوقات وإن المخلوقات قد حازته وأحاطت به فهذا باطل .
وان قال اعني به انه منحاز عن المخلوقات مباين لها ، فهذا حق .

وكذلك قوله : ليس بمتحيز ، ان أراد به ان المخلوق لا يحوز
الخالق فقد أصاب ، وان قال ان الخالق لا يباين المخلوق وينفصل عنه
فقد أخطأ .

وإذا عرف ذلك فالناس في الجواب عن حجة الداحضة - وهي قوله
« لو قلت انه كلمه فالكلام لا يكون الا بحرف وصوت والحرف والصوت
محدث » - ثلاثة أصناف : صنف ممنعوه المقدمة الأولى ، وصنف ممنعوه المقدمة
الثانية . وصنف لم يمنعوه المقدمتين ، بل استفسروه ، وينسوا أن ذلك
لا يمنع ان يكون الله كلم موسى تكليماً .

ف « الصنف الأول » ابو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب وابو الحسن
علي بن اسماعيل الأشعري ومن اتبعهما قالوا : لا نسلم ان الكلام لا يكون
إلا بحرف وصوت بل الكلام معنى قائم بذات المتكلم والحروف والاصوات
عبارة عنه ، وذلك المعنى القائم بذات الله تعالى يتضمن الامر بكل ما أمر
به والخبر عن كل ما أخبر عنه ، ان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا ، وقالوا :
انه اسم الكلام حقيقة ، فيكون اسم الكلام مشتركا او مجازاً في كلام
الخالق ، وحقيقة في كلام المخلوق .

و « الصنف الثاني » ساموا لهم ان الكلام لا يكون إلا بحرف
وصوت ، ومنعوم المقدمة الثانية ، وهو ان الحرف والصوت لا يكون
إلا محدثا .

وصنف قالوا : إن المحدث كالحادث سواء كان قائما بنفسه او بغيره .
وهو يتكلم بكلام لا يكون قديما ، وهو بحرف وصوت . وهذا قول من
يقول القرآن قديم وهو بحرف وصوت كأبي الحسن بن سالم وأتباعه
السالمية وطوائف ممن اتبعه ، وقال هؤلاء في الحرف والصوت نظير ما قاله
الذين قبلهم في المعاني .

وقالوا كلام لا بحرف ولا صوت لا يعقل . ومعنى يكون أمراً
ونهيّاً وخبراً ممتنع في صريح العقل . ومن ادعى ان معنى التوراة
والإنجيل والقرآن واحد وإنما اختلفت العبارات الدالة عليه — فقوله
معلوم الفساد بالاضطرار عقلا وشرعا ، وإخراج الحروف عن مسمى
الكلام مما يعلم فساده بالاضطرار من جميع اللغات ، وإن جاز أن يقال :
ان الحروف والأصوات المخلوقة في غير كلام الله حقيقة أمكن حينئذ أن
يكون كلم موسى بكلام مخلوق في غيره .

وقالوا لاخوانهم الأولين : اذا قلتم ان الكلام هو مجرد المعنى

وقد خلق عبارة بيان (١) فان قلت ان تلك العبارة كلامه حقيقة بطلت
حجتكم على المعتزلة ؛ فان أعظم حجتكم عليهم قولكم انه يمتنع أن يكون
متكلماً بكلام يخلقه في غيره ، كما يمتنع أن يعلم بعلم قائم بغيره ، وأن
يقدر بقدرة قائمة بغيره ، وأن يريد بإرادة قائمة بغيره ، وإن قلت هي
كلام مجازاً لزم أن يكون الكلام حقيقة في المعنى مجازاً في اللفظ ،
وهذا مما يعلم فساد بالاضطرار من جميع اللغات .

و « الصنف الثالث » : الذين لم يمنعوا المقدمتين ولكن استفسروهم
وبينوا ان هذا لا يستلزم صحة قولكم ، بل قالوا : إن قلت : ان
الحرف والصوت محدث بمعنى انه يجب أن يكون مخلوقاً منه منفصلاً
عنه ، فهذا دليل على فساد قولكم وتناقضه ، وهذا قول ممنوع ،
وإن قلت : بمعنى انه لا يكون قديماً فهو مسلم لكن هذه
التسمية محدثة .

وهؤلاء « صنفان » : صنف قالوا : ان المحدث هو المخلوق
المنفصل عنه فاذا قلنا : الحرف والصوت لا يكون إلا محدثاً كان بمنزلة
قولنا لا يكون إلا مخلوقاً ، وحينئذ فيكون هذا المعتزلي أبطل قوله

(١) ياضر بالتأصل .

بقوله حيث زعم انه يتكلم بحرف وصوت مخلوق ، ثم استدل على ذلك بما يقتضي انه يتكلم لا يتكلم بكلام مخلوق فيه تليس .

ونحن لا نقول كلم موسى بكلام قديم ولا بكلام مخلوق . بل هو سبحانه يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء ، كما انه سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، وانه سبحانه استوى الى السماء وهي دخان . وانه سبحانه يأتي في ظلل من الغمام والملائكة ، كما قال (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) وقال : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك) وقال تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وقال تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وأمثال ذلك في القرآن والحديث كثير .

يبين الله سبحانه أنه إذا شاء فعل ما أخبر عنه من تكليمه وأفعاله القائمة بنفسه ، وما كان قائماً بنفسه هو كلامه لا كلام غيره . والمخلوق لا يكون قائماً بالخالق ، ولا يكون الرب محلاً للمخلوقات ، بل هو سبحانه يقوم به ما شاء من كلماته وأفعاله . وليس من ذلك شيء مخلوقاً ، إنما المخلوق ما كان بائناً عنه . وكلام الله من الله ليس ببائن منه ، ولهذا قال السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق . منه بدأ

وإليه يعود ، فقالوا : منه بدأ أي هو المتكلم به ، لا أنه خلقه في بعض
الأجسام المخلوقة .

وهذا « الجواب » هو جواب أئمة أهل الحديث والتصوف والفقه
وطوائف من أهل الكلام من أئمتهم : من الهشامية ، والكرامية ،
وغيرهم .

وأتباع الأئمة الأربعة : أصحاب أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ،
وأحمد : منهم من يختار جواب الصنف الأول . وهم الذين يرتضون
قول ابن كلاب في القرآن : وهم طوائف من متأخري أصحاب مالك
والشافعي وأحمد وأبي حنيفة ، ومنهم من يختار جواب الصنف الثاني ،
وهو الطوائف الذين ينكرون قول ابن كلاب ويقولون ان القرآن قديم :
كالسالمية ، وطوائف من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة .
ومنهم من يختار جواب الطائفة الثالثة ، وهم الذين ينكرون قول الطائفتين
المتقدمتين الكلاية والسالمية .

ثم من هؤلاء من يقول بقول الكرامية — والكرامية ينتسبون
إلى أبي حنيفة — ومنهم من لا يختار قول الكرامية أيضاً لما فيه من
تناقض آخر : بل يقول بقول أئمة الحديث : كالبخاري ، وعثمان بن
سعيد الدارمي ، ومحمد بن اسحاق بن خزيمة ، ومن قبلهم من السلف :

كأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، ومحمد بن كعب
القرظي ، والزهري ، وعبد الله بن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق
ابن راهويه ، وما نقل من ذلك عن الصحابة والتابعين ، وفي ذلك آثار
كثيرة معروفة في كتب السنن والآثار تضيق عنها هذه الورقة .

وبين الأصناف الثلاثة منازعات ودقائق تضيق عنها هذه الورقة .
وقد بسطنا الكلام عليها في مواضع وبيننا حقيقة كل قول ، وما هو
القول الصواب في صريح المعقول وصحيح المنقول ؛ لكن هؤلاء الطوائف
كلهم متفقون على تضليل من يقول ان كلام الله مخلوق . والأمة متفقة
على ان من قال ان كلام الله مخلوق لم يكلم موسى تكليماً يستتاب فان
تاب والا يقتل .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم
تسليماً كثيراً .

وسئل ايضا رحمه الله

عمن قال : كلم الله موسى تكليماً ، وسمعتة أذناه ، ووعاه قلبه .
وإن الله كتب التوراة بيده ، وناوله إياه من يده إلى يده ، وقال
آخر : لم يكلمه إلا بواسطة .

فأجاب : القائل الذي قال : إن الله كلم موسى تكليماً — كما
أخبر في كتابه — مصيب ، وأما الذي قال : كلم الله موسى بواسطة
فهذا ضال مخطيء ؛ بل قد نص الأئمة على أن من قال ذلك فانه
يستتاب فان تاب وإلا قتل ؛ فان هذا الكلام إنكار لما قد علم
بلاضطرار من دين الاسلام ، ولما ثبت بالكتاب والسنة والاجماع .

قال الله تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو
من وراء حجاب) الآية ففرق بين تكليمه من وراء حجاب — كما
كلم موسى — وبين تكليمه بواسطة رسول ، كما أوحى إلى غير
موسى ، قال الله تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح
والنبيين من بعده) إلى قوله : (وكلم الله موسى تكليماً) .

والأحاديث بذلك كثيرة في الصحيحين والسنن وفي الحديث المحفوظ
عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث «التقى آدم وموسى ، قال آدم :
أنت موسى الذي كلمك الله تكليماً ، لم يجعل بينك وبينه رسولاً
من خلقه » .

وسلف الأمة وأئمتها كفروا الجهمية ، الذين قالوا : إن الله خلق
كلاماً في بعض الأجسام ، سمعه موسى ، وفسر التكليم بذلك . وأما
قوله : « إن الله كتب التوراة بيده » فهذا قد روى في الصحيحين ،
فمن أنكر ذلك فهو مخطيء ضال ، وإذا أنكره بعد معرفة الحديث
الصحيح يستحق العقوبة . وأما قوله « ناولها بيده إلى يده » فهذا
مأثور عن طائفة من التابعين ، وهو هكذا عند أهل الكتاب ؛ لكن
لا أعلم غير هذا اللفظ مأثوراً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فالتكلم
به إن أراد ما يخالف ذلك فقد أخطأ . والله أعلم .

ما تقول السادة الاعظم

أئمة الدين — رضي الله عنهم أجمعين — هل هذا القرآن الذي
تتلوه القائم بنا حين التلاوة هو كلام الله الذي قام به حين تكلم به
وكان صفة له أم لا ؟ وإذا كان كلامه فهل إذا تلوناه وقام بنا يطلق
عليه كلام الله وصفته ؟ أم يطلق عليه كلام الله دون صفته ؟ أم في
ذلك تفصيل يجب بيانه ؟ وهل إذا قام بنا كان منتقلا عن الله بعد
أن قام به ؟ أم يكون قائماً بنا وبه معاً ؟ أم الذي قام بنا يكون عبارة
عن كلام الله ، أو حكاية عنه ، ويكون إطلاق كلام الله عليه مجازاً ؟
وهل يكون صفة لنا محدثة قامت بمحدث ؛ إذ القديم لا يقوم بمحدث ،
والمحدث لا يكون قديماً ، وهل « التلاوة » هي نفس المتلو أم لا ؟ ؟
أفتونا مأجورين .

فأجاب شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية قدس الله
روحه : الحمد لله رب العالمين .

هذه « المسألة » جوابها يحتمل البسط ، ويمكن فيه الاختصار ،
ثم بسط الجواب بعض البسط : فأما الجواب المختصر فانه يقال : جواب

هذه المسألة مبني على « مقدمة » وهي أن يعرف الانسان معنى قول القائل لما بلغه عن غيره : هذا كلام ذلك الغير ؛ فان المحدث إذا حدث عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » أو قوله : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشبهة لا يعلمها كثير من الناس » أو قوله : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » ونحو ذلك .

فانه من المعلوم أن هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم تكلم به بلفظه ومعناه ، فهو الذي أخبر بمعناه ، وهو الذي ألف حروفه وتكلم بها بصوته . ثم المبلغ بذلك عنه بلغ كلامه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » فدعى بالضرورة لمن سمع منه حديثاً فبلغه كما سمعه . فبين أن الحديث المسموع منه هو الحديث المبلغ عنه ، مع العلم بأن المبلغ عنه بلغه بأفعاله وأصواته ، وإن الصوت المسموع منه هو صوته لا صوت النبي صلى الله عليه وسلم . وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم تكلم بذلك الحديث بصوته المختص به ، فالمبلغ عنه هو حديثه الذي سمع منه ، وليس الصوت المسموع صوته .

فاذا قال القائل : هل هذا الحديث الذي قرأه المحدث القام به

حين القراءة هو كلام النبي صلى الله عليه وسلم الذي قام به حين تكلم به وكان صفة له أم لا ؟ قيل له : ان كنت تريد أن نفس الحديث من حيث هو هو كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، الذي قام به حين تكلم به كان صفة له : فنعم ! هذا الحديث من حيث هو هو كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن كنت تريد أن ما اختص بالقارىء من حركاته وأصواته هو القائم بالرسول ، فليس كذلك .

وكذلك إن أردت ان نفس ما اختص به الرسول من حركاته وأصواته ، والصفات القائمة بنفسه هي بعينها انتقلت عن الرسول ، وقامت بالقارىء فليس كذلك .

وقول القائل : هذا هو هذا وليس هو إياه ، وهذا هو عين هذا وليس هو عينه : لفظ فيه إجمال : فان من نقل لفظ غيره : كما سمعه وكتبه في كتاب . فانه يقول : هذا كلام فلان بعينه ، وهذا نفس كلامه ، وهذا عين كلامه . وحراده ان نفس ما قاله هو الذي بلغه عنه ، وهو المكتوب في الكتاب ، لم يزد فيه ولم ينقص منه .

فاذا قال القائل : لما سمع من القارىء . هذا عين كلام الله : أو هذا كلام الله بعينه ، أو هذا نفس كلام الله ، أو قال لما بين لוחي المصحف : هذا كلام الله بعينه . وهذا عين كلام الله كان صادقا ،

ومن أنكر ذلك بهذا الاعتبار كان مقتضى قوله : أن القرآن زيد فيه ونقص ؛ ولهذا كان الناس مطبقين على أن ما بين اللوحين كلام الله ، والانكار على من نفي ذلك .

وقد يقال لكلام المتكلم المسموع منه : هذا كلام زيد بعينه ؛ وهذا عين كلام زيد ، وهذا نفس كلام زيد ، بمعنى أنه مسموع منه بلا واسطة ؛ بحيث يسمع صفة ذلك المتكلم المختص به بذلك ، كما قال أيوب السخيتاني . كان الحسن يتكلم بكلام فيأتي مثل الدر ؛ فتكلم به بعده قوم فجاء مثل البعر . والمتكلم بالكلام من البشر له صوت يخصه ، ونعمة تخصه ، كما له سجية تخصه ، كما قال تعالى : (واختلاف ألسنتكم وألوانكم) . وله أيضاً — ان كان أمراً أو نهياً أو خبراً — من الحال والصفة والكيفية ما يختص به ، فإذا سمع كلامه بالصفة المختصة به وقيل : هذا كلامه بعينه ، وهذا دين كلامه ، ونفس كلامه ، وادخلت الصفة المختصة به في مسمى العين والنفس ، لم يصدق هذا عليه ، إذا كان مروياً .

لكن لما كان الناس في زماننا يعلمون ان أحداً لا يسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم منه : لم يسبق هذا المعنى إلى ذهن أحد ، بل كل أحد يعلم انا إذا قلنا سمعنا كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم بعينه ، وهذا عين كلامه ، فانما المراد به

المعنى الأول ، وهو كونه مسموعاً من المبلغ عنه ، لا أنه مسموع منه ، ولا أن تكلمه الذى يختص بالكلام وجد .

وإذا كان هذا فى كلام النبي صلى الله عليه وسلم : فكلام الله سبحانه أولى بذلك ، فان الناس يعلمون ان احداً منهم لم يسمعه من الله ، كما سمع موسى كلام الله من الله : بل يعلمون أن كلام الله إنما سمع من المبلغين له ، كما قال تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) وقال تعالى : (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) وقال نوح : (ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى)

وفى سنن أبى داود عن جابر ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول بالموقف : « الا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربى ؟ فان قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربى »

فلما كان هذا مستقراً فى قلوب المستمعين علموا أن قوله تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) إنما هو سماعه من المبلغين له ، لا سماعه منه ، وان هذا السماع ليس كسماع موسى كلام الله من الله : فان موسى سمعه منه بلا واسطة ، ونحن إذا سمعنا كلام النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة لم يكن كسماع الصحابة

من النبي صلى الله عليه وسلم ، مع أنهم يبلغون حديثه كما سمعوه ، مع العلم بأنهم لم يحكوا صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا هي أصواتهم صوته ، ولا مثل صوته ، مع أنهم بلغوا حديثه كما سمعوه . فالقرآن أولى أن يكون جبريل بلغه كما سمعه ، والرسول بلغه كما سمعه ، والأمة بلغته كما سمعته ، وإن يكون ما بلغته هو ما سمعته ، وهو كلام الله عز وجل في الحالين ؛ مع أن الرسول بشر من جنس البشر ، والله تعالى : (ليس كمثله شيء) .

والتفاوت الذي بين صفات الخالق والمخلوق أعظم من التفاوت بين أدنى المخلوقات وأعلاها ، فإذا كان سمع التابعين لكلام النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة ليس كسمع الصحابة من النبي صلى الله عليه وسلم : فسمع كلام الله من الله أبعد من ممثلة سماع شيء لشيء من المخلوقات .

والقائل إذا قال لما سمعه من المبلغ عن الرسول هذا كلام الرسول أو هذا كلام صواب ، أو حق أو صحيح ، أو هذا حديث رسول الله أداه كما سمعه ، أو هذا نفس كلام الرسول أو عينه ، قائما قصد إلى مجرد الكلام ، وهو ما يوجد حال سماعه من المبلغ ، والمبلغ عنه لم بشر إلى ما يختص بأحدها ؛ فلم بشر إلى مجرد صوت المبلغ ، ولا مجرد صوت المبلغ عنه ، ولا إلى حركة أحد منهما ؛ بل هناك أمر يتحد في الحالين

وهذا أمر يتعدد يختص كل منها منه بما يخصه .

فاذا قيل : هذا هو كلامه كانت الإشارة إلى المتحد المتفق عليه
بينهما . وإذا قيل : هذا صوته كانت الإشارة إلى المختص المتعدد ،
فيقال : هذا صوت غليظ . أو رقيق ، أو حسن ، أو ليس حسناً ؛
كما في الحديث الذي في سنن ابن ماجه عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال : « لله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من
صاحب القينة إلى قينته » وفي الحديث المشهور : « زينوا القرآن
بأصواتكم » قال أحمد : يحسنه بصوته ما استطاع . فبين الامام أحمد
أن الصوت صوت القارئ ، مع أن الكلام كلام الباري . وهذا كما
انه معلوم من تبليغ كلام الله ورسوله ، فكذلك في تبليغ كلام كل
أحد ، فاذا سمع الناس منشداً ينشد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قالوا : هذا شعر لبيد لفظه ومعناه ، وهذا كلام لبيد ، كما قال
النبي صلى الله عليه وسلم : « اصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا
كل شيء ما خلا الله باطل » .

ولو قال المنشد : هذا شعري أو كلامي لكذبه الناس ، كما يكذبونه
لو قال : هذا صوت لبيد ، وإذا قال : هذا لفظ لبيد بالمعنى المعروف —

وهو أن هذا الكلام الملفوظ هو كلامه بنظمه وتأليفه - لصدقه الناس .
وإن قال : هذا لفظه بمعنى أن هذا بلفظه كذبه الناس : فإن « اللفظ »
يراد به المصدر ، ويراد به الملفوظ ، وكذلك « التلاوة » و « القراءة »
يراد بذلك المصدر ويراد به الكلام نفسه الذي يقرأ ويتلى .

وأصل هذا أن تعلم الجامع والفارق بين سماع الكلام من المتكلم
به ، ومن المبلغ له عن المتكلم به ، وأنه كلامه في الحالين : لكن هو
في أحدهما مسموع منه سماعاً مطلقاً بغير واسطة ، وفي الأخرى مسموع
منه سماعاً مقيداً بواسطة التبليغ ، كما أنك تارة ترى الشمس والقمر
والكواكب بطريق المباشرة ، فلا تحتاج في ذلك إلى واسطة ، وتارة
تراها في ماء أو مرآة ونحو ذلك : تراها بواسطة ذلك الجسم الشفاف ،
فهى المقصودة بالرؤية في الموضعين : لكن في إحدى الحالتين رايتهما
نفسها بالمباشرة رؤية مطلقة ، وفي الأخرى رايتهما رؤية
مقيدة بواسطة .

وإذا قلت : المرئى مثالا أو خيالها أو نحو ذلك . قيل : انت
تجد الفرق بين رؤيتك خيال الشيء الذي هو ظله وتمثاله الذي هو
صورته المصورة ، وبين رؤيته في الماء والمرآة : إذا كان المرئى هنا ،
وإن كان لابد فيه من توسط خيال فالمقصود بالرؤية هو الحقيقة : ولكن
تختلف باختلاف المرآة . فيرى كبيراً إن كانت المرآة كبيرة ، وصغيراً

إن كانت المرأة صغيرة ، ومستطيلا ان كانت المرأة مستطيلا . وهذا الكلام المروي عن الغير المقصود منه هو نفس كلام ذلك الغير ، وان كان لا بد من توسط صوت هذا المبلغ ؛ ولهذا يختلف باختلاف صوت المبلغ ؛ فتارة يكون رقيقاً ، وتارة غليظا ، وتارة مجهوراً به ، وتارة مخافتاً به .

فان قلت : فهذا المسموع مثل كلام المروي عنه ، أو حكاية كلام المروي عنه . كما أطلق ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم ، كان اطلاق هذا خطأ ، كما أنك إذا قلت لما تراه في الماء والمرأة هذا مثل الشمس ، أو هذا يحكى الشمس : كان إطلاق ذلك خطأ ، قال تعالى : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) الآية ، فقد بين عجز الخلائق عن الاتيان بمثله ، مع أنهم قادرون على تبليغه وتلاوته : فعلم ان هذا المسموع لا يقال انه مثل كلام الله . كما سماء كلامه ؛ لكنه كلامه بواسطة المبلغ لا بطريق المباشرة .

والله سبحانه قد فرق بين التكليمين . فقال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء) ففرق بين تكليمه من وراء حجاب — كما كلمه موسى — وبين تكليمه بارساله رسولا يوحي بأذنه ؛ ذاك تكليم بلا

واسطة ، وهذا تكليمه بواسطة .

وان قلت : لما يبلغه المبلغ عن غيره هذا حكاية كلام ذلك كان الاطلاق خطأ ، فان لفظ « الحكاية » إذا أطلق يراد به أنه أتى بكلام يشبه كلامه ، كما يقال : هذا يحاكي هذا . وهذا قد حكى هذا : لكن قد يقال : فلان قد حكى هذا الكلام عن فلان . كما يقال : رواه عنه ، وبلغه عنه ، ونقله عنه ، وحدث به عنه ؛ ولهذا يجيء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه . فكلمنا بلغه النبي صلى الله عليه وسلم عن الله فقد حكاه عنه ، ورواه عنه .

فالقائل إذا قال للقارئ هذا يحكي كلام الله ، أو يحكي القرآن ، فقد يفهم منه أنه يأتي بكلام يحاكي به كلام الله ، وهذا كفر . وإن أراد أنه بلغه وتلاه فالمعنى صحيح ؛ لكن ينبغي تعبيره بما لا يدل على معنى باطل ، فيقول : قرأه وتلاه ، وبلغه وأداه ؛ ولهذا إذا قيل : يحكى القراءات السبع ، ويرويها ، وينقلها ، لم ينكر ذلك ؛ لأنه لا يفهم منه إلا تبليغها ؛ لا أنه يأتي بمثلها .

فصل

إذا تبين ذلك . فيقال : هذا القرآن الذي نقرأه ونبلغه ونسمعه هو كلام الله الذي تكلم به ، ونزل به منه روح القدس ، كما قال تعالى : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ، وإذا بدلنا آية مكان آية — والله أعلم بما ينزل — قالوا : إنما أنت مفسر بل أكثرهم لا يعلمون : قل نزله روح القدس من ربك بالحق ؛ ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ، ولقد نعلم انهم يقولون : انما يعلمه بشر : لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) فهذا الكلام في القرآن الذي قالوا : انما يعلمه إياه بشر ، وقد أبطل الله ذلك بقوله : (لسان الذي يلحدون اليه أعجمي . وهذا لسان عربي مبين) فدل على ان المراد به نفس القرآن العربي ، الذي يتمتع أن يعلمه إياه ، ذلك الأعجمي ، الذي ألحدوا إليه . وقد قيل : انه رجل بمكة مولى لابن الحضرمي ، والمعاني المجردة لا يتمتع تعلمها من الأعجمي . بخلاف هذا القرآن العربي . فدل ان هذا القرآن نزله روح القدس من الله تبارك وتعالى .

ومثله قوله تعالى في الآية الأخرى : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) وهذا الكلام صفة الله تعالى ، وأما ما اختص قيامه بنا ؛ من حركاتنا وأصواتنا . وفهمنا وغير ذلك من صفاتنا ، فلم يقم منه شيء بذات الله سبحانه ، كما ان ما اختص الرب تعالى بقيامه به لم ينتقل عنه ، ولم يقم بغيره لا هو ولا مثله : فان المخلوق إذا سمع من المخلوق كلامه وبلغه عنه كان ما بلغه هو كلامه ، كما تقدم قول النبي صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه » مع أن ما قام بالنبي صلى الله عليه وسلم — بباطنه من العلم والارادة وغيرها ، وبظاهره من الحركة والصوت وغيرها — لم ينتقل عنه ، ولم يقم بغيره : بل جميع صفات المخلوقين لا تفارق ذواتهم وتنتقل عنهم ، فكيف يجوز ان يقال : ان صفة الخالق فارقت ذاته فانتقلت عنه ؟

والمتعلم إذا أخذ علم المعلم ونقله عنه لم يفارق ذات الأول ، وينتقل عنها إلى الثاني ؛ بل نفس الحقيقة العلمية حصلت له مثل ما حصلت لمعلمه أو ليس مثله بل يشبهه ؛ ولهذا يشبه العلم بضوء السراج ، كل أحد يقتبس منه وهو لم ينقص . ومن المعلوم أن من أوقد من مصباح غيره فانه لم ينتقل إلى سراجة شيء من جرم تلك النار . ولا شيء من صفاتها القائمة بها ؛ بل جعل الله بسبب ملاصقة النار ذلك ناراً مثل تلك

فالحقيقة النارية موجودة . وإن كانت هذه العين ليست تلك ؛ لكن
النار والعلم ليس هو مثل الكلام الذي يبلغ عن الغير ؛ بل هو مثل
ان يسمع بعض الناس كلام غيره ، وشعر غيره ، فيقول من جنس
ما قال : ويقول كما قال غيره مثله . كما يقال : وقع الخاطر على الخاطر
كوقع الحافر على الحافر ؛ وليس هذا من التبليغ والرواية في شيء ،
فان قول القائل :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

هو كلام لييد كيف ما أنشده الناس وكتبوه : فهذا الشعر الذي
ينشده هو شعر لييد بعينه . فاذا قيل : الشعر الذي قام بنا هو الذي
قام بلييد . قيل : ان أريد بذلك ان الشعر من حيث هو هو إن أريد
أن نفس ما قام بذاته فارق ذاته وانتقل إلينا ؛ فليس كذلك ، وكذلك
ان أريد ان عين الصفة المختصة بذلك الشخص كحركته وصوته هي عين
الصفة المختصة بنا ، كحركاتنا وصوتنا فليس كذلك .-

فقولك : هذا هو هذا لفظ فيه إجمال يبينه السياق . فاذا قلت : هذا
الكلام هو ذاك ، أو هذا الشعر هو ذاك ، كنت صادقا . وإذا قلت
هذا الصوت هو ذاك كان كذبا .

والناس لا يقصدون إذا قالوا : هذا شعر لييد إلا القدر المتحد ،

وهي الحقيقة من حيث هي ، مع قصر النظر عما يختص به أحدها .

فان قيل : القدر المتحد كلي مطلق . والكليات إنما توجد في الأذهان لا في الأعيان . قيل : ذكر هذا هنا غلط ، فان هذا إنما يقال لو كان رجل قد قال شعر لبيد من غير أن يعلم بشعره . فنقول : هذان شيان اشتراكا في النوع الكلي ، وامتاز أحدهما عن الآخر بما يخصه ، والكلي إنما يوجد كلياً في الذهن لا في الخارج ، وأما هنا فنفس شعره كان له وجود في الخارج ، والمقصود من الحقيقة الكلامية — مع قطع النظر عن صوت زيد وصوت عمرو — موجود لما تكلم به لبيد ، وموجود إذا أنشده غير لبيد ، وتلك الحقيقة المتحدة موجودة هنا وهنا : ليست مثل وجود الانسانية في زيد وعمرو وخالد : فان إنسانية زيد ليست إنسانية عمرو بل مثلها ، والمشارك بينهما لا يوجد في الخارج ، وهنا نفس الكلام الذي تكلم به لبيد تكلم به المنشد عنه ، ولا يقال : انه أنشأ مثله ، ولا أنشد مثله ، بل يقال : أنشد شعره بعينه .

لكن الشعر عرض ، والعرض لا يقوم إلا بغيره : فلا بد أن يقوم اما بليد وإما بغيره ، والقائم به وإن كان [ليس] مثل القائم بغيره ؛ لكن المقصود بهما واحد . فالتماثل والتغاير في الوسيلة ، والاتحاد في الحقيقة المقصودة ، وتلك الحقيقة هي انشاء لبيد لا انشاء غيره . والعقلاء

يعلمون انه ليس نفس الصوت المسموع من ليد هو نفس الصوت المسموع من المنشد : لكن نفس المقصود بالصوت هو الكلام : فان الصوت واسطة في تبليغه ؛ ولهذا ما كان في الصوت من مدح وذم كان للمبلغ ، وما كان في الكلام من مدح وذم كان للمتكلم المبلغ عنه في لفظه ونظمه ومعناه .

وإذا عرف هذا : فقول القائل : هذا القرآن الذي تتلوه ، القائم بنا حين التلاوة هو كلام الله الذي قام به حين تكلم به ، وكان صفة له أم لا ؟ قيل له : اما الكلام فهو كلام الله لا كلامنا ولا غيرنا ، وهو مسموع من المبلغ لا من الله — كما تقدم — وهو مسموع بواسطة سماعاً مقيداً ، لا سماعاً من الله مطلقاً — كما تقدم — وليس شيء مما قام بذاته فارقه وانتقل إلينا ، ولا شيء مما يختص بذواتنا — كحركاتنا وأصواتنا فهو منا — قائماً به .

وأما قوله : هذا القرآن الذي تتلوه القائم بنا حين التلاوة هو كلام الله الذي قام به حين تكلم به ؟ فلفظ القيام فيه إجمال ، فان أراد ان نفس صفة الرب تكون صفة لغيره ، أو صفة العبد تكون صفة للرب ، فليس كذلك . وإن أراد ان نفس ما ليس بمخلوق صار مخلوقاً ، أو ما هو مخلوق صار غير مخلوق ، فليس الأمر كذلك . وإن أراد أن ما اختص الرب بقيامه به شاركه فيه غيره ، فليس الأمر كذلك . وإن

أراد أن نفس الكلام كلامه لا كلام غيره في الحالين — كما تقدم
تقريره — فالأمر كذلك .

وقد علم أن الحال إذا سمع من الله ليس كالحال إذا سمع من خلقه ،
وذلك فرق بين الحالين ، وإن كان الكلام واحداً . فاذا كان هذا
الفرق ثابتاً في كلام المخلوق مسموعاً ومبلغاً عنه فثبوته في كلام الله أولى
وأحرى ، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في
أفعاله ، ولا يمكن أن يكون تكلمه به وسماعه مما يعرف له نظير ولا مثال ،
ولا يقاس ذلك بتكلم النبي صلى الله عليه وسلم ، وسماع الكلام منه ؛
فإن النبي صلى الله عليه وسلم بشر ، يمكننا أن نعرف صفاته ، والرب
تعالى لا مثال له ، وهو أبعد عن مماثلة المخلوقات أعظم من بعد
مماثلة أعظم المخلوقات عن مماثلة أدناها .

وقول السائل : إذا تلوناه ، وقام بنا ، يطلق عليه كلام الله وصفته
أم يطلق عليه كلام الله دون صفته ؟ أم في ذلك تفصيل يجب بيانه ؟

فيقال : هو كلام الله وصفته . مسموعاً من المبلغ عنه لا منه ؛
فالنفي والاثبات بدون هذا التفصيل يوم : إما أنه كلام الله مسموعاً منه ،
أو أنه ليس كلام الله . بل كلام المبلغ عنه . وكلا القولين خطأ وقع
في كلام طائفتين من الناس . طائفة جعلت هذا كلام المبلغ عنه : لا كلام

الله . وطائفة قالت : هذا كلام الله مسموعاً من الله ، ولم تفرق بين
الحالين ؛ حتى ادعى بعضها أن الصوت المسموع قديم ، وتلك لم تجعله
كلام الله ؛ بل كلام الناس . فهؤلاء يقولون : ليس هذا كلام الله ،
وأولئك يقولون : هذا الصوت المسموع قديم . وكلا القولين خطأ
وضلال ؛ لكن هو كلامه مقيداً بواسطة المبلغ القارئ ، ليس هو
كلامه وصفته مطلقاً عن التقييد مسموعاً منه ، وكلام المتكلم يضاف
إليه مطلقاً إذا سمع منه ، ومقيداً إذا سمع من المبلغ عنه ، كما أن
رؤيته يقال : مطلقة إذا رؤي مباشرة . وتقال : مقيدة إذا رؤي
في ماء أو حراة .

وأما قوله : إذا قام بنا هل كان منتقلاً عن الله بعد أن قام به أم
يكون قائماً بنا وبه معاً ؟ أم الذي قام بنا يكون عبارة عن كلام الله أو
حكاية عنه ؟ ويكون إطلاق كلام الله عليه مجازاً ؟

فيقال : إن صفة المخلوق لا تفارق ذاته ، وتنتقل عنه وتقوم بغيره ،
فكيف يجوز أن يقال : إن صفة الرب سبحانه فارقت ذاته ، وانتقلت
عنه وقامت بغيره . وقد بينا أن المتكلم منا إذا أرسل غيره بكلام فانه
ما قام به ؛ بل لم يفارق ذاته وينتقل إلى غيره ؛ فكلام الله أولى
وأحرى ؛ بل كلامه سبحانه قائم به ، كما يقوم به لو تكلم به ولم يرسل به
رسولاً ، فأرساله رسولاً به يفيد إبلاغه إلى الخلق . وإنزاله إليهم

لا يوجب نقصاً في حق الرب ، ولا زوال اتصافه به ، ولا خروجه عن أن يكون كلامه ؛ بل نعلم أن الرب كما أنه قد يتكلم به ، ولا يرسل به رسولاً قد يتكلم به ويرسل به رسولا . فهو — سبحانه — في الحالين كلامه ؛ بل إرسال الرسول به نفع الخلق ، وهداهم ، ولم يجب به نقصان صفة مولايم .

وقوله : أم يكون قائماً بنا وبه ؟ فيقال : معنى القائم لفظ مجمل ؛ فان أريد أن نفس الكلام من حيث هو هو تكلم هو به ، وتكلمنا به مبلغين له عنه ، فكذلك هو . وإن أريد أن ما اختص به يقوم بنا ، أو ما اختص بنا يقوم به ، فهذا ممتنع . وإن أريد بالقيام أنا بلغنا كلامه ، أو قرأنا كلامه ، أو تلونا كلامه . فهذا صحيح . فكذلك إن أريد أن هذا الكلام : كلامه مسموعاً من المبلغ لا منه . وإن أريد بالقيام أن الشيء الذي اختص به هو بعينه قام بغيره مختصاً به فهذا ممتنع . وإن قيل : العفة الواحدة تقوم بموضعين . قيل : هذا أيضاً مجمل ؛ فان أريد أن الشيء المختص بمحل يقوم بمحل آخر فهذا ممتنع ، وأن أريد أن الكلام الذي يسمى صفة واحدة يقوم بالتكلم به ويبلغه عنه غيره كان هذا صحيحاً .

فهذه المواضع يجب أن تفسر الألفاظ الجملة بالألفاظ المفردة المبينة . وكل لفظ يحتمل حقاً وباطلاً فلا يطلق إلا مبيناً به المراد الحق دون

الباطل : فقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء .
وكثير من نزاع الناس في هذا الباب هو من جهة الألفاظ المجمة ، التي
يفهم منها هذا معنى يثبت . ويفهم منها [الآخر] معنى ينفيه . ثم النفاة
يجمعون بين حق وباطل . والمثبتة يجمعون بين حق وباطل .

وأما قوله : أم الذي يقوم بنا يكون عبارة عن كلام الله أو حكاية
عنه . ويكون إطلاق كلام الله عليه مجازاً ؛ فيقال : العبارة عن كلام
الغيب يقال لمن في نفسه معنى ثم يعبر عنه غيره ، كما يعبر عما في نفس
الأخرس من فهم مراده ، والذين قالوا : « القرآن عبارة عن كلام الله »
قصدوا هذا ، وهذا باطل : بل القرآن العربي تكلم الله به : وجبريل
بلغه عنه .

وأما « الحكاية » فيراد بهما ما يماثل الشيء : كما يقال : هذا يحكي
فلاناً إذا كان يأتي بمثل قواه أو عمله ، وهذا ممتنع في القرآن : فإن
الله تعالى يقول : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل
هذا القرآن لا يأتون بمثله) الآية . وقد يقال فلان حكى فلان عنه .
أي بلغه عنه ، ونقله عنه . ويحكي في الحديث أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال فيما يحكي عن ربه ، ويقال : ان النبي صلى الله عليه وسلم
روى عن ربه . وحكى عن ربه . فإذا قيل : انه حكى عن الله بمعنى
أنه بلغ عن الله فهذا صحيح .

وأما قول القائل : هل يكون كلام الله مجازاً ؟ فيقال : علامة
المجاز صحة نفيه ونحن نعلم بالاضطرار ان فلاناً لو قال بحضرة الرسول
ليس هذا كلام الله لكان عنده لم يكن متكلماً بالحقيقة اللغوية .

وأيضاً : فهذا موجود في كل من بلغ كلام غيره ، انه يقال هذا
كلام المبلغ عنه لا كلام المبلغ ، والله أعلم .

ما تقول السادة أئمة الدين

في رجلين قال أحدهما : القرآن المسموع كلام الله . وقال الآخر : هو كلام جبرئيل ، كما قال تعالى : (إنه لقول رسول كريم) فهل أصاب أم أخطأ ؟ وما الجواب عما احتج به ؟ وهل هذا القول قاله أحد من الشيوخ والأئمة أم لا ؟ أفتونا مأجورين ؟ .

فأجاب شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : الحمد لله رب العالمين : بل القرآن كلام الله تعالى ، وليس كلام جبرئيل . ولا كلام محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وأئمة المسلمين وأصحابهم ، الذين يفتى بقولهم في الاسلام كأبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، وغيرهم .

وجبريل سمعه من الله ، وسمعه محمد من جبريل ، كما قال تعالى (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) . وروح القدس هو جبريل ، وقال تعالى : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقال تعالى : (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) فهو منزل من الله ، كما قال

تعالى : (نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان
عربي مبين) .

وأما قوله تعالى : (إنه لقول رسول كريم) فانه أضافه اليه لأنه
بلغه واداه لا لكونه احدث منه شيئاً وابتداء : فانه سبحانه قال في
إحدى الآيتين : (إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً
ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين)
فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم . وقال في الآية الأخرى : (إنه
لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين)
فالرسول هنا جبريل . والله بصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ؛
فلو كانت إضافته إلى أحدها لكونه الف النظم العربي ، وأحدث منه
شيئاً غير ذلك تناقض الكلام ؛ فانه ان كان نظم أحدها لم يكن
نظم الآخر .

وأيضاً فانه قال : (لقول رسول) ولم يقل لقول ملك ولا نبي ،
ولفظ الرسول يشعر بأنه مبلغ له عن مرسله ، لا أنه أنشأ من
عنده شيئاً .

وأيضاً فقوله : (إنه لقول رسول كريم) ضمير يعود إلى القرآن

والقرآن يتناول معانيه ولفظه ، ومجموع هذا ليس قولاً لغير الله
بإجماع المسلمين ، وإطلاق القول بأن القرآن كلام جبريل أو محمد أو
غيرها من المخلوقين كفر لم يقله أحد من أئمة المسلمين ؛ بل عظم الله
الإنكار على من يقول إنه قول البشر ، فقال تعالى : (ذرني ومن خلقت
وحيداً) إلى قوله : (انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ،
ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر
واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر
سأصليه سقر ، وما ادراك ما سقر) . فمن قال : ان القرآن قول البشر فقد
كفر . وكذلك من قال انه قول ملك ؛ وانما يقول انه قول جبريل
أحد رجلين :

أما رجل من الملاحدة والفلاسفة . الذين يقولون : إنه فيض
فاض على نفس النبي من العقل الفعال ، ويقولون : انه جبريل . ويقولون :
إن جبريل هو الخيال الذي يتمثل في نفس النبي صلى الله عليه وسلم .
يقولون : انه تلاقح معان مجردة ، ثم انه تشكل في نفسه حروفاً كما
يتشكل في نفس النائم ، كما يقول ذلك ابن عربي صاحب « الفصوص »
وغيره من الملاحدة ؛ ولهذا يدعى انه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه
الملك . الذي يوحى به إلى الرسول . فان « المعدن » عنده هو العقل ،
و « الملك » هو الخيال الذي في نفسه . والنبي عندهم يأخذ من هذا الخيال .

وهذا الكلام من أظهر الكفر باجماع المسلمين واليهود والنصارى ،
وهو مما يعلم فسادُه بالاضطرار من دين المسلمين .

أورجل ينتسب إلى مذهب الأشعري ، ويظن ان هذا قول
الأشعري ؛ بناء على ان الكلام العربي لم يتكلم الله به عنده
وانما كلامه معنى واحد قائم بذات الرب : هو الأحر والخبر ؛
ان عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وان عبر عنه بالعبرانية كان توراة ،
وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا ، وهذا القول وان كان قول ابن
كلاب والقلانسي ، والأشعري ونحوهم ، فلم يقولوا : إن الكلام العربي
كلام جبريل ، ومن حكى هذا عن الأشعري نفسه فهو مجازف ، وانما
قال طائفة من المنتسبين اليه — كما قالت طائفة أخرى — انه نظم محمد
صلى الله عليه وسلم ؛ ولكن المشهور عنه ان الكلام العربي مخلوق ،
ولا يطلق عليه القول بأنه كلام الله ؛ لكن اذا كان مخلوقا فقد يكون
خلقه في الهواء ، أو في جسم ؛ لكن القول اذا كان ضعيفاً ظهر الفساد
في لوازمه .

وهذا القول أيضاً لم يقله أحد من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين
واصحابهم ، الذين بفتى بقولهم ؛ بل كان الشيخ ابو حامد الاسفرائيني
يقول : مذهبي ، ومذهب الشافعي ، واحمد بن حنبل ، وسائر علماء
الأمصار في القرآن مخالف لهذا القول ، وكذلك أبو محمد الجويني والدأبي

المعالي قال : مذهب الشافعي واصحابه في الكلام ليس هو قول الأشعري ،
وعامة العقلاء يقولون : إن فساد هذا القول معلوم بالاضطرار ، فانا نعلم
ان التوراة إذا عربت لم تكن هي القرآن ، ونعلم ان آية الكرسي ليست
هي معنى آية الدين .

والله تعالى قد فرق في كتابه بين تكليمه لموسى وإيحائه إلى غيره
بقوله تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده)
إلى قوله : (وكلم الله موسى تكليماً) وقال تعالى : (وما كان
لنبي أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا
فيوحى بأذنه ما يشاء) ففرق بين التكليم الذي حصل لموسى ، وبين
الإيحاء المشترك ، وموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة : كما قال
تعالى : (فاستمع لما يوحى إني انا الله لا إله إلا أنا) .

والرسول إذا بلغه إلى الناس وبلغه الناس عنه كان مسموعاً سماعاً
مقيداً بواسطة المبلغ ، كما قال تعالى : (وان أحد من المشركين
استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فهو مسموع مبلغ عنه بواسطة
المخلوق : بخلاف سماع موسى صلى الله عليه وسلم ، وان كان العبد
يسمع كلام الرسول من المبلغين عنه ، فليس ذلك كالسمع منه ، فأمر
الله تعالى أعظم .

ولهذا اتفق سلف الأمة وأئمتها على ان القرآن الذي يقرأه المسلمون
كلام الله تعالى : ولم يقل أحد منهم ان اصوات العباد ولا مداد
المصاحف قديم ، مع اتفاقهم على ان المثبت بين لוחي المصحف كلام
الله ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم »
فالكلام الذي يقرؤه المسلمون كلام الله ، والأصوات التي يقرؤون بها
أصواتهم . والله أعلم .

وسئل رحمه الله

ما تقول السادة العلماء الجهابذة ، — أئمة الدين رضي الله عنهم
أجمعين — فيمن يقول : الكلام غير المتكلم ، والقول غير القائل ،
والقرآن والمقروء والقارىء كل واحد منها له معنى ؟ بينوا لنا ذلك
بياناً شافياً : ليصل الى ذهن الحاذق والبليد ، أثابكم الله بمنه ؟ .

فاجاب — رضي الله عنه — :

الحمد لله . من قال : ان الكلام غير المتكلم ، والقول غير القائل
وأراد انه مبين له ومنفصل عنه فهذا خطأ وضلال ، وهو قول من
يقول : ان القرآن مخلوق ، فانهم يزعمون ان الله لا يقوم به صفة من
الصفات ، لا القرآن ولا غيره ، ويوهمون الناس بقولهم العلم غير العالم
والقدرة غير القادر ، والكلام غير المتكلم ، ثم يقولون : وما كان غير
الله فهو مخلوق ، وهذا تليس منهم .

فان لفظ « الغير » يراد به ما يجوز مباينته للآخر ومفارقته له ،
وعلى هذا فلا يجوز أن يقال علم الله غيره ، ولا يقال ان الواحد

من العشرة غيرها ، وأمثال ذلك ، وقد يراد بلفظ « الغير » ما ليس هو الآخر ، وعلى هذا فتكون الصفة غير الموصوف ، لكن على هذا المعنى لا يكون ما هو غير ذات الله الموصوفة بصفاته مخلوقاً ؛ لأن صفاته ليست هي الذات ؛ لكن قائمة بالذات ، والله سبحانه وتعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات كماله ، وليس الاسم اسماً لذات لا صفات لها ؛ بل يتمتع وجود ذات لا صفات لها .

والصواب في مثل هذا أن يقال : الكلام صفة المتكلم ، والقول صفة القائل ، وكلام الله ليس بانياً منه ؛ بل أسمع لجبريل ، ونزل به على محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : (والذين آتيناكم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) ولا يجوز ان يقال : ان كلام الله فارق ذاته ، وانتقل إلى غيره . بل يقال كما قال السلف : انه كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود . فقولهم : « منه بدأ » رد على من قال : انه مخلوق في بعض الاجسام ، ومن ذلك المخلوق ابتداء . فبينوا ان الله هو المتكلم به « منه بدأ » لا من بعض المخلوقات « وإليه يعود » أي فلا يبقى في الصدور منه آية ، ولا في المصاحف حرف . وأما القرآن فهو كلام الله .

فمن قال : ان القرآن الذي هو كلام الله غير الله فخطؤه وتليسه كخطأ من قال ان الكلام غير المتكلم . وكذلك من قال ان كلام

الله له مقروء غير القرآن الذي تكلم به فخطؤه ظاهر ، وكذلك من
من قال : ان القرآن الذي يقرؤه المسلمون غير المقروء الذي يقرؤه
المسلمون فقد اخطأ .

وإن اراد بـ « القرآن » مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآنًا ، وقال :
أردت أن القراءة غير المقروء ؛ فلفظ القراءة مجمل ، قد يراد بالقراءة
القرآن ، وقد يراد بالقراءة المصدر فمن جعل « القراءة » التي هي
المصدر غير المقروء ، كما يجعل التكلم الذي هو فعله غير الكلام الذي هو
يقوله ، وأراد بالغير أنه ليس هو إياه فقد صدق ، فان الكلام الذي
يتكلم به الانسان يتضمن فعلا كالحركة ، ويتضمن ما يقترن بالفعل
من الحروف والمعاني ؛ ولهذا يجعل القول قسما للفعل تارة ، وقسما
منه أخرى .

فالأول كما يقول : الايمان قول وعمل . ومنه قوله صلى الله عليه
وسلم : « ان الله تجاوز لامتى ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل
به » ومنه قوله تعالى : (اليه يصعد الكلم الطيب .، والعمل الصالح
يرفعه) . ومنه قوله تعالى : (وما تكون في شأن وما تتلو منه من
قرآن ولا تعملون من عمل) وأمثال ذلك مما يفرق بين القول والعمل .
وأما دخول القول في العمل ففي مثل قوله تعالى : (فوريك لنتائهم
أجمعين عما كانوا يعملون) . وقد فسروه بقول لا إله إلا الله . ولما

سئل صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل ؟ قال : « الإيمان بالله »
مع قوله : « الإيمان بضع وسبعون شعبة . أعلاها قول لا إله إلا الله :
وأدناها إمطة الأذى عن الطريق » ونظائر ذلك متعددة .

وقد تتوزع فيمن حلف لا يعمل عملاً إذا قال قولاً كالقراءة ونحوها
هل يحنث ؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره ، بناء على هذا .

فهذه الألفاظ التي فيها إجمال واشتباه إذا فصلت معانيها . والواقع
فيها نزاع واضطراب . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وسئل

هل نفس المصحف هو نفس القرآن ، أم كتابته ؟ وما في صدور
القراء هل هو نفس القرآن أو حفظه ؟

فأجاب : الواجب ان يطلق ما أطلقه الكتاب والسنة ، كقوله تعالى :
(بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ) وقوله : (انه لقرآن كريم ،
في كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون) وقوله : (والطور ، وكتاب
مسطور ، في رق منشور) وقوله : (يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب
قيمة) وقوله تعالى : (كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره ، في
صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة) .

وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يسافر بالقرآن إلى
أرض العدو » وقوله : « استذكروا القرآن ، فلهو أشد تفصياً من
صدور الرجال من النعم في عقلها » وكلاهما في الصحيحين ، وقوله :
« الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب » قال الترمذي :
حديث صحيح .

فمن قال : القرآن في المصاحف والصدور فقد صدق ، ومن قال :
فيها حفظه وكتابته فقد صدق ، ومن قال : القرآن مكتوب في المصاحف
محفوظ في الصدور فقد صدق . ومن قال : ان المداد أو الورق ،
أو صفة العبد أو فعله ، أو حفظه وصوته قديم ، أو غير مخلوق فهو
مخطيء ضال ، ومن قال : إنما في المصحف ليس هو كلام الله ، أو
ما في صدور القراء ليس هو كلام الله ، أو قال : إن القرآن العزيز
لم يتكلم به الله ، ولكن هو مخلوق ، أو صنفه جبريل أو محمد ، وقال :
إن القرآن في المصاحف كما أن محمداً في التوراة والإنجيل ، فهو أيضاً
مخطيء ضال . فان القرآن كلام ، والكلام نفسه يكتب في المصحف .

بخلاف الأعيان ، فانه إنما يكتب اسمها وذكرها ، فالرسول مكتوب
في التوراة والإنجيل ذكره ونعته ، كما أن القرآن في زبر الأولين ،
وكما أن أعمالنا في الزبر . قال تعالى : (وانه لفي زبر الأولين) وقال
تعالى : (وكل شيء فعلوه في الزبر) ومحمد مكتوب في التوراة
والإنجيل ، كما أن القرآن في تلك الكتب . وكما ان أعمالنا في الكتب
وأما القرآن فهو نفسه مكتوب في المصاحف ، ليس المكتوب ذكره
والخبر عنه ، كما يكتب اسم الله في الورق ، ومن لم يفرق بين كتابة
الأسماء والكلام ، وكتابة المسميات والأعيان — كما جرى لطائفة من
الناس — فقد غلط غلطاً سوى فيه بين الحقائق المختلفة . كما قد

يجعل مثل هؤلاء الحقائق المختلفة شيئاً واحداً . كما قد جعلوا جميع أنواع الكلام معنى واحداً .

وكلام المتكلم يسمع تارة منه ، وتارة من المبلغ . فأنبي صلى الله عليه وسلم لما قال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر إليه » فهذا الكلام قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه ؛ فلفظه لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعناه معنى الرسول . فاذا بلغه المبلغ عنه بلغ كلام الرسول بلفظه ومعناه ؛ ولكن صوت الصحابي المبلغ ليس هو صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالقرآن كلام الله لفظه ومعناه ، سمعه منه جبريل ، وبلغه عن الله الى محمد ؛ ومحمد سمعه من جبريل وبلغه الى أمته . فهو كلام الله حيث سمع وكتب وقرئ ، كما قال تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبليه مأمناً) .

وكلام الله تكلم الله به بنفسه ، تكلم به باختياره وقدرته ، ليس مخلوقاً باتناً عنه ؛ بل هو قائم بذاته . مع أنه تكلم به بقدرته ومشيتته ، ليس قائماً بدون قدرته ومشيتته .

والسلف قالوا : لم يزل الله تعالى متكلماً إذا شاء . فاذا قيل : كلام الله قديم : بمعنى أنه لم يصر متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً ، ولا كلامه مخلوق ، ولا معنى واحد قديم قائم بذاته : بل لم يزل متكلماً إذا شاء فهذا كلام صحيح .

ولم يقل أحد من السلف إن نفس الكلام المعين قديماً . وكانوا يقولون : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدا وإليه يعود . ولم يقل أحد منهم إن القرآن قديم ، ولا قالوا : إن كلامه معنى واحد قائم بذاته ، ولا قالوا : إن حروف القرآن أو حروفه وأصواته قديمة أزلية قائمة بذات الله ، وإن كان جنس الحروف لم يزل الله متكلماً بها إذا شاء : بل قالوا : إن حروف القرآن غير مخلوقة ، وأنكروا على من قال : إن الله خلق الحروف .

وكان أحمد وغيره من السلف ينكرون على من يقول : لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق . يقولون : من قال هو مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع : فإن « اللفظ » يراد به مصدر لفظ بلفظ لفظاً ، ويراد باللفظ الملفوظ به ، وهو نفس الحروف المنطوقة ، وأما أصوات العباد ومداد المصاحف فلم يتوقف أحد من السلف في أن ذلك مخلوق . وقد نص أحمد وغيره على أن صوت القارئ صوت العبد ، وكذلك غير أحمد من الأئمة . وقال أحمد : من

قال لفظي بالقرآن مخلوق يريد به القرآن فهو جهمي ، فالإنسان وجميع صفاته مخلوق ، حركاته وأفعاله وأصواته مخلوقة : وجميع صفاته مخلوقة ؛ فمن قال عن شيء من صفات العبد أنها غير مخلوقة أو قديمة فهو مخطيء ضال ، ومن قال عن شيء من كلام الله أو صفاته إنه مخلوق فهو مخطيء ضال .

وأما أصوات العباد بالقرآن والمداد الذي في المصحف فلم يكن أحد من السلف يتوقف في ذلك ؛ بل كلهم متفقون أن أصوات العباد مخلوقة ، والمداد كله مخلوق ، وكلام الله الذي يكتب بالمداد غير مخلوق ، قال الله تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) .

وهذه المسائل قد بسط الكلام عليها ، وذكر أقوال الناس واضطربهم فيها في مواضع أخر .

وقال قدس الله روحه

فصل

والقرآن الذي بين لוחي المصحف متواتر : فان هذه المصاحف المكتوبة اتفق عليها الصحابة ، ونقلوها قرآنا عن النبي صلى الله عليه وسلم وهي متواترة من عهد الصحابة ، نعلم علماً ضروريا انها ما غيرت ، والقراءة المعروفة عن السلف الموافقة للمصحف تجوز القراءة بها بلا نزاع بين الأئمة ، ولا فرق عند الأئمة بين قراءة أبي جعفر ويعقوب ، وخلف ، وبين قراءة حمزة والكسائي ، وأبي عمرو ونعيم ، ولم يقل أحد من سلف الأمة وأئمتها ان القراءة مختصة بالقراء السبعة .

فان هؤلاء : إنما جمع قراءاتهم أبو بكر ابن مجاهد بعد ثلاثمائة سنة من الهجرة ، واتبعه الناس على ذلك ، وقصد ان ينتخب قراءة سبعة من قراء الأمصار ، ولم يقل هو ولا أحد من الأئمة انما خرج عن هذه السبعة فهو باطل ، ولا أن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » أريد به قراءة هؤلاء السبعة ؛ ولكن

هذه السبعة اشتهرت في أمصار لا يعرفون غيرها ، كأرض المغرب .
فاولئك لا يقرؤون بغيرها ؛ لعدم معرفتهم باشتهار غيرها .

فأما من اشتهرت عندهم هذه كما اشتهر غيرها ؛ مثل أرض العراق وغيرها
فلمهم أن يقرأوا بهذا وهذا ، والقراءة الشاذة مثل ما خرج عن مصحف
عثمان ، كقراءة من قرأ : (الحى القيام) و (صراط من انعمت
عليهم) و (إن كانت إلا زقية واحدة) (والليل إذا يغشى ، والنهار
إذا تجلى ، والذكر والاشئى) وأمثال ذلك .

فهذه إذا قرئ بها في الصلاة ففيها قولان مشهوران للعلماء ، هما
روايتان عن الامام أحمد .

« أحدهما » تصح الصلاة بها ؛ لأن الصحابة الذين قرأوا بها كانوا
يقرؤونها في الصلاة ، ولا ينكر عليهم .

« والثانى » لا ؛ لأنها لم تتواتر إلينا ، وعلى هذا القول فهل يقال :
إنها كانت قرآنا فنسخ ، ولم يعرف من قرأ [الأبا] لناسخ ؟ أو لم تنسخ ،
ولكن كانت القراءة بها جائزة لمن ثبتت عنده دون من لم تثبت ، أو
لغير ذلك ، هذا فيه نزاع مبسوط في غير هذا الموضع .

وأما من قرأ بقراءة أبى جعفر ويعقوب ونحوهما : فلا تبطل الصلاة
بها باتفاق الأئمة ؛ ولكن بعض المتأخرين من المغاربة ذكر في ذلك كلاما
وافقه عليه بعض من لم يعرف أصل هذه المسألة .

وقال شيخ الإسلام

ابن تيمية قدس الله روحه

وأما « الحروف » هل هي مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فالخلاف في ذلك بين الخلف مشهور ، فاما السلف فلم ينقل عن أحد منهم ان حروف القرآن وألفاظه وتلاوته مخلوقة ، ولا ما يدل على ذلك ؛ بل قد ثبت عن غير واحد منهم الرد على من قال : إن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة . وقالوا : هو جهمي . ومنهم من كفره ، وفي لفظ بعضهم تلاوة القرآن ، ولفظ بعضهم الحروف .

ومن ثبت ذلك عنه أحمد بن حنبل ، وأبو الوليد الجارودي صاحب الشافعي ، واسحاق بن راهويه ، والحميدي ، ومحمد بن اسلم الطوسي ، وهشام بن عمار ، واحمد بن صالح المصري . ومن أراد الوقوف على نصوص كلامهم فليطالع الكتب المصنفة في السنة ؛ مثل « الرد على الجهمية » للإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم ، وكتاب « الشريعة » للآجری و « الابانة » لابن بطة ، و « السنة » للالكائي ، و « السنة » للطبرانی

وغير ذلك من الكتب الكثيرة ، ولم ينسب أحد منهم إلى خلاف ذلك ، إلا بعض أهل الغرض نسب البخاري إلى أنه قال ذلك . وقد ثبت عنه بالاسناد المرضي أنه قال : من قال غني أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فقد كذب . وتراجعه في آخر صحيحه تبين ذلك .

وهنا ثلاثة أشياء :

« أحدها » حروف القرآن التي هي لفظه قبل أن ينزل بها جبريل . وبعد ما نزل بها ، فمن قال : إن هذه مخلوقة فقد خالف إجماع السلف ، فانه لم يكن في زمانهم من يقول هذا ، الا الذين قالوا : ان القرآن مخلوق ، فان اولئك قالوا بالخلق للالفاظ ؛ الفاظ القرآن ، وأما ما سوى ذلك فهم لا يقرون بثبوته ، لا مخلوقا ولا غير مخلوق ، وقد اعترف غير واحد من فحول أهل الكلام بهذا : منهم عبد الكريم الشهرستاني مع خبرته بالملل والنحل ، فانه ذكر ان السلف مطلقاً ذهبوا إلى أن حروف القرآن غير مخلوقة ، وقال : ظهور القول بحدوث القرآن محدث ، وقرر مذهب السلف في كتابه المسمى بـ « نهاية الكلام » .

« الثاني » أفعاد العباد ، وهي حركاتهم التي تظهر عليها التلاوة . فلا خلاف بين السلف ان أفعال العباد مخلوقة ؛ ولهذا قيل : إنه بدع

أكثرهم من قال : لفظي بالقرآن مخلوق ؛ لأن ذلك قد يدخل فيه فعله .

« الثالث » التلاوة الظاهرة من العبد عقيب حركة الآية ، فهذه منهم من يصفها بالخلق ، وأول من قال ذلك — فيما بلغنا — حسين الكرايسي ، وتلميذه داود الاصبهاني ، وطائفة ؛ فأنكر ذلك عليهم علماء السنة في ذلك الوقت ، وقالوا فيهم كلاما غليظا ، وجمهورهم — وهم اللفظية عند السلف — الذين يقولون : لفظنا بالقرآن مخلوق ، أو القرآن بالفاظنا مخلوق ، ونحو ذلك .

وعارضهم طائفة من أهل الحديث والسنة كثيرون ، فقالوا : لفظنا بالقرآن غير مخلوق ، والذي استقرت عليه نصوص الامام احمد وطبقته من أهل العلم : أن من قال : لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي . ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع ، هذا هو الصواب عند جماهير أهل السنة ، ان لا يطلق واحد منها ، كما عليه الامام أحمد وجمهور السلف ؛ لأن كل واحد من الاطلاقين يقتضي إيهاما لخطأ ؛ فان أصوات العباد محدثة بلا شك ، وان كان بعض من نصر السنة ينفي الخلق عن الصوت المسموع من العبد بالقرآن ، وهو مقدار ما يكون من القرآن المبلغ .

فان جمهور أهل السنة أنكروا ذلك وعابوه ، جريا على منهج احمد

وغيره من أئمة الهدى ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » .

وأما التلاوة في نفسها التي هي حروف القرآن والفاظه ، فهي غير مخلوقة . والعبد إنما يقرأ كلام الله بصوته ، كما أنه إذا قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » فهذا الكلام لفظه ومعناه إنما هو كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو قد بلغه بحركته وصوته ، كذلك القرآن لفظه ومعناه كلام الله تعالى ؛ ليس للمخلوق فيه إلا تبليغه وتأديته وصوته ، وما يخفى على لبیب الفرق بين التلاوة في نفسها ؛ قبل أن يتكلم بها الخلق ، وبعد أن يتكلموا بها ، وبين ما للعبد في تلاوة القرآن من عمل وكسب . وإنما غلط بعض الموافقين والمخالفين ، فجعلوا البابين باباً واحداً ، وأرادوا أن يستدلوا على نفس حدوث حروف القرآن بما دل على حدوث أفعال العباد وما تولد عنها ، وهذا من أقبح الغلط ، وليس في الحجج العقلية ، ولا السمعية ما يدل على حدوث نفس حروف القرآن ، إلا من جنس ما يحتاج به على حدوث معانيه . والجواب عن الحجج مثل الجواب عن هذه لمن استهدى الله فهداه .

وأما ما ذكره من آيات الصفات وأحاديثها : فمذهب سلف الأمة من الصحابة والتابعين ، وسائر الأئمة المتبوعين الإقرار والامرار . قال

أبو سليمان الخطابي ، وأبو بكر الخطيب : مذهب السلف في آيات الصفات ،
وأحاديث الصفات ، اجراؤها على ظاهرها مع نفي الكيفية ، والتشبيه عنها .
وقالا في ذلك : ان الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات ،
يحتذى فيه حذوه ، ويتبع فيه مثاله ، فاذا كان إثبات ذاته إثبات وجود
لا إثبات كيفية : فكذلك إثبات صفاته إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فلا
نقول : إن معنى اليد القدرة ، ولا ان معنى السمع العلم ،
هذا كلامها .

وقال بعضهم : إذا قال لك الجهمي : كيف ينزل إلى سماء الدنيا ؟
فقل له : كيف هو في نفسه ؟ فان قال : نحن لا نعلم كيفية ذاته .
فقل : ونحن لا نعلم كيفية صفاته ، وكيف نعلم كيفية صفة ، ولا نعلم
كيفية موصوفها .

ومن فهم من صفات الله تعالى ما هو مستلزم للحدوث . مجانس
لصفات المخلوقين ، ثم أراد ان ينفي ذلك عن الله فقد شبه وعطل ؛ بل
الواجب ان لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ،
لا تتجاوز القرآن والحديث . وان نعلم مع ذلك ان الله تعالى ليس كمثله
شيء ، لا في نفسه ، ولا في أوصافه ، ولا في أفعاله ، وان الخلق لا
تطبق عقولهم كنه معرفته ، ولا تقدر ألسنتهم على بلوغ صفته (سبحان ربك
رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين)
وصلى الله على محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

وسئل رحمه الله

عمن يقول : إن الشكل والنقط من كلام الله تبارك وتعالى ، وهل ذلك حق أم باطل ؟ وما الحكم في الأحرف ؟ هل هي كلام الله أم لا ؟
بينوا لنا ذلك مثاين مأجورين ؟ .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . المصاحف التي كتبها الصحابة لم يشكلوا حروفاً ، ولم ينقطوها ؛ فانهم كانوا عرباً لا يلحنون ، ثم بعد ذلك في أواخر عصر الصحابة لما نشأ اللحن صاروا ينقطون المصاحف ويشكلونها وذلك جائز عند أكثر العلماء ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد ، وكرهه بعضهم ، والصحيح أنه لا يكره ؛ لأن الحاجة داعية إلى ذلك ، ولا نزاع بين العلماء ان [حكم] الشكل والنقط حكم الحروف المكتوبة ، فان النقط تميز بين الحروف ، والشكل يبين الإعراب ، لأنه كلام من تمام الكلام .
ويروى عن أبي بكر وعمر أنها قالا : « إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه » فاذا قرأ القارئ (الحمد لله رب العالمين) كانت الضمة والفتحة والكسرة من تمام لفظ القرآن .

وإذا كان كذلك فالمداد الذي يكتب به الشكل والنقط كالمداد الذي

يكتب به الحروف ، والمداد كله مخلوق ، ليس منه شيء غير مخلوق .
والصوت الذي يقرأ به الناس القرآن هو صوت العباد ؛ لكن الكلام
كلام الله تعالى ، قال تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره
حتى يسمع كلام الله) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن
بأصواتكم » فالكلام كلام الباري ، والصوت صوت القارئ ، وهذا
ليس هو الصوت الذي ينادى الله به عباده ، ويسمعه موسى وغيره ، كما
دل على ذلك الكتاب والسنة .

وكلام الله غير مخلوق عند سلف الأمة وأئمتها ، وهو أيضاً يتكلم
بمشيئته وقدرته عندهم ، لم يزل متكلماً إذا شاء فهو قديم النوع : وأما
نفس « النداء » الذي نادى به موسى ونحو ذلك فحيثُذ ناداه به : كما
قال تعالى : (فلما أتاها نودي ياموسى) ، وكذلك نظائره ، فكان السلف
يفرقون بين نوع الكلام وبين الكلمة المعينة . قال تعالى : (قل : لو
كان البحر مدداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو
جئنا بمثله مدداً) . وكلام الله وما يدخل في كلامه من ندائه . وغير
ذلك ليس بمخلوق بأن منه ، بل هو منه ، والقرآن سمعه جبرئيل من
الله ، ونزل به إلى محمد صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : (قل نزله روح
القدس من ربك بالحق) وقال تعالى : (والذين آتيناكم الكتاب يعلمون
أنه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز
الحكيم) ونحو ذلك .

والنبي صلى الله عليه وسلم بلغه إلى الأمة : والمسلمون يسمعه بعضهم من بعض ؛ وليس ذلك كسماع موسى كلام الله ، فإنه سمعه بلا واسطة والذي يقرؤه المسلمون ويكتبونه في مصاحفهم هو كلام الله لا كلام غيره وهم يقرؤونه بأصواتهم ، ويكتبونه بمدادهم في ورقهم . وأفعالهم ، وأصواتهم ، ومدادهم : مخلوق .

والقرآن الذي يقرؤونه ويكتبونه هو كلام الله تعالى غير مخلوق ، سواء قرؤوه قراءة يثابون عليها ، أو لا يثابون عليها ، وسواء كتبوه مشكولاً منقوطاً أو كتبوه غير مشكول ولا منقوط ؛ فإن ذلك لا يخرج عن أن يكون المكتوب هو القرآن ، وهو كلام الله الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وما بين اللوحين كلام الله ، سواء كان مشكولاً منقوطاً ، أو كان غير مشكول ولا منقوط ، وكلام الله منزل غير مخلوق ، وأصوات العباد والمداد مخلوقان . والقرآن العربي كلام الله تكلم به ليس بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله ، وليس لجبريل ولا لمحمد منه إلا التبليغ ، لم يحدث واحد منها شيئاً من حروفه ؛ بل الجميع كلام الله تبارك وتعالى .

وهذه « المسائل » مبسطة في غير هذا الجواب ؛ ولكن هذا قدر ما وسعته هذه الورقة . والله أعلم .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

فصل

الكلام في « القرآن » و « الكلام » هل هو حرف وصوت ، أم ليس بحرف وصوت محدث : حدث في حدود المائة الثالثة ، وانتشر في المائة الرابعة ؛ فان أبا سعيد بن كلاب ثم أبا الحسن الأشعري ونحوهما لما ناظروا المعتزلة في إثبات الصفات ، وأن القرآن ليس بمخلوق ورأوا أن ذلك لا يتم إلا إذا كان القرآن قديماً ، وأنه لا يمكن أن يكون قديماً إلا أن يكون معنى قائماً بنفس الله كعلمه ، وزادوا أن الله لا يتكلم بصوت ، ولا لغة ، لا قديم ولا غير قديم ، لما رأوه من امتناع قيام أمر حادث به . وخالفوا في ذلك جمهور المسلمين : من أهل الحديث ، والفقهاء ، والكلام والتصوف . وإن تنوعت ما خذم فان الآثار شاهدة بأن الله يتكلم بصوت .

ولهذا جهم الامام أحمد وغيره من أنكر ذلك . قال عبد الله بن أحمد : قلت لأبي : ان أقواما يقولون : إن الله لا يتكلم بصوت .

فقال : هؤلاء جهمية ؛ إنما يدورون على التعطيل ، وذكر حديث ابن مسعود ، وكذلك رواه غير واحد عن أحمد . وكذلك البخاري ترجم في صحيحه بابا في قوله : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) بين فيه الحجة على أن الله يتكلم بصوت . وكذلك المصنفون في السنة من أئمة الحديث وهم كثير ، وكذلك أئمة الصوفية ، كالحارث المحاسبي ، وأبي الحسن بن سالم وغيرها ، وكذلك الفقهاء من جميع الطوائف : المالكية ، والشافعية والحنفية ، والحنبلية ، المصنفون في أصول الفقه ، يقررون أن الأمر والنهي ، والخبر ، والعموم له صيغ موضوعة في اللغة تدل بمجردا على أنها أمر ونهي ، وخبر ، وعموم ، ويذكرون خلاف الأشعرية في أن الأمر لا صيغة له .

ثم المثبتون للصوت منهم المعتزلة ، الذين يقولون : القرآن مخلوق يقولون كلامه صوت قائم بغيره ، ومنهم الكرامية ، وطوائف من أهل الحديث من الحنبلية ، وغيرهم ، يقولون : يتكلم بصوت قائم به ، لكن ليس الصوت بقديم .

ومنهم طائفة من متكلمة أهل السنة من الحنبلية وغيرهم يقولون : يتكلم بصوت قديم قائم به .

ومنهم طائفة من الفقهاء من الحنفية وغيرهم ، يقولون : يخاطب

بصوت قائم بغيره ، والمعنى قديم قائم به .

فلما أظهرت الأشعرية — كالقاضي أبي بكر بن الباقلاني وغيره
في أواخر المائة الرابعة — ان الكلام ليس بحرف ، ولا صوت ، ولا
لغة ، وقد تبعهم قوم من الفقهاء من أصحاب مالك ، والشافعي ، وأبي
حنيفة ، وقليل من أصحاب أحمد رأى أهل الحديث ، وجمهور أهل
السنة من الفقهاء وأهل الحديث ما في ذلك من البدعة : فأظهروا
خلاف ذلك ، وأطلق من أطلق منهم أن كلام الله حرف وصوت ^(١) .

(١) ياض بالأصل مقدار خمسة اسطر تقريبا .

سئل رحمه الله

عن رجلين تباحثا ، فقال أحدهما : القرآن حرف وصوت . وقال الآخر : ليس هو بحرف ولا صوت ، وقال أحدهما : النقط التي في المصحف والشكل من القرآن ، وقال الآخر : ليس ذلك من القرآن ، فما الصواب في ذلك ؟

فأجاب رضي الله عنه : الحمد لله رب العالمين . هذه « المسألة »
يتنازع فيها كثير من الناس ويخلطون فيها الحق بالباطل ، فالذي قال :
ان القرآن حرف وصوت إن أراد بذلك ان هذا القرآن الذي يقرؤه
المسلمون هو كلام الله الذي نزل به الروح الأمين على محمد صلى الله
عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين ، وان جبريل سمعه من الله والنبي صلى
الله عليه وسلم سمعه من جبريل ، والمسلمون سمعوه من النبي صلى الله
عليه وسلم كما قال تعالى : (قل نزله روح القدس من ربك بالحق)
وقال : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق)
فقد أصاب في ذلك : فان هذا مذهب سلف الأمة وأئمتها ، والدلائل
على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة والاجماع .

ومن قال : إن القرآن العربي لم يتكلم الله به وإنما هو كلام جبريل أو غيره عبر به عن المعنى القائم بذات الله ، كما يقول ذلك ابن كلاب والأشعري ومن وافقهما فهو قول باطل من وجوه كثيرة .

فان هؤلاء يقولون : انه معنى واحد قائم بالذات ، وان معنى التوراة والانجيل والقرآن واحد ، وانه لا يتعدد ولا يتبعض ، وأنه ان عبر عنه بالعربية كان قرآناً . وبالعبرانية كان توراة ، وبالسريانية كان انجيلا ، فيجعلون معنى آية الكرسي وآية الدين و (قل هو الله أحد) و (تبت بدا أبي لهب) ، والتوراة والانجيل وغيرها معنى واحداً ، وهذا قول فاسد بالعقل والشرع ، وهو قول أحدثه ابن كلاب لم يسبقه إليه غيره من السلف .

وان أراد القائل بالحرف والصوت أن الاصوات المسموعة من القراء ، والمداد الذي في المصاحف قديم أزلي ، أخطأ وابتدع ، وقال ما يخالف العقل والشرع : فان النبي صلى الله عليه وسلم قال « زينوا القرآن بأصواتكم » فبين أن الصوت صوت القارئ : والكلام كلام الباري . كما قال تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله لا كلام غيره كما ذكر الله ذلك . وفي السنن عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول :

« ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ، فان قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » وقالوا لأبي بكر الصديق لما قرأ عليهم : (الم غلبت الروم) أهذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ؛ ولكنه كلام الله تعالى .

والناس إذا بلغوا كلام النبي صلى الله عليه وسلم كقوله : « إنما الأعمال بالنيات » فان الحديث الذي يسمعون حديث النبي صلى الله عليه وسلم تكلم به بصوته وبحروفه ومعانيه ، والمحدث بلغه عنه بصوت نفسه لا بصوت النبي صلى الله عليه وسلم . فالقرآن أولى أن يكون كلام الله إذا بلغته الرسل عنه ، وقرأته الناس بأصواتهم .

والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسه ، ونادى موسى بصوت نفسه ؛ كما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف ، وصوت العبد ليس هو صوت الرب ولا مثل صوته ؛ فان الله ليس كمثله شيء : لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله .

وقد نص أئمة الاسلام أحمد ومن قبله من الأئمة على ما نطق به الكتاب والسنة من ان الله ينادي بصوت ، وان القرآن كلامه تكلم به بحرف وصوت ليس منه شيء كلاما لغيره ، لا جبريل ولا غيره ، وان العباد يقرؤونه بأصوات أنفسهم وأفعالهم ، فالصوت المسموع من العبد

صوت القاريء والكلام كلام الباري .

وكثير من الخائضين في هذه المسألة لا يميز بين صوت العبد وصوت الرب ؛ بل يجعل هذا هو هذا فينفيها جميعاً أو يثبتها جميعاً . فاذا نفى الحرف والصوت نفى أن يكون القرآن العربي كلام الله ، وأن يكون منادياً لعباده بصوته ، وأن يكون القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله كما نفى أن يكون صوت العبد صفة لله عز وجل ، ثم جعل كلام الله المتشعب شيئاً واحداً لا فرق بين القديم والحادث ، هو مصيب في هذا الفرق دون ذاك الثاني الذي فيه نوع من الاتحاد والتعطيل ، حيث جعل الكلام المتشعب شيئاً واحداً لا حقيقة له عند التحقيق .

وإذا ثبت جعل صوت الرب هو صوت العبد أو سكت عن التمييز بينهما مع قوله ان الحروف متعاقبة في الوجود مقترنة في الذات قديمة أزلية الأعيان فجعل عين صفة الرب تحل في العبد أو تتحد بصفته ، فقال بنوع من الحلول والاتحاد يفضي إلى نوع من التعطيل .

وقد علم ان عدم الفرق والمباينة بين الخالق وصفاته والمخلوق وصفاته خطأ وضلال لم يذهب اليه أحد من سلف الامة وأئمتها ؛ بل هم متفقون على التمييز بين صوت الرب وصوت العبد ؛ ومتفقون أن الله تكلم بالقرآن الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم حروفه ومعانيه

وأنه ينادي عباده بصوته ، ومتفقون على ان الأصوات المسموعة من القراء أصوات العباد ، وعلى أنه ليس شيء من أصوات العباد ولامداد المصاحف قديماً ، بل القرآن مكتوب في مصاحف المسلمين مقروء بالسنتهم محفوظ بقلوبهم وهو كله كلام الله . والصحابة كتبوا المصاحف لما كتبوها بغير شكل ولا نقط . لأنهم كانوا عربا لا يلحنون ، ثم لما حدث اللحن نقط الناس المصاحف وشكلوها ، فان كتبت بلا شكل ولا نقط جاز ، وإن كتبت بنقط وشكل جاز ولم يكره في أظهر قولي العلماء ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد .

وحكم « النقط والشكل » حكم الحروف ، فان الشكل يبين إعراب القرآن كما يبين النقط الحروف . والمداد الذي يكتب به الحروف ويكتب به الشكل والنقط مخلوق ، وكلام الله العربي الذي أنزله وكتب في المصاحف بالشكل والنقط وبغير شكل ونقط ليس بمخلوق ، وحكم الاعراب حكم الحروف ؛ لكن الأعراب لا يستقل بنفسه بل هو تابع للحروف المرسومة ؛ فلهذا لا يحتاج لتجريدها وإفزادها بالكلام ؛ بل القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله : معانيه وحروفه ، وإعرابه ، والله تكلم بالقرآن العربي الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم والناس يقرءونه بأفعالهم وأصواتهم . والمكتوب في مصاحف المسلمين هو كلام الله ، وهو القرآن العربي الذي أنزل على نبيه : سواء كتب

بشكل ونقط أو بغير شكل ونقط ، والمسداد الذي كتب به القرآن ليس بتقديم ؛ بل هو مخلوق ، والقرآن الذي كتب في المصحف بالمداد هو كلام الله منزل غير مخلوق ، والمصاحف يجب احترامها باتفاق المسلمين ؛ لأن كلام الله مكتوب فيها ، واحترام النقط والشكل إذا كتب المصحف مشكلاً منقوطة كاحترام الحروف باتفاق علماء المسلمين كما أن حرمة إعراب القرآن كحرمة حروفه المنقوطة باتفاق المسلمين . ولهذا قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه .

والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه ، فجميعه كلام الله ، فلا يقال بعضه كلام الله وبعضه ليس بكلام الله ، وهو سبحانه نادى موسى بصوت سمعه موسى ، فانه قد أخبر انه نادى موسى في غير موضع من القرآن كما قال تعالى : (هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى) والنداء لا يكون إلا صوتاً باتفاق أهل اللغة . وقد قال تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتيناه داود زبوراً ، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً) فقد فرق الله بين إيحائه إلى النبيين وبين تكليمه لموسى ،

فمن قال : ان موسى لم يسمع صوتا : بل ألهم معناه لم يفرق بين موسى وغيره ، وقد قال تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات) وقال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بأذنه ما يشاء) فقد فرق بين الإيحاء والتكلم من وراء حجاب كما كلم الله موسى ، فمن سوى بين هذا وهذا كان ضالا .

وقد قال الامام أحمد رضي الله عنه وغيره من الأئمة : لم يزل الله متكلماً إذا شاء . وهو يتكلم بمشيئته وقدرته ، يتكلم بشيء بعد شيء ، كما قال تعالى : (فلما أتاها نودي ياموسى) فناداه حين أتاها ولم يناده قبل ذلك ، وقال تعالى : (فأكلا منها فبست لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكا الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين ؟) فهو سبحانه ناداهما حين أكلا منها ولم ينادهما قبل ذلك ، وكذلك قال تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) بعد أن خلق آدم وصوره ، ولم يأمرهم قبل ذلك ، وكذا قوله : (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون) فأخبر انه قال له كن فيكون بعد أن خلقه من تراب ، ومثل هذا الخبر في القرآن كثير : يخبر انه تكلم في وقت معين ، ونادى في وقت معين . وقد

ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه لما خرج إلى الصفا قرأ قوله تعالى : (ان الصفا والمروة من شعائر الله) وقال : « نبداً بما بدأ الله به » فأخبر ان الله بدأ بالصفا قبل المروة .

والسلف اتفقوا على ان كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود . فظن بعض الناس ان مرادهم انه قديم العين . ثم قالت طائفة : هو معنى واحد ، هو الأمر بكل مأمور ، والنهي عن كل منهي ، والخبر بكل مخبر ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً . وإن عبر عنه بالعبرانية كان تورا ، وإن عبر عنه بالسريانية كان انجيلاً . وهذا القول مخالف للشرع والعقل .

وقالت طائفة : هو حروف وأصوات قديمة الاعدان لازمة لذات الله لم تزل لازمة لذاته . وإن الباء والسين والميم موجودة مقترنة بعضها ببعض معاً أزلاً وأبداً لم تزل ولا تزال لم يسبق منها شيء شيئاً . وهذا أيضاً مخالف للشرع والعقل .

وقالت طائفة : ان الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وانه في الازل كان متكلماً بالنداء الذي سمعه موسى ، وإنما تجدد استماع موسى لأنه ناداه حين أتى الوادي المقدس ؛ بل ناداه قبل ذلك بما لا يتناهى ، ولكن تلك الساعة سمع النداء . وهؤلاء وافقوا الذين قالوا ان القرآن

مخلوق في أصل قولهم . فان أصل قولهم ان الرب لا تقوم به الامور الاختيارية . فلا يقوم به كلام ، ولا فعل باختياره ومشيئته . وقالوا : هذه حوادث . والرب لا تقوم به الحوادث . فخالفوا صحيح المنقول وصريح المعقول ، واعتقدوا انهم بهذا يردون على الفلاسفة ، ويثبتون حدوث العالم ، وأخطأوا في ذلك ، فلا للاسلام نصروا ، ولا للفلاسفة كسروا ، وادعوا ان الرب لم يكن قادراً في الازل على كلام يتكلم به ولا فعل يفعله ، وانه صار قادراً بعد ان لم يكن قادراً بغير أمر حدث ، او يغيرون العبارة فيقولون : لم يزل قادراً ؛ لكن يقولون : ان المقدور كان ممتنعاً ، وان الفعل صار ممكناً له بعد أن صار ممتنعاً عليه من غير تجديد شيء .

وقد يعبرون عن ذلك بأن يقولوا : كان قادراً في الازل على ما يمكن فيما لا يزال ، لا على ما لا يمكن في الازل ، فيجمعون بين النقيضين حيث يثبتونه قادراً في حال كون المقدور عليه ممتنعاً عندهم ، ولم يفرقوا بين نوع الكلام والفعل وبين عينه . كما لم يفرق الفلاسفة بين هذا وهذا ؛ بل الفلاسفة ادعوا ان مفعوله المعين قديم بقدمه ، فضلوا في ذلك وخالفوا صريح المعقول وصحيح المنقول ؛ فان الادلة لاتدل على قدم شيء بعينه من العالم بل تدل على ان ما سوى الله مخلوق حادث بعد ان لم يكن ؛ اذ هو فاعل بقدرته ومشيئته كما تدل على ذلك الدلائل

القطعية ، والفاعل بمشيئته لا يكون شيء من مفعوله . لازماً لذاته بصريح العقل واتفاق عامة العقلاء ؛ بل وكل فاعل لا يكون شيء من مفعوله لازماً لذاته ، ولا يتصور مقارنة مفعوله المعين له ، ولو قدر انه فاعل بغير ارادة فكيف بالفاعل بالارادة .

وما يذكر بأن المعلول يقارن علته انما يصح فيما كان من العلل يجري مجرى الشروط فان الشرط لا يجب ان يتقدم على المشروط بل قد يقارنه كما تقارن الحياة العلم ، وأما ما كان فاعلاً سواء سمي علة أو لم يسم علة فلا بد ان يتقدم على الفعل المعين . والفعل المعين لا يجوز ان يقارنه شيء من مفعولاته ، ولا يعرف العقلاء فاعلاً قط يلزمه مفعول معين . وقول القائل حركت يدي فتحرك الخاتم هو من باب الشرط لامن باب الفاعل ؛ ولأنه لو كان العالم قديماً لكان فاعله موجباً بذاته في الأزل ولم يتأخر عنه موجبته ومقتضاه ، ولو كان كذلك لم يحدث شيء من الحوادث ، وهذا خلاف المشاهدة .

وان كان هو سبحانه لم يزل قادراً على الكلام والفعل ؛ بل لم يزل متكلاً إذا شاء فاعلاً لما يشاء ، ولم يزل موصوفاً بصفات الكمال . منعوتاً بنعوت الجلال والاكرام ، والعالم فيه من الاحكام والاتقان مادل على علم الرب ، وفيه من الاختصاص مادل على مشيئته ، وفيه من الاحسان مادل على رحمته . وفيه من العواقب الحميدة مادل على حكمته ، وفيه

من الحوادث ما دل على قدرة الرب تعالى ، مع ان الرب مستحق لصفات الكمال لذاته ؛ فانه مستحق لكل كمال ممكن الوجود لا نقص فيه ، منزّه عن كل نقص ، وهو سبحانه ليس له كفو في شيء من أمورهِ ، فهو موصوف بصفات الكمال على وجه التفصيل منزّه فيها عن التشبيه والتمثيل ؛ ومنزّه عن النقائص مطلقاً ؛ فان وصفه بها من اعظم الابطال ، وكما له من لوازم ذاته المقدسة لا يستفيدة من غيره بل هو المنعم على خلقه بالخلق والانشاء وما جعله فيهم من صفات الأحياء ، وخالق صفات الكمال أحق بها ، ولا كفو له فيها .

وأصل اضطراب الناس في « مسألة كلام الله » ان الجهمية والمعتزلة لما ناظرت الفلاسفة في « مسألة حدوث العالم » اعتقدوا ان ما يقوم به من الصفات والأفعال المتعاقبة لا يكون إلا حادثاً بناء على أن ما لا يتناهى لا يمكن وجوده ، والتزموا ان الرب كان في الأزل غير قادر على الفعل والكلام ؛ بل كان ذلك ممتنعاً عليه . وكان معطلا عن ذلك ، وقد يعبرون عن ذلك بانه كان قادراً في الأزل على الفعل فيما لا يزال مع امتناع الفعل عليه في الأزل ، فيجمعون بين النقيضين حيث يصفونه بالقدرة في حال امتناع المقدور لذاته ؛ إذ كان الفعل يستلزم أن يكون له أول والأزل لا أول له والجمع بين اثبات الأولية ونفيها جمع بين النقيضين .

ولم يهتدوا إلى الفرق بين ما يستلزم الأولية والحدوث وهو الفعل المعين والمفعول المعين ، وبين ما لا يستلزم ذلك وهو نوع الفعل والكلام ؛ بل هذا يكون دائماً وإن كان كل من آحاده حادثاً ، كما يكون دائماً في المستقبل ، وإن كان كل من آحاده فانياً ، بخلاف خالق يلزمه مخلوقه المعين دائماً فان هذا هو الباطل في صريح العقل وصحيح النقل ؛ ولهذا اتفقت فطر العقلاء على إنكار ذلك لم يناع فيه إلا شردمة من المتفلسفة كابن سينا وأمثاله الذين زعموا أن الممكن المفعول قد يكون قديماً واجب الوجود بغيره ، فخالفوا في ذلك جماهير العقلاء مع مخالفتهم لسلفهم أرسطو وأتباعه ؛ فانهم لم يكونوا يقولون ذلك ، وإن قالوا بقديم الأفلاك ، وأرسطو أول من قال بقديمها من الفلاسفة المشائين ، بناء على إثبات علة غائية لحركة الفلك يتحرك الفلك للتشبه بها ، لم يثبتوا له فاعلاً مبدعاً ، ولم يثبتوا ممكناً قديماً واجباً بغيره ، وهم وإن كانوا أجهل بالله واكفر من متأخريهم فهم يسمون لجمهور العقلاء ان ما كان ممكناً بذاته فلا يكون إلا محدثاً مسبقاً بالعدم ، فاحتاجوا أن يقولوا كلامه مخلوق منفصل عنه .

وطائفة وافقتهم على امتناع وجود ما لا نهاية له ؛ لكن قالوا تقوم به الأمور الاختيارية فقالوا إنه في الأزل لم يكن متكلاً بل ولا كان الكلام مقدوراً له ثم صار متكلاً بلا حدوث حادث بكلام يقوم به ، وهو قول الهشامية والكرامية وغيرهم .

وطائفة قالت إذا كان القرآن غير مخلوق فلا يكون إلا قديم العين
لازماً لذات الرب ، فلا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ثم منهم من قال : هو
معنى واحد قديم ، فجعل آية الكرسي وآية الدين وسائر آيات القرآن
والتوراة والإنجيل وكل كلام يتكلم الله به معنى واحداً لا يتعدد ولا
يتبعض ، ومنهم من قال : انه حروف وأصوات مقترنة لازمة للذات .

وهؤلاء أيضاً وافقوا الجهمية والمعتزلة في أصل قولهم انه متكلم
بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقدرته ، وأنه لا تقوم به الأمور
الاختيارية ، وأنه لم يستو على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض ،
ولا يأتي يوم القيامة ، ولم يناد موسى حين ناداه ، ولا تغضبه المعاصي
ولا ترضيه الطاعات ولا تفرحه توبة التائبين . وقالوا في قوله : (وقل
اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ونحو ذلك : إنه لا يراها
إذا وجدت ؛ بل إما أنه لم يزل رائياً لها ، وإما أنه لم يتجدد شيء
موجود بل تعلق معدوم ، إلى أمثال هذه المقالات التي خالفوا فيها
نصوص الكتاب والسنة مع مخالفة صريح العقل .

والذي الجأهم لذلك موافقتهم للجهمية على أصل قولهم في أنه سبحانه
لا يقدر في الأزل على الفعل والكلام وخالفوا السلف والأئمة في قولهم :
لم يزل الله متكلماً إذا شاء ثم افترقوا أحزاباً أربعة كما تقدم : الخلقية ،
والحدوثية ، والاتحادية ، والاقترانية .

وشر من هؤلاء الصابئة والفلاسفة الذين يقولون : إن الله لم يتكلم
لا بكلام قائم بذاته ، ولا بكلام يتكلم به بمشيئته وقدرته : لا قديم
النوع ، ولا قديم العين ، ولا حادث ، ولا مخلوق ؛ بل كلامه عندهم
ما يفيض على نفوس الأنبياء . ويقولون إنه كلم موسى من سماء عقله ،
وقد يقولون : انه تعالى يعلم الكلّيات دون الجزئيات ؛ فانه إنما يعلمها
على وجه كلي ، ويقولون مع ذلك : انه يعلم نفسه ويعلم ما يفعله .

وقولهم يعلم نفسه ومفعولاته حق ، كما قال تعالى : (ألا يعلم من
خلق وهو اللطيف الخبير) ؛ لكن قولهم مع ذلك : انه لا يعلم الأعيان
المعينة جهل وتناقض فان نفسه المقدسة معينة ، والأفلاك معينة ، وكل
موجود معين . فان لم يعلم المعينات لم يعلم شيئاً من الموجودات ؛ إذ
الكلّيات إنما تكون كليّات في الأذهان لا في الأعيان ، فمن لم يعلم إلا
الكلّيات لم يعلم شيئاً من الموجودات . تعالى الله عما يقول الظالمون
علواً كبيراً .

وهم إنما ألجأهم الى هذا الاتحاد فرارهم من تجدد الأحوال للباري
تعالى ، مع ان هؤلاء يقولون ان الحوادث تقوم بالقديم ، وان الحوادث
لا أول لها ؛ لكن نفوا ذلك عن الباري لاعتقادهم انه لا صفة له ؛ بل
هو وجود مطلق ، وقالوا : ان العلم نفس عين العالم ، والقدرة
نفس عين القادر ، والعلم والعالم شيء واحد ، والمريد والارادة

شيء واحد ، فجعلوا هذه الصفة هي الأخرى ، وجعلوا الصفات هي الموصوف .

ومنهم من يقول بل العلم كل المعلوم كما يقوله الطوسي صاحب « شرح الاشارات » فانه أنكر على ابن سينا اثباته لعلمه بنفسه وما يصدر عن نفسه ، وابن سينا أقرب الى الصواب لكنه تناقض مع ذلك حيث نفى قيام الصفات به ، وجعل الصفة عين الموصوف وكل صفة هي الأخرى .

ولهذا كان هؤلاء هم أوغل في الاتحاد والالحاد ممن يقول معاني الكلام شيء واحد ؛ لكنهم ألزموا قولهم لأولئك ، فقالوا : إذا جاز أن تكون المعاني المتعددة شيئاً واحداً جاز أن يكون العلم هو القدرة ، والقدرة هي الارادة . فاعترف حذاق أولئك بأن هذا الالتزام لا جواب عنه .

ثم قالوا : وإذا جاز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى جاز ان تكون الصفة هي الموصوف ، فجاء ابن عربي وابن سبعين والقونوي ونحوهم من الملاحدة فقالوا : إذا جاز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى والصفة هي الموصوف جاز أن يكون الموجود الواجب القديم الخالق هو الموجود الممكن المحدث المخلوق ، فقالوا : إن وجود كل مخلوق هو عين وجود الخالق ، وقالوا : الوجود واحد ، ولم يفرقوا بين الواحد بالتنوع والواحد

بالعين ، كما لم يفرق أولئك بين الكلام الواحد بالعين والكلام
الواحد بالنوع .

وكان منتهى أمر أهل الاتحاد في الكلام الى هذا التعطيل والكفر
والاتحاد الذي قاله أهل الوحدة والحلول والاتحاد في الخالق والمخلوقات ،
كما ان الذين لم يفرقوا بين نوع الكلام وعينه وقالوا هو يتكلم بحرف
وصوت قديم ، قالوا أولا : انه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا تسبق
الباء السين ؛ بل لما نادى موسى فقال (اني أنا الله لا إله إلا أنا
فاعبدني) (إني أنا الله رب العالمين) كانت الهمزة والنون وما بينهما
موجودات في الأزل يقارن بعضها بعضاً ، لم تزل ولا تزال لازمة
لذات الله تعالى .

ثم قال فريق منهم : ان ذلك القديم هو نفس الأصوات المسموعة
من القراء . وقال بعضهم : بل المسموع صوتان قديم ومحدث — وقال
بعضهم : أشكال المداد قديمة أزلية . وقال بعضهم : محل المداد قديم
أزلي . وحكي عن بعضهم انه قال : المداد قديم أزلي ، وأكثرهم يتكلمون
بلفظ القديم ولا يفهمون معناه ؛ بل منهم من يظن ان معناه انه قديم
في علمه ، ومنهم من يظن ان معناه متقدم على غيره ، ومنهم من يظن
ان معنى اللفظ انه غير مخلوق ، ومنهم من لا يميز بين ما يقول ، فصار
هؤلاء حلولية اتحادية في الصفات ، ومنهم من يقول بالحلول والاتحاد في

الذات والصفات ، وكان منتهى أمر هؤلاء وهؤلاء الى التعطيل .

والصواب في هذا الباب وغيره مذهب سلف الأمة وأئمتها : انه سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء ، وانه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وان كلماته لا نهاية لها ، وانه نادى موسى بصوت سمعه موسى ، وإنما ناداه حين أتى ؛ لم يناده قبل ذلك ، وان صوت الرب لا يماثل أصوات العباد ، كما ان علمه لا يماثل علمهم ، وقدرته لا تماثل قدرتهم ، وانه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته ، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وان أقوال أهل التعطيل والاتحاد ، الذين عطلوا الذات أو الصفات أو الكلام أو الأفعال باطلة ، وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول في الذات أو الصفات باطلة ، وهذه الأمور مبسوسة في غير هذا الموضع وقد بسطناها في الواجب الكبير والله أعلم بالصواب .

وسئل رحمه الله

عن المصحف العتيق إذا تمزق ما يصنع به ؟ ومن كتب شيئاً من القرآن ثم محاه بماء أو حرقه فهل له حرمة أم لا ؟

فأجاب : الحمد لله . أما المصحف العتيق والذي تمزق ، وصار بحيث لا ينتفع به بالقراءة فيه ، فإنه يدفن في مكان يسان فيه ، كما أن كرامة بدن المؤمن دفنه في موضع يسان فيه ، وإذا كتب شيء من القرآن أو الذكر في إناء أو لوح ومحى بالماء وغيره ، وشرب ذلك فلا بأس به ، نص عليه أحمد وغيره ، ونقلوا عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أنه كان يكتب كلمات من القرآن والذكر ، ويأمر بأن نسقى لمن به داء ، وهذا يقتضي أن لذلك بركة .

والماء الذي توضأ به النبي صلى الله عليه وسلم هو أيضاً ماء مبارك ؛ صب منه على جابر وهو مريض . وكان الصحابة يتبركون به ، ومع هذا فكان يتوضأ على التراب وغيره ، فما بلغني أن مثل هذا الماء ينهى عن صبه في التراب ونحوه ، ولا أعلم في ذلك نهياً ، فإن أثر الكتابة لم يبق بعد المحو كتابة ، ولا يحرم على الجنب مسه . ومعلوم أنه ليس

له حرمة كحرمة ما دام القرآن والذكر مكتوبان ، كما أنه لو صبغ فضة أو ذهب أو نحاس على صورة كتابة القرآن والذكر ، أو نقش حجر على ذلك على تلك الصورة ، ثم غيرت تلك الصياغة وتغير الحجر لم يجب لتلك المادة من الحرمة ما كان لها حين الكتابة .

وقد كان العباس بن عبد المطلب يقول في ماء زمزم : لا أحله لمغتسل ، ولكن لشارب حل وبل . وروى عنه أنه قال : لشارب ومتوضئ وهذا اختلف العلماء هل يكره الغسل والوضوء من ماء زمزم ، وذكروا فيه روايتين عن أحمد . والشافعي احتج بحديث العباس ، والمرخص احتج بحديث فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ من ماء زمزم ، والصحابة توضأوا من الماء الذي نبع من بين أصابعه مع بركته ؛ لكن هذا وقت حاجة .

والصحيح : أن النهي من العباس إنما جاء عن الغسل فقط لا عن الوضوء ، والتفريق بين الغسل والوضوء هو لهذا الوجه ، فإن الغسل يشبه إزالة النجاسة ؛ ولهذا يجب أن يغسل في الجنابة ما يجب أن يغسل من النجاسة ؛ وحينئذ فوضون هذه المياه المباركة من النجاسات متوجه ، بخلاف صونها من التراب ونحوه من الطاهرات . والله أعلم .

آخر المجلد الثاني عشر

فهرس المجلد الثاني عشر

صفحة	الموضوع
٦ - ٣٧	« قاعدة في القرآن وكلام الله » .
٦ ، ٧	الاختلاف نوعان : اختلاف في التنزيل ، واختلاف في التأويل
٧ ، ٨	الايمان بكلام الله داخل في الايمان برسائته ، والكفر بذلك كفر بهذا
٨ ، ٩	أصل الايمان الايمان بالقرآن ولذلك تفتتح به السور ويذكر في أثنائها اخبارا عنه أو ثناء عليه
٩ ، ١٠ ، ١٧ ، ١٨	الحكمة في ثنية قصة موسى مع فرعون ، فرعون جاحد للربوبية والرسالة مشرك ، موسى مثبت للرسالة والتكليم والربوبية
١٠ ، ١١	الكفار من جميع الامم يعرضون عن الوحي ويتبعون الظن والهوى ، ويزعمون أنهم أهل العقل والرأى وانتقاس والحكمة والمجدل والقوة والحال ، كما يسخرون من الرسل وأتباعهم ويصفونهم بالسفه والردالة والضلال والجنون
١١ - ١٣	فصل يجب أن يكون الايمان بالرسل والرسالة عاما لا تفريق فيه
١٣	فصل التفريق قد يكون في انقدر وقد يكون في الوصف كايمنان اليهود بموسى دون عيسى ، وكاختلاف اليهود والنصارى في المسيح ، وكقول الفلاسفة في كلام الله ورسله
١٦	السبب الذي توقع الجميع في الكفر ببعض ما نزل أو بجميعه هو الاعتراض على آياته وشريعته
١٧	ما أيد الله به رسوله من المعجزات أعظم مما أيد به غيره ، الحكمة في اقرار أهل الكتاب بالجزية
١٧ ، ١٨	جماع شبه الكفار أنهم قاسموا الرسول على غيره من البشر
١٩	فصل اذا تبين هذا الاصل ظهر به اشتقاق البدع من الكفر
١٩	اليهود والنصارى والصائبون الذين أثنى الله عليهم ، كفر من كفر منهم ، وسببه

صفحة	الموضوع
١٩ ، ٢٠	متأخروا الصابئين لا يصفون الله بصفة ثبوتية وانما يصفونه بالسلب والاضافة ، قولهم في علم الله والنبوات وكلام الله
٢٠ ، ٢١	الصابئون وأهل الكتاب تارة يجعلهم الله قسما من المشركين ، وتارة قسيما لهم ، سبب ذلك
٢٠ ، ٢١	قول الوحيد شبه قول الفلاسفة
٢٢ - ٢٦	٢٩ ، ٣٠ قول الفلاسفة ومن اتبعهم من المتكلمة والمتصوفة والمتفقهة في كلام الله ، تفضيلهم الفيلسوف والولي على النبي
٢٥ ، ٢٦	تفسير (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى الخ)
٢٦ ، ٢٧	فصل أول من أظهر انكار التكليم والمخالاة
٢٧ - ٣١	اتبع الجهم الجعد كما اتبعتهم المعتزلة ونحوهم ، سبب نشوء التعطيل وانتشاره في هذه الامة
٢٧ - ٢٩	الصابئة في السموات والارض على قولين ، ومنهم من ينكر الصانع ، سبب اضطرابهم في معرفة الله ، وفي الخلق ، والبعث
٢٨ ، ٢٩	عمدة المتكلمين في اثبات حدوث العالم وقدم الله ، الفرق بين مذهب الفلاسفة ومذهب المتكلمين
٢٩ ، ٣٠	قول المتكلمين في كلام الله لما كانوا على الفطرة ولما دخلوا فسي العناد والجحود
٣١ ، ٣٢	فصل وجاء قوم من من متكلمى الصفاتية فجعلوا الصفات القائمة بالجواهر أعراضا دون ما يقوم بالرب
٣٢	خلافهم في بعض الصفات السبع هل هو من الصفات العقلية أو السمعية ، وكذلك الادراك والبقاء والقدم ، وفي اثبات الصفات القرآنية والحديثية
٣٢ ، ٣٣	الصفاتية أقرب إلى مذهب أهل السنة من المعتزلة من وجوه
٣٤ ، ٣٥	هؤلاء يقولون القرآن معنى قائم بذات الله ، وهل هو واحد أو أربعة ؟ وهل هو حروف مخلوقة وأصوات ؟ هل بين كتاب الله وكلامه فرق
٣٥ ، ٣٦	الكلام اسم للفظ والمعنى ، قول أهل السنة في كلام الله وفي القرآن
٣٧ - ١١٧	» مسألة الأحرف التي أزلها الله على آدم هل هي كلام الله الخ «
٣٧ - ٤٠	مذهب سلف الامة وأئمة المسلمين في القرآن وكلام الله ، أدلتهم .

صفحة	الموضوع
٣٩ - ٤١	كلام الله على ثلاثة أوجه ، معنى قول أحمد : منه بدأ ، ما يلزم من جعل كلامه مخلوقا
٤١ ، ٤٢	جواب أحمد لما قيل له : لما خلق الله الحرف سجدت له الا الالف الخ
٤٢ ، ٤٣	نزاع الناس في كلام الله وافتراقهم الى ست فرق (١) قول المتفلسفة والصابئة
٤٣ - ٤٥	معنى قولهم هو عقل وعقل ومعقول ، ولذيد وملتذ ولذدة ، وعاشق ومعشوق ، وقولهم وقول أهل الكلام في قدم العالم أو حدوثه شيئا بعد شيء
٤٣ - ٤٥	قابلهم أهل الكلام في مقارنة العالم له في الزمان ، ولزمهم لوازم باطلة ، طريق أهل الكلام في اثبات حدوث العالم القول الوسط
٤٥ - ٤٧	كلام أتباع أرسطو في حدوث الافلاك ، الكتب السماوية أخبرت أن الله خلق السموات والارض في ستة أيام ، وأنها غير مقارنة له ، ما احتجوا به على من قال هو مؤثر تام في الازل
٤٨	القول الثاني للناس في كلام الله أنه خلقه في غيره
٤٩ - ٥١	الثالث قول من يقول : أنه يتكلم بغير مشيئته بكلام لازم لذاته أزلا وأبدا وأنه معنى واحد ، أو حروف وأصوات لازمة لذات الله ، أول من اشتهر عنه هذا القول ابن كلاب ، الرد عليهم
٥٢	الطائفة الخامسة تقول لم يمكنه أن يكون متكلماً في الازل ، لكن تكلم بالقرآن بمشيئته
٥٢ - ٥٤	٦٤ - ٦٧ قول السلف وحججهم العقلية
٥٣ - ٥٦	فصل في نزاع بعض المتأخرين في الحروف الموجودة في كلام الآدميين وسببه
٥٦ - ٦٦	فصل في فصل النزاع بينهما في الحرف التي أنزلت على آدم الخ ، لم ينزل على آدم حروف « أبا جاد » هل ما روى في تفسيرها ثابت أم لا ؟ نزاع الناس في معناها وما حكم ما روى في ذلك
٥٧ ، ٥٨	٦٣ ما روى : « أن أول من خط وخاط أدريس » تصريح كلمة (نكتل)
٦٥ - ٦٧	الصفات لها ثلاث اعتبارات (١) اعتبارها مضافة الى الله (٢) اعتبارها مضافة الى العبد (٣) اعتبارها مطلقة
٦٧ - ٦٩	نزاع الناس في مسمى الكلام هل هو اسم للفظ الدال على المعنى ، أو للمعنى المدلول عليه باللفظ ، أو يقال لكل منها بطريق الاشتراك اللفظي ، أو هو عام لهما
٦٧ ، ٦٨	هل مسمى الانسان هو الروح والجسد أو الجسد فقط
٦٩ ، ٧٠	قول السائل ان الحروف قديمة أو حروف المعجم قديمة ، قيل مبدا

صفحة	الموضوع
	الخط العربى من الانبار
٧٠ - ٨٠	ان قيل الحرف - ونحوه - من حيث هو هل هو مخلوق أم لا ؟
٧٣ - ٧٨	الكلام يضاف الى المبتدى به لا الى المؤدى ويختلف صوته
٧٤ - ٧٨	مسألة اللفظ بالقرآن والايمان هل هما مخلوقان أم لا ، مجيء القرآن يوم القيامة
٨١ ، ٨٢	القرآن بين أصول الدين بالادلة العقلية بيانا لا يوجد مثله فى كلام الناس
٨٢ ، ٨٣	ما فى حجج المعطلة والذهرية من الفساد والتناقض ، سبب ضلالهم
٨٣ - ١١٧	الكلام فى الحروف هل هى قديمة أو مخلوقة وما نقل عن السقطى وأحمد والقاضى وابن عقيل وأمثالهم فى ذلك
٨٥	حديث لما خلق الله الحروف سجدت له الا الالف النخ ضعيف
٨٦ - ١١٧	قول السلف لم يزل الله متكلمًا اذا شاء ، وأن القرآن غير مخلوق النخ ، الرد على الكلابية ، قولهم فى السمع والبصر ، المحاسبى
٩٦ ، ٩٧	كلام الله وسائر صفاته لا تشبه صفات المخلوقين ، الاشتراك فى المسمى لا يقتضى الاشتراك فى شىء موجود فى الخارج
٩٦ ، ٩٧	الفرق بين قسمة الشىء الى كلياته وقسمة الكل الى أجزائه
٩٨ - ١٠٠	الكلام كلام البارى والضوت صوت القارىء ، يجب على الانسان فى مسألة الكلام ، ان يتحرى أصليين ٠٠٠
١٠٠ - ١٠٢	مسألة الشكل والنقط فى المصحف ، كيفية ذلك
١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ - ١٠٩	الحرف والكلمة فى لغة العرب وفى الاصطلاح
١٠٥ ، ١٠٦	القديم فى اصطلاح المتكلمين ، ولفظ المحدث فى لغة القرآن
١٠٦	لفظ القضاء والاداء فى لغة الرسول ، والحديث فى ذلك ، سبب الغلط فى فهم كلام الله ورسوله
١٠٩ - ١١١	فصل ولفظ الحرف يراد به حروف المعانى ، لفظ الحرف فى اللغة واشتقاقه ، الحروف أقسام
١١١ ، ١١٢	من تفسير (اقرأ) ، العلم له ثلاث مراتب ، لكل شىء أربع وجودات
١١٢ ، ١١٣	هل وجود كل شىء هو عين ماهيته أم لا ، أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الاسمين
١١٣	يجب الاقرار بما جاء به الكتاب والسنة لفظا ومعنى ،
١١٤	لا يجب على أحد أن يوافق على اثبات الالفاظ التى لم ترد فى الشرع ولا على نفيها حتى يستفسر عن المراد بها
١١٤ - ١١٦	من أسباب الاختلاف : الالفاظ المجملة ، والمعانى المشتبهة ، أو الجهل بما جاء به الرسول

١١٧ - ١٦٢ « وقال (فصل) فى أن القرآن العظيم كلام الله ليس

شيء منه كلاما لغيره » .

١١٧ ، ١١٨ أدلة ذلك ، لفظ الانزال فى القرآن قد يرد مقيدا بالانزال منه ، وقد يقيد بالانزال من السماء ، وقد يرد مطلقا .

١١٨ - ١٢٤ قوله (منزل من ربك) يدل على أمور (١) الرد على الجهمية (٢) الرد على الفلاسفة (٣) الرد على الكلابية والاشعرية

١١٩ - ١٢٠ قول الجهمية والمعتزلة فى القرآن ، ما اختص به الجهم من المسالفة فى التعطيل ، الجعد أول من أحدث هذه المقالة

١٢٠ - ١٢٤ مذهب الكلابية والاشاعرة فى القرآن يوافق قول المعتزلة ويخالفه من وجهين ، بطلان مذهبهم

١١٨ - ١٢٤ تفسير (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) الآيات

١٢٤ - ١٢٦ قوله (وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا) رد على الكلابية أيضا ، بعضهم يفرق بين الكتاب والقرآن

١٢٦ ، ١٢٧ قوله (وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا) لا ينافى انزاله الى بيت العزة ، وكتابته فى اللوح المحفوظ قبل انزاله

١٢٧ - ١٣٣ من زعم أن جبريل أخذ القرآن من الكتاب ولم يسمعه من الله ، أو أنه أتقى الى جبريل المعانى وأن جبريل عبر عنها بالكلام العربى فقله باطل من وجوه .

١٣١ ، ١٣٢ قولهم فى قدم الاصوات والحروف ، أو حدوثها ، معنى التكليم والنداء عندهم .

١٣٣ - ١٣٥ المعتزلة والاشعرية فى كلام الله وأفعاله وسائر صفاته وافقوا السلف من وجه وخالفوهم من وجه ، مذهب المعتزلة ، مذهب الكلابية ومن وافقهم فى أفعال الله ، ورضاه ، وغضبه ، وإرادته ، ووجهه ، ونحو ذلك

١٣٥ - ١٣٩ فان قيل قوله : (انه لقول رسول كريم) يدل على أنه أحدث الكلام العربى ، الكلام كلام البارى والصوت صوت القارى ، الرؤية رؤيتان : مطلقة ، ومقيدة ، وكذلك الكلام

١٤٠ فصل منشأ هذا النزاع والاشتباه هو الكلام الذى ذمه السلف ، وذلك أن أهل الكلام لما تناظروا فى مسألة حدوث العالم واثبات الصانع قالوا ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث

١٤٠ - ١٤٨ ما هي الحوادث عند من استدل على أن الاجسام لا تخلو من الحوادث وأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ، التحقيق في ذلك ، هل السكون أمر وجودي ؟

١٤٢ - ١٤٤ مسألة دوام الحوادث في الماضي والمستقبل
١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٨ جمهور قدماء الفلاسفة لا يقولون بقدوم العالم ولا الافلاك وإنما زعم ذلك أرسطو وأتباعه ، ابطال قولهم ، نزاعهم في قيام الصفات والحوادث بواجب الوجود

١٤٤ - ١٤٧ ابن سينا أثبت ممكنا قديما وخالفه الفلاسفة وجماهير العقلاء
١٤٥ - ١٤٨ زعمهم أن المعلول قد يقارن علته ، أرسطو وأتباعه يرون أن الفلك قديم واجب الوجود بنفسه ، وأن له علة يتشبه بها ، الفلسفة عندهم ، الازل

١٤٩ - ١٥٣ فصل واذا عرف الاصل الذي تفرع منه نزاع الناس في « مسألة كلام الله » فائقائلون لذلك الاصل تنازعوا في كلام الله ، قول الجهمية والنجارية والضرارية ، قول المعتزلة ، قول الكرامية ، قول الكلابية والاشعرية ، قول السالمية في كلام الله ، تعليلهم لهذه الاقوال والرد عليها

١٥٣ نزاعهم في القرآن هل هو حال في الصدور والمصحف أم لا
١٥٤ - ١٥٧ قول الفلاسفة في الافلاك والعالم وفي واجب الوجود وكلامه والملائكة ، وقول القدرية في أفعال العباد ، الرد على الجميع
١٥٧ - ١٦٢ قول الصنف الثالث : كل ما قارن الحوادث من الممكنات فهو محدث ، وقولهم في كلام الله . هل الصوت الذي تكلم الله به قديم ؟ وهل حروف المعجم قديمة أو مخلوقة ؟

١٥٩ ، ١٦٠ مراد من قال : « ان الله لما خلق الاحرف سجدت له الا الالف » الخ

١٦٢ - ٢٣٥ « المسألة المصرية في القرآن »

١٦٢ « سئل عمن قال اختلاف المسلمين في كلام الله على

ثلاثة أنحاء الخ . »

١٦٢ ، ١٦٣ الاقوال التي قالها المنتسبون الى الاسلام في كلام الله تبلغ سبعة أو تزيد (١) قول المتفلسفة ومن وافقهم

١٦٣ ، ١٦٤ (٢) قول الجهمية من المعتزلة وغيرهم ، أول هؤلاء الجعد بن درهم

١٦٥ ، ١٦٦ (٣) قول الكلابية والاشعرية ، الرد عليهم

صفحة	الموضوع
١٦٦ - ١٧٢	(٤) قول طوائف من أهل الكلام والحديث من السالمية وغيرهم ، القول في مداد المصحف
١٦٨ ، ١٦٩	غلط ابو طالب على الامام أحمد حيث حكى عنه أنه قال لفظي بالقرآن غير مخلوق ، سبب اشتباه ذلك
١٦٩ - ١٧٢	نزاع الناس في الاسم هل هو المسمى أو غيره ، والصواب في ذلك ، « مسألة اللفظ بالقرآن » ، والصوت
١٧١ ، ١٧٢	الكلام على قوله : (وان أحد من المشركين استجارك) الآية
١٧٢ ، ١٧٣	(٥) قول الهشامية والكرامية ومن وافقهم
١٧٣ ، ١٧٤	(٦) قول الجمهور وأهل الحديث ، وردهم على تلك الطوائف
١٧٦	قول السائل ذهب قوم الى أنه قديم الصوت والحروف وهم الحشوية ، أول من تكلم بكلمة « حشوية » وما يراد بها ، وقول الجمهور ، وقول العامة
١٧٦ ، ١٧٨	الطائفة تضاف تارة الى الرجل الذي هو امام مقالتها . . . وتارة تضاف الى قولها وعملها
١٧٧	قول السائل وقوم ذهبوا الى أنه حادث بالصوت والحروف وهم الجهمية ، مقالة الجهمية والمعتزلة والكرامية
١٧٨	قول السائل وقوم نحووا الى أنه قديم لا بصوت ولا حرف الا أنه معنى قائم بذات الله وهم الاشعرية
١٧٨ - ١٨٠	قوله : فمن قال ان الحرف والصوت الملفوظ بهما عين الكلام القديم فلاهل الحق فيه رأيان رأى بتكفيره ورأى بتبديعه الخ
١٧٩	بحث في المداد وصوت القارئ
١٨٠ - ١٨٦	منشأ ضلال من قال : ان القرآن مخلوق ومن وافقهم على أصل مقاتتهم من الكرامية والاشاعرة والسالمية ، مذهب أهل السنة ومن وافقهم ، مناظراتهم لهذه الطوائف
١٨٤ - ١٨٨	عجز أهل الكلام عن اثبات حدوث العالم والرد على الدهرية
١٨٥ - ١٨٨	بطلان حجة الفلاسفة والدهريه على قدم العالم ، أدلة اثبات الصانع
١٨٩ - ١٩١	وأما قول القائل : كلام الله منزله عن سمات الحدوث ، اذا الصوت والحرف لازمهما الحدوث الخ ، لم يوافق الكلابية على قولهم أحد من الطوائف ، مناظرة الفرق لهم في المعنى والحروف والاصوات
١٩٢	قول القائل كما لذاته التنزيه عن سمات الخلق فكذلك لقوله الحق
١٩٣	وأما قوله لتعلم أن الحرف اللساني والحرف البنائي كلاهما مقيد بزمان يصرفه
١٩٣ - ١٩٦	قوله المولى متكلم قبل الزمان ، فتعالى كلامه عن أن تكتنفه الحدثنان

صفحة	الموضوع
١٩٧	قول انقائل ما ثم الا المعنى القائم بالذات ، أو هذه الحروف والاصوات؟
١٩٧ - ٢٠١	قوله من قال لفظي عتي كلام الله فقد انسلخ عن ربة العقل وغرق في بحر العماية والجهل ، انكلام كلام من قاته مبتدئا لا كلام من بلغه ، فرق بين أن يسمع من المتكلم به وبين أن يسمع من غيره
٢٠١ ، ٢٠٢	قول انقائل : من قال ان مذهب جهنم هو مذهب الاشعري أو قريب منه فهو جاهل الخ .
٢٠٢	انفرق بين مذهب انكلاوية والاشعرية وبين مذهب الجهمية والمعتزلة
٢٠٢ - ٢٠٦	حقيقة مذهب جهنم والقرامطة والمتفلسفة وابن كسلاّب والاشعري والقلانسي والجويني وأتباعه في مسائل أصول الدين
٢٠٤ - ٢٠٦	الاشعري ابتلى بطائفتين : طائفة تحبه وطائفة تبغضه ، وكل منهما يقول انما صنف هذه المصنفات تقية ، سبب ذلك وحقيقة الامر
٢٠٦ ، ٢٠٧	الامام أحمد يجهنم اللفظية ، ويكفر القائلين بخلق القرآن
٢٠٧ - ٢٠٩	نسب القول بأن اللفظ بانقرآن غير مخلوق الى أحمد وغيره ممن العلماء كما غلطوا أبا طائب في نقله عن أحمد ووقع نزاع بين أصحاب أحمد وغيرهم بعد موته في ذلك
٢٠٨ ، ٢٠٩	أعظم ما وقعت فتنة « اللفظ » بخراسان وتحاملوا فيها على البخاري ، سبب ذلك
٢٠٩ - ٢١٢	الاشعري ومن تبعه يوافقون أحمد على الانكار على الطائفتين ، لكن يخالفونه في سبب الكرامة
٢١١ - ٢١٣	كلام أئمة المسلمين في هذه المسألة أشد الكلام مطابقة للعقل والنقل ، قد يكون بعض اختلاف الناس في هذا الباب اختلاف تنوع
٢١٣ - ٢١٧	منشأ نزاع المسلمين في هذا الباب أن المتكلمين قالوا : لا يمكن معرفة اثبات الصانع الا باثبات حدوث العالم ولا يمكن اثبات حدوث العالم الا باثبات حدوث الاجسام والطريق الى ذلك هو الاستدلال بحدوث الاعراض على حدوث ما قامت به الاعراض ، اعتراضات الناس على طريقتهم
٢١٦ - ٢١٩	تناقض الفلاسفة القائلين بقدم النفس والعقل وحدوث الاجسام ، هل النفس عرض قائم بجسم الفلك ؟ أو جوهر قائم بنفسه ؟
٢٢٠ - ٢٣٤	الطرق العقلية التي يعلم بها حدوث كل ما سوى الله
٢٢٦ - ٢٣٤	قول الفلاسفة بقدم العالم أبطل من قول المعتزلة بنفي الصفات وحدوث العالم ايضاح ذلك
٢٢٩ - ٢٣٤	ما ذكره الرازي في الاربعين يبين أصل الفلاسفة في التوحيد الذي نفوا به الصفات ، الجواب عن ذلك

٢٣٥ - ٢٤٥ « سئل عن بيان ما يجب على الانسان أن يعتقد
 ويصير به مسلماً من أن ما في المصحف هل هو كلام
 الله القديم او عبارة عنه الخ » .

٢٣٥ ، ٢٣٦ الذي يجب على الانسان اعتقاده في الجملة هو أن القرآن كلام الله
 منزل غير مخلوق الخ

٢٣٦ ، ٢٣٧ البحث على الاجتماع وأنهى عن التفرق
 ٢٣٧ - ٢٣٩ من التفصيل في هذه المسألة أن من اعتقد أن مداد المصحف وأصوات
 العباد قديمة أزلية فهو ضال مخطئ

٢٣٨ تبديع من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق أو مخلوق
 ٢٣٩ - ٢٤١ خطأ من جعل ثبوت القرآن في انصدور واللسنة والمصحف مثل
 ثبوت ذات الله في ذلك ، الفرق بين ثبوت الاعيان في المصحف وبين
 ثبوت الكلام فيها

٢٤٠ ، ٢٤١ خطأ من قال : ليس في المصحف كلام الله وإنما فيه ائداد الذي هو
 عبارة عنه ، ليس وجود الكلام في الكتاب كوجود الصفة والموصوف
 ولا كوجود الدليل المحض

٢٤١ يفرق بين ما تستعمل فيه أداة الظرف ، كما يفرق بين الرؤية بالعين
 والرؤية بالقلب

٢٤١ ، ٢٤٢ قول السائل هل ما في المصحف حادث أو قديم ؟ الكلام كسلام
 من قائله مبتدئاً

٢٤٢ من قال صوت انقاري ومداد الكاتب كلام الله الذي ليس بمخلوق
 فقد أخطأ

٢٤٢ وجه انكار الامام أحمد على من قال لفظي بالقرآن غير مخلوق
 ٢٤٢ - ٢٤٤ قول السائل هل كلام الله حرف وصوت أم لا . اطلاق الجواب في
 هذه المسألة نفياً وإثباتاً بدعة

٢٤٤ ، ٢٤٥ كلام الله الحروف والمعاني جميعاً ، يتكلم الله بصوت لا كأصوات
 العباد ، وحروف كلامه ومعانيها لا تشبه حروف الخلق ولا معاني كلامهم
 ٢٤٤ ، ٢٤٥ قول الفلاسفة والجهمية ومتكلمة الصفاتية في كلام الله

٢٤٦ - ٢٥٨ « التبيان في نزول القرآن » .

٢٤٦ - ٢٥٠ لفظ النزول حيث ذكر في كتاب الله ثلاثة أنواع (١) نزول مقيد

- بأنه منه (٢) من السماء (٣) مطلق
 ٢٤٦ ، ٢٤٧ من الإخطاء في تفسير النزول
 ٢٤٨ ، ٢٤٩ ما يـراد « بأسماء » فـسمى النصوص و « نزول السكينة »
 و « الأمانة في قلوب الرجال » وانزال الميزان
 ٢٤٩ ، ٢٥٠ معنى الحديث ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله الخ ، (النعاس)
 ٢٥٠ - ٢٥٢ معنى الاتيان والاستواء عند الاشعري ومن اتبعه ، أدلة من خالفهم
 ٢٥١ - ٢٥٣ من الاحاديث المكدوبة في انزال الحديد ، الآلات التي نزل بها آدم
 ٢٥٢ - ٢٥٥ المراد بانزال الحديد ، غلط قطرب في لفظ النزول ، (النزول) ، لم
 يستعمل لفظ النزول فيما خلق من السفليات
 ٢٥٥ - ٢٥٧ تفسير (قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا) وآيات من
 سورة النحل
 ٢٥٧ ليس في القرآن لفظ نزول الا وفيه معنى النزول المعروف

٢٥٨ - ٢٩٦ « سئل عن قوله : (وإن أحد من المشركين استجارك
 فأجره حتى يسمع كلام الله) وقال في موضع آخر : (انه
 لقول رسول كريم) فما معنى ذلك ؟ فان طائفة ممن يقول
 بالعبارة يدعون أن هذا حجة لهم الخ . »

- ٢٥٨ ، ٢٥٩ هذه الآية حق ، وليست معارضة للآخرى ، وليس في واحدة
 منهما حجة لقول باطل
 ٢٥٩ ، ٢٦٠ ما يسمع من التالي هو كلام الله ، لا كلام التالي
 ٢٦٠ - ٢٦٤ ، ٢٧١ انقرآن منزل من الله ليس لجبريل ولا للنبي فيه الا التبليغ
 والاداء ، تفسير (واذا بدلنا آية مكان آية) الآيات
 ٢٦١ - ٢٦٣ لا يضاف الكلام الا لمن قاله مبتدئا لا الى من قاله مبلغا مؤديا
 ٢٦٣ - ٢٦٥ خطأ من ظن أن الاصوات المسموعة من القراء صوت الله ، سماع
 الكلام يكون تارة من المتكلم به بلا واسطة وتارة بواسطة
 ٢٦٤ ، ٢٦٥ ليست صفة المخلوق صفة الخالق ولا مثلها
 ٢٦٥ ، ٢٦٦ فصل المراد بالرسول في قوله : (انه لقول رسول كريم) ، لفظ
 الرسول يدل على أنه لم ينشئه
 ٢٦٦ - ٢٧٠ ان قيل : نحن نقول معناد كلام الله ولفظه قول البشر ، بطـ
 ذلك من وجوه

صفحة	الموضوع
٢٦٨	بعض المتأخرين يرى أن أفعال العباد قديمة ، تعليله لذلك
٢٧٠ ، ٢٧١	تفسير : (انه لقول رسول كريم) الآيات
٢٧١ - ٢٧٤	أول من قال : القرآن حكاية عن كلام الله أو عبارة
٢٧٤	مسألة القرآن نها طرفان (١) تكلم الله به (٢) تنزيله الى خلقه
٢٧٥ - ٢٨٣	فصل وأما قول القائل : أنتم تعتقدون أن موسى سمع كلام الله منه بلا واسطة ، وتقولون : ان الذى تسمعون كلام الله من وسائل فما الفرق ؟
٢٧٦ - ٢٨٢	شبهة من لم يفرق بينهما ، يختلف معنى اللفظ بالاطلاق والتقييد كالرؤية
٢٧٧ - ٢٧٩	بحث فى الحقيقة والمجاز ، الرؤيا ثلاثة أقسام
٢٧٩ ، ٢٨٠	التكليم ثلاثة أنواع ، قد يقصد معنى صحيحا من قال القرآن حكاية عن كلام الله
٢٨٠ - ٢٨٣	بحث فى الاسم والمسمى ، معنى قول أحمد هذا غير مخلوق لما قرأ عليه أبو طالب : (قل هو الله أحد) غلط أبى طالب عليه
٢٨٣ - ٢٩٦	فصل وأما قول القائل : تقولون ان القرآن صفة الله وأن صفات الله غير مخلوقة
٢٨٣ ، ٢٨٤	منشأ غلط الطوائف فى القرآن هو عدم الفرق فى المشار اليه اذا قيل هذا كلام الله ، التحقيق فى ذلك ، والفرق بين المسموع من القارئ المبلغ وبين أفعاله وحركاته فيها
٢٨٩ - ٢٩١	غلط من ظن أن القرآن فى المصحف كالاعيان فى الورق ، كل موجود له أربع مراتب
٢٩١ ، ٢٩٢	وأما قول القائل : ان قلتم ان هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول وأنتم تكفرون بالحولية والاتحادية
٢٩٢ ، ٢٩٣	الفرآن فى الصدور ، من أنكر ذلك ، الرد على النصارى فى قولهم بالاقانيم ، أقوال الحولية والاتحادية
٢٩٣ - ٢٩٥	هل يقال : ان كلام الله حال فى المصحف أو فى الصدور ؟ وهل يقال كلام الناس المكتوب حال فى المصحف أو حال فى قلوب حافظيه ونحو ذلك
٢٩٤ ، ٢٩٥	المقالة المنكرة فى القرآن تتضمن ثلاثة أمور وغيرها نيس بمنكر
٢٩٦ - ٣٢٣	وقال : فصل قال الله : (وإن أحد من المشركين
	استجارك) .
٢٩٦ ، ٢٩٧	لم ينزل من الله الا كلامه ، القول المشهور عن السلف فى القرآن ، معناه .

صفحة	الموضوع
٢٩٨	النبي سمع القرآن من جبريل لم يسمعه — من الله ، وجبريل سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ
٢٩٩	الجواب عن نحو قوله : (فاذا قرأناه) (نحن نقص عليك)
٣٠٠ ، ٣٠١	أنواع تكليم الله ، الرسول بلغ كلامه وأمر أمته بالتبليغ
٣٠١	ليس معنى قول السلف : « ليس بمخلوق » ليس بمفترى أول من عرف أنه قال : مخلوق ، وقال : قديم
٣٠١ — ٣٠٦	افتراق من شارك ابن كلاب في قوله ، قول السلف في القرآن وكلام الله وأدلتهم ، المداد ، الأصوات ، الحرف ،
٣٠٥	من نقل عن الامام أحمد : أنه تكلم في البخاري بسوء فقد افتري
٣٠٦ — ٣٠٨	مسألة اللفظ بالقرآن ، والتلاوة ، والقراءة ، إضافة القرآن الى الرسول
٣٠٩	عامة أهل البدع لا يعرفون قول السلف ولا يذكرونه
٣٠٩ ، ٣١٠	قول الجهمية في كلام الله ، وإذا تليت عليهم آيات التكليم والقول ، تكفير السلف لهؤلاء ، وبيان ضلالهم
٣١٠ ، ٣١١	لو كان المنادى غير الله في قوله « من يدعوني » للزم أن يقول المنادى ، الجواب عما روى : « أنه يأمر مناديا »
٣١١ ، ٣١٢	مذهب جهم نكار الاسماء والصفات والقول بالجبر ، المعتزلة اتبعوه في انكار الصفات وفي كلام الله ، كثير من الاصناف وافقوا المعتزلة
٣١٢ ، ٣١٣	نزاع المعتزلة والكلابية والاشعرية في حقيقة المتكلم والفاعل ، المتكلم عند أهل السنة وجمهور العقلاء
٣١٣ ، ٣١٤	من حجج أهل السنة على أن القرآن غير مخلوق وعلى أن الله خالق أفعال العباد
٣١٤ — ٣١٦	من وافق الكلابية على قولهم ، مذهب الكرامية ومن وافقهم فسي الكلام ومتى حدث
٣١٤ — ٣٢٢	شبه الجهمية والمعتزلة والكلابية والكرامية والسلمية وأتباعهم ، ورد أهل العلم والسنة عليهم
٣١٦ — ٣١٨	الجسم في اللغة وعند النظر وأهل الكلام

« الكيلانية » ٣٢٣ — ٥٠٢

٣٢٣ « سئل عن قوم يقولون كلام الناس وغيرهم قديم ، وتأولوا ما نقل عن أحمد في الرد عليهم ، وقالوا إنما قال ذلك خوفا الخ . »

صفحة	الموضوع
٣٢٣ ، ٣٢٤	حكم هذا القول ووجوب انكاره
٣٢٤ - ٣٢٩	نص الامام أحمد وغيره من الأئمة على أن كلام الآدميين مخلوق وكذلك أفعالهم ، أدلتهم ، الايمان بالقدر
٣٢٦ ، ٣٢٧	حماد بن زيد ، الثوري ، حماد بن سلمة ، المعتمر بن سليمان ، يحيى بن سعيد انقطاع
٣٢٧ ، ٣٢٨	اختلاف القدريّة فيمن خلق أفعال العباد
٣٣٠ ، ٣٣١	صفات الله داخله في مسمى أسمائه ، تنوع دلالة الاسم بحسب قيوده ، العلم أعم من القدرة ، والقدرة أعم من المشيئة
٣٣١ ، ٣٣٣	للعبد مشيئة وقدرة وإرادة وفعل ، ينهى عن اطلاق لفظ الجبر
٣٣١	القول يقدم أفعال العباد يجمع ثلاث ضلالات
٣٣٣ ، ٣٣٤	فصل « مسألة اللفظ بالقرآن » قد اضطرب فيها أقوام لهم علم ودين وفضل من أهل السنة والحديث ، سبب ذلك
٣٣٤	التنبيه على « مسألة اللفظ »
٣٣٤ ، ٣٣٥	الناس أقسام (١) المؤمنون وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوهم فيما أخبروا وأطاعوهم فيما أمروا (٢) من كفر بهم وكذب بأصل رسالتهم مثل ٠٠٠
٣٣٥ ، ٥٣٦	حد الكفر وأنواعه
٣٣٦ - ٣٤٠	(٣) من آمن ببعض ما جاءت به الرسل وكفر ببعض ، أو آمن ببعض صفات الرسالة وكفر ببعض ، حكم هؤلاء
٣٣٩ ، ٣٤٠	تفسير (الم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك) الآيات
٣٤٠ - ٣٤٢	ذم أهل التفرق والاختلاف في الكتاب ، الأمر بالايمان بالكتب المنزلة واعدل بين الناس
٣٤٣	فصل وكان في انكفار بأصل الرسالة من قال : ان الرسول ساحر وشاعر ونحو ذلك
٣٤٣ ، ٣٤٤	الوليد فكر تفكير الفلاسفة المخالفين للرسل ، ايضاح ذلك
٣٤٣ ، ٣٤٤	الانتقال من التصور إلى التصديق ، القياس ، ومتى يكون صحيحا ، لا بد في كل قياس من قضية كلية
٣٤٤ ، ٣٤٥	بطلان قولهم الواحد لا يصدر عنه الا واحد ، الجواهر العقلية المجردة عن المادة
٣٤٥	القياس نوعان : قياس الشمول ، وقياس التمثيل ، هل مسمى القياس حقيقة في التمثيل مجاز في الشمول أو بالعكس ، أو يتناولهما
٣٤٥ - ٣٤٧	هل يقيد قياس التمثيل اليقيني ، وهل يستعمل في العقليات دون قياس الشمول ، مآل القياسين واحد
٣٤٧ - ٣٥٠	السلف لا يستعملون القياسين الا على وجه الاول

صفحة	الموضوع
٣٤٧ - ٣٤٩	عامة المطالب لا يحتاج فيها الى القياس المنطقي ، والامور المعينة لا تعلم بمجرد القياس
٣٤٨ ، ٣٤٩	يزعم هؤلاء أن علم الله وعلم أنبيائه إنما حصل بواسطة القياس المنطقي ، خاصة النبي عندهم
٣٥٠	الجهمية أنكروا بعض حقيقة الرسالة التي هي كلام الله وأنكروا بعض ما في الرسالة من صفات الله
٣٥٠ ، ٣٥١	أول من أظهر النعطل في الاسلام قتل بفتوى التابعين
٣٥١	الجهمية بنت مقائبا على قاعدة مبتدعة الصابئين ، وهم موافقون لفرعون في جحد الصانع
٣٥١ - ٣٥٤	كلام الله والملائكة ، وخاصة النبي عند الصابئة والمتفلسفة ، الجهم أن أولا ينكر أن يكون لله كلام
٣٥٢	لأنه كانوا يعرفون مقصد الجهمية ويصفونهم بالزندقة
٣٥٢ ، ٣٥٤	مشائخ الصوفية كفروا ابن سبعين وأمثاله ، كلام الله عندهم
٣٥٤ ، ٣٥٥	المعتزلة يوافقونهم في أن الله لا يتكلم حقيقة ، كلامه عندهم مخلوق ، حكمهم عند السلف
٣٥٥ - ٣٥٦	قول أهل السنة وإن جماعة وجماهير الامة في القرآن وفي كلام الله وسائر صفاته
٣٥٦ - ٣٥٨	اصطلح المتفلسفة على تقسيم المتقابلين الى العدم والملكة ، معنى ذلك ، راجت شبهتهم على بعض أهل النظر ، الاجوبة عن هذه الشبهة
٣٥٩ - ٣٦٦	اللفظية وبدعتهم ، التلاوة ، والقراءة ، والاصوات ، اختلاف الناس في هذه المسألة بعد أحمد ، وما نسب الى البخاري فيها
٣٦٦ - ٣٦٨	ابن كلاب ومن سلك طريقته في آخر عصره ، افتراقهم في القرآن وغيره
٣٦٨ ، ٣٦٩	حذر أحمد عن أصل ابن كلاب وعن أصحابه كالحارث ، متى ظهر من قال ان الله لم يتكلم بصوت ، ومن قال : ان الحروف مخلوقة .
	انكار أحمد وغيره على الجميع
٣٦٩ ، ٣٧٠	نزاع الناس في زمن أحمد وبعده في معنى كون القرآن غير مخلوق هل المراد به ان نفس الكلام قديم أزلي كالعلم ، أو أن الله لم يزل موصوفا بأنه يتكلم اذا شاء ، مبنى هذا الخلاف
٣٧١ ، ٣٧٢	بعضهم يقول بقديم ولا يفهم معنى تقديم
٣٧٢ - ٣٧٥	قول أهل السنة في كلام الله ، مسألة اللفظية الخلقية واللفظية الثابتة ، والتأويل ، والقراءة ، وما يريد ابن كلاب بهما أيضا
٣٧٤ ، ٣٧٥	غلط من زعم أن لصوت المسموع من العبد هو صوت الرب
٣٧٦ - ٣٨٠	سبب خطأ ابن كلاب والاشعري ، هؤلاء خالفوا أئمة السنة والحديث في شيئين : - يستدلون بإضافة الرسول على أنه أحدث حروفه فصل ثم ان خروج اللفظية النافية تفترى على

- منازعيها انهم يقولون القرآن ليس الا الاصوات المسموعة من العبد والمداد المكتوب فى الورق وأنهما قديمان
- ٣٨١ ، ٣٨٢ فروخ اللفظية المثبتة نفترى أيضا على منازعيها أن القسـرآن ليس محفوظا فى انقلوب ولا متلوا بالالسن و لامكتوبا فى المصاحف
- ٣٨٢ - ٣٨٥ مقالة أهل العلم والشريعة فى المصحف وفى العدل بين هذه الطوائف
- ٣٨٥ - ٣٨٩ كل شىء نه أربع مراتب ما للقرآن فيها
- ٣٨٨ - ٣٩١ الرد على من زعم أن من قال أن القرآن فى الصدور أو المصاحف فقد أشبه النصارى
- ٣٩٢ ، ٣٩٣ فصل وصار هؤلاء الذين غلطوا مذهب اللفظية انخ انما يعنسون بالقراءة أصوات القارئى وبالكتاب مداد الكاتبين ويعنون أن هذا غير المعنى الثائم بالذات ونما هو دلالة عليه وعبرة عنه
- ٣٩٤ فصل وصار أولئك الذين غلطوا مذهب اللفظية المثبتة يلزم أحدهم أن الصوت القديم يسمع من القارئ ويوهمون المخالف لهم أن عين الصوت المسموع من العبد هو عين صوت الذى تكلم الله به انخ
- ٣٩٥ - ٤٠٧ فصل ومن تأمل نصوص أحمد فى هذا الباب وجدها من أسد الكلام وأتم البيان انخ منشأ النزاع بين أهل الارض فى هذا الباب يعود الى أصلين (١) تكلم الله بكلامه . سبب ذلك أن التكليم والتبليغ والوحى مراتب ودرجات
- ٤٠٧ فصل فى الاصل الثانى وهو تكلمنا بكلام الله
- ٤٠٧ - ٤٠٩ ما يقرأه المسلمون : هو كلام الله ، لا كلام غيره : حروفه ومعانيه
- ٤٠٩ - ٤١١ التلاوة ، واللفظ ، والقراءة ،
- ٤١١ - ٤١٧ قول القائل هذا كلام الله
- ٤١٣ - ٤١٦ سبب نزاع العلماء فى حروف الهجاء والاسماء المنزلة فى القسـرآن وفى كلمات القرآن اذا تمثل ائرجل بنا ولم يقصد بها القراءة هل يقال مخلوقة أو ليست مخلوقة ؟
- ٤١٧ الأئمة الكبار كأحمد لم يتنازعوا فى شىء من هذا الباب
- ٤١٧ ، ٤١٨ أول من ابتدع الجهمية ومن ناظرهم ، انكار بعضهم أن تكون حروف القرآن كلام الله أو أن يتكلم بصوت ، وقابلهم من زعم أن الفاظ العباد وأصواتهم غير مخلوقة انخ
- ٤١٨ - ٤٢٠ الكتب التى يوجد فيها الرد على الجهمية والواقفة
- ٤٢١ من أنكر بدعة اللفظية ، والقول بأن كلام الله حكاية أو عبارة
- ٤٢١ - ٤٢٩ من أنكر البدعة الثانية وهى بدعة اللفظية المثبتة
- ٤٢٩ فصل وأما نصوص أحمد وغيره على خلق كلام آدميين وخلق أفعال العباد فكثيرة ، بل هو اجماع

صفحة	الموضوع
٤٣٠ ، ٤٣١	فصل وانما نبهت على أصل مقالة أحمد وسائر أئمة السنة وأهل الحديث في مسألة تلاوتنا للقرآن لأنها أصل ما وقع من الاضطراب في هذا الباب
٤٣١ ، ٤٣٢	هذه المسألة لها أصلان (١) أن أفعال العباد مخلوقة (٢) مسألة تلاوة القرآن وقراءته واللفظ به
٤٣٢ ، ٤٣٣	رد أحمد على اللفظية النافية أكثر وأغلظ لوجهين
٤٣٣ ، ٤٣٤	فصل وقد نص أحمد على أن كلام الله غير مخلوق في غير موضع
٤٣٤ - ٤٣٧	كل صفة قامت بمحل يلزمها أمور ، المعتزلة تريد أن تنقض هذه القاعدة على الصفاتية وأهل السنة بالخائق والرازق ... هذا
	المنقض لا يلزم جماهير الأمة وعامة أهل السنة
٤٣٦ ، ٤٣٧	اُتُخِلِقَ مِنْ صِفَاتِ الْذَاتِ وَصِفَاتِ الْفِعْلِ مَعًا ، وَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ
٤٣٨ - ٤٤١	فصل وأما قول القائل إن أحمد إنما قال ذلك خوفاً من الناس فجوابه ، أو جز كلمة في أحمد وإمامته وصبره في المحن
٤٤١ - ٤٦٤	فصل شبهة هؤلاء أنهم وجدوا الناس قد تكلموا فسي خلق حروف المعجم وأسماء المخلوقات وأنها متفقة مع ألفاظ وحروف كلام الله ، التحقيق في ذلك ، وبيان أن كلام الإنسان كله مخلوق حروفه ومعانيه ، والقرآن غير مخلوق حروفه ومعانيه
٤٤٥ - ٤٤٨ ، ٤٥٢ - ٤٥٤ ، ٤٥٨	ماذا علم آدم من الأسماء ؟ وهل اللغات توقيفية ؟ (وعلم آدم الأسماء كلها) ،
٤٤٨ ، ٤٤٩	ما في القرآن من حروف المعجم بالنسبة إلى أوائل السور وغيرها ، والحكمة في اختيار بعضها دون بعض
٤٥٤ ، ٤٥٥	من مقالات غلاة المشركين وانكتابين في الله وفي غيره
٤٥٦ ، ٤٥٧	يطلق القول بأن كلام الآدميين مخلوق ، الكلام عند الإطلاق يتناول اللفظ والمعنى جميعاً
٤٥٨ - ٤٦٣	الكلام هو كلام من ألف معانيه وتفاظه وإن كان جميع ما فيه من الأسماء والحروف إنما تعلمها من غيره
٤٥٩ ، ٤٦٠	الكلام في لغة العرب ، ما يعتبر كلاماً في الصلاة وفسي اليمين عند الفقهاء
٤٦٠	علم الكلام المذموم ، الكلام في اصطلاح الأصوليين وعند النحاة
٤٦٢ ، ٤٦٣	الناس في الكلام قسمان : قسم جعلوا كلام الله كلام أنفسهم وقسم جعلوا كلامهم هو كلام الله ، والوسط ...
٤٦٤ ، ٤٦٥	فصل وأما سؤال السائل هل يجب على ولي الأمر زجرهم وردعهم ؟
٤٦٤	يجب الإنكار على كل من أظهر مقالة تخالف الكتاب والسنة ، ويجب الاعتصام بهما

صفحة	الموضوع
٤٦٤ - ٤٦٦	ذم من قال على الله غير الحق أو اتبع الظن والهوى ، ما يفصل النزاع بين الناس
٤٦٦ - ٤٦٨	فصل وأما تكفير هذا القائل فهو مبنى على أصل وهو أن كثيرا من أهل البدع يعتقدون اعتقــــــــــــادا هو ضلال ويرون كفر من خالفهم في ذلك ، وبازائهم . . .
٤٦٨ ، ٤٦٩	فصل : مسائل انتكفير والتفسيق من مسائل الاسماء والاحكام التي تتعلق بها الوعد والوعيد الخ
٤٦٨	أوجب الله الجنة لأهل الايمان وحرمها على الكافرين
٤٦٨ - ٤٧٠	تفسير : (ان الذين آمنوا والذين هادوا وانصارى والصابئين) الآية
٤٧٠ ، ٤٧١	أول بدعة حدثت في الامة بدعة الخوارج ، مذهبهم ومذهب المعتزلة
٤٧١ - ٤٧٥	مذهب المرجئة والجهمية ومن تبعهم في الايمان ، ومذهب أهل الجماعة في ذلك
٤٧٥	الايمان من الاسماء الشرعية ويتنوع مسماه قدرا ووصفا ، ومنه ما هو متفق عليه في جميع الشرائع ومنه ما يختلف فيه الشرائع
٤٧٥ ، ٤٧٦	عامة السور المكية في الايمان انعام المشترك
٤٧٦ ، ٤٧٧	حجة من نازع أهل السنة في حد الايمان ، هل اسم الايمان منقول عند أهل السنة ؟ أو متروك على ما كان عليه ؟ أو أصلة بالتصديق الخ ؟
٤٧٧ - ٤٧٩	من نفي عنه الايمان فتركه بعض واجباته ، يتفاوت الناس فيما يجب عليهم من خصال الايمان
٤٧٩ - ٤٨٤	فصل وأما مسألة الاحكام فمذهب أهل السنة ، ومذهب الخوارج والمعتزلة ، حججهم ، قول المرجئة في الوعد والوعيد
٤٨٤ - ٤٨٩	فصل في «تكفير أهل البدع والاهواء» : كالجهمية والمرجئة والقدرية وأنشيعه والخوارج وسائر أهل البدع
٤٨٩ - ٥٠٢	أدلة هذا الأصل : الكتاب والسنة والاجماع والاعتبار
٤٩٠ - ٤٩٣	قصة الذي أمر أهله باحراقه وما فيها من فوائد
٤٩٤ ، ٤٩٥	هل يؤثم بالخطأ في الفروع العملية كالعلمية
٤٩٦ ، ٤٩٧	حكم من بلغته رسالة النبي فلم يؤمن به ، وهل يقبل منه اعتذاره بالاجتهاد
٤٩٧	أصل ضلال المبتدعة هو الاعراض عما جاء به الرسول
٤٩٧ ، ٤٩٨	العلم والايمان والهدى فيما جاء به الرسول ، انتكفير العاصم يجب القول باطلاقه وعمومه ،
٤٩٨ ، ٤٩٩	حكم المعين ، قد تأمر الشريعة بعقاب شخص في الدنيا ولا يكون معاقبا في الآخرة لتأويل ، وبالعكس

٥٠٢ - ٥٢٣ « سئل عن رجل قال ان الله لم يكلم موسى تكليماً وإنما
 خالق الكلام والصوت في الشجرة وموسى سمع من
 الشجرة . وأن الله لم يكلم جبريل بالقرآن وإنما أخذه
 من اللوح المحفوظ . »

- ٥٠٢ حكم هذا القائل : الجهمية لا تكذب بلفظ القرآن ، تكن تنفى
 معناه وحقيقته
- ٥٠٢ ، ٥٠٣ أول من ابتدع هذه المقالة ، المعتزلة وافقت الجهمية على بدعتهم
 وضمنت اليها بدعا آخر
- ٥٠٣ ، ٥٠٤ حقيقة كلام الله عند المعتزلة وعند الجهمية
- ٥٠٤ - ٥٠٧ مذهب أئمة الدين في صفات الله وكلامه والقرآن ونصوصهم على ذلك
- ٥٠٧ ، ٥٠٨ محنة أحمد وانتصار الحق
- ٥٠٨ ، ٥٠٩ إطلاق القول بأن الله لم يكلم موسى مناقض للقرآن
- ٥٠٩ ، ٥١٠ من قال ان كلام الله مخلوق في الشجرة فقد قال بمثل مقالة فرعون
- ٥١٠ - ٥١٦ هؤلاء يقولون : اذا خلق كلاما في غيره صار الله هو المتكلم به ،
 ابطال ذلك من وجوه
- ٥١٦ ، ٥١٧ أجمع السلف على أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق
- ٥١٧ - ٥٢٠ ليس معنى قول السلف : « منه بدأ » أنه فارق ذاته وحل بغيره ،
 مقصود السلف حينئذ وقوله (من ربك) ونحوها ، لفظ النزول
- ٥٢٠ - ٥٢٢ الرد على من قال نزل به جبريل من اللوح المحفوظ
- ٥٢١ الرد على من احتج بقوله : (انه نقول رسول) (ما يأتيهم من ذكر
 من ربهم محدث)

٥٢٣ - ٥٢٤ « سئل عن قال إن الله لم يكلم موسى تكليماً... فقال
 آخر ان قات كلمه فالكلام لا يكون إلا بحرف
 وصوت . »

- ٥٢٣ ، ٥٢٤ حكم من قال ان الله لم يكلم موسى ، أو قال انه خلق صوتا فـ

- اليهواء أسمعته موسى ، هل أمر السلف بقتل من أنكر الرؤية وانكلام
لأجل كفرهم أو تدعاء إلى بدعتهم
- ٥٢٤ - ٥٣٦ : الرد على النجهمي الذي يقول ان قلت كلمه فانكلام لا يكون الا بحرف
وصوت والحرف والصوت محدث ، مذهب الكلابية والسلمية وأهل
السنة وغيرهم ، وأجوبتهم
- ٥٢٥ ، ٥٢٦ : لا يكفر من خالف شيئا علم بالعقل حتى يكون قوله كفرا في الشريعة
- ٥٢٥ ، ٥٢٦ : انكارهم للكلام بناء على شبهة التحيز ، الجواب عنها
- ٥٣٢ ، ٥٣٣ : « سئل عمن قال كلم الله موسى تكليما وسمعه أذناه ووعاه
قلبه وأن الله كتب التوراة بيده وناولها إياه من يده
إلى يده وقال آخر لم يكلم إلا بواسطة » .
- ٥٣٤ - ٥٥٤ : « ما نقول السادة في القرآن الذي نتلوه القائم بنا حين
التلاوة هل هو كلام الله الذي قام به حين تكلم به وكان
صفة له أم لا الخ » .
- ٥٣٤ - ٥٤٦ : الجواب مبني على مقدمة وهي قول القائل لما بلغه عن غيره هــ
كلام ذلك الغير ، ايضاح هذه المسألة
- ٥٣٨ ، ٥٣٩ : الناس انما يسمعون كلام الله من المبلغين عنه
- ٥٤١ - ٥٤٣ : كلام الله تارة يسمع بواسطة وتارة بدون واسطة ، كروية الشمس
والقمر والكواكب
- ٥٤٢ ، ٥٤٣ : هل يصلح أن نقول هذا المسموع مثل الكلام المروى عنه أو حكاية
كلام المروى عنه
- ٥٤٤ - ٥٤٧ : فصل اذا تبين ذلك فيقال هذا القرآن الذي نقرأه ونبلغه ونسمعه
هو كلام الله الذي تكلم به ونزل به جبريل وهو صفة الله ، أدلة
ذلك قوله (واذا بدنا آية مكان آية) الآيات
- ٥٤٥ - ٥٤٧ : ما اختص قيامه بنا من حركاتنا وأصواتنا وفهمنا لم يقم منه
شيء بذات الله
- ٥٤٧ ، ٥٤٨ : فان قيل اتحد كلي مطلق ، والتكليات انما توجد في الازهان
- ٥٤٨ ، ٥٤٩ : اذا عرف هذا فنقول القائل هذا القرآن الذي نتلوه القائم بنا حين

ابتلاوة هو كلام الله انذى قام به حين تكلم به وكان صفة له أم لا الخ؟
 ٥٤٩ ، ٥٥٠ قوله : أم يطلق عليه كلام الله دون صفته ؟ أم غي ذلك تفصيل ؟
 ٥٥٠ - ٥٥٣ قوله : اذا قام بنا هل كان منتقلا عن الله بعد أن قام به ؟ أم يكون قائما به وبنا معا ؟ أم الذى يقوم بنا يكون عبارة عن كلام الله أو حكاية عنه ، ويكون اطلاق كلام الله عليه مجازا ؟

٥٥٤ - ٥٦٠ « ما تقول فى رجلين قال أحدهما القرآن المسموع كلام الله وقال الآخر هو كلام جبريل ، وما الجواب عن قوله (انه لقول رسول) وهل قال هذا القول أحد من الشيوخ والأئمة . »

٥٦٠ - ٥٦٤ « سئل عن من يقول الكلام غير المتكلم والقول غير القائل والقرآن والمقروء والقارىء كل منهم له معنى . »

٥٦٠ ، ٥٦١ يراد بلفظ الغير ما يجوز مباينته للآخر، ويراد به ما ليس هو الآخر
 ٥٦١ - ٥٦٣ الكلام صفة المتكلم، كلام الله لم يفارق ذاته ، قول السلف فى القرآن

٥٦٤ - ٥٧٦ « سئل هل نفس المصحف هو نفس القرآن أم كتابته وما بصدور القراء هل هو نفس القرآن أو حفظه ؟ »

٥٧٦ - ٥٧٩ « سئل عمن يقول إن الشكل والنقط من كلام الله وهل ذلك حق أم باطل ، وما الحكم فى الأحرف هل هي كلام الله أم لا ؟ »

٥٧٩ - ٥٨٢ « وقال : « فصل » فى القرآن والكلام هل هو حرف وصوت أم ليس بحرف وصوت . »

٥٧٩ - ٥٨١ متى حدث النزاع في ذلك، كلام الله بصوت، أقوال الطوائف في ذلك

٥٨٢ - ٥٩٩ « سئل عن رجلين قال أحدهما القرآن حرف وصوت

وقال الآخر ليس بحرف ولا صوت ، وقال أحدهما :

النقط التي في المصحف والشكل من القرآن وقال الآخر

ليس ذلك منه .

٥٩٩ « سئل عن المصحف العتيق إذا تمزق ما يصنع به ؟ ومن

كتب شيئاً من القرآن ثم محاه بالماء وشربه أو حرقه

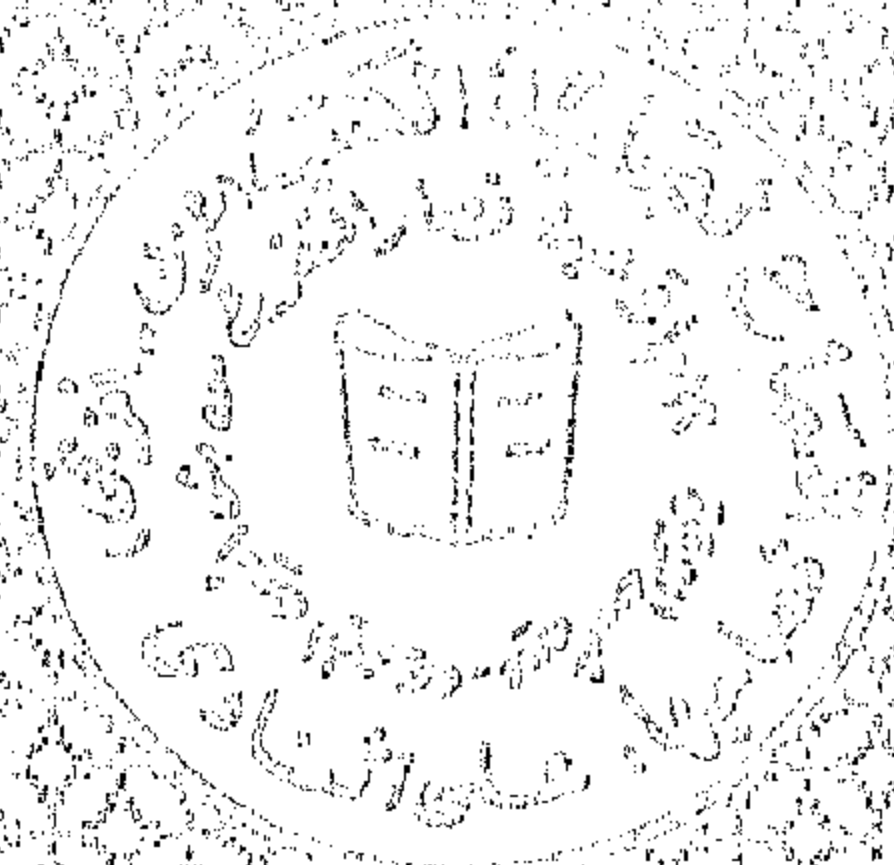
فهل له حرمة أم لا ؟ »

٥٩٩ بركة الماء الذي توضأ به الرسول صلى الله عليه وسلم

٥٩٩ ، ٦٠٠ يجوز صب الماء الذي محى به المكتوب من القرآن ولا يحرم مسه

٦٠٠ الغسل والتوضوء بماء زمزم





 **ՀԱՅԱՍՏԱՆԻ ՀԱՆՐԱՊԵՏՈՒԹՅԱՆ
ՆԱԽԱՐԱՐԱՆԻ ԱՆՏՐԱԿԱՆ
ԳՐԱԴԱՐԱՆ**

Bibliotheca Alexadrina



0270543